الوارثون

تأليف

د. خليل حسن خليل

١٩٨٧

الناشر
مكتبة مدبولى

— ١ —

— اريد ان اقابل « سعادة » النائب العام .

— ومن انت ؟

— انا الامباشى حسن خالد حسن .

— وما هو الامباشى حسن خالد ؟

— يبدو انك نسيت اللغة العربية . كلمة « ما » يخاطب بها الجماد والحيوان . أما الانسان ، مثلى ومثلك ، فيخاطبونه « بمن » .

دارت هذه المحادثة ، بين فتى نحيل ، ممتشق القوام ، يرتدى بـزة عسكرية . يلعلع على ذراعيه شريطان احمران ، يعلنان رتبة الامباشى . بدلته الكاكى مكوية . زرايرها تضوى . وضع طربوشا فاقعا على راسه . عوجه على الناحية اليمنى ، فمس حاجبه الأيمن ، كما يفعل الكبراء والوسماء . اعد نفسه للقاء النائب العام . الطرف الثانى فى المحادثة ، رجل متوسط العمر . راسه متكور اصلع . وجسمه اكثر تكورا . كتب على باب غرفته : سكرتير النائب العام . احمر وجه السكرتير . سرت الحمرة الى صلعته . رمشت اهدابه رمشا متقطعا ينم عن صدمة ، احدثتها عبـارة الامباشى الاخيرة . قال للامباشى فى غضب واضح :

— كيف تكلمنى بهذه اللهجة ؟

— كيف تخاطبنى كما يخاطب الجماد ؟

وتدخل رجل كان جالسا الى جانب منضدة السكرتير . وقف ليهمس فى اذن الامباشى : « هذا سيادة المستشار ، سكرتير معالى النائب العام » .

اراد حسن ان يخفف من توتر الرجل ، فهو اكبر سنا ، واقدم فى مهنة « العدالة » ! ثم هو « المفتاح » الى النائب العام . رقق صوته :

— جئت لكم من عند وزيرالدفاع !

كان وزير الدفاع ، فى ذلك الوقت هو حيدر باشا . ذو « هيل وهيلمان » وزير للدفاع ، وياور للملك . . يقدم للملك خدمات شخصية حميمة ترفعه درجات علا ، ويبطش عن طريقها بمن يشاء . وعندما سمع السكرتير اسم وزير الدفاع ، اجاب فى سرعة واهتمام :

— هل معك خطاب من معالى الوزير ؟

— لا . الوزير قال لى شفهيا : اذهب وقابل النائب العام .

حسن ، امباشى فى الجيش . فى قاع السلم الاجتماعى ، كما يقال . قصد أن يذكر الوزير من غير كلمة « معالى » . والنائب العام من غير كلمة « سعادة » . نوع من الاعتداد بالنفس . أو نوع من التقزز من هذه الالقاب وربما نوع من التعالى لابن من ابناء الشعب . يعتقد ان الشعب هو أصل هذا البلد وصاحبه . وبالتالى فهو صاحب المكانة العليا فيه . وسأله القاضى بفتور :

— هل أستطيع أن اعرف موضوع المقابلة ؟

— سوف أشرحه للنائب .

اعتدل المستشار فى جلسته ، وقال باعتداد :

— لا . مهمتى هنا أن اعرف ماذا يطلب زوار « معالى » النائب العام .

الحمد لله له مهمة . اجابه حسن :

— اريد أن اعين وكيلا للنائب العام .

جحظت عينا الرجل . نز من جبينه عرق كثيف . تساءل :

— كيف ؟ . . . .

ثم تذكر أن الامباشى حصل على ليسانس الحقوق ، فقال :

— اقصد ما درجتك فى الليسانس ؟

— جيد جدا .

— عظيم ، مبروك .

اخيرا ، اصبح السكرتير انسانا ، وهنأ الامباشى . ثم دخل حجرة النائب العام .

لم يقل وزير الدفاع للامباشى : اذهب للقاء النائب العام ، لسبب بسيط ، انه لم يره ! حصل حسن على الثقافة والتوجيهية والليسانس ، بجهوده الذاتية ، دون مدرس ، رغم الحياة العسكرية الشاقة . يحدث ذلك لاول مرة فى الجيش . لذلك عقد حيدر باشا مؤتمرا صحفيا ، ليشيد بجهوده. ووعد بانه سيكافئه مكافأة كبرى بتعيينه فى وظيفة ممتازة ، تليق بتفوقه وكفاحه .

انتظر حسن تحقيق الوعد ، دون جدوى . عين زملاؤه ، الذين يلونه فى الترتيب ، فى الوظائف المتميزة : كوكلاء للنائب العام . ومندوبين بمجلس الدولة ، ومحامين بقضايا الحكومة . ولبث هو « امباشيا » يتقاضى اربعة جنيهات ، مرتبا ، لمدة ستة اشهر ! ذهب الى مكتب وزير الدفاع عدة مرات . لا فائدة . ماذا فعل معالى الوزير ؟ ويجيب « الياور » تارة بأنه لا يدرى . واخرى بأن معالى الوزير تحادث مع سعادة النائب العام .

قرر ان يتولى شئونه بنفسه . ويذهب للقاء النائب العام . ويطالب بحقه . اليست النيابة العامة جزءا هاما من مرفق العدل ؟ هل يمكن ان يظلم من اولئك الذين يتخذون من العدل مهنة ؟

غاب السكرتير فى غرفة النائب العام . ازدادت مخاوف حسن . اخيرا جاء . وجهه احمر ، مكور كما هو . لا يظهر عليه غضب أو رضا . قام حسن لاستقباله . تكلم الرجل :

— معالى النائب ، بعد جهد كبير بذلته معه ، وافق على ان يقابلك .

— شكرا « سعادة » المستشار .

حسن ذو تفكير غريب : شاء ان يحضر ببذلته العسكرية . يقتحم بها هذا العرين العالى للعدالة . انه يعلم أن هذه المكاتب العليا تضم الطبقة

التى تحكم مصر . شهدها حينما كان يعمل حارسا لرئيس أركان حــرب الجيش ، الذى كان يعمل ياورا للملك فى الوقت نفسه . وشهدها فى قصر الملك ، وقصور الباشوات ، والاغوات ، حينما كان يرافق الباشا فى رحلاته وحفلاته . يود ان يعرف ما اذا كانت موجودة كذلك ، فى مرفق عزيز الى قلبه وعقله . تقطر عرقه فى جوف الصحراء وقيظ الشمس . واصطكت اسنانه وعظامه فى زمهرير البرد ، ليدرس ويذاكر للانتماء اليه : مرفق العدل . من الممكن ان يرتدى حلة « مدنية » انيقة . لكنه شاء ان يضع العدالة فى مواجهة ابناء الشعب. يرتدون لباسهم الشعبى كما هو . دون تزييف أو تزويق . لديه غرام عجيب بتعرية المشكلة الاجتماعية فى مصر . حتى لو جعل من نفسه حقل تجارب !

دخل على النائب العام بخطوات واثقة ، وقامة سامقة . قام الرجل لتحيته . استبشر خيرا . النائب العام يعود للجلوس على كرسيه . ترك حسن واقفا . لم يدعه الى الجلوس على احد المقاعد الوثيرة ، التى تزدحم بها القاعة الفخيمة . قال النائب العام :

ــ نعــم ؟

نعم . وانا واقف ، ولا يدعونى للجــلوس ؟ هل الرجل يعلم اننى احمل المؤهل نفسه الذى يحمله ؟ ربما اكون اكثر منه تفوقا . ففى ايامه كانوا يعينون الحائزين على درجة « مقبول » فى مناصب النيابة . وانــا حصلت على « جيد جدا » . كان بالغ الحساسية بالنسبة لكرامته ، ينافح عنها مهما كان شأن المتعرض لها . هذه الحجرة المترفة ، ومقاعدها الفاخرة، هى حجرة الدولة ، التى ينتمى لها حسن ، كما ينتمى هذا الرجل . انه يؤدى وظيفة عامة . يتقاضى ماهيته من الضرائب ، التى يدفعها الفقراء ، اكثر مما يدفعها الاغنياء . جلس على احد المقاعد . واجاب النائب العام :

ــ جئت « لسعادتك » ، لتعيينى وكيلا للنائب العام .

تحجرت عينا الرجل . صوبهما نحو حسن . تجمعت فيهما معــان مختلطة : دهشة من اقتحام هذا الامباشى عرينه الذهبى . جلوسه على المقعد ، دون ان يدعوه . طلب التعيين فى وظائف النيابة . احس الفتى فى نظرته معنى آخر : ما الفرق بين هذا الامباشى ، والعساكر والامباشية والضباط الموضوعين فى خدمته . يقفون على باب مكتبه ، كما كان حسن يقف ، عندما كان يعمل مراسلة مكتب ، لقائده فى الجيش . او يحرسونه ، كما كان يفعل مع رئيس اركان الحرب . لكن هناك فارقا اكيدا : فارق العلم . انه يحمل ليسانس الحقوق ، كالنائب العام تماما . ومع ذلك فهو يدرك ، ان هذا الفارق ليس فارقا طبقيا . فهو يرفض تقسيم المجتمع الى طبقات ، لأن الله خلق الناس سواسية .

سأله النائب العام سؤالا غير متوقع :

ــ من الذى قال لك ان تحضر الى مكتبى ؟

ــ لا احــــد .

تبرم النائب العام قــائلا :

ــ السكرتير قال : ان حيدر باشا هو الذى ارسلك .

ــ الحق ان حيدر باشــا لم يفعل . ولكن « ياوره » قال لى ان « الباشا » تحدث مع « الباشا » النائب العــام .

ــ معالى حيدر باشا لم يحدثنى .

فطن حسن الى ان الانسان فى هذا البلد يستحيل عليه ان يصل الى حقه ، الذى يكفله له الدستور ، والقانون ، والأخلاق ، الا اذا تحادث « الباشوات » مع بعضهم بعضا بشأنه ! اراد حسن ان يهدىء من «اللعبة» قليلا . فلا وزير الدفاع اوصى به . واذا اوصى به ، ولم يستجب النائب العام ، فلن يقتتل الباشوات من اجل ابناء هذا الشعب . قال حسن :

ــ على اية حال ، لست فى حاجة بأن يوصى بى احد . جئت لممثل العدالة ليعطينى حقى فى التعيين فى النيابة . حصلت على درجة « جيد

جدا » . وانتم عينتم الحاصلين على « جيد » . (وسعادتك) ، واعضاء النيابة العامة الذين يمثلونك ، تعتبرون القضاء الجالس الواقف ! فانتم لا مراء ، تعدلون بين الناس .

ابتسم النائب لهذا التعبير . فالقضاة يطلق عليهم « القضاء الجالس » والمحامون هم « القضاء الواقف » . واعتبر ذلك الاصطلاح ابتكارا من حسن . فوكيل النيابة يقف عندما يترافع فى القضايا ، امام المحكمة . ثم يجلس بعـد ذلك . تعلق امل حسن بهذه الابتسامة . تأمل النـائب العام وجه حسن . لبث لحظة يوجه له نظرات ، قطعتها اهدابه ، فى رمشات متتابعة . ثم قال له

— قدم طلبك الى السكرتير . وسنرى .

احس حسن بأن الرجل « يزحلقه » فقال على الفور :

— لقد قدمت طلبا منذ ستة اشهر ، بعد تخرجى . وقد عين زملائى الذين يلوننى فى الترتيب . وانا اطلب من سعادتك رفع هذا الظلم .

— قلت لك قدم طلبا ، وسننظر فيه .

— انا فى الواقع اريد وعدا من « سعادتك » .

يبدو أن النائب العام قد برم بهذا الامباشى . صوته يحتد :

— لا استطيع ان اعدك بشىء . سنبحث موضوعك .

سكت النائب العام . تردد قليلا . ثم قال فى نبرة غير صديقة :

— يبدو انك مصر على أن تسمع بقية الشروط . الحق ان حيدر باشا كلمنى ! . . .

وقاطعه حسن :

— صحيح ؟ عظيم .

— لا تقـاطعنى .

وسكت برهة . ثم فاجأ حسن :

— وقلت له ، اننا لا نستطيع قبولك فى وظائف النيابة .

جفل حسن :

— لمـاذا .

— لقد ذكرت الأسباب لوزير الدفاع . فاطلب منه ان يبينها لك .

مازال حسن يأمل فى هذا الرجل فقال له :

— جئت كمواطن ، يطلب العدل ، من انسان ، يسهم فى ادارة مرفق العـدل فى بلدنا .

— ما دمت مصرا على سماع الاسباب ، فاعلم ان طلبك رفض لانك عسـكرى !

صدمة ترنح لها حسن . وخاطبه قائلا :

— لكن حيدر باشا عقد ندوة صحفية . اشاد فيها بالجندى الذى حقق عملا لم يتحقق فى تاريخ الجيش . حصوله على الليسانس وهو فى خدمة جلالة الملك . وفاخر به كثيرا .

— حيدر باشا رجل عسكرى . يمكن ان يفاخر بك ، وبجيشه كما يشاء . ولكننا هنا لا يمكن ان نعين « امباشيا » وكيلا للنائب العام .

— العسكرى والانباشى يحميان الوطن . ويحميان « سعـادتك » واسرتك من الاعداء ، اليس هذا اشرف عمل ؟

يبدو ان حماية الجيش للوطن ، لم تكن فى القاموس الوطنى للنائب العام . لعل هذه العبارة قد اساءت اليه . فقد رد النائب العام فى استياء ظـاهر :

— كيف تذكر اسرتى فى حديثك ؟

سكت برهة ثم واصل :

— ما دمت قد ذكرت الأسر . فسوف اذكر لك شرطا اساسيا من شروط القبول فى وظائف النيابة العامة . الشرط الاول ليس التقدير : ممتاز او جيد جدا . ولكن يجب ان يكون المتقدم من « اسرة »

ورد حسن فى الحال :

— انا من اسرة . وكل الناس من اسر !

— هل انت ذكى ، ام تتذاكى على ؟ الأسر معناها الاسر الكريمة ، ذات الثراء ، والوجاهة ، والوضع الاجتماعى المتميز . هل فهمت ؟

— الناس يقولون أن والدى كان يمتلك عشرين فدانا . وجدى كان يمتلك مائة فدان . وكانوا من عمد القرية ووجهائها . ولكن الخواجات اغتصبوا ارضنا . فهل ننقلب من « اسرة » الى قبيلة ، أو مجموعة همجية ، لاننا لا نمتلك شـــيئا . . . .

وتردد حسن قليلا ، ثم قال :

— لو صحت نظريتك ، فشعبنا الذى لا يملك الأرض ولا راس المال ، يعتبر شعبا من الهمج !

انتفض النائب العام فى كرسيه لهذا القول . وهم بالقيام بعمل عنيف . لولا انه تذكر جلال منصبه . هل يقتتل مع امباشى ، ومع امباشى مثقف ؟ الصحافة فى تلك الأيام حرة . لسانها طويل . وتحول الشروع فى العنف الى عبارة حاسمة .

— لا يجوز ان نعين « امباشيا » ، وكيلا للنائب العام . تفضل !

* * *

قطاع آخر من قطاعات الدولة ينهار . اخطر قطاع على الاطلاق . ايمكن ان يتصدع صرح العدالة ؟ تأمل حياته : مآس ومظالم يمســك بعضها برقاب بعض ، وتمسك جميعها برقبته ! فكلما تخلص من مأساة ، اطبقت عليه فاجعة .

لم تستطع الحكومة « الوطنية » ، حكومة صدقى باشا فى الثلاثينات ، ان تحمى الأرض الوطنية . فتركتها نهبا للمرابين من الخواجات وغيرهم . انتزعوا ملكية الأرض من والده ، ومن غيره من الملاك الوطنيين ، نظير ديونهم الفاحشة ، التى عجزت الارض عن سدادها . تفوق فى امتحـــان الشهادة الابتدائية . كان أول اقليمه « الشرقية » . ومع ذلك طـــردته وزارة المعارف التى كان يتربع عليها حلمى عيسى باشا ، حرمته حقه فى

التعليم المجانى . لم يستطع دفع المصروفات . عمل كاتبا للانفار فى وسية خواجة يونانى مساحتها خمسماية فدان . وهو صبى فى الثالثة عشرة من عمره . كان يعمل ستة عشرة ساعة فى اليوم نظير قرش ونصف يعول به اسرة من ثمانية افراد . ذاق مع الفلاحين بشاعة الاستغلال الاقطاعى . طرده الخواجة صاحب الوسية من رحمته ، لانه اجرى للفلاحين حسابات امينة . جرى الخواجة خلفه فى جنح الليل مهددا اياه بالرصاص .

تطوع عسكريا فى الجيش ، ليهرب من الاقطاع الزراعى. جابهـــه الاقطاع العسكرى بحياة اكبر مشقة ومهانة . معالم وسية الخواجة اليونانى تتبدى سافرة فى الوسية العسكرية : هناك الخواجة سيد الاقطاعية ، والفلاحون ارقاؤها . وهنا ضباط الوسية وعساكرها . ناضل فى الجيش حتى حصل على الثقافة والتوجيهية . طلب نقله الى التدريب العسكرى ، ليواصل دراسته الجامعية . كافأوه بتخفيض رتبته من باشجاويش الى امباشى . حرموه من نصف مرتبه ، اى من اربعة جنيهات . كان يرســـل هذه الجنيهات الأربعة الى اسرته لتعيش عليها . قررت الدولة تجويعهم . حرمتهم منهـــا .

كان عليه ان يراجع ميزانيته . مرتبه اصبح اربعة جنيهات . احتفظ لنفسه بثلاثة جنيهات تغطى عيشه ، وملبسه ، ومسكنه ، وكتبه . ولا تسل عن الترفيه الذى كان عليه ان يشارك رفاقه فيه . اما الأسرة فكان عليها ان تكتفى بجنيه واحد . رجعت الى مستواها فى الثلاثينات . كان يعطيها الجنيه « كله » الذى كان يأخذه مرتبا شهريا من الخواجة : « وكانك يابوزيد ما غزيت » !

وحينما دانت قطوف النضال ، اذا بالنائب العام يتأبى عليه الثمار . يمنعه حقه فى وظائف النيابة . يعطيها للأقل تفوقا . هذه الوظائف للأغنياء . وليست للعساكر الفقراء . ومصدر الغنى لا يهم . قـــد يكون الأرض ، والعمارات ، وراس المال ، والتجارة . وحتى التجارة فى المخدرات وفى الدعارة ، يمكن أن تخول اصحابها هذه الوظائف « الارستقراطية » . لا احد يستطيع ان يتبين اصل الثراء . فالمخدرات والدعارة ، تحولت الى عمائر ، وارض ، ومتاجر ، واموال ، ترشح صاحبها للوظائف المتميزة .

خيبة امله الكبرى كانت فى كلية الحقوق ، وفى خريجيها الكبار . مر عليه حتى الآن نموذجان من هؤلاء : عميد الكلية المترف . والنائب العام ، الذى يحتفظ بوظائف وكلائه لابناء « الاسر » .

كان يعتقد ان كلية الحقوق انشئت لتدافع عن الجوعى والمقهورين . فوجدها تجعل من الجوع فقها ، ومن البؤس علما ، ومن ملكية الطبقة المستغلة حقا مقدسا لا يعلوه حق . تهاوت آماله فى دراسة عاش من اجلها عمره . وها هو ممثل كبير للعدالة كان يطمح صاحبنا ان يكون وكيلا من وكلائه . فاذا به يحرمه امنيته .

ما العمل ؟ ان ابواب الوسية تصفع فى وجهه بابا بعد آخر . على ان هذه الصفعة الاخيرة ، بعد هذا النضال الطويل ، وبعد ان حصل على الليسانس ، كانت تعقعتها عالية . تصم السمع ، وتشرخ الفؤاد .

الالوان المأساوية الماضية تقبلها فتانا بمصابرة عجيبة . كان يتخطى هذه الصور من المعاناة ، وكانه فى سباق للحواجز . يتخطى حاجزا تلو الآخر ، ليصل الى نهاية السباق ظافرا بالمركز الاول . ومع ذلك فقوى القهر مازالت تعترض سبيله ، وتضع امامه حواجز جديدة .

رفض النائب العام تعيينه فى وظائف النيابة ، كان قاسيا قسوة خاصة . لقد تحمل كل هذه العناءات عندما كان غضا فتيا . يفرحه النضال ، ويلعب بقلبه الصغير الانتصار . كان وجدانه كذلك صغيرا . استشعر الالم والاضطهاد الاجتماعى . لكن الالم كان يتكسر على صخرتين : صخرة العزيمة والنجاح ، اذ يتهلل كلما تخطى عقبة اجتماعية . وصخرة اخرى هى وجدانه الناشىء . لم يكن وجدانه قد نضج ليستوعب الالم استيعابا اجتماعيا كاملا . كانت كمية الالم ونوعيته اقرب ما تكون الى الالم الرومانسى . يتذوقه المرء تذوقا فرديا ، يمكن أن يطهره . لكنه يزول ، وتحل محله فرحة بالكفاح الناجح ، تذيب الالم .

لكن المطاف ينتهى بالمناضل . فيحقق نصرا على قوى الجهل والتخلف .

ويتفوق فى الليسانس . ثم يجابه بالقوى العاتية مرة اخرى . يقول له النائب العام ، فى « بساطة » شديدة ، ان طلبه رفض لانه عسكرى ، ومن الفقراء ! لا ريب انها خيبة امل ، لها مرارة خاصة فردية . غير ان هذه الصدمة كبرت مع كبر وجدانه . لم تعد قضيته ، قضية فرد يعانى من الظلم ، اينما ولى وجهه . ولكنها قضية شعب تعبث طبقة معينة بمصيره ومقدراته . ومن ثم اصبح المصاب هنا كبيرا . انه التنظيم الاجتماعى نفسه . تبا لمجتمع الوسية : الفقراء المتفوقون لا يتعلمون . والفقراء المتفوقون لا يعينون فى وظائف النيابة العامة ، وغيرها من الوظائف المرموقة. هذه مقصورة على الفئة المالكة الحاكمة .

استوعب حسن اللطمة الاخيرة فى وجدانه تماما . ماذا يصنع ؟ انه انسان فرد . وماذا يمكن ان يصنع فرد فى مجتمع عريض طويل . الدولة ، الوسية الكبرى ، تصب بلاءها عليه . تمنعه حقه فى وظائف النيابة . تعطيه مرتبا قدره اربعة جنيهات ، وهو حامل لليسانس الحقوق . المؤهل العالى الذى يحمله الوزراء والنائب العام ورؤساء المحاكم . هذا المجتمع العريض ، الذى يضرب الظلم والاستغلال عميقا فى جذوره ، لابد لاصلاحه من جماهير كبيرة منظمة . اما الفرد ، حتى لو تثقف ، وحمل الليسانس ، فهو وحده هزيل .

ليس امامه غير طريق واحد : العلم ! لكنه شق هذا الطريق من قبل . نال الابتدائية والثقافة والتوجيهية والليسانس ، وهو عسكرى . لم يجده العلم نفعا . وعلى الرغم من الازمة التى يجتازها ، برقت فى ذهنه صورة : شاهد فيلما لنجيب الريحانى ، الذى ذهب ليعمل مدرسا ، لبنت احد الباشوات . راى فى قصر الباشا رجلا بالغ الاناقة . سأله : من انت . واجابه :

— انا مربى جيمى !

واشار بيده الى كلب صغير يمسك بمتوده . وقال له نجيب الريحانى :

— يعنى انت بتاع الـ ....

— ايوه ، وانت ؟

وبدرت حركة من نجيب الريحانى ، من اصبعه الاوسط . صاحبها صوت معين من فمـــه :

ــ انا بتـــاع .... علم !

هل يمضى حسن ليكون « بتاع علم » ، بعد ان شهد مصير المثقفين والمتعلمين فى المعتقل عام ١٩٤٩ ؟ ورأى هوان الانسان وحقارته ضاربا ومضروبا ، ناهش اللحم ، ومنهوش العظام . وبعد ان تعرض لظلم النائب العام . يأبى وظائف النيابة على الفقراء ، الذين يكونون شعب مصر .

صابه التمزق مرة اخرى .. لكنه اخذ يلملم صحائف نفسه المهلهلة . ويرتقها معا ليواصل جولة اخرى من الصراع . لا شك ان الريحانى يقصد ، بالاشارة المهينة من اصبعه ، والصوت المشين من فمه ، التعليم والعلم فى البلاد المتخلفة . العلم مصدر رقى الامم جميعا ، وقوتها ، وتقدمها . ما باله ليس كذلك عندنا ؟ على انه لامجال امام فتانا ، الا العلم . ظل يعانى البطالة ستة اشهر . ثم تذكره وزير الدفاع ، لما راى المأســـاة فاقعة .. عينه فى وظيفة من الدرجة السادسة ، فى مصلحة الطيران المدنى ، التابعة لوزارة الدفاع . اصبح يحصل على اثنى عشر جنيها كانت لها فرحـــة خاصة . فقد رفض والد « عالية » ، الفتاة التى احبها ، وهو فى الجيش ، ان يزوجها له ، لان مرتبه كان ثمانية جنيهات . وهناك عريس آخر ، يقبض اثنى عشر جنيها . واسف لان المرتب السخى جاء متأخرا !

لم يكن طموحه ، ابان كفاحه ليتعلم ، وظيفة ضئيلة ، واثنى عشر جنيها . لجأ الى الدراسات العليا ، لعل فيها املا . ليس هناك امل مرئى . لكن العمل فى هذه الادارات الحكومية شبه البطالة . لا متعة فيه . نصف الليل ونصف النهار فراغ . كيف يملأه ؟ لم يعتد على حياة الكسالى ، ورواد المقاهى ، والارصفة . اذن لابد من مواصلة الدرس .

درس القانون العام بكلية الحقوق ، ونال دبلوما فيه . ثم حصـــل على دبلوم الاقتصاد فى السنة التالية . كان يدرس للتسلية ، اكثر مما يدرس للاستفادة . فالقوانين والاقتصاد فى كلية الحقوق ، هى قوانين الروسية واقتصـــادها .

بعد حصوله على الدبلومين تراءى له بصيص من امل . لا يدرى ان كان البصيص قويا ، أم كان ومضة خابية ، سوف يطويها الظلام ؟

* * *

جامعة اسيوط تعلن عن بعثات فى الدراسات القانونية والاقتصادية . تردد فى التقدم اليها . لكنه العلم ، ولا سبيل غيره . لعله يجد العدل هذه المرة فى الصعيد ! وتقدم الى بعثة الاقتصاد . لجنة البعثات ، التى تنظر فى الطلبات تتبع وزارة المعارف . جسده يرتعد عند ذكر هذه الوزارة . فقضية المجانية التى حرم منها ، وطرده من المدرسة ، تصدع كيانه . وزارة المعارف تقصر المعرفة على الأغنياء . مازالت القاعدة مطردة : النيابة العامة لا توظف الا الاغنياء ، ابناء « الأسر » ، ولا يرتقى الفقراء الى هذا الشرف . « والأسر » هنا هى أسر الباشوات ، والبكوات . احفاد الاغوات الخصيان ! خدم السلطان .

أمن الممكن ان تسود فى لجنة البعثات الفلسفة التى تسود فى وظائف النيابة العامة ، وتحتكر البعثات للفئات الغنية ؟ لكن اعضاء هذه البعثات سيكونون اساتذة فى الجامعات . اتتطلب هذه الوظيفة العلمية ان يكون الانسان وجيها غنيا ، « ابن عائلة » او « ابن ناس » ؟ هل لهذه الفئـــة عقول متميزة ؟ اتكون سيطرتها على الوظائف العلمية سببا فى تخلف العام فى بلادنـــا ؟

كيف يمكن ان يستثنى اساتذة الجامعات من هذا المعيار ؟ انه مطبق على نطاق واسع . ولا مفر من تطبيقه فى الجامعة . الاساتذة هم الذين يعلمون هذه الفئات التى يرسم حولها اطار « ارستقراطى » . كيف يكون الاســـتاذ الذى يعـــد وكلاء النيابة فقيرا ؟ تناقض يتعذر على المجتمع المنسجم فى قيمه ، أن يقع فيه !

تطير حسن حينما وصل الى هذه الفكرة . سبيل العلم ، هو الطريق الوحيد الباقى له . ربما يكون معجونا بالوحل ، الذى يفرزه نظام قيم

متخلف . انه خاض الوحل والروث من قبل فى مزرعة الخواجة اليونانى . كان يقدم العلف ، مع الكلافين ، لمواشى الخواجة فى « الاصطبل » . حيث كان ممسكا بمخازن العلف والحبوب . ولكن الجوع قسره على ذلك . الجوع الذى كان يتهدده واسرته ، عقب ضياع ارضهم . اما ان يخوض الوحل والروث ليحصل العلم ، فأى علم هذا ، واى بلد ؟

اخذت اصابع اليأس تلعب على اوتار مشاعره . لكنه كان يكره كلمة « اليأس » . وجه اليه ضربات قاصمات ، ابان كفاحه الطويل . صم اذنيه عن النغمة ، التى يعزفها ذلك المخلوق الكريه .

برقت فى ذهنه بارقة . عاونت على تمزيق الظلام ، الذى بدا يزحف على نفسه . وبددت اللحن اليائس ، الذى كان يعوى فى داخله . وزير المعارف فى تلك الأيام كان طه حسين . ماذا يستطيع الاعمى وسط غابة من المبصرين ؟ يستطيع ! المبصرون يرون قبح التنظيم الاجتماعى ، وملامحه الشائهة ، فاعتادت ابصارهم عليها . واعتبروا الظلم ، وهو القاعدة ، عدلا . ونظروا الى القهر المستمر ، المنصب على الناس ، والاستغلال المتكرر ، الذى يغشاهم ، على انهما الحرية والمساواة . لكن هذا الرجل لديه ميزة : ليست له عينان . ولكن له بصيرة الانسان .

كان طه حسين مثلا من امثلته العليا . رافق يراعه صبيا . حينما كان تلميذا فى المدرسة الابتدائية . وقرا بنهم شديد جانبا كبيرا من ادبه ، وهو عامل صغير فى وسية الخواجة اليونانى . كان يصطحب الايـام ، وعلى هامش السيرة ، والوان ، ودعاء الكروان ، والمعذبون فى الارض ، معـه الى الحقل . بعد أن يعد الأنفار ، ويقيدهم فى اليومية ، يذهب الى شجرة وارفة من الاشجار التى تحف بالترعة . كانت ظلالها ، وادب طه حسين ، يخففان عنه حر الهجير . قضى مع طه حسين لحظات حلوة . طعامه فى تلك الأيام طعام فقير : الخبز الأذرة والمخلل . لكن غذاءه الذهنى كـان دسما . يشبع جوع العقل ، وتوقه للمعرفة . كانت القراءات الأدبية هى الينابيع العذبة التى تخفف من جفاف عيشه . القطر الذى يبلل بالحب روحه العطشى .

لم يغترف من ادب طه حسين فحسب ، بل اقبل على كتاباتـه السياسية . الكاتب الأديب الانسان ، لديه ، هو الذى يعبر عن معاناة الجماهير الكادحة . الجماهير بكثرتها الكثيرة ، التى تكون صاب البشرية . وهو الذى ينثر فى طريقها وعقولها نورا ونارا .

قرر حسن ان يلتقى بطه حسين . فهو لا يطمئن لوزارة المعارف ، حتى فى عهده ! ولا للجنة البعثات التابعة لها . ودخل حجرة السكرتير الخاص . لأول مرة يعترف بأنه قد يكون للسكرتير الخاص مهمة انسانية . كان سكرتير طه حسين مرافقه ، والقارىء للأدب والسياسة له . كـان مهذبا رقيقا دمثا . اهذه طبيعته ام ان العبقرى اسهم فى هذا الطـابع الجميـل ؟

قص حسن عليه قصته . تأثر السكرتير بقصته . كان اديبا . ظهرت آثار القصة على مآقيه ، وفى صوته . ترك الناس الذين يزدحم بهم مكتبه . دخل الى مكتب الوزير . جاء مسرعا ليصطحب حسن للقائه . ومكث معهما يستمع الى الحوار :

اهلا بالامباشى الأستاذ . تفضل بالجلوس .

ــ اهلا باستاذى الدكتور .

ــ استاذك ؟ ! حسبتك دارسا القانون والاقتصاد .

كان حسن قد ارسل طلبا للدكتور طه حسين ، ارفقه بتاريخ مختصر لكفاحه ، وباحدى المجلات التى نشرت قصته ، واجاب :

ــ اى مثقف فى مصر ، وفى العالم العربى ، تتلمذ عليك . مهما كان نوع التعليم المهنى الذى حصل عليه . وانا سعيد ، اذ « تادبت » على يديـك .

ابتسم الأديب الكبير ، وقال بصوت جهورى ، نبراته كرنين الفضة :

ــ وما العلاقة بين الاقتصاد والقانون والأدب ؟

ــ الاقتصاد والقانون يوضحان العلاقات الاجتمـاعية ــ بالمعنى الواسع للكلمة ــ بين الناس . ويحددان ملامح التنظيم الاقتصادى الاجتماعى

واسسه . والأدب — ولست اديبا — تعبير رفيع ، يصور الحياة الانسانية تصويرا جماليا ، يظهر قبح النظام الاجتماعى او وسامته .

رجع العميد بعنقه للخلف ، وارتفعت هامته . وهى عادة تزيده اناقة وجلالا ، وقال :

— لو كنت قابلتك من قبل ، لاقترحت عليك دراسة الأدب .

— كم كنت اتمنى . لكنى ، ولو لم احترف الأدب ، فاننى اهواه .

— كيف ؟

— قرات كتبك صبيا ، واعيد الآن قراءتها شابا . واصبحت بسبب حلاوتها ذواقة للأدب .

— الم تذق حلاوة ادبية اخرى ؟ ان الادب ملىء بحلوى « مشكلة » ! من كل نـــوع .

— بلى . استروحت العبير ، يتضوع من حدائق المنفلوطى ، واحمد حسن الزيات ، والمازنى . وارتشفت رضابا شهيا من شوقى وحافظ ، والمتنبى ، وفطاحل الجاهلية والاسلام فى الشعر والنثر . وقرات القرآن المعجز . ولمست الخير والحق والجمال لدى جان جاك روسو ، وفولتير ، وجى دى موباسان ، وفيكتور هيجو ، وبودلير ، وشكسبير وبرناردشو . وكشفت لى بوشكين وتولستوى ، وترجنيف ، وتشيكوف ، وجوركى عن جذور العلاقات الاجتماعية بين الناس .

كان عميد الادب العربى يستمع وخلجات وجهه الصبوح ، تنبسط سعادة وبهجة . وتدخل العميد :

— يبدو انك اضررت بمهمتك ، اذ اطنبت فى غيرها .

— المجال الذى حببتنا فيه يسعدنا ، ولا يضرنا .

— اذا كنت قرات كل هذه الآداب ، ولا اخالك الا استوعبتها ، فماذا تركت من جهدك للاقتصاد والقانون ؟

لفتة ذكية من وزير المعارف ، الذى ينير ببصيرته الطريق للملايين فى مصر والوطن العربى . واستمر الرجل :

— الحديث معك شائق . لكن اذا كان ذلك جهدك فى الهواية ، فما بال جهدك المحترف ، اى فى القانون والاقتصاد .

ورد حسن ، الذى وصلته الرسالة على الفور :

— تقدمت لبعثة الاقتصاد لجامعة أسيوط .

— اوراقك وصلت . والعدل سيأخذ طريقه .

سكت حسن لحظة ... اخذت صور الظلم التى تعرض لها تترى فى مخيلته . دفعته هذه الصور ، ان يعيدها على سمع العميد . ثم يكن يدرى كيف قرئت له . واضاف لها ، حرمانه من وظيفة وكيل النيابة . ثم قال :

— وددت ان اتعرف على مذاق العدل . لم اتذوق طعمه طوال حياتى :

هذا السرد العاجل للمظالم غبر من وجه العميد . وقطب ما بين حاجبيه لكنه استرد شكله السمح . وقال بتوكيد واضح النبرات :

— لا تخف . اعدك ان تنصف انصافا كاملا . أما قصتك ، فقد فاقت تصوراتى للمعذبين فى الأرض . والحق اننى لو امكننى الكتابة فى هــذا الموضوع مرة اخرى ، فسوف أتحدث عنك ، وعن « المناضلين فى الأرض » . وهذه مرحلة اعلى من المعذبين فيها !

بعد اسبوعين من هذا اللقاء ، نال حسن حقه فى بعثة الاقتصـــاد لجامعة اسيوط . تذوق العدل لأول مرة . طعمه سائغ ومرير ! كان العدل حلوا ، حلاوة فردية . انصف بعد سلسلة طويلة من الاجحاف الاجتماعى . لكن نشوة الاحساس بالعدل لم تعمر طويلا . ما كان لينتشى بمذاق للعدل ، فردى محدود ، حتى لو افتقده ثلاثين حولا . ليست الفكرة عدلا جزئيا ، ينعم به فرد ، ويحققه له وزير فرد .

القضية لديه ، هى العدل الاجتماعى . ونظام المجتمع كله . نظـــام لا يتساوى الناس فيه فى تولى الوظائف العامة . نظام يجهل الفقـــراء ، ويجوع الملايين . تحتكر القلة المستغلة فيه ارض الشعب ورأسماله . توجهها توجيها مشوها ، يخدم اغراضها الترفية ، وتترك الوطن يرسف فى اغلال التخلف والفقـــر .

هنـــاك كفيف عبقرى واحد . وهنـــاك الامباشى حســـن . يصطرع اصطراعا مريرا مع المجتمع ، خلال ثلاثين عاما ليصـــل الى قـــرار واحد عادل ؟ لو انه لم يقتحم باب الوزير ، البصير بغير عينين ، الذى راى كفاحه ببصيرته ، ماكان قد حظى بحقه . الم تر أن انائب العام ، الواسع العينين ، لم ير فى نضاله جمالا ؟ وعلى العكس ، راى فيه قبحا لا يليق بالوظيفـــة التليـــدة .

* * *

— ٢ —

الطبقة تاكل بعضها ان لم تجد ما تاكله ! ليست هى الطبقة الشعبية ، فهذه ماكولة ماكولة ! ولكنها طبقة الاثراء ، والابهة . هذه الطبقة شغلت ، أو شاغلت علماء الاجتماع والسوسيولوجيين . تسللت اليها فئات وسطى ودنيا ، جعلتها عالما هرمى الشرائح والطبقات . تطورت داخلها علاقات عجيبة . الطبقة الغنية الدنيا تحسد الطبقة الغنية العليا . لكنها تتكتم ذلك الحسد . وعلى العكس ، تبدى ولاءها واكبارها للشريحة العليا . وتسعد اذ تقود تلك الشريحة الطبقة كلها الى السيطرة الاقتصادية على راس المال، والأرض ، والناس . وهى تطمح فى ان يأتى دورها ، لتقفز الى القمة . وتنعم بآلاء القيادة ، وتغترف من كنوزها .

والقلة الرأسمالية فى القمة ، تحتكر الثراء . فرغت من أمر الجماهير ، المحرومة من الملكية والحكم ، بالاستغلال ، والقهر ، والاعتقال . الطبقة البرجوازية المتوسطة ، يجب أن تخضع للون من الاستغلال . يشبع شهوة الشريحة العليا ، الى مزيد من الثراء والسلطان . وعليها ان ترضى بذلك . فالقمة تحمى الطبقة كلها . وهذا ثمن الحماية .

قرا حسن فى نظام الطبقات . أراد التعرف على علاقة الانســـان بالانسان . . كان همه أن يجلو الحقيقة فى العلاقة بين المالكين وغير المالكين . وقد وصل الى أن هناك نزاعات بين الشرائح فى الطبقة الغنية . ولكنه لم

يصل الى علمه ، ان النزاع داخل تلك الطبقة يمكن ان يستمر .، وتبلغ شراسة الفئة العليا ، الى درجة الفتك بأبناء الشريحة الأدنى .

قوى الثورة تصطرع مع قوى الظلام . الطلبة والعمال ، ينظمون انفسهم ، ويثورون على قاهريهم . وتتألف اللجنة العليا للطلبة والعمـــال ، لتنظيم كفاح الشعب ضد اعدائه ، المستعمرين من الداخل والخارج . اتسم نضال الجماهير فى المنتصف الثانى من الأربعينات ، بوعى عميق بمشكلة الاستعمار ، بشـــطريه الخارجى والداخلى . هتفت الجماهير بســـقوط الاستعمار . دمجته فى الهتاف بسقوط الملك والاقطاع والرأسمالية .

امتدت الثورة الى الصحف والمجلات . صالت الأقلام الحرة التقدمية . اشتركت فى اثارة الرأى العام . حقق مجلس الدولة فترة من أعظم فتراته الذهبية . أحكامه كانت انتصارا للحرية ، ودحرا للاستعمار ، وللحكومات التى تؤازره . هوجمت مواقع الانجليز المتبقية فى القاهرة والاسكندرية ، طبقا لمعاهدة ١٩٣٦ . نزحت قوا تالاحتلال الى منطقة قناة السويس .

تصاعدت ثورة الجماهير الوطنية والاجتماعية . تردد صداها فى الوطن العـــربى . الاســـتعمار الخارجى والداخلى ، يفكـــر فى موضـــوع ينقذه . وكانت حرب فلســـطين عام ١٩٤٨ . الانجليز ، اســـاتذة الاســـتعمار ، منحو الصهاينة وعد بلفور ، بانشاء وطن قومى صهيونى فى فلسطين . ابان انتدابهم على فلسطين ، منحوا اليهود اقطاعيات ، واقاليم . اباحـــوا لعصاباتهم اسلحة ، ومعاونات ، وتدريبا . اصبحت العصابات جيشا قويا . السوس ينخر فى اجساد الانظمة العربية ، وفى جيوشها . النظام المصرى والجيش،تعرضا لسوس اكثر شراسة ، يليق بمكانتها فى الامة العربية ! اليهود حلفاء للاستعمار القديم الجديد ، اى للاستعمار الانجليزى الامريكى . الطبقة الراسمالية الحاكمة ، الاستعمار يحميها من ثورة شعوبها عليها . خطـــر الجماهير اصبح داهما فى مصر : الفلاحون يهاجمون تفاتيش الملك ، والامراء والباشوات ، فى كفور نجم ، وبهوت ، وساحل سليم ، وغيرها . اذن فلينسحب الانجليز من فلسطين ، بالاتفاق مع النظم المتواطئة .

تحركت الجيوش العربية الى فلسطين . فرضت الاحكام العرفية فى

كل مكان فى الوطن العربى . وجهت الاذاعات والصحف الشعوب العربية للعدو الصهيونى . انشغل الناس بالقضية الجديدة . تركوا قضيتهم الكبرى مع أنظمتهم . أعلن قيام اسرائيل .

رضيت الطبقة الحاكمة فى مصر بالصفقة . الحماة الخارجيون للنظـــام يخططون بذكاء ، لوقايتها من شر الشعب المصرى المستطير . يتيحون للملك والباشوات فرصة ذهبية ، الاتجار فى السلاح . تكوين الثروات الطائلة من توريده للجيش المقاتل فى فلسطين . لا يضير الطبقة كثيرا ، ولا يتعارض مع فلسفتها فى الاثراء ان تكون الاسلحة فاسدة !

اذا قتلت الاسلحة الفاسدة العسكرى المصرى ، فهو مقتول مقتول ! : بالاسلحة الفاسدة ، وبرصاص اليهود . أو بالجوع والمرض والجهل ، التى يصبها عليه النظام . مات بها اليوم او غدا . أما الضباط من الطبقة العليا فانهم بقوا فى القاهرة . لم يذهبواللمعركة ، الضباط من الشريحة الدنيا عليهم الاستشهاد فى سبيل الشريحة العليا .

كان هذا هو منطق الطبقة الحاكمة فى مصر ، والانظمة العربية الاخرى. وترتب على هذا المنطق ، أن انهارت الجيوش العربية كلهـــا . ورجعت مهزومة مهينة . وانتصر اليهود ، وقامت اسرائيل . واصبح للاستعمار والصهيونية ، والراسمالية العالمية ، والراسماليات التابعة فى العالم العربى، قاعدة دائمة فى قلب ذلك العالم !

* * *

احدثت الهزيمة صدى بعيدا فى وجدان الجماهير المصرية والعربية . لم يعد الفساد مقصورا على التصرفات الداعرة ، التى يرتكبها قادة النظام ، فى مجال النساء ، والخمر ، والانصاب ، والازلام . ولكنه امتد الى انفاق كدح الجـــماهير ، وثروات مصر على تلك الموبقـــات . لم يتخذ الفســـاد

البعد الفردى الاخلاقى فحسب . تعمق الفساد فى وجدان الناس ، واصبح قضية اجتماعية . اصبح نتيجة للعلاقات الاقتصادية بين قلة تملك وتحكم . وتفترس عمل الناس وارزاقها . تنفقه فى ملذاتها ومباءاتها . وشعب لا يملك شيئا غير عمله .بل ان الفساد اصبح سافرا بربريا ، بالاتجار فى الأسلحة الفاسدة ، وبيع الجنود بيعا رخيصا للعدو .

لهذا اشتدت الحركة الوطنية ، وشملت اليمين واليسار . زاد انصار الاخوان المسلمين من ناحية ، والشيوعيين من ناحية اخرى . وانضم الوسط الوطنى المضروب فى حرب فلســطين . تكونت فى الجيش جماعات ثائرة وطنية . اصبحت ترى ان النظام يفتك بمصر : يمينا ، ووسطا ، ويسارا . وتكونت مجموعة الضباط الاحرار .

فورة الجماهير ضد الانجليز والملك ، ابان الاربعينات . ومعركـــة فلسطين ، والهزيمة الغادرة فيها ، قوت من جماعة الاخوان المسلمين . خاضوا مع غيرهم المعركة ضد اليهود . اكتسبوا خبرات فى القتال . سلحوا جانبا كبيرا من شبابهم . التربية الدينية والسياسية التى بثها فيهم زعيم قدير هو حسن البنا . كل ذلك جعل منهم قوة كبيرة ، ناوات النظـــام ، وتصدت لحكومة النقراشى .

قتل النقراشى « باشا » فى قلب عرينه ، وزارة الداخلية . قتله ضابط شرطة ! شاب من الاخوان المسلمين ، لبس زى البوليس . انتظره أمـــام المصعد الكهربى ، وصرعه برصاصاته . قامت الدنيا ، ولم تقعد . جلس ابراهيم عبد الهادى مكان النقراشى . اقام مجزرة للاخوان المســـلمين . لأول مرة يمتطى حكم مصر ارهابى كبير . صرع حسن البنا فى اهم شوارع القاهرة . شارع الملكة (رمسيس الآن) .

قامت حملة مسعورة ضد الاخوان المسلمين . شملت اولادهم واخواتهم وزوجاتهم وامهاتهم . والقوا فى سجون ومعتقلات ، تتضاءل امامها سجون

المماليك وسراديبهم . وشمل الاعتقال حسن ، لان صديقا له فى كلية الحقوق، كـــان اخوانيـــا ! .

الارهاب جعل الوسية الكبرى غابة ، يتعذر السيطرة عليها . الجانب الخارجى من المسيطرين على الغابة فيه ذكاء . هذا الافناء الجسدى ، الذى اخذ به السعديون ليس سياسة حكيمة ، ولا يخدم نظام الوسية . وصدرت النصيحة بالتخفيف من غلواء الحملة .

ولكن البلد يمور . الاخوان المسلمون لهم انصار كثيرون . اليساريون، وقد انشغل النظام عنهم بعض الشىء بتصفية الاخوان ، نشطوا فى الجامعات، ونقابات العمال ، وجماعات المثقفين . فاءوا الى انفسهم ، وتذكروا العملاق الراقد فى الريف : الفلاحين . قامت هبات ضد الاقطاع . اشتد ساعد بعض الفئات الثورية وصحفها اسهمت فى اليقظة العامة التى شملت الجماهير . فكانت هناك صحيفة « مصر الفتاة » ، وشبابها وحزبها ، الذى تطور مع الحركة الوطنية الاجتماعية ، فاطلق على نفسه : الحزب الاشتراكى . اسهمت صحيفته ، وزعيمه احمد حسين ، فى اشعال الوعى فى تلك الفترة . كذلك قامت جرائد الجماهير ،والملايين ، وغيرها . ونشط الحزب الوطنى .

فطن الاستعمار الخارجى الى الخطر الذى يتهدد الوسية . اوحى الى الملك بتغيير الوزارة . حكومة من الاقليات ، لا خير يرجى من ورائها . المطلوب تغيير يثير خيال الناس • حكومة الوفد . صاحب الاغلبية ، حسب قواعد اللعبة الديمقراطية التى يرسمها النظام .

لكن الوفد فريق من الباشوات . فى أول تكوينه كان يضم الباشوات جميعا . ثم انصرم منه فرق تلو فريق للتنافس على الزعامة . وللتفرقة التى احدثها الاستعمار الخارجى الداخلى .

لا ترى الجماهير اى فارق اقتصادى اجتماعى بين باشا « الوفد » ، وباشا «الاحرار الدستوريين » ، وباشا « حزب الشعب » ، حزب صدقى

باشا . الباشوات جميعا شركاء فى الوسية . يملكون اقطاعيات لا حدود لها ، ورأسمال لا نهاية له . الباشوات الوفديون يستغلون العمال والفلاحين، وغيرهم من الكادحين ، تماما كما يفعل الباشوات « الاحرار » ، وباشوات « الشعب » ! وهم حريصون على النظام حرصا لا يقل عن باشوات الاقليات . الزعيم المؤسس للحزب حرم على العمال والفلاحين والمثقفين ، وهم الاغلبية، صاحبة الحق الديمقراطى فى الحكم ، ان يؤلفوا حزبا مناهضا للراسمالية . وفرض هو والباشوات جميعا ستارا كثيفا من الظلام على عقول الناس . منعوا عنهم اية ثقافة أو فكر ، يسهم فى تحررهم من مستغليهم .

افتى سادة النظام الاجانب ، بضرورة قيام حكومة للوفد . هو الذى يستطيع أن يهدىء من روع الجماهير ، ويمتص ثورتهم . وجاءت حكومة الوفد . وجدت ان الشعب اخذ على عاتقه عملية الجهاد ضد الاستعمار . تكونت الجماعات الفدائية المقاتلة . اشترك فيها المواطنون من كل لون . تعقبت الجماعات الانتحارية الانجليز فى منطقة القناة . سببت لهم ازعاجا بالغا . حرقت المعسكرات . دمرت العربات . اغتالت الجنود والضباط . فجـــرت الســـفن .

اضطرت الجماهير حكومة الوفد الى الغاء معاهدة ١٩٣٦ . كـــان النحاس باشا وصفها ، عندما وقعها ، بأنها « معاهدة الشرف والفخار » ! اجتاحت الموجة الوطنية المتصاعدة البوليس . تعاون مع المواطنين فى القناة . كنا نألفه متعاونا مع الانجليز . ضرب مظاهرات الطلبة فى القاهرة والاسكندرية . ادرك الانجليز ذلك . حاصروا مبنى محافظة الاسماعيلية . كان يضم فريقا كبيرا من عساكر الشرطة . ارسل الانجليز اليهم انـــذارا لتسليم والخروج من المبنى . رفض الجنود البواسل الانذار . هدم الانجليز ، حاملوا « رسالة الرجل الابيض الحضارية » المبنى على جنود الشرطة . سقط العساكر الابطال ، شهداء فى معركة الوطن .

القاهرة ، ومدن القطر كلها ، تجيش بشعور وطنى متوقد . تمور

بالشباب الذى جاء دوره ليتخلص من قاهريه . اشعلت معركة البوليس فى الاسماعيلية ، والشهداء العساكر الذين تساقطوا فيها ، النار فى عروق الشباب الوطنى . تأججت الحماسة فى صدورهم . صمموا على مقاومة المحتل ، الذى يحمى نظاما خربا . ويشارك قادته تجويع مصر .

عاش فتانا هذه الحادثات جميعا . اراد ان يرافق الذين يقاتلــون الانجليز فى القناة . فراى زملاؤه أن يبقى فى مركز التدريب بالقاهرة ، فهو بخبرته العسكرية ، يكون اكثر فائدة لحركة المقاومة . فسوف يدرب ويعد مئات الابطال . معسكر التدريب اعد فى قلب الصحراء ، حتى لا تقع عليه عيون أجهزة الامن الخارجى والداخلى .

وبينما كان هو وزملاؤه مستغرقين فى تدريب المقاتلين ، جاء زكريا ، احد المتدربين يلهث من بعيد . بادره حسن :

— خيرا يا ابا الزكر ؟

— الامر شر لا خير .

— ماذا حدث ؟

— احرقوا القاهرة .

— من الذى احرقها ؟

— رايت بعينى الناس ، وكان الجن قد ركبهم . والشياطين قد نفثت النار فى عيونهم وافواههم وايديهم . فقلبت القاهرة الى جهنم .....

واستمر زكريا ، ومازال يلهث :

— وحاولت ، مع بعض الزملاء منعهم . لم يكن حرصنا على المبانى المحروقة ، بقدر ما كان حرصنا على القضية الوطنية . تحويل القاهرة الى ركام لن يخدمها .

وقال حسن :

— هذا ما توقعته . بلغ العفن بالنظام درجة ، لم تجد الجماهير معها ، الا النار لتتعامل معـــه .

واشترك عبد المقيت احد المدربين فى الحوار :

— كان لابد من النار ، لتطهير آثام النظام . جراثيم النظام استشرت فى جسد البلد . فكان لابد من الحريق للتخلص من النظام وجراثيمه .

ورد زكريا :

— بعض الناس يقولون ان الانجليز هم الذين احرقوا القـــاهرة . والبعض يقول الملك . الانجليز ، والملك ، لهم مصلحة فى ضرب المقـــاومة المسلحة للاستعمار . ويستشهدون على ذلك بانه فى الوقت الذى كانت النار تأكل القاهرة ، كان الملك يقيم وليمة لضباطه الكبار . وطلبت الحكومة تدخل الجيش ، فلم يفعل ، الا آخر النهار ، حينما اصبحت القاهرة اطلالا .

وتساءل عبد المقيت :

— ما هو الجزء الذى احرق من القاهرة ؟

واجاب زكريا :

— وسط البلد كله .

وعلق عبد المقيت،

— وسط البلد معظمه مملوك للطبقة الراسمالية المستغلة . متاجرهم وعماراتهم ومكاتبهم هى التى احرقت . كم من الاستغلال والنهب مارست هذه الفئة . كم من دماء ابناء الشعب سفكت . وكم من ارازقهم نزفت . وكم من كدحهم حول الى ثروات طائلة ، تكفل لهم الترف والمجـــون . وتنزل الشقاء والهزال والموت البطىء والعاجل بالملايين . الا يكون عدلا ان تحرق هذه الثروات التى جمعت من حبات عرقنا ؟

واجاب زكريا :

— ولكن اليس حراما ان يحرق الشعب ثرواته ؟

— الشعب صنع الثروة بعمله . الطبقة الثرية انتزعتها منه قسرا . لم تعد ثروته . ليس فى استطاعته استردادها . قوى الاغتصاب تحـول بينه وبين ثروته . ليس أمامه الا حرقها .

— هناك بيوت ومحلات صغيرة التهمها الحريق .

واكد عبد المقيت :

— العدد الاكبر من المحلات التى أحرقت ، هى المحلات التجـارية الرأسمالية الكبيرة . ومنها محلات اليهود والاجانب . . السلع والمجوهرات والترفيات ، التى كانت تعرضها هذه الدور لا يملك شراءها الا الاغنياء . سلع استفزازية ، اثارت البائسين المحرومين فدمروها . الا تذكر يا حسن ، حينما كنا نخرج فى الخميس والجمعة ، ونحن عساكر فى الجيش ونقف امام هذه المحلات ، نتحسر على المعروضات ، ونلعن الحرمان ؟

ورد حسـن :

— اذكر . . . اننى اميل الى رايك ، بتحفظ ساذكره فيما بعد . يبدو ان الجماهير التى اسهمت فى الحريق كانت واعية بالفكرة التى تقول بهـا ، وهى تدمير ملكية الراسماليين . احرقت الجماهير ايضا دور السـينما الأجنبية : ريفولى ومترو وغيرها . . وهى دور متخصصة فى الأفلام الأجنبية، الامريكية والانجليزية اساسا . فهى تقضى بالحريق على مراكز الاستعمار الثقافى . وهو لا يقل خطورة عن الاستعمار السياسى . واحرقت كذلك دور اللهو ، ومنها كازينو الاوبرا . والناس ، بذلك العمل ، يهدمون مواخير الأغنياء المبتذلين ، والأوكار التى يمارسون فيها الدعارة .

واراد زكريا ان يمضى فى سرد ما سمعه من انباء عن الحريق :

— انهم يتهمون كذلك ، احمد حسين ، زعيم مصر الفتاة ، بالتحريض على الحريق . يقولون أن شبابه قام بالدور الأكبر فيها .

ورد عبد المقيت :

— انهم يبحثون عن كبش فداء . ويبدو ان احمد حسين اضعف هذه الكباش . لا اقصد ان مجموعته ضعيفة ، فهو زعيم لا مراء . شبابه شديد المراس . صوت احمد حسين وجريدته اسهما ، لا جدال ، فى اشاعة الوعى الوطنى والاجتماعى بين الجماهير . وكان هذا الصوت عاليا ، جذب اليه السلطات . الشيوعيون مستترون . والاخوان المسلمون مضروبون . وعلى ذلك فالحزب الاشتراكى « مصر الفتاة » هو المجموعة الظاهرة الخطيرة التى يجب ضربها هذه المـرة .

— كانك تقول ان الجماهير الشعبية هى التى احرقت القاهرة ؟

اندفع عبد المقيت يجيب :

— الاجابة على تسـاؤلك هى نعم . لكن لى اعتراض على كلمـة « القاهرة » . القاهرة لم تحترق كلها . هذه هى الأحياء الشعبية التى تسكنها الأغلبية الكبرى من الناس لم يصبها اذى .

انه ليس « حريق القاهرة » . ولكنه حريق محلات الاغنياء والاجانب بالقـاهرة .

مازال زكريا غير مقتنع :

— كيف تفسر حرق المحلات الصغيرة ؟

ورد عبد المقيت :

— المحلات الصغيرة التى يملكها متوسطو الحال ، المجاورة لمحلات الاغنيـاء لا يمكن منع النار عنهـا . وهذا ثمن يدفعه اصحابها . فى سبيل الهجوم على الطبقة المستغلة . هم كذلك اسهموا فيما اصابهم . امتلكوا محلات تجارية مجاورة لمحلات الاغنياء ، وفى احيائهم . وفى هذا انذار لهم ، حتى لا يتطلعون الى الراسمالية الكبيرة ! •

ضحك حسن . كانت تطربه دائما الملاحظات الذكية . وعلى الرغم من انه زامل عبد المقيت زمنا طويلا ، الا ان هذا الاخير كان جادا مندمجا فى الحديث . ازعجته الضحكة .توقف عن الحديث متسائلا :

— ما هى النكتة التى اضحكتك ؟

ورد حسن :

— حينما تكون اللمحة ذكية ، فهى اقوى من النكتة ، فى توصيل المعنى الى الانسان .

وهدأ عبد المقيت .. واستطرد :

— أما الانجليز والملك ، الذين يتهمهم البعض باشعال الحريق ، فدورهم ، فى اعتقادى كان مقصورا على استغلال الحادثة ، والافادة منها . أوحوا الى عملائهم بتوسيع نطاق الحريق . المحلات الصغيرة التى احرقت كانت بتحريض هاتين القوتين ! حتى يوصف الحريق بأنه شامل . وليس موجها الى الطبقة الراسمالية المستغلة . وبهذا يكون « المخربون والفوضويون والغوغاء » — الصفات التى يطلقونها دائما على الجماهير — هم الذين اشعلوا النيران .

بقيت تساؤلات لدى زكريا :

— اذا كانت هذه حركة جماهيرية ، كما تقول ، بماذا تفسر اذن ذلك النهب للسلع والمجوهرات ، التى قام بها بعض الناس ؟

واجاب عبد المقيت :

— ماذا تنتظر من شعب فقير محروم ؟ لم يترك له النظام مجالا ليعيش . ابتز النظام عمله ، وحوله الى سلع ترفية ، ومجوهرات مبهرة ، اسالت لعابه . ليس امامه وسيلة مشروعة لينعم بثمرات عمله . فليأخذ نصيبه من الغنيمة بأية طريقة . أنا لا ادافع عن هذا السلوك . وعلى اية حال ، فقلة من الناس هى التى عملت ذلك . ولكننى اود ان اقول ان التنظيم الاجتماعى والاستعمار هما اللذان حرضا على الحريق والنهب ...

وهنا تدخل حسن :

— ولو اننى أوافقك ياعبد المقيت على تحليلك . الا ان النار والتخريب

وسيلتان لا تصلحان اوطانا ، ولا تغيران نظما اجتماعية . فالجماهير ، كما تقول ، اشعلت الحريق ، بطريقة تلقائية . ارادت ان تعلن سخطها بوسائل عنيفة لما نفذ صبرها ...

لم يمهل عبد المقيت حسن ليتم حديثه ، قاطعه قائلا :

— الشعوب كلها ، انتفضت هذه الانتفاضات ، على مغتصبى السلطة والثروة فيها . وكان الحريق والتدمير لممتلكات الطبقة الغنية ، ولمرافق الدولة الظالمة ، من وسائلها فى كل زمان ومكان .

واستأنف حسن الحديث :

— هبات الجماهير التلقائية حقيقة تاريخية لا جدال . انما الحركات الناجحة التى تستهدف تغيير نظام اجتماعى ظالم ، وتقيم بدلا منه نظاما عادلا ، هى تلك الحركات التى نظمت فيها الجماهير تنظيما واعيا . هذا التنظيم يقود الناس باصرار وصبر للقضاء على القلة الحاكمة الفاسدة . هنا يمكن للجماهير ان تحقق ثورة اجتماعية . تتمكن بها من السيطرة على الثروة والسلطة .

وسكت حسن قليلا ليواصل :

— أما اذا كانت الفكرة مجرد حريق ، وثأر من الاغنياء وممتلكاتهم فحسب ، فقد يكون ذلك سببا لان تتوم قوى العسف ، بموجة أخرى من القهر ، وتدعيم النظام ....

قطع صوت المذيع من الراديو حديث حسن :

اذاعت السراى الملكية المرسوم التالى :

احرق الخونة ! قاهرتنا العزيزة . وللقضاء على المارقين ، والمحافظة على وطننا الحبيب . قررنا اتخاذ الاجراءات التالية :

● تعلن الاحكام العرفية ، ويحظر التجول بين الساعة السادسة مساء والسادسة صباحا .

● تصادر الصحف والمجلات جميعا ، التى اشعلت الفتنة .

● تقال وزارة النحاس باشا ، التى تسببت باهمالها فى وقوع الكارثة.

● يتولى رئيس الديوان الملكى السابق تشكيل الوزارة الجديدة .

● يلغى الحزب الاشتراكى « مصر الفتاة » وتصادر جريدته وامواله .

وامتلأت المعتقلات مرة اخرى بالاحرار من كل لون . وقبض على الفدائيين الذين يقاتلون الانجليز فى منطقة القناة . ونقلوا الى سجون النظام، وسراديبه البربرية .

* * *

— ٣ —

« ايها المواطنون » .....

جاءنا من القيادة العامة للقوات المسلحة البيان التالى :

« اجتازت مصر فترة عصيبة ، فى تاريخها ، من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم . وتسبب المرتشون والمغرضون فى هزيمتنا فى حرب فلسطين . وتضافرت عوامل الفساد . وتآمر الخونة على الجيش . وتولى امره اما جاهل او فاسد . وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير انفسنا . وتولى امرنا فى داخل الجيش رجال نثق فى قدرتهم ، وفى خلقهم وفى وطنيتهم . ولابد ان مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب » .

استمع حسن الى هذا النداء ، ووجف قلبه . استولى الجيش على الحكم . هدير الدبابات والعربات المصفحة يأتى عبر الاذاعة ، مختلطـا بهتافات الجماهير ، تحيى ابطال الجيش . فرحة تلقائية ، تعبر عن امل فى التحرر ، ظل رابضا فى صدور الناس نيفا وسبعة آلاف سنة . هل الشعب صادق الفطرة ؟ اذا فرح ، فهو التحرر الحقيقى ؟

يبدو أن الحادثات تؤكد ذلك ، لاول وهلة . المبادىء الستة تعلن : القضاء على الاستعمار . القضاء على الاقطاع ، والراسمالية المستغلة ، اقامة مجتمع عادل ، وحياة ديمقراطية سليمة ، وانشاء جيش وطنى قوى .

الفرحة طاغية : طرد الملك . الاصلاح الزراعى . سرت فى كيانه نشوة . غطت على ذلك التردد ، الذى انتابه ، حينما استمع لبيان الجيش الاول . غاص التخوف فى مكان سحيق فى وجدانه .

حياته كفاح موجع . عانى اقطاعا شرسا ، بكل قسماته من استغلال وقهر واذلال . لهذا كان ابتهاجه بالغا بمبدأ القضاء على الاقطاع ، وبضربة الاصلاح الزراعى . هرب بجلده من وسية الخواجة اليونانى ، وتطوع فى الجيش ليجده وسية عسكرية ، اكثر شراسة وقهرا . كانت فرحته بتطهير الجيش وتقويته ، فرحة كبيرة .

والملك وما ادراك ما الملك . للملك مع صاحبنا حسن تاريخ حافل ! ليس تاريخا شخصيا . الملك فى القمة ، وهو فى القاع . وفى مجتمعاتنا ، ليست هناك علاقة حميمة بين القاع والقمة . لم يكن ينكر على الملك فسوقه الشخصى . فالحاكمون فى كل زمان ومكان ، وخاصة فى عالمنا المتخلف ، فاسدون الا قليلا . ولكنه كان يركز على الفساد الاجتماعى والاقتصادى .

رافق الملك حسن منذ أن كان صبيا . استعاد ذلك الحديث الذى دار بينه وبين الخفير محمد خطاب ، فى وسية الخواجة اليونانى . شكا الصبى للخفير ظلم الخواجة للفلاحين ، وسرقته لهم . وقال له الخفير :

أن الوسايا والاقطاعيات سواء . نفس الصورة من السرقة والذل عاناها فى تفاتيش الملك والامراء والباشوات المصريين . الاستغلال واحد ، لبس المستغل قبعة أو طربوشا او عمة او طاقية ، او كان حاسر الراس !

ويصر الملك على مصاحبة الفتى فى رحلته فى الجيش . كان أول لقاء

بينهما ، امر صدر من رئيس اركان الجيش . بتغيير شــعار الجيش من « الله ــ الوطن ــ الملك » الى « الله ــ الملك ــ الوطن » . كان التغيير منطقيا : الملك يملك الوطن ، ومن الطبيعى أن يتقدم المالك على المملوك .

لقاء الملك الثالث مع فتانا كان عنيفا . التقى به فى المظاهرات الكبرى التى اجتاحت الاسكندرية (والقاهرة ومدن الاقاليم) فى النصف الثانى من الاربعينات . مظاهرات تهتف بسقوط الانجليز والملك . لهذا كانت سعادته بطرد الملك ، لا تقدر . غاص وسط الجماهير يصفق للجيش ويهتف .

الفرحة تتراخى عندما آب الى فراشه . التردد ، الذى حرمه اول الامر حلاوة الفرحة الطليقة ، اخذ يتململ فى اعماقه : لقد قامت فى سوريا حركة للجيش . استولت على الحكم . زعيم الحركة أسمه الحقيقى «الزعيم» أو حسنى الزعيم . صورة طبق الاصل من حيث شكله وحركاته وانتفاخ أوداجه من « موسولينى » . لكن هل يدل شكل « الزعيم » على طبيعة النظــام ؟

دول أمريكا اللاتينية مثل صارخ على تلك الحركات . فرق من الضباط، بتحريض ادارة المخابرات المركزية الامريكية استولت على الحكم فى تلك البلاد . ومارست ديكتاتورية قاهرة ضد شعوبها . هذه القلة تقتسم خيرات البلاد مع الشركات الامريكية العابرة للقوميات .

ايمكن ان تكون حركة جيشنا من هذا النوع ؟ الجيش ضد الملــك والاقطاع . فرض قانون الاصلاح الزراعى . كيف يمكن أن يكون فاشيا ، وأداة فى يد القلة الرأسمالية ، وشركات الاستعمار ؟ هدأ هذا التساؤل من روعه . لكن أليس الجيش هو المؤسسة القديمة ؟ كان الملك يستخدمها فى ضرب الحركات الشعبية ، وفى حراسة الوسية الكبرى . ايتسق النظام العسكرى الصارم ، الذى يحكمه مبدأ « نفذ الاوامر ولو غلط » ، مــع ديمقراطية سليمة ؟

التقسيم الطبقى الحاد الذى شهده ، حينما كان عسكريا فى الجيش ، جعل المخاوف تتسلل الى قلبه . من اية فئة اجتماعية جاء قادة الحركة ؟ من الطبقة البرجوازية . بعد معاهدة ١٩٣٦ ، وبعد اندلاع الحرب العالمية الثانية ، بدأ التوسع فى الجيش . فتحت أبواب الكلية الحربية أمام شرائح اخرى ، من الطبقة البرجوازية . كان الضباط يختارون من الشريحة العليا فحسب . الفارق الفكرى بين شرائح الطبقة البرجوازية : كبــيرة ، أم متوسطة ، أم صغيرة ، فارق زمنى ! البرجوازية الصغيرة تعمل لتكــون متوسطة ، وهذه تطمح ان تكون كبيرة .

نحن اذن أمام مجموعة من ابناء العمد والاعيان والتجار والاغنياء ، الذين يملكون وسايا تعمل فيها الجماهير . ما الفرق بين أن يمتلك الفــرد أو الاسرة ، مائتى فدان او مائة ، وبين الخمسماية فدان ، التى كان يملكها الخواجة اليونانى ؟ الرجل الثانى فى الثورة ، والقائد العام للجيش ، كان خاله القائد العام للجيش ، ووزير الحربية فى عهد الملك . كان اداة للملك فى افساد الجيش ، واستخدامه لقمع الجماهير . ما هو الضمان لكى لا يخرب الجيش نفسه ، ويخرب الحكم ؟ ومن ثم ضياع امل الجماهير فى مجتمع جديد ؟

ظلت هذه الافكار العاتية الصرصر تعصف بفتانا . الا ان المخاوف تتراخى بالخطوات الواثقة لتطبيق الاصلاح الزراعى ، طرد الملك ، الغاء الالقاب ، الغاء الاحزاب القديمة . وتتراخى النشوة . تذوب ، لتحل مكانها غصة : قتلوا العمال فى كفر الدوار . علقوهم فى مشانق نصبت فى قلب المصانع . سالت دماؤهم على الآلات نفسها ، التى يسيل عرقهم عليها ، لينتجوا كساء للجماهير الكادحة ، وللقلة المترفة جميعا . كيف تقبل ثورة ، قامت من اجل الجماهير ، واكثريتهم من العمال والفلاحين ، ان تقتل العمال ؟ هل قتلت العمال حقا ؟ أم ان هناك قوى اخرى ، هى التى تقتل العمال ، وتقتل الثورة فى نفس الوقت ؟ .

* * *

ما بال هذا الفتى ، يدلف بنا فى اصرار الى القضايا العامة . نسى ان خطة نضاله ضد الجهل ، كانت تبدأ بالابتدائية ، وتنتهى بالدكتوراة . لماذا تستغرقه المشكلة الاجتماعية ؟ الجوع والجهل والقهر ، التى اعترك معها ، تتحول فى وجدانه الى قضايا تغشى الشعب المصرى بأسره . اليس لهذا الرجل شعور فردى ، يجعله يغرم بذاته ، كما يغرم الناس ؟ الا يود ان يتفرغ لحل مشكلاته الخاصة ، ومشكلات اسرته ، وهى مشكلات عضال !

ما خطبه ؟ كان اجره اليومى قرشا ونصف ، فى وسية الخــواجة ، يعيش منها واسرته . نسى هذا الوضع . هرول خلف الفلاح محمد محمود فى جنح الليل . سرق له « شوالا » من الاذرة من مخزن الخواجــة ، الذى يمسك بمفاتيحه . وذلك ليطعم امراته وبناته الجوعى . شهد الخواجة يطرده من قصره المترف ، فى الوقت الذى كان كلبه يطعم بالحمام . لو ضبطه الخواجة كان مصيره السجن .

فقد وظيفتــه فى وسية الخواجــة ، دفاعا عن الفلاحين . اصر على اجراء حسابات امينة لهم ، حتى لا يغتصب الخواجة حقوقهم . طــرده الخواجة عندما لم يفلح معه الوعد والوعيد .

وعندما بدأ مشواره ضد الجهل ، لم يقصد فحسب ان يكون مجرد حامل لليسانس او الدكتوراة . وان يحسن دخله . ولكنه قصد ان يكون مثلا . جعل من مناهضة الجهل قضية عامة . يتصدى للقيام بها المحرومون من التعليم . حينما حصل على الليسانس ، نشر قصته فى الجرائد والمجلات . لم يفعل لانه اراد ان يفاخر بانه اول جندى يحصل فى الجيش على الليسانس . ولو ان هذا المعنى كان يود ان يصل الى حبيبته عالية ! فعل ذلك اساسا ، لانه اعتبر ان طرده من المدرسة لعجزه عن دفع المصروفات قضية عامة ، وليست قضية فردية . اراد أن يكون قدوة يحتذيها العاجزون عن دفــع النفقات المدرسية . وجدت الفكــرة تجاوبا بين العســاكر وغيرهم من الجماهير الفقيرة .

وفى هذا المجال ، لاحظ حسن ظاهرة اجتماعية غريبة : كان بعض زملائه قد ساروا على دربه . لكنهم رفضوا نشر قصتهم . كانوا يتبرأون من ماضيهم ، وكأنه سبة . ومن الانتماء الى الجماهير الشعبية التى اتوا منها . وكأن الانتماء اليها عار يشين الانسان . وحيرته هذه الظاهرة . ربطها بالبرجوازية . فالفلاحون ينتجون الغذاء ويطعموننا . والعمال يكسوننا ويؤوننا . والفئات البرجوازية المتنوعة ، تعيش على انتاج هذه الجماهير الشعبية ، ثم تتعالى عليها ... امر غريب ، يثير قضية التخلف . ويذكرنا بمثل شعبى جميل وعميق : « ادينى حسنة ، وانا سيدك » !

وفى فترة من فترات الانتفاف الى همومه الفردية ، ركب البحر الى انجلترا ، ليحصل على الدكتوراة فى الاقتصاد . وليعود استاذا فى الجامعة . ومن هذه المنارة ، يمكن ان يكــون مصدرا للاشــعاع . يسكب فى وجدانات الشباب نور الثورة العلمية الاجتماعية .

* * *

— ٤ —

السفينة الرشيقة البيضاء ، تسرى على صفحة البحر الفيروزية . كما تسرى البجعة البيضـــاء فى « بحيرة البجع » . الباليه الذى ابتدعــه تشايكوفسكى ، الفنان الروسى . موســيقاه تبهج القلب ، وتنغم الروح . الاداء الرفيع الراقص يتسامى بالانسان الى آفاق وردية من الجمال والحب . على هذه الانغام ، ووسط هذه الالوان : لون البحر ، ولون السماء ، ولون الامانى ، اقلع الى انجلترا . هذا هو البحر الابيض المتوسط ، الذى طالما غازله فى خرائط الجغرافيا ، فى المدرسة الابتدائية . كانت امنيته ان يراه فاذا به يركبه !

جلس على حافة السفينة ، يرقب « البجعة » « والبحيرة » . البحر

ناعم رقراق فسيح يمتد الى الافق البعيد . هناك تختلط زرقته القوية بزرقة السماء الباهتة . كانت « البجعة » وهى تنساب فى الماء ، تترك خلفهـــا شريطا فضيا . تتناثر على جنباته فقاعات الماء وزبده . فتضيف لمســة للوحة الرائعـــة .

استغرق فى هذه الصورة المترامية ، بلا حدود او برواز . وبدا ان الطبيعة تتيح له فاصلا هادئا . ينتقل خلاله نقلة حضارية . يفتح فيهـــا صفحة جديدة من كتاب حياته . وبينما هو مأخوذ مسحور باللوحة الخالدة ، اذا بصوت يفاجئه :

ـــ هالو .

لم يكن قد سمع هذه الكلمة من قبل . الحق انه لم يسمعها بهذا الجرس الموسيقى . استدار ليرد السلام . وفوجىء : كانت التى القت بالتحية غادة حسناء . على شفتيها بسمة تسحر ، وفى عينيها نظرة تســكر . جمالها من النوع الاسبانى ، مهذب بلمسات رومانية ! اللون الخمرى ، الممزوج بذهب الشمس . لم يستطع الذهب ان يغطى الورد ، الذى تفجــر فى الخدود . شعرها اسود فاحم . استرسل فغطى اردافها . واتاح لنسيم البحر ان يداعبه ، مداعبة مثيرة . العينان دعجاوان . تنسدل عليهما رموش طويلة مقوسة ، لم تفسدها صناعة التجميل . جسدها رشيق . فيه دفء البحـــر الابيض ، وغجرية اوربا . مدملج بعض الشىء ، ليرضى الذوق الشرقى !

نظر اليها مبهوتا . لم يرد التحية . واصلت هى :

ـــ كيف حالك ؟

قالتها بانجليزية ، تدل على انها ليست انجليزية . رد عليها ، ولما يفق من المفاجأة :

ـــ بخير ، وأنت ؟

ـــ فى احسن حال ، شكرا .

وتشجع وســـألها :

ـــ من اى البلاد انت ؟

ـــ هل تستطيع ان تخمن ؟

فكر جاهدا ، ليثبت لها فراسته . التخمين صعب . هى من حوض البحر المتوسط . ليس لها طابع اهل الشمال . شاطىء البحر طويل . القى برمية : انت ايطالية !

فرحت فرحة ، صاحبتها صرخة ناعمة ، وقالت :

ـــ ماهذا الذكاء ؟ هل التقيت بايطاليين من قبل ؟

ـــ لا . لم اعرف غير الانجليز واليونانيين !

وسكت لحظة . واراد للحديث أن يستمر :

ـــ هل تعرفين من اى البلاد اتيت ؟

ـــ هذه مســألة واضــحة . انت مصرى ! انا اسافر كثيرا الى الاسكندرية . لى فيها اقارب واصدقاء . وانت من السهل التعرف عليك : لونك الاسمر ، وقوامك ، وشاربك ، وملامحك ، لا يمكن للانســـان ان يخطئها .

جلست الى جانبه . قدمت له سيجارة :

ـــ شكرا ، لا ادخن .

ـــ غير معقول . لماذا ؟

ـــ لأسباب اقتصادية .

ـــ الى اين انت ذاهب ؟

ـــ الى انجلترا ، لاعد رسالة للدكتوراه فى الاقتصـــاد السياسى ، ولاعود استاذا فى الجامعة !

ـــ اوه !

دهشة واعجاب فى عينى الحسناء : رجل لا يدخن لاسباب اقتصادية ، وسيكون دكتورا فى الاقتصاد ! سعد بصحبة الفتاة . الا انه برم بمسرى الحديث . اتخذ الحديث دروبا مألوفة . ليس فيه اثارة . الاثارة كانت فى الفتاة ذاتها . المتحدث معها ، لا يستطيع أن يفكر فى شىء آخر ، غير الانوثة التى تنبض فى كل جزء من جســدها . تاه فى عينيها ، وتدثر باهدابها . النسيم لا يضن عليه بخصلات من شعرها تداعب وجهه . ليت البحر تشتد نسماته فيلتفع بشعرها . ويحس فى ظل هذه الغلالة الحريرية الفاحمة بدفء جسدها الغجرى .

ماذا دها المكافح ؟

انه فى الثلاثين من عمره . قضــاها فى مجتمع يكبت الغريزة بطرق بدائية . التركيبة الاقتصــادية الاجتمــاعية فيه تقهر غرائز الانســان . المعتقدات ، والتقاليد ، والحياة المرة . كان تقيا . منعته تقواه ان يتعابث مع البنات الفلاحات العاملات فى الوسية . بل منعه اعتبار اقوى من التدين ، أو هو مرتبط به : الخوف من الله . كان حرمانه من التعليم ، وضياع ارض والده ، والحياة البائسة ، التى فرضت عليه فى اقطاعية الخواجه ، جعلته فى خوف شديد من أن يرتكب معصية . فقد تصور ان اية خطيئة ، سوف تذهب بالوظيفة ، التى يتعيش منها وعائلته .

الرعب الذى سكبه فى كيانه خطيب المسجد فى القرية . التركيز على العقاب والوعيد . صور العذاب البشعة التى تنتظر الناس فى الآخرة . كل هذا جعل الجزء الاكبر من تقواه مبنيا على الخوف والقهر !

لم يتحرر من الخوف ، الا بعد أن تثقف . انفلت بعقله ووجدانه من ارهاب مجتمع الوسيه وفلسفته . أسهم نضجه ، ونضاله ، وقراءاته ، فى اجتلاء الصورة المثلى للاديان : التوحيد ، وعلاقة الحب بين الانســان وربه . فطن الى أن الرسالات السماوية ، نزلت من أجل افضل مخلوقات الله ، واكرمهم لديه ، وهو الانسان .

كان النظام الاجتماعى الاقتصادى للوسية ، لا يتيح لفتانا ان يفرغ غرائزه لا حراما ولا حلالا . الافراغ الحلال للغريزة يكون بالزواج . قسر على عدم الزواج فى مجتمع الوسية مرات عدة : مرة وهو فى الســادسة عشرة من عمره . استهوته فتاة ذهبية الشعر ، ملائكية الوجه ، صارخة الانوثة ، فى الرابعة عشرة من عمرها . رآها فى كفر صقر . واد عاطفته ولم تعمر اسبوعا . كيف يضم هذه الوردة ، والبراعم التى تتفتح حولها الى الجيش الذى يطعمه . كان مرتبه جنيها واحدا . يجب الا يكون لســكان الوسية عواطف وغرائز تتماثل وعواطف البشر وغرائزهم .

وقهر حبا ربطه ببنت عمته « عالية » . استمر بضع سنين الى أن نضج فى سن الشباب . شعر ان اباها « البرجوازى »يأباها عليه ، لانه ميسور الحال . واكبر الظن ان اباه ، اذا لم تضع ارضه ، كان سيرفض ان يزوجه ابنة عمته ، لان اباها اقل منه غنى !

جاشت هذه الافكار فى ذهنه ، حينما يستمع الى فاتنة السفينة . اشتعلت هــذه المناءات فى كيانه . امتزج بها ذلك الشرر الغريزى الذى تطاير من عينيه ، حينما جلست الغجرية الى جانبه .

ماذا يفعل ؟ ان مجتمع الوسية ، صب عليه قهرا اجتماعيا وجنسيا . وفرض عليه حياء ، حين يتحدث مع النساء ! هل تشــعر هذه الحســناء بالجحيم الذى يستعر فى داخله ؟ الا ترسل عينيه شواظا الى جسدها ؟ انها انثى . لابد قد احست حرارة الشواظ ! هل عالج مجتمعها تلك المسائل اجتماعيا : فاصبحت اعصابها هادئة . الحديث مع شاب غريب ، تنتقض فيه الرجولة ، لا يحرك فيها ساكنا .

اسعفه الحــرص على كرامته بحل سلبى . لن يبدا هــذه الفتــاة بموضوع يحرجه . وينال من اعتداده بنفسه ، وبانتمائه لبلده !

اســتأنفت الفتاة الكــلام ، ووجهته وجهة اخرى . كان لحديثهــا

الذى اتخذ ابعـــادا شـــائقة ، ودل على قراءات عميقـــة ، فضل تفتيت الرغبة التى جاشت فى صدره .

رباه : ان القهر لا يقتصر على البلاد المتخلفة . هناك قهر اكثر ضراوة . تصبه علينا الثقافة والحضارة . هذا اللون لا يقل عن قهر المتخلفين لبعضهم بعضا .أنه قهر أكثر رقيا ، نرضى به . بل قد نطلبه ونهواه . انه قهـــر الثقافة !

* * *

مجتمع السفينة مجتمع عجيب . يختلف تماما عن المجتمع الذى تركه فى اليابسة . الناس هنا يطفرون ويمرحون . يرقصون ويتثقفون ويأكلون ! وجوههم وأجسادهم تطفح بالصحة . تلون الدماء الدافقة من الداخل وجناتهم ووجناتون . كيف بربى تتفشى الامراض وسوء التغذية فى شعب بأسره ، تركته ورائى ؟ كيف تغيض الدماء من وجوههم ، فتصبح شوهاء شاحبة . وقد كانت وسيمة فى عهد الفراعنة ! ؟

يا بنى . بربك تخل عن همومك العامة . استمتع بشبابك ، فقد انتصف العمر . الحيوية التى تتفجر من حولك ، تدعوك للمشاركة فيها . كيف لعمرى انسى أهلى وأمتى ؟ الست قطعة منهم ؟ كيف اهنـــأ ، بعيشى والبؤس يسحقهم . والاستغلال ينهش ما فيهم من حياة ؟ هل الألم الذى تفرضه على نفسك ، والحرمان الذى تصر عليه ، سيحرر الملايين فى بلدك ؟ لا ، لن يحررهم ، مجرد الم وحرمان ، يفرضهما فرد على نفسه . ولكننى اخشى أن يجعل التنعم منى شخصا آخر : انفصم عن الكادحين ، وانضـــم الى المترفين . واكون بذلك وبالا على أهلى .. هل لا تثق بنفسك وبمبادئك ومثلك ؟ بلى . ولكن .. ليس هناك لكن ....

اقبلت حسناء السفينة لتساعد فى انتزاعه من هذا المونولوج الداخلى .

اقبلت تتهادى كغصن البان . يحيرك : اتنعم به يتثنى ، أم تستجلى نضارته ، أم تستروح شذاه . كان حسن شرها : استمتع بهذا كله !

جاءت فى وقت هو فى أمس الحاجة اليها . ود لو تنقذه من هذه الأفكار المدمرة . انه يهفو ليتنعم بمجتمع السفينة . انتفض واقفا لاستقبالها بحرارة ، سألته دهشـــة :

— ما هذه الحماسة ؟

— انك تثيرين أى بليد .

— اوه !

زاد التورد فى وجنتيها . خشى ان يكون قد اغضبها ، فسكت ولم ينبس . واحست ان كلمة « اوه » ربما تكون قد صدمته ، فأرادت ان تخفف عنه ، فقالت له :

— المصريات اكثر اثارة .

افحمت الايطالية المثيرة المناضل العتيد . ماذا يقول وماذا يعيد ؟ لمحت فيه اعتزازا ببلده ، برجالها ونسائها ، فالقت عليه هذه العبـــارة المقتضبة . لم يشأ ان ينال من بنات وطنه . وقرر الا يمضى فى التغزل بها . يجب على هذه الانثى ، التى جعلته يلهث من انوثتها ، أن تعلم انها ازاء رجل ، لا ككل الرجـــال !

اقترحت عليه ان يتناولا الغداء سويا . ونهض على الفور ، يلبى هذا الاقتراح المنقـــذ .

* * *

قاعة الطعام رشيقة انيقة . المناضد عليها مفارش نظيفة ناصعة . نسقتها ، ووضعت الزهور فوقها ، يد ماهرة فنانة . خلعت على الغرفة بهجة وجمالا . كانت الغرفة كلها « مشهيا » كبيرا ، يذكى شهية الركاب .

وبدات اطباق « الاورديفر » تتوالى . معذرة لاستخدام المصطلحات الاجنبية، فنحن فى رحلة الى اوربا ! كانت اطباق المشهيات — وهى تعتبر مدخلا للوجبة — مذهلة . طبق من السلطة الحمراء والخضراء المختلطة بالزيتون والسردين والجمبرى . سبق هذا الطبق قطعة من « انباى باى » نوع من الفاكهة يشبه الشمام الصغير . طعمه ملحى خفيف ، احلى من الشهد ! ولحقه طبق آخر كبير من المكرونة « الاسباكيتى » ، باللحم المفروم والصلصلة والجبن الرومى المبرية . ومازلنا فى دنيا المقدمات والمشهيات ! استغفر الله . الجبنة الرومى ، التى تضاف فقط لاعطاء نكهة للطبق الفاخر ، البت على فتانا المواجع : كانت الجبنة الرومى والنبيذ والروم تقدمها خمارات اليونانيين لاعيان مصر وملاكها . وتكتب عليهم « كمبيالات » ، فاحشة الربا ، بقيمتها . كانت تمثل ديونا ثقيلة على المدينين ، تعجز اراضيهم عن سدادها . وتنتزع منهم الارض ، لياخذها الخواجات . كان هذا البند مع بنود اخــرى سببا فى ضياع أرض والده . على أن لفظ الجبنة ، قد عاد بذاكرته الى حقبة كاملة من حياته ، حقبة الدراسة الابتدائية . كان غذاؤه الرئيسى فيها العيش الاذرة ، والجبن القريش .

استيقظ حسن من هذه اللمحة ، على نغم الغجرية الحسناء ، تقول له:

— ما رايك فى المشهيات الايطالية ؟

— احتار بين مشهيات الطعام ، والمشهية الايطالية الفاتنة ، التى تشاركه المائدة . آثر السلامة ، وقال لها : ان الاكل الطلياني لذيذ .

— الذ من الاكل المصرى ؟

بماذا يجيب ؟ هل يمضى فى نظرته الضيقة فى الوطنية ؟ هل الدفاع عن الطعام فى بلد تجوع فيه الاكثرية الكبرى ، أو تأكل طعاما يشبه الجوع ، هل يعتبر ذلك دفاعا امينا ووطنيا ؟ انه يدافع عن بلاده طالما كنا فى مجال الوطنية الصحيحة ، أو حتى الرومانسية . فحين قالت له ان « نساء مصر اكثر اثارة » ، ركبته النعرة الوطنية ، وآمن بقولها ، رغم توقد الرغبة فى

عروقه . لكن حساسيته للطعام قوية . امضى نيفا وعشر سنين ، يتصارع فيها مع الطعام المتردى ، الذى تنوء به الاكثرية الكبرى من بنى وطنه ! ان الحديث عنه ، والثورة عليه ، وليس الدفاع عنه ، واجب وطنى .

واتته سرقة الخبز ، من مطعم المدرسة . حركت اصابعه . اخذت تتسلل نحو الخبز الايطالى الفينو الناصع . لاحظت الفتاة اصابعه تتحرك فى شكل تشنجات ، بالقرب من رغيف الخبز . كان بوده ان يأخذ لقيمات منه ، يضعها فى جيبه ، ليتعشى بها ! كما كان يفعل وهو تلميذ فى مدرسة الزقازيق .. سألته الفتاة ماذا اصاب اصابعه ؟ استيقظ من غفوته قائلا فى عصبية : لا شىء . لا شىء . تذكر انه لم يجب على سؤالها ، فرد عليها ردا هروبيا :

— نحن مازلنا فى المشهيات . كيف اقارن بين مشــهيات ايطاليا ، ومشهيات مصر ؟ دعنا ننتهى من المشهيات اولا . ثم نرى الاطباق الرئيسية . ثم نحاول أن نقارن .

— معك حق .

استغرق فى عينى الفتاة ، لكى يغرق فيها ذكرياته ، او لكى تنقذه منها . اكل المشهيات بشراهة . واكلت هى بقدر . كانت تعلم ان هــذه مشهيات فحسب . وان هناك اطباقا اصلية اكثر اثارة للشهية .

وجاء دور الاطباق الاساسية . جاءت « ندلة » . ايطالية هيفاء . حينما تأملها ادرك لماذا اصبح « مايكل انجلو » مثالا ورساما خالدا . لقد خلق له الله ، الفنان الاعظم ، نماذج معجزة بشرية ، تعاونه فى رسم لوحاته وصقل تماثيله .

طلبت « الندلة » اليهما ، بصوت كحفيف الزهر : ماذا تريدان كطبق اساسى أول ! ؟ عرضت عليهما بعض ما لديها : اصناف لم يسمع بها من

قبل . كانت لهجة المضيفة بالانجليزية مكسرة ، فلم يفهم منها شيئا . وكأنه كان سيتعرف على هذه الالوان من الطعام لو عرضت عليه بالعربية ! وحتى ينقذ نفسه ، طلب من رفيقته أن تتولى هي الاختيار . وان تنتقى طبقـا ايطاليا .. واختارت طبقا يجمع بين شرائح الديك الرومى وقطعا من العجول الصغيرة ، تختلط بألوان من المكرونة . وعش الغراب .

واكل . كان الطعام الايطالى من الطعامة ، بدرجة انسته الماضى المجيد ! وانساه استغراقه فيه ، انه برفقة ساحرة السفينة . لاحظت الفتاة ذلـك فقالت لـه :

— لم اعد فى حاجة لتقارن لى بين المطبخ الايطالى ، والمطبخ المصرى . هذا النهم الذى تلتهم به طعامنا ، وانصرافك عنى ، يعتبر ابلغ اجابة !

وجاءت الحلوى . ليس لها مكان فى معدته . لكن لا يستطيع أن يقاوم « الجيلاتى الطلياني » الذى اسس على قاعدة عميقة من « سلطة الفاكهة » . جاءت الفاكهة من المنطقة الباردة فى اوربا ، والمعتدلة فى البحر الابيض ، والاستوائية فى افريقيا !

لفت الاكلة الغنية راسه بضباب كثيف . اوقفت قدرته على التمتع بحديث صديقته وبحسنها . استأذنها ان يذهب الى « كابينته » لينام . الشعب المصرى ينام فى « القيلولة » . وهو حفيظ على هذا التراث !

* * *

استيقظ حسن ، بعد أن انقشعت الابخرة ، التى تصاعدت من الوجبة الغنية الى تلافيف مخه . وجد الحركة على السفينة صاخبة . الحيـاة تمضى . المسافرون لا يهدأون . كان هو الوحيد الذى خمدت انفاسه .

اخذ يمشى الهوينى على ظهر السفينة . شمس الاصيل تلون وجوه

الفتية والفتيات . نسمات البحر تداعب الشعور المرسلة ، فتثير الشعور المشاعر ! جلس الفتية والفتيات على حافة السفينة : اثنين اثنين . حملت النسمات اليه ، الهمس الموسيقى ، والقبل المبحوحة ، «والصمت الرهيب» ! أنامل رقيقة تربت على كتفه . التفت . احلى وجه ، واشرس جسد . تخطرا معا على ظهر السفينة . انتحيا مكانا قصيا ، اختارته هى . اسرعت دقات قلبه . لعل هذا الاختيار له دلالة رومانسية . وبدأت تحادثه :

— كلمنى عن المجتمع المصرى !

— اللـــه !

نطقتها بالعربية . وسألته :

— ماذا تعنى ؟

كلمة « الله » ، التى تعرفها بالعربية ، تقابل كلمة « جد » بالانجليزية . وهذه الاخيرة تستخدم ، حين يستعين الانسان بالله على امر مكـروه او فاجع . واجابها على الفور :

— كلمة « الله » يستخدمها الناس فى مصر فى مجالات الاستحسان والاعجـاب .

الحق ، انه استنجد بكلمة « الله » لتعنى معناها ، حينما يستخدمها الاوربيون ! كان ينتظر منها كلمة حلوة ، تتسق مع اطياف الغسق ، ولجين القمر . فى هذا الجو الشاعرى ، تمنى لو يسمع كلاما آخر . الغجرية تمعن فى اشعال الغريزة فى دمائه بجمالها . ثم تقهرها بحديثها .

ازدادت حيرته : هل يكره الحديث عن المجتمع المصرى ؟ الم يعش فى قلب ذلك المجتمع مع جماهير المزرعـة والجيش والجـامعة ؟ لمـاذا يتبرم بهذا الحديث ؟ لعله انسان ، يخضع لنداء الغريزة ، التى كبتت فيه

منذ كان فى المزرعة صبيا . خمس عشرة سنة من القهر الغريزى . لم يحس به ابان نضاله . لكن الغريزة استيقظت متوحشة ، بعد أن نال الليسانس وازدادت بدائية عندما ركب السفينة الى أوربا .واستعرت فى كيانه كله حينما التقى بهذه الغجرية .

من الطبيعى اذن ، فى هذا الجو الرومانسى ، الذى يحرك الحجر أن يتوقع حديثا من لون ، يخفف من وقدة الرجولة فى اعطافه . واراد ان يحول الحديث ليتلاءم مع الجو الذى يحيط به :

— ان الحديث عن المجتمع المصرى حديث طول . يمكن ان نتناوله فى وقت آخر . دعينا الآن نجرى حديثا خفيفا . يتواءم مع رقة النسيم ، وضوء القمـــر .

— هل ستدرس الأدب الرومانسى فى انجلترا ؟

قاتلك الله أيتها الغجرية النافرة .

— لا . سأدرس الاقتصاد .

— لماذا اذن لا نتحدث عن المشكلات الاقتصادية فى مصر وفى ايطاليا ؟

— حرام عليك . ستأخذ منى هذه المشكلات اربع سنوات . دعينـــا نطرق موضوعا آخر .

— ماذا تقترح ، الحب فى مصر ؟ !

— لا . الحب فى ايطاليا !

— « ده اللى انت فالح فيه » .

— على العكس ، انا خائب فى هذا المجال .

— هل لم تحب من قبل ؟

— أحبـــك .....

انتفضت الفتاة ، وهى جالسة . ونظرت اليه نظرة جادة قائلة :

— هذه طريقة لا تجدى . انت ناضج ومثقف . ولا احسبك من ذلك النفر ، الذى يلقى بالعواطف القاء اهوج . انى اقدر لك عمرا يقترب من الثلاثين . وانى لا اعتقد ، ان هناك شابا فى مثل هذه السن ، وليست له تجارب فى الحب والنساء ، حتى ولو كان من مصر !

— انا آسف . كنت اهزل معك .

— بطريقة بلدى !

— اعتـــذر .

— نستأنف الحديث اذن بمستوى أعلى .

— تفضـــلى .

— هل لم تحب من قبل ؟

— بلـــى .

— حدثنى عنها .

— ماذا يجدى الحديث عن تجربة ، مضى عليها أكثر من عشر سنوات . احببتها حبا جارفا ، لسنين طويلة . ولم أستطع ان اقول لها انى احبك . ثم تزوجت غيرى ، لاسباب اجتماعية طبقية . وانا أرجوك رجاء حارا الا تنكئى جراحى ، فقد اندملت . ولا اريد لها ان تنزف من جديد . وانا وان كنت سيطرت على قلبى ، فالمشكلة الاجتماعية مازالت قائمة فى وجدانى . وسوف يجرنى الحديث الى سؤالك الاول : المجتمع المصرى .

— وما العلاقة بين الحب والمشكلة الاجتماعية ؟

كلمات الحب ، والطبقية ، والمشكلة الاجتماعية . وشاب لا يستطيع ان يقول لفتاته « احبك » ، اثار هذا فى الفتاة فضولا ، للاستماع الى هذا الرجل الغريب . وتساءلت :

— لكن ما هذا التناقض ؟ لا تستطيع ان تبوح لحبيبتك ، خلال سنوات طويلة ، بكلمة « أحبك » . ثم تقولها لى ، ولم اقض معك يوما .

كان يود أن يقول لها ان يوما واحدا معك ، يساوى سنين . ولكنــه امتنع . لا يود أن يتلقى درسا آخر . وقال لها :

— كنت فى سن المراهقة . مرهف الحس ، حييا . وكانت قريبتى . وكانت هناك المشكلة الاجتماعية ، والعلاقات الطبقية ، حتى داخل الاسرة الواحدة . وكنت فى عملية صراع رهيبة ، ضد الجهل والجوع والقهر . فلم استطع أن اقول لها الكلمة التى يقولها سائر الناس ، فى كل زمان ومكان .

اشتد فضولها ، واتسعت حدقتاها مرة اخرى . هل فكرة الحب هى التى اثارتها ام افكار الصراع ، ام مزيج منها جميعا ؟ راى فى عينيها رغبة شديدة فى الاستماع للقصة كلها ....

انقذه « الجونج » ، أو جرس العشاء . وذهبا الى صالة الطعام . واعيد المشهد من جديد : انواع وكميات من الطعام لا تخطر ببال .

* * *

جاء المســاء . وجاءت معه زرافات الشباب . تختال كالطواويس فى قمصانها وفساتينها ، ذات الالوان الكرنفالية . تجمعوا حول حمام السباحة . واهلت الفاتنة ، فاشرق لطلعتها وجدان فتانا . كانت تلبس فستانا انيقا . تبين منه ان كل شىء فى ايطاليا يشكله فن رفيع . « الترزى ، الذى فصل الفستان » يبدو أنه تعشق جسدها . خاط الفستان فنا ، قبل ان يحيكه ثوبا . هل كان هيام الخياط بجسدها ، يشبه هيام حسن به ؟ يقال ان الفنانين حين يبدعون تمثالا لجسد فاتن عار ، فانهم يستغرقون فى الفن . محراب الفن ، معبد لا تدخله الشهوات الانسانية . فتانا ليس فنانا . ولا يريد أن يشكك فى هذا القول . لكنه شهد تماثيل ولوحات ابرزت جمال الجسد

الانسانى . صورت ثنياته ، وخفقاته ونبض الجنس فيه . الفنان العبقرى ، لا يصور الا ما يشعر به . والصدق عنصر اساسى فى الفن الخالد . فكيف يصور الفنان الملهم جسدا ، لا يحس باضطرام الغريزة فيه ؟

ابرز الفستان كل ما يمكن ان يتوق الانسان لرؤيته من جســدها . كشف عن عظمة الفنان الاكبر ، حينما يريد أن يبهر البشرية بنماذج معجزة من خلقه . كانت تلبس رداء فى الصباح ، وآخر لوجبة الغذاء . وثالثا لفترة بعد الظهر . وثوبا رابعا للعشاء . وخامسا للسهرة ! وعندما راى هذا الفستان الاخير ، كبت تساؤلا . اقحمته على دنياه فى السفينة ذاكرة عنيدة . لكن الفتاة تمارس لعبتها : ترتدى فساتين خمسة جديدة كل يوم . السؤال يضغط على وجدانه : كم فستانا أو « جلابية » تلبسها الفلاحات والعاملات فى مصر فى السنة ؟

تجمع الكرنفال حول حمام السباحة . وبدات فرقة الموسيقى ترسل انغاما متنوعة : كلاسيكية ، وخفيفة ، وجاز . سلطت اضواء على مياه الحمام جعلتها تتخذ اللون « التركوازى » . تماما كماء البحر تحت اشعة الشمس . وانسكبت على الفرقة العازفة شعاعات امتزجت بالانغام . وكونت تجانسا فنيا ، بين تلك العناصر الجمالية : المرئية والمسموعة والمحسوسة .

كان الجــو رومانتيكيا ، حقيقة وحلما . حركت الموســيقى اسراب الراقصين والراقصات . بقى حسن مكانه ، ومعه رفيقته الغجرية . اخذت تنظر اليه نظرات غير مالوفة . بقى ساكنا . يئست من النظر اليه . نهضت من مقعدها . وقفت الى جانبه . جذبته من ذراعه :

— الا تريد أن ترقص ؟

غطاه عرق غزير . ارقص ؟ انا لم اتعلم الرقص ، ولم امارسه ، اللهم الا رقصا من نوع آخر : رقصة الجوع ! حينما كنت اشعر بثنيات معدتى وامعائى ، كنت انثنى معها . الناس الذين نشأت معهم لا يعرفون غير هذا

النوع من الرقص . آه . . كان هناك لون آخر . كان الخواجة الاقطاعى يعطى الخوله كرابيج وعصيا . يضربون بها الاولاد والبنات فى الحقل ، فتنثنى جذوعهم . كنت انثنى معهم . لم يكن أحد يضربنى ، فقد كنت كاتب الوسية . ولكن الصبية والصبايا كانوا من بلدى ، وابناء اهلى وجيرانى . كنت قطعة منهم ، فرقصت معهم ، وتأوهت . ما كنت بمستطيع شيئا فى هذه السن ، وفى هذه الوسية . انا صبى مظلوم . لا استطيع ان آمر الخوله ان يرفقوا بالاعواد الغضة . هذه أوامر الخواجة . ان وقفت ضدها ، فهو الطرد والحرمان من الرزق .

اعوذ بالله ! هناك ضرب آخر من الرقص . وددت لو لم اتذكره . ولكنها الذاكرة المسنونة : الرقص الذى تمت به ، اثناء اعتقالى ! كانوا يفترسون « عونى » الاخوانى صديقى ، والعضو المرح فى « شلتى » فى الغرفة المجاورة لتلك التى يحققون معى فيها . كانت صرخاته وعواؤه تحدث نغما بشعا ، يدفعنى الى الرقص ! كان رقصا مرعوشا متقطعا . كبته حتى لا يراه المحققون . واجاب الحسناء :

— آسف لا استطيع الرقص .

— لمــــاذا ؟

— لانى لم اتعلمه .

— ساعلمك .

— لا استطيع . اعذرينى .

وبعد هنيهة ، جاء رجل وسيم ، يطلبها للرقص . اعتذرت . سالها :

— لماذا لا ترقصين معه ؟

— انا لا اريد ان ارقص الا معك !

* * *

كان اليوم الثانى على السفينة يوما قمطريرا ! البحر مربد . السماء مكفهرة . تعلق بها سحائب صيف دكناء ، لا تريد أن تتقشع . المطر ينسل من البحر ، لينهل فيه من جديد ! جلس فى الركن القصى من السفينة ، الذى اختارته فتاته لهما للجلوس فيه . لكنها لم تحضر . تأخرت عن موعدها . ماذا دهاها ؟ تململ فى مقعده . نهض ليبحث عن صديقته . طاف بالسفينة مرتين . لا اثر لها . هل هى مريضة ؟ ربما . هل اذهب الى غرفتها ؟ خطوة جريئة كيف تتخذها ؟ « روح يا اخى الكابينة . تحرك . حتنفض خيبة لحد امتى ؟ » نضجت الفكرة فى ذهنه . شجعه عليها انها قالت له ، مرة ، حينما افتقدته ، انها اوشكت أن تأتى الى حجرته .

دق باب الكابينة ، ودق قلبه . جاءه صوتها الغجرى انثويا مستخذيا : « ادخل » . ودخل . الفاتنة فى فراشها : شحوب ضئيل فى وجهها ، زاد من أنوثتها . حمرة خفيفة فى أنفها ، اشارت الى اصابتها بنزلة برد . تهدل شعرها فى فوضى ، زادت من غجريته واغرائه :

— صباح الخير .

— صباح الخير .

— ماذا بـــك ؟

— لا شىء . برد خفيف ، آثرت أن اعالجه بالبقاء فى الفراش .

— افتقدتك . جلست وحدى فى الركن ، ولم استطع . فتشت السفينة شبرا شبرا . ثم حضرت الى هنا ، فاعذرينى .

— لا بأس عليك . توقعت حضورك .

— يبدو اننى سوف لا استطيع الصبر على بعادك .

— « وبعدين » ؟ ألم نتفق على أن نبتعد عن الغزل ؟

— نعم . لكن اذا اجتمع رجل وامرأة . ربطتهما رابطة ، دعينى لا اسميها حبا ، فالحب لا يبنى بين يوم وليلة . رابطة حميمة ، مفعمة بالصداقة

والمودة . يستشعر الانسان الراحة فيها ، حينما يجلس الى انسان معين . ويحب حواره ، ويسعد بأفكاره . اذا توافرت تلك الرابطة ، اليس مشروعا بأن يشير الرجل الى جمالها باشارات مهذبة ، بين الفينة والفينة ؟

فكرت قليلا ، عساها تجد اجابة على تساؤله :

— لا باس . بشرط ان تكون مهذبة . ولا تهدف الى غير ذلك . ثم تكون عارضة لا تفسد الحديث الاصيل .

وسكتت لحظة أردفت بعدها :

— لماذا نتعجل الامور ، امامك وقت طويل فى انجلترا . والنساء هناك جميلات سوف يشبعن فيك هذا النهم .

وجاء وقت الغداء . وطلبا من « المتردوتيل » ، أن يتناولاه فى الغرفة . فأجابهما الى رغبتهما . جلس على كرسى قريب من سريرها . والحق ان الرغبة الغريزية لم تفارقه . ولو انه تظاهر بأنه انســـان « مثقف » او « متحضر » ! وضعه الآن أردأ مما لو كانت صحيحة البدن . المرض اضاف عنصرا جديدا . يجعل التفكير فى هذا الاتجاه ينم عن تخلف شديد !

فى هذا الجو ، ابتأس مزاجه : البحر المتجهم . السماء الغاضبة . الحسناء المتمنعة . الطعام المترف المسرف . الأطباق الرئيسية الفاخرة . الفاكهة الغارقة فى «الايس كريم» . الخوخ ! كان الخوخ من حيث الحجم واللون والطعم والرائحة ، فاكهة محرمة . لم يرها من قبل ، ولم يذقها . كيف يذوقها دون أن يراها ؟ الذاكرة الجموح أمينة ؟ فتشت عن الخوخ فى دروبها . وجدت انه رآه وشمه ! لم يكن فى روعة الخوخ الطلياني . لكنه كان خوخا ! كان يمشى مع مجموعة من زملائه من كلية الحقوق ، فى شارع ســعد زغلول بالاسكندرية . احس بعبيق « كوكتيل » من الفاكهة ، من بينه الخوخ والتفاح ، يتسلل الى انفه . كان آتيا من محل فاخر للفاكهة . نادى زملاءه . اوقفهم أمام المحل قائلا : قف .شهيق !

ومع ذلك لم يركز فتانا على اى شيء من هذا . ركز فقط على اطباق المشهيات ، فاتحة الشهية ، أو مقدمة الوجبة . لم يستطع ان يقهر الذاكرة . يبدو ان الشيء الوحيد الذى لا يصيبه القهر فى المجتمعات البشرية ، هـــو الذاكرة ! انها تقفز معه ، وتمشى ، وتجرى ، وتتحادث ، وتحلم ، وتنام ! عاونت الغجرية الحسناء على شحذها .

ايقظته صديقته من تلك الغفوة :

— اين ذهبت بك الافكار ؟ هل جئت لتسرح ، او لتسليني ؟

قرر ان يشركها فى سرحاته ، وان يسليها . سوف يغرقها بالموضوعات التى ترضيها الى أن تشبع ، وتطلب موضوعات ترفيهية . وفاجأها بقوله :

— لقد سألتنى بالامس عن الطعام فى مصر .

سرى الجذل الى وجهها . اختفى الشحوب الذى سببته نزلة البرد .

طيب يا قاتلة . قتلت غريزتى ، كما قتلها مجتمع الوسية ، بالرغم من اختلاف وسيلة القتل . سوف افرغ فى جوفك جرعات كالعلقم ، الى ان تستنجدى بى ، لاعفيك منها .

رجتــــه :

— بربك حدثنى ، فانت ولد طيب .

— الامر الذى فاجأنى ، هو هذه الوجبات البالغة الغنى ، التى تقدم لنا فى السفينة . سأكتفى بالحديث عن مقدمتها . عن الأطباق التمهيدية ، التى تثيرون بها شهية الناس . فى بلدنا ليس لدينا مشهيات . والحق ، انهم لا يحتاجون اليها . فلديهم مشه قوى جدا ، يفوق كل المشهيات . وهو رخيص جدا . بل هو يقدم للكثرة من الناس مجانا . انه الجوع !

وفزعت الفاتنة الراقدة . واسرع بالقول :

— لا تفزعى . أنت التى طلبت منى ان احدثك فى هذا الموضوع المثير . فلا تقاطعينى بالفزع .

سكت لحظة ، بلع فيها ريقه ثم واصل :

— اننى أود مخلصا ان يصل مستوى الغذاء فى مصر ، الى مستوى المقدمة . أو الفاتحات للشهية فى الوجبة الايطالية . واقصد بمصر شعبها ، أو اكثريته الكبرى . باستثناء القلة المتخمة التى تستغل الشعب ، وتعيش عالة عليه . المشهيات الايطالية وحدها تضم جميع العناصر الرئيســية اللازمة لجسد الانســـان .

انتعشت الغجرية . همت بالقفز من سريرها . أبقاها حســن فى السرير بلمسة من يده لعى كتفها . ليته ما لمسها . اللمسة الكهربية سرت فى جسده كالحريق : هل من المعقول ان تنفرد بأنثى . تتضاءل امام انوثتها كل الاناث . اجلس معها فى غرفتها وحيدين . تتمارض فى اغراء فاتك . يتمدد جسدها على السرير . تغطيه ملاءة خفيفة ، لا تخفى تضاريسه . ثم نتحدث عن مشكلة الغذاء الفقير لجماهير مصر ! ؟

رباه : ان العذاب الوان . هذا اللون الذى اكابده الآن ، لا عهــد لى به من قبل . وقبل ان يضعف ، جاءه صوتها يقطع تفكيره :

— قبل أن تمضى فى الحديث ، أحب أن اقول لك ، ان ما تشهده على السفينة ، ليس هو المجتمع الايطالى . التجمع على السفينة تجمع سياحى . ومستوى الغذاء هنا ، ليس هو مستوى غذاء الشعب الايطالى . جزء كبير من شعبنا ليست لديه مقدمات ، أو مشهيات ، تسبق الوجبات الرئيسية . غذاؤه الرئيسى هو المقدمة نفسها ، أو بعضها .

أحب حسن أن يزيد معرفته بالمجتمعات الاوربية ، قبل ان يعرض عليها عناءات مجتمعه . اراد ان يستمع الى انسانة ، يبدو عليها مثقفة . تنتمى الى بلد أوربى متحضر . وهى تنشر « غسيلها القذر » . قبل ان يفعل هو ذلك . ولو انه يدرك ادراكا ناضجا ، ان عرض المشكلة الاجتماعية لشعبه ، ليس عرضا « لغسيل قذر » . القذارة الحقــة هى أن يصر المســيطرون والمالكون فى مصر على قذارة الغسيل . سألها :

— كيف وايطاليا بلد متقــدم ؟

— الحقيقة ان ايطاليا بلد نصفه متقدم ، ونصفه متخلف . الجــزء الشمالى ، حيث وصل التصنيع درجة لا بأس بها ، يعتبر متقدما . بينما الجنوب مازال زراعيا ، يرين عليه التخلف . الفلاح الايطالى قريب من الفلاح المصرى . صحيح أن مستواه المعيشى أعلى بعض الشىء . ولكنه مازال يستخدم المحراث البدائى ، الذى تجره البقرة . تماما كما يحدث فى مصر .

وخاضت الحسناء المريضة فى وصف حالة الفلاح الايطالى . كانت عكس الصورة البراقة التى انطبعت خطأ فى ذهنه .. وسكتت لحظة . ثم مضت تقــول :

— ... على أن الفلاح الايطالى يلبس حذاء ، وبدلة من قماش معقول!

وصلت اليه الرسالة التى ألمحت الايطالية « المهذبة » اليها : الحفاء هو القاعدة العامة بين الفلاحين فى مصر . والجلاليب الممزقة ، التى يلونها التراب ، والعرق ، والحشرات ، هى لباس زراعنا .

دلفت الايطالية الى طعام الفلاح الايطالى :

— طعام فلاحينا صورة متواضعة لاطباق المشهيات التى فاجأتك فى السفينة . هذه الاطباق ، أو بعضها ، هى وجبتهم الرئيسية : طبق متواضع من السلطة ، والمكرونة الاسباكيتى ، باللحم المفروم ، أو بغيره ، وقطعة من اللحم ، واحيانا فاكهة أو حلوى .

— « بس كده » ؟ ياصلاة النبى . ياصلاة النبى !

— ماذا تقول ؟

— عفوا . اود ان اقول ، والعمال فى الصناعة والتجارة والمرافق ؟

— هذه قصة تطول . هم ، لا مراء ، احسن حالا . ولكن الرأسمالية تطحنهم . ورجال الكنيسة يخربون وجداناتهم ، ووجدانات الفلاحين معهم .

ينافحون عن حقوقهم ، ومستوى اجورهم ، بالحسنى تارة وبالعنف تـارة اخرى ، وبالاضراب تارة ثالثة . والصراع يمضى .

— ما اثر نقابات العمال فى ايطاليا ، والاحزاب التقدمية المتعاطفة معها، فى مستوى معيشة العامل ، وفى الحياة السياسية بصفة عامة . ؟

— هذا موضوع كبير ، يا صديقى المصرى . ولعلك تعلم انـه فى الانتخابات التى اعقبت الحرب العالمية الثانية حققت القوى اليسارية التقدمية نجاحا كبيرا . اوشكوا ان يحرزوا اغلبية المقاعد ، ويكونوا الحكومة التى تحكم ايطاليا .

— هذه ظاهرة غريبة . المؤسسة الدينية فى ايطاليا ، اقوى مؤسسة دينية فى العالم الغربى كله . واثرها فى الشعب الايطالى واضح . فهو شعب متدين . كيف تحقق قوى اليسار هذا النجاح فى مثل هذ المجتمع ؟

بذلت القوى التقدمية جهدا خارقا فى توعية الشعب الايطالى ، وفى وقايته من التشويه الذى يباشره رجال الدين عليه . وانت تعلم بقية القصة بلا شك : تحالفت كل قوى القهر والرجعـية على وقف تحـرر الجماهير الايطالية . فالراسماليون ، والمؤسسة الدينية ، والاحـزاب القديمـة ، والمخابرات الامريكية ، وعصابات المافيا ، ودول العالم الراسمالى جميعا ، كل اولئك نزلوا المعركة . وانفقت اموال طائلة . واطلقت اكاذيب قاتلة . ووجهت تهديدات ماحقة لكثير من الناس . ولو ان اليسار حظى باكبر قدر من الاصوات ، الا ان تلك القوى المضادة للاشتراكية ، بما فيهم الاشتراكيون الديمقراطيون ! تحالفوا جميعا ضده . حصل على ٤٩٪ من اصوات الناخبين، وكان يجب ان يحرز اكثر من ٥٠٪ منهـا .

خاضت به الغجرية غمار التـاريخ الايطالى : كانت الكنيسـة اكبر اقطاعى فى اوربا . تملك ثلث اطيانها الزراعية . ارتكب رجال الدين ابشع جرائم التاريخ من تعذيب وقتل ، واستغلال للعاملين فى اراضيهم . تابعت الحركة الدينية فى عصر الاقطاع وفى عصر النهضة . بينت الغجرية السمات

الدينية والدنيوية للمؤسسة الدينية : وزراء ، وسفراء ، واقتصاديون ، وسياسيون ، وفنيون ، وقسس ، ورهبان . وكيف تحولت المؤسسة من الاقطاع الى الصناعة . كيف تملك رجالها المصانع والبنوك والمتاجر ، الى جانب الحقول . وكيف اشتركوا مع الشركات الراسمالية العابرة للقوميات فى ملكية المصارف والمشروعات . وكيف اصبحت المؤسسـة جـزءا من الاستعمار الدولى والراسمالية العالمية . كان نصيبها هو الارباح الضخمة . ومهمتها ان تجعل القهر والاستغلال للجماهير فى العالم ، وكأنه قـواعد مقدسة نزلت من السماء .

سكتت الغجرية الحسناء . تمنى الا تسكت . ود لو تحدثت الى آخر الدهر . نقلته الفاتنة من دنيا جسدها ، الى دنيا اكثر فتونا . وعندما سكتت، حيره سؤال صعب . كيف تجمع هذه الفتاة كل هذه الالوان من الجمال : وجه ساحر ، جسد خصيب وانوثة ، عقل ووجدان ينبثق منهما فكـر انسانى اكثر خصوبة وسحرا .

وعلى الرغم من الدنيا التى نقلته الفاتنة اليها ، الا ان تساؤلا تقليديا ، او قل « متخلفا » ورثه من بيئته ، خطر فى باله ، فقال لها :

— هل استطيع ان اسألك عن درجة التعليم التى وصلت اليها ؟

— وصلت الى الثانوية !

اواه : وددت لو يستمع معى ، الى هذه الغجرية الايطالية ، حاملة الثانوية ، المثقفون فى مصر . ورجال الدين : المشايخ والقسس والاحبار . وكذلك الساسة ، واساتذة الجامعات . ليروا كيف يدرس الفكر الانسانى كله : شرقه وغربه ، اقطاعه وراسماليته واشتراكيته .

كنت اود بصفة خاصة ان يستمع اليها البنات والنساء فى بلادى ، وخاصة ربات الخدور ، المحصنات ، ذوات الصون . اللائى يرغبن عن

العمل ، وعن الثقافة ، وعن القيام بدور ايجابى لقهر التخلف ، الذى يعتبر تأخر المرأة ، احد عناصره الرئيسية .

وددت لو يرين هذا الجمال المبهر . وليتبهرن ، بدرجة اكبر ، بعقلها ، وثقافتها ، والانسانة الرابضة فى وجدانها .

* * *

استيقظ حسن فى اليوم التالى على شمس صحوة . السماء تشارك البحر لونه . وتعده بأنها لن تسلبه قطراته ، وتعيدها اليه دموعا ! فاليوم جميل ، ولا مجال فيه للدموع . انتظر صاحبته فى مكانها المفضل . اتت فى موعدها . شفيت من الوعكة . الجوار الساخن بالامس ، قضى على البرد الذى اصابها . جاءت يانعة ، تنبض بالحياة ، وتفوح بالعطر . تلوى اعناق الرجال ، وتزيغ ابصارهم .

الناس فى السفينة يعتقدون ان حسن اسعد انسان بينهم . الم يحظ باجمل مسافرة على الاطلاق ؟ اية سعادة ؟ انهم لا يعلمون ، السعادة التى يفكرون فيها كانت تعاسة له . لا يتصور واحد منهم نوع السعادة ، التى غمرته بالامس حين تحدثت اليه .

جلست بجانبه . اقتربت منه بدرجة اكبر مما كانت تفعل . جسدها يلتصق به . انه يخشى هذا الجسد ويهواه . باشر النسيم دعابته المحببة . عابث شعرها ، ونثره عليه وكأنه يذار هما من اعين الحساد !

الجرعة التى احتساها بالامس بدلت نظرته للفتاة . مازال الوجه الصبوح ، والعينان الدعجاوان ، مصدر سعادة له . ولكنها اصبحت خلفية جميلـــة .

التصاقها به اليوم غير عادى . ماذا يعنى ؟ هل يعنى التصاقا فكريا ؟ افكر يمكن ان يتحد دون التصاق محسوس . سلوك الفتاة معه ، فيما مضى،

كان واضحا لا لبس فيه . انهاليست من انصار المتعة العارضة ، والحب الساذج . حديثهما بالامس قلب شعوره نحوها ، من نزوة لحظية الى تلاحم ثقافى محبب . تراجعت الرغبة الغريزية تراجعا كبيرا . فى عينيها بريق غير مألوف . معان لا يستطيع ان يسبرها . ماذا تريد ؟ حيرته الغجرية الثـــائرة .

كانت متعاونة معه هذه المرة كذلك . انقذته من حيرته اذ عاتبته :

ــ وعدتنى بالكلام عن المستوى الغذائى فى مصر . ولما تكد تبدأ ، حتى ادرت الدفة بذكاء . جعلتنى احدثك انا عن الغذاء ، والسياسة ، والدين ، والتاريخ ، فى ايطاليا .

ــ كنت رائعة .

ــ اشكرك ، لكنى اريد ان استمع اليك .

ــ الغذاء فى بادى شيء مختلف تماما ، عن مستوى الغذاء الذى تحظى به اعداد كبيرة من الشعب الايطالى . الغذاء الذى حدثتنى عنه ، ولو انه يمثل جانبا متواضعا من مشهيات السـفينة ، الا ان فيـه كل العناصر الغذائية ، اللازمة لنمو الانسان ، وللمحافظة على حيويته ...

سكت حسن قليلا .... ثم استمر :

ــ المشكلة عويصة ، ولا ادرى من أين ابدأ ؟

ــ ابدأ بداية تاريخيـــة .

ــ ساحدثك حديثا واقعيا ، عاصرته بنفسى ..

قص عليها قصة حياته ملخصة تلخيصا شديدا . ركز على الوان الطعام التى تعرض لها والتى كانت نموذجا لطعام الاكثرية الكبرى من شعبه: العيش الاذرة ، والجبنة القريش فى المدرسة الابتدائية . الجوع فى الصباح والمساء فى المدرسة الثانوية . العيش الاذرة والمخلل فى وسية الخواجة

اليونانى . وذكرها بأن ذلك كان فى الثلاثينات . ابان الازمة الاقتصادية العالمية ، التى اجتاحت العالم الرأسمالى المتقدم والمتخلف .

ردت عليه الفتاة ، وقد شحب وجهها اليانع :

— لكن الازمة كانت هنا كذلك فى اوربا وفى امريكا . غذاء النـــاس لم ينحدر الى هذه الهاوية .

— الازمات فى ظل الراسمالية تطحن الفقراء ، وترفق بالاغنياء ، كانوا افرادا ام دولا .

— صدقت .

واستمر حسن :

— كان الناس احسن حالا فى الاربعينات . الحرب العالمية الثانية احدثت نوعا من الرخاء صاحبه تضخم كبير . زادت نسبيا اسعار المحصولات ، والاجور . ولكن الجنيه اصبح يشترى سلعا اقل . على أن الحرب تطلبت امرا انحط بمستوى الناس . اســتيلاء السلطة العسكرية البريطانية على محصولات الناس ، واقواتهم قسرا . دفعت فيها اثمانا بخسة ، لتغذى بها العساكر فى الجبهة . وعاونت الحكومات « الوطنية » الانجليز فى ذلك . ولا ندرى هل كانت المعاونة طوعا او كرها . فالحكومات حليفة الاستعمار . ومن الصعب التفرقة بين القسر والرغبة الحرة .

وتحسن مستوى الغذاء فى أواخر الاربعينات ، واوائل الخمسينات . اصبح قطاع كبير من الناس ياكلون الفول !

شهقت الفجرية قائلة :

— الفــول !؟

— اجل ، هل تستكثر ن الفول على الناس ؟

— مطلقا . ان دهشتى لسبب آخر .

— ما هــو ؟

— انت مثقف ومناضل . ولست سطحيا كبعض الناس الذين التقيت بهــم .

— قولى دون مقدمات ، ولا تخاف .

— الفول تأكله الحيوانات فحسب فى اوربا . لست اقصد اوربا المتقدمة، كانجلترا والمانيا وفرنسا ، ولكنى اقصد كذلك أوربا نصف المتقدمة كايطاليا ، ونصف المتخلفة كاليونان ! والاذرة التى ذكرت ا ن الخبز ، الذى تأكله الكافة ، يصنع منها ، هى غذاء الخنازير .

رنت كلمات « الحيوانات ، واليونان ، والخنازير » فى وعى حسن ، وفى لا وعيه . ارتسم امامه على الفور محمد خطاب الخفير فى وسية الخواجة اليونانى ، حينما قال له كلاما مماثلا : العيش الاذرة والمخلل هو طعام العبيد . تذكر ابو حطب الخولى الذى سمع الخواجة يقول : ان الاذرة تأكلها الخنازير فى بلده اليونان . قالا له ذلك ليبررا سرقتهما للقمح من جرن الخواجة . وليحثاه على الانضمام اليهما ، وترك طعام العبيد والحيوانات .

لم يكن الفلاحون ، وحسن من بينهم ، يعرفون الفول كغذاء . كان هذا مستوى اعلى بالنسبة لهم . ولكنهم كانوا يرونه . وكان هو امينا على مخازنه . يطعم به البقر والجاموس والحمير المملوكة للخواجة .

اوجعه رد الفتاة عليه . أهله وعشيرته متخلفون عن الحيوانات فى اوربا . لكن لماذا يغضب ؟ هناك قلة تغتال عمل الكثرة . وتترف منه . تاركة لاغلبية الناس ، غذاء منحطا لا يليق بالانسان . وترغمه على ان ياكل غذاء الحيوان . الفتاة لم تقصد اهانته ، او اهانة بلده . انها تطعن الظلم الاجتماعى فى بلدها ، وفى بلده .

ولماذا يذهب بعيدا . اليس الفول غذاء لحيوانات الاغنياء فى مصر

نفسها ؟ الم يقدمه الكلافون لبهائم الخواجة اليونانى . بل ان الطعام الذى خلقه الله للناس ، تأكله الحيوانات ، وطعام الحيوانات يأكله البشر ! الم تر الى كلب خليلة الخواجة ، يطعم الحمام والمشويات فى فمه . وحصـــان الخواجة يطعم بالسكر ؟

ابتسم فى وجه الفتاة باشا . دهشت ، حيث توقعت غضبه . احب ان يقنعها ساخرا او جادا بطعامة الفول :

— الفول يا سيدتى ، وسيدة السفينة الاولى ! طعمه لذيذ .

— ما حكاية السيدة الاولى هذه ، اهكذا تنظر الى ؟

— انى أهزل معك . الا اهزل معك ولو مرة واحدة ؟

— حسن . انى استمع .

— الفول يعتبر غذاء لطبقات الشعب المصرى كله .

— غير معقــول .

— الطبقات الغنية تأكل الفول مشاركة منها لجماهير الشعب ! لكنها تأكله لماما . وتجعل منه طبقا « ارستقراطيا » . يأكلونه بالزبد ، والشعب يأكله بزيت بذرة القطن . يضيفون اليه البيض . واحيانا اللحم ، او الكبدة ، وشرائح الدجاج .

— هل تذوقت هذه الاطباق ؟

— سمعت عنها . ولكى اكون امينا ، فانى اكلت الفول بالبيض !

— هل هو لذيذ ؟

— كان طبقا يمثل مرحلة اعلى بالنسبة لى . فكان لذيذا !

— كأنك تأكل طعام الحيوانات ؟

تماما كما قال له ابو حطب الخولى فى وســية الخواجة اليونانى .
اعتذرت الحسناء عن هذه السقطة وقالت :

— نحن أصدقاء . وانا آسفة .

— لماذا تأسفين ، وهذه حقيقة .

— حسبتك غضبت .

— ان زميلا لك ، يزاملك الفكر ، لا يغضب ، والا غدا سطحيا .

— اشــكرك .

— انا آكل الفول فى الصباح . واعلم انه اكل الحيوانات ، حتى قبل ان التقى بك . ولكنه مستوى غذائى اعلى من الخبز الاذرة والمخلل والجبن القريش ، التى صاحبتنى نيفا وعشر سنوات . وتأكل الفول معى صباحا وظهرا ومساء ، ويصاحب احيانا بالطعمية ، وهى ايضا فول مجروش ، تأكله معى شرائح كثيرة من الطبقة المتوسطة .. ويشاركنا فيه المحظوظون من الطبقات الشعبية . ولو ان كثرة اخرى فى القاع ، لم ترق الى هذا المستوى بعد .

بدأت هذه الصورة تزم ما بين حاجبيها ، ثم قالت :

— وماذا صنعت الثورة ؟

— الثورة مازالت جديدة . عمرها ثلاث سنوات . وهى تكافح فى تطبيق قانون الاصلاح الزراعى . ولعل هذا القانون ، يحـول الفلاحين المستفيدين منه ، من مستوى العيش والمخلل الى مستوى الفول !

كيف تسكتون على هذه الاوضاع ؟

— سؤال كبير يتطلب جلسات طويلة من الحوار . ولو ان الشعب المصرى لم يسكت .

— كيف ؟

— قصة طويلة . دعينى اركز على الغذاء . الحكام ، والانجليز ، والراسماليون ، والمشايخ ، والقسس ، والاطباء ، ووزراء الصـحة ،

والاذاعـــة ، والجرائد ، كل اولئـك يقولون للنـــاس : ان الفـــول غنى بالبروتينات . لا تقل قيمتـــه عن اللحمة والبيض . فليهنأ الفقراء بأن الله خلق لهم الفول . والله نفسه كذلك ، هو الذى خصص اللحوم والطـــير والاسماك ، وغيرها من الخيرات للاغنياء فقط . وعلى الفقراء ان يقنعوا بما قسم الله لهم !

تقبل الشعب هذا الغذاء « الغنى بالبروتينات » . والذى يستخدم للحيوانات فحسب فى أوربا ، وحيوانات الاثرياء فى مصر . كان النـــاس راغمين . مستواهم الغذائى متدن ، فجاء الفول ، ورفع منه !

استمعت الفتاة اليه ، وحدقتاها تتسعان مع كل كلمة يقولها . وشفتاها تنفرجان مع كل عبارة . اندمج فى الحديث . لم يعد يرى فى العيون سحرا ، ولا فى الشفاة فتنة ! وسألته :

ــ الم يقل لهم احد ، ان البروتينات نوعان : نوع حيوانى ، يأتى من لحوم العجول والخراف والديوك الرومى والدجاج والاسماك . وهو النوع الممتاز ، الضرورى للجسد الانسانى . وهو طعام الانسان ، فى كل مكان يحترم فيه الانسان . ونوع نباتى ، وهو الموجود فى الفول وغيره من النباتات . وهو احط انواع البروتينات وافقرها . والاصرار على تناوله فحسب ، يصيب الانسان بفقر الدم ، والانيميا ، والبلاجرا ، وغيرها من امراض ســـوء التغذية .

ــ الهذا تشحب وجوهنا ، وتحمر خدودكم ؟ ! .. سابوح لـــك بسر : اناشخصيا لم اكن ادرى شيئا عن هذه التفرقة ، بين البروتينـــات الحيوانية والنباتية . لذلك كنت مخدرا انا الآخر ! وصدقت هؤلاء النـــاس فما بالك بشعب تطيح فيه الامية .

وأنهى « جونج » الغذاء هذا الحوار الشائك الشائق . اكبر الظن انه كان لهذين الانسانين ، بصفة خاصة ، نوعا من المشهيات .

* * *

السهرة تبلغ ذراها . الموسيقى تصخب تارة ، وتحلم تارة أخرى . ركاب السفينة يمتزجون بطاقمها . يرقصون رقصات « التانجو » «والفالس» الاوربية الهادئة . « والسمبا » « والرمبا » الامريكية اللاتينية الراعشة . « والروك اند رول » ، الامريكية المعربدة .

صديقنا حسن معزول عن هذا الجو . عزلته شـــطحاته الفكرية . ومجتمع لم يعلمه هذه الانواع من الرقص . اصابت اللعنة صديقته . صادفت رجلا ، صورة للشعب المصرى الكادح . حرمت نفسها من الضحك والمرح . كانت سعادتها فى الجلوس اليه ، والجدل معه . سعادة اكبر من هـــذه المتع ، التى تنضح من حولهـــا .

وجدت رفيقها فى انتظارها . لجين القمر ينسكب على وجهه . وكأنه يحاول ان يخفف من سمرته ! اتخذت مكانها الى جانبه . التصقت به ، كما لم تلتصق من قبل . احس الدفء يغزو جسده . لمح فى عينيهـــا ، على شعاعات القمر ، وثريات السفينة ، نظرات عميقة ناعسة ، ذات حلاوة خاصـــة .

لم تكن الغريزة قد قتلت فيه . لم تستطع الاحاديث المثقفة الثورية ، التى اسهمت فيها الغجرية ، ان تقضى عليها . كانت مضطجعة فى داخله . متحفزة ، تتوق لمن يوقظها . لم يكن متأكدا : هل الالتصـــاق الحميم ، والنظرات الحانية ، دعوة لامسية غرامية ؟ هل هى رغبة غجرية ؟ ام نحن مازلنا فى دنيا الثورات والمشكلات الاجتماعية ؟

لمح فى النظرات اعجابا . أهو اعجاب به كرجل ، ام اعجاب بمناضل ما زال يعيش عناءات شعبه ؟

يبدو أن الفتاة بدات تميل اليه . استجابته لرغبتها فى الابتعاد عن الجنس ، اثار اعجابها به . رات فى نضاله ، وفى اسهامه فى الحوار ، صورة حلوة ، لفتى سمهرى الروح ، رشيق الفكر ، قبل ان يكون قوامه

سمهريا رشيقا . بدأ قلبها ينبض نحوه نبضا خاصا . لا ندرى ان كانت احبته . فالحب بين الناضجين لا يتم فى يوم وليلة . لكن الواضح ان الفتاة تعلقت به . الاشراقة الناعمة فى عينيها ، والدفء المنساب من جسدها ، علامات على الطريق .

لم يفطن تماما لهـذا التغيير . حسـبه اعجابا بافكاره . وكـان هذا خطأ فادحا ! ولكى تزيد الغجرية من حيرته ، قالت له :

— هل ستحدثنى الليلة عن الحب والمشكلة الاجتماعية ؟

هذا ما كان يتوقعه تماما ، من الغجرية المثقفة . هذه الفتاة ، تمزج جمال الحب بقبح المشكلة الاجتماعية . اتعتقد ان الحب يحل المشـكلة الاجتماعية . وهل هذا ممكن فى مجتمعات تحتد فيها شراسة الانسان ، وضراوة التملك ؟ من العسير القول بانها ترمى الى ذلك . فهى مثقفة ، ومتعمقة فى مسار التاريخ . اتريد ان توسع من آفاق المشكلة الاجتماعية ؟ أتود أن تظهر ابعادها الاخرى ، غير السياسية والاقتصادية والاجتماعية ؟ وبذلك تمزج المشكلة الاجتماعية باجمل ما يملكه الانسان ، وهو الحب . الحب يشوه فى ظل نظام طبقى ظالم . ويسمو فى نظام عادل . يتساوى فيه الانسان والانسان . اذ كيف يزدهر الحب الا فى جو من المساواة . انفتاة عاشقة لمشكلة الانسان . كان على حق حينما تحفظ بالنسـبة لنظراتها الساهمة ، وجسدها المغروس فى جسده . ومع ذلك اراد ان يعزف على أوتار النظرات الشجية . وعلى دعوة الحب المدثرة بالمشكلة الاجتماعية ، وقال لهـا :

— الا نستطيع ان نفصل الحب عن القضايا الاجتماعية ؟

— هذه نظريتك . فقد قلت لى ان الحب والمشكلة الاجتماعية متلازمان .

— قد يكون هذا مرتبطا بقضية معينة ، ولم اقصد به نظرية عامة !

— انت تشوقنى للاستماع اليك . لعل الوقائع تساعدنا على صياغة النظـرية !

— اف لـك !

— نعـم ؟

تدفعينى احيانا للحديث بالعربية .

— وددت لو تعلمتهـا .

— انا مستعد ان أعلمك اياها .

— متى ؟ سأغادر الباخرة غدا .

شرخت هذه العبارة صدره . لمحت صوفيا الاسى على وجهه . حاولت جهدها ان تنسيه جراحه . ادركت سببها بغريزة الانثى . وقالت له :

— لا تستخدم براعتك فى الحوار ، وتغير مجرى الحديث .

فطن على الفور ان الرابطة الثقافية النضالية ، هى الاصل فى علاقته بهذه الفتاة . وحتى لو كان هناك تحول ، فمتى يتم ؟ انها راحلة فى الصباح . فليصر على انه حفى بعلاقتها الفكرية . المسائل الاخرى لا تشغله . ومع ذلك فقد ود لو يداعب رفيقته ، ليعرف حقا ان كانت لا تلقى بالا للجنس . قـال لهـا :

— ارجو ان تعذرينى ، اذا كنت قلت ان الحب والمشكلة الاجتماعية لا ينفصلان . هل نستطيع ان نفصلهما ، ولو لوقت قصير ؟

كانت دهشته بالغة حين اجابته :

— ممكـن !

مزقته هذه الكلمة ، كما لم تمزقه كلمة واحدة من قبل . اثارت أشجانه ، وتطلعاته ، وكبتا عمر ثلاثين عاما .

— هل انت جادة ؟

— نعــم .

— غير معقول ! هل تقصدين أن نفصلهما ، لنخضعهما للتحليل ، حتى يكون النقاش علميا . ؟

— لا . . اقصد أن نفصلهما كما تهوى !

اشتعلت عروقه . تصاعدت ضربات قلبه . داخله يمور . غطى جسده عرق غزير . أراد المناضل أن يحادثها فتلعثم . رات ارتباكه فقالت :

— ماذا دهــاك ؟

حاول أن يسترد جاشه ، فاجابها :

— لا شيء .

— لماذا قطعت الحديث ؟

— شعرت بدوار مفاجيء . سيزول حالا

احست جبهته بيدها . وجدتها متوقدة . قالت له :

— هل احضر طبيبا ؟ ام تود أن تذهب الى غرفتك ؟

طمانها انه بخير . تركته لحظات ، ليستعيد قواه . قالت له :

— هل يحدث لك ذلــك الدوار دائما ؟

— لا . يحدث فقط فى لحظات معينة . يخيل الى انه يحدث لى لاول مــــرة !

ولم تفهم . خشــيت أن تكون قد قســت عليه . وقلبت العــلاقة معه الى علاقة فكرية فحسب . لكنها الآن تصدقه القول . انهــا على استعداد لفصل الحب عن المشكلة الاجتماعية . ما باله لا ينتعش ويستجيب. قالت له بنغمة انثوية ، ليست فى حاجة لاستخدامها :

— هل نذهب الى غرفتك . او الى غرفتى ؟

اندلع فى داخله حريق . اسهمت عوائق الدنيا والآخرة فى اطفــاء

الحريق . عاقته عن تقبل العرض الجميل ، الذى كان حلما : الدين ، والقيم ، والنضال ، والحرمان الطويل . اخذ يتساءل تساؤلات غريبة : هل الفتاة بكرا ام سيبا ؟ . . اذا كانت « بكرا » ، فقد صور مجتمعه البكارة غولا مخيفا . ازالتها جريمة كبرى ، لا يود ارتكابها . واذا كانت « سيبا » ، فمن الذى سيبها . ! . . لم يسألها عما اذا كانت متزوجة . لا يريد أن يعتدى على حق انسان آخر .تجمعت عليه عقد تاريخية مركبة ، جعلته ينكص عن العرض .

— لكن الحوار فى غرفتك حوار مكبوت .

— لا تخف . سيكون هذه المرة طليقا !

احب ان يراوغ . لا يريد ان يشوه صورة الفتاة الثائرة فى وجدانه ! وسأل نفسه سؤالا اشد غرابة : الا تخاف من الحمل ! ؟ . انها ستغادره غدا . هل يتركها وحدها ، تجتر عذابات ليلة واحدة ، مع انسان غريب ؟ واقترح عليها أن يواصلا الحديث عن الحب والمشكلة الاجتماعية ! !

فطنت الى انه يتهرب . وعلى الرغم من ثوريتها وثقافتها . وعلى الرغم من رغبتها فى الاستماع اليه ، الا انها شعرت بجرح موجع . اعتذر عن دعوتها ، وكانت احلى امانيه . الانثى التى يتحدى جمالها نساء السفينة جميعا . ظهرت خيبة الامل فى عينيها . حاولت ان تداريها ، فلم تستطع . استأذنته لتنام مبكرا ، فستغادر السفينة فى الصباح . تركته مضيعا .

لم ينم طــوال ليلته . بكر فى الذهاب الى غرفتهــا . دق بابهــا . جاءه الصوت الغجرى الذى يعشقه : ادخل . تهللت لرؤيته . ظنت انه جاء ليعتذر لها . ويدغدغ مشاعر الانوثة فيها . والحق انه ذهب ، ولم تستبعد مشاعره هذه المعانى . الرغبة فيها ، وتردده ، ارقا جفنيه ، استعرا فى صدره طول الليل .لكن العقبات الاجتماعية والتاريخية عقبات ضاريات . وتقف جميعا ضد رغبته فيها . قال لها وليته ما تكلم :

— جئت اعاونك على حمل حقائبك !

اشاحت بوجهها عنه . لكن البسمة الهادئة التى لقيته بها اول مرة ، ما لبثت أن عادت الى شفتيها . وقالت له بهدوء مبالغ فيه :

— خل عنك . الحقيبة خفيفة ، أستطيع حملها . انا لست مترفة . انا عاملة فى مصنع للنسيج بكابرى . نشأت فى اسرة شعبية ، ربها عامل فى ورش السكك الحديدية .

وبهت حسن : كل هذه الثقافة ، والثورية ، والمعـرفة ، وعاملة نسيج : يا للعمال والمثقفين فى بلدى . كابرى ! التى انفق الملك فاروق ثروة مصر ، وعمل فلاحيها ، على الغوانى فيها . كابرى هذه تنتج هذه الثائرة ، التى تشغل وجدانها بمشكلة الملايين الكادحة فى مصر ؟ !

وعندما عاد اليها هدوءها . استأنفت حديثها معه . وتمنت لو قص عليها صور الحب والمشكلة الاجتماعية فى بلده . وقد كانت على استعداد ان تحدثه عنها فى بلدها . لولا ان السفينة رست فى نابولى . وحان موعد الفـراق .

ولما صعدا الى ظهر السفينة . وصاحبها الى سلم الهبوط الى رصيف الميناء ، مد لهـا يده :

— وداعا يا فتاتى .

كان عهده بالمناضلين ، أن الفقر يشوه وجوههم . والتخلف يهزل ابدانهم وعقولهم . ولكن بعد لقائه بالغجرية المثقفـة ، ادرك ان هنـاك مناضلات يجمعن بين العقل المستنير ، والجمال المثير . كانت ثقافة الفتاة ، وحصيلة المعرفة لديها ، والطاقة الثائرة فى وجدانها ، قد ردت الأمل لفتانا . فأصبح اكثر ايمانا بأن الكادحين فى قدرتهم أن يتحرروا من نير الظالمين .

مد لها يده ... لم تأخذها . كانت تخبىء له مفاجأة : قبلته فى فمه

قبلة طويلة مسكرة ، تركته يترنح ! اهذه قبلة للحب ، أم قبلة للنضال فى سبيل المشكلة الاجتماعية ، أم هى مزيج منهما ؟

اقلعت السفينة من نابولى . وصلت الى جنوة مع الغسق . ركب حسن القطار . قام برحلة ليلية . كأنه أراد ألا يرى فى رحلته الى انجلترا ، غير صوفيا الايطالية ، وشواطىء بلادها الجميلة . اغمض عينيـه على صورتها . ركب السفينة من كاليه بفرنسا الى دوفر بانجلترا . كان الصبح قد تنفس . وبدت انجلترا لناظريه .

* * *

الريف الانجليزى . الخضرة الخضراء تسقيها السماء مباشرة ، دون وساطة الانهار ! الزهور تحيط بالمبانى الانيقة ، ذات الاسقف الحمراء . حبات المطر تنحدر عليها ، فتغسلها . وتزيدها رونقا وبهاء . ما بال المطر هنا ينثر درره ،فيزيد الريف رواء ، بينما يجعل من الريف المصرى كومة من الوحل والروث . ويجعل من القاهرة مستنقعا كبيرا ؟

تفى ارجوك . لا استطيع ان ادرس ، واستمتع ، والمقارنات تثب الى ذهنى ، وتعكر صفوى . وأبرم مع الذاكرة هدنة . اشترطت لكى تكون امينة معه ، أن تكون مؤقتة وقصيرة .

الفلاح الانجليزى ، يتخايل فوق الجرارات ، وآلات البذر والحصاد . يرتدى حلة من الصوف . وقبعة انيقة . ويلبس حذاء جلديا ، تصل رقبته الى ما تحت الركبة . مرت صورة الفلاح المصرى كالصاروخ فى مخيلته : ممزق الثياب ، حافيا ، تخترق البلهارسيا جلده ، لتسكن عروقه ، ولتأتى على ما يسيل فيها من دم فقير . ومرق سهم آخر : الى اى مدى تسبب هذا الفلاح المتقدم فى فقر ذلك الفلاح المتخلف ؟

— هذا مستحيل .

— أعتذر اليك .

— لقد وعدتنى بهدنة .

— آسفة وسأحافظ على وعدى قصير الاجل .

انسابت صور الريف الانجليزى رائعة : الحدائق النضر . والتلال الحمر . والغابات الخضر ، تعكس نغمات اللون الاخضر جميعا . البحيرات الزرقاء تنساب فوقها حمائم بيضاء ، ذات اشرعة ملونة .

بشر صحيح البدن . تطفح وجوههم بالحياة . تفيض أبدانهم قوة . أطفال يتخطرن كالطير ، ويطفرن كالغزلان .

حتى الحيوانات . البقر والخيل تنبض اجسادها بالقوة والعيشة الرخية . حيوانات مترفة لا تعمل . أمر غريب ! ايعجب المرء بالانسان العامل ، وبالحيوان المتعطل ؟ ادى استخدام الآلات فى الانتاج الزراعى الى أن يعفى الحيوان من العمل . تبطل العامل ينخفض بالانتاج ، ويتسبب فى تأخر الانسان . لكن تعطل الحيوان ، فى هذه المجتمعات يسهم فى رخاء الانسان .

البقر والحمير والجاموس الهزيل فى مصر . البهائم الجائعة المتخلفة ، العاملة كالانسان ! هل الحيوانات عندما تنتمى الى مجتمع متقدم ، تكون متقدة هى الاخرى ؟ احتج حسن على ذاكرته :

— أنت لا عهد لديك !

— نحن فى دنيا الحيوانات ، لا دنيا البشر . وكان اتفاقنا على بأساء الانسان فحسب .

— أنا قصدت بأساء المجتمع كله .

— لك حق . فالحيوان شريك للانسان فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية . فهو جزء من المجتمع الانسانى ! وانى لاعدك ان انفذ الهدنة القصيرة .

— اشكرك ، رغم ان ثقتى فيك ليست كبيرة !

القطار النظيف المريح . لا ينقسم فيه الناس الى طبقات ! يسرى كالنسيم فوق القضبان . لا تكاد تحس له صلصلة ، أو صفيرا ، ولا يثير غبارا . أنهى القطار متعة حسن بالريف الفاخر . أوصله الى لندن بسرعة .

المدينة العتيدة الشاسعة . مبانيها منخفضة . تتكون من طابق أو اثنين . تحيط بها حدائق فيحاء . ينسق فيها الورد البلدى ، متعدد الالوان . بدت له لندن مدينة من الفلل والورد البلدى !

* * *

— ٥ —

رحلة البحث عن مسكن رحلة مأساوية . عرت أمامه جانبا من حضارة « الرجل الابيض » . عندما وصل الى لندن ، اقام فى نزل كبير ، يطلق عليه « البوردنج هاوس » . لكنه يود ان يسكن وسط أسرة . يستأجر منها غرفة . وذلك ليتسنى له ان يحسن من لغته الانجليزية . وليدرس عن كثب الاسرة فى هذا البلد .

بدأ مشوار البحث . الغرف المعروضة للايجار ، يعلن عنها ، اما على واجهة المنازل . واما لدى السماسرة . اراد حسن ان يوفر عمولة السمسار . ذهب بنفسه يدور على الدور . فاجأه الاعلان التالى :

« غرفة للايجار — الملونون لا يقبلون » ، او كما يقول المعلنون عن سياراتهم للبيع فى الجرائد المصرية : « الوسطاء يمتنعون » . وذهب الى بيت ثان : « الملونون يمتنعون » . وهكذا بيت ثالث ورابع . وفى المحاولة الخامسة لم يستطع ان يهضم الفكرة .

هل هو ملون ؟ ماذا يعنى الاصطلاح ؟ دق جرس الباب . وأطلت منه

ربة البيت . نظرت الى بشرته الداكنة . قالت على الفور : « آســفة ، الملونون لا يقبلون » . أحب أن يحاورها . قفلت الباب . تهلل كثيرا ، اذ وجد غرفة أخرى . لا يذكر اصحابها شيئا عن موضوع الملونين . قرع الباب بمقرعة من الحديد ، تشبه مقارع البيوت القديمة فى القاهرة ! فتحت سيدة الباب . لم تقل شيئا . لم ترد على تحيته لها . صفعت الباب دون أن تتكلم .

اشتكى لزميل له بالكلية ، من ايرلندة ، يدعى وليم . اجابه : الحى الذى تبحث فيه عن غرفة ، هو حى الطبقة المتوسطة العليا . وهى تحاكى الارستقراطيين . وهم قوم محافظون ، أفكارهم قديمة .

وسأله حسن :

ــ الم يتثقف هؤلاء الناس ، ليعرفوا أن هذه النظرة للاجناس نظرة متخلفــة ؟

ــ هذه مشكلة عويصة . ربما نناقشها معا فى وقت آخر . واجدر بك أن تتفرغ الآن لايجاد سكن ، يقيك التشرد ، بدلا من الحوار !

أقترح عليه صديقه حيا للطبقة المتوسطة « الوسطى » أو « الدنيا » . المساكن هناك أرخص . ولن تجد هذه النظرة العنصرية الصارمة .

ذهب حسن الى تلك الاحياء . لم يجد الطبقة المتوسطة « الوسطى » . احسن حالا من الطبقة المتوسطة العليا . ولا الطبقة المتوسطة « الدنيا » ، اقل سوءا من الشريحتين اللتين تعلوانها .

عجيب أمر هذا البلد . يفاخر ابناؤه بأنهم طبقوا الديمقراطية فى اول مجتمع بشرى فى العصر الحديث . بعد أن كانت الديمقراطية فكرة نظرية فى عهد الاغريق القدامى . الديمقراطية تتضمن المساواة الكاملة بين الناس . بغض النظر عن الجنس أو اللون او الدين . انهم يقولون كذلك بأنهم ينشرون « رسالة الرجل الابيض » على وجه الارض ، لينعم العـــالم بالحضارة والديمقراطية .

خطرت له فكرة مجنونة . غير انه يحتاج الى مرافق ، فالفكرة خطيرة . وهو فى عرين الاسد . الاسد البريطانى ، كم ارهبه وهو صغير . ارهبه « كاريكاتيرا » فى الصحف المصرية . وأرهبه وهو شاب فى الجيش . كان يذهب الى شاطىء النيل ، لينعم بفسحة العصارى يوم الخميس . بعــد اسبوع من الطوابير والمناورات الشاقة . منظر ثكنات الجيش الانجليزى على شاطىء النيل ، يفسد متعته . جنود الاحتلال يلوثون النهر ، الذى تستقى منه مصر الخضراء . وضـــع على مدخل كوبرى قصر النيل اسدان حديديان . رمز بريطانى ، يثير فى وجدانه غثيانا وقهرا . مازال الاسدان يقبحان الكوبرى ، والنيل من تحته . حتى بعد جلاء الانجليز بثلاثين عاما !

لابد أن يتشبث بحقوقه فى هذا البلد . يكفيها أنها سلبت حقوق شعبه نيفا وسبعين عاما . اختار زميله الايرلندى ليرافقه فى تنفيذ فكرته . قال له :

ــ سوف اسكن احدى الغرف الممنوعة على « الملونين » .

ــ اتريد ان تشق طريقك الى الغرفة بالقوة ؟

ــ لا . لن اقول لك ماذا سافعل . ولكنى اسألك : هل ترافقنى ؟

ــ دون ان اعلم موضوع المرافقة .

ــ هل انت خائف ؟

ــ نحن قهرنا الانجليز يا بنى !

ــ ونحن فى سبيل قهرهم .

ــ سأذهب معك .

ــ يا ولد . هذه شهامة اولاد البلد !

وشرح حسن لصديقه « وليم » ، شهامة اولاد البلد الفقراء . حتى لو كان ذلك على حساب مواردهم المحدودة ، والاخطار التى قد يتعرضون لهـــا .

فى صبيحة يوم من أيام السبت . بدأ الصديقان المصرى ، والايرلندى ، تنفيذ الفكرة ، التى لم يطلع حسن زميله عليها . مضيا من بيت الى بيت ، حتى اتيا الى بيت صغير أنيق . تحف به حديقة صغيرة ، فواحة بالورد البلدى . اليافطة اللعينة تعلن بحروف اكثر بروزا من غيرها : « الملونون ممنوعون » . دق وليم الجرس . فتحت الباب زهرة يانعة . مازالت اكمامها تحرسها . بنت صغيرة ، فى عمر البرعم ونضارته . بادرتهما :

— صباح الخير .

وردا عليها معا .

— صباح الخير .

واكمل حسن :

— كيف حالك ، أيتها الفتاة الجميلة ... أيتها السيدة الصغيرة ؟

— فى أحسن حال . اشكرك . ماذا استطيع ان افعل من اجلكما ؟

اغرت الفتاة حسن على أن يتولى هو الكلام :

— أين والداك ؟

ردت ردا فيه اعتداد الكبار :

— أنا اقوم مقامهما .

— أريد أن أستأجر الغرفة الخالية عندكم .

— تفضلا .

قادتهما الى الغرفة ، ليتفرجا عليها . وقالت لهما :

— أتروق لكما . ؟

ورد حسن :

— نعم .

— هل انت الذى ستسكن عندنا ؟

— نعم . اذا احببت .

وخشى حسن ان تكون الصغيرة على علم بموضوع الالوان . وان والديها قد صبا فى جوفها ذلك الشراب العنصرى المر . كان يخشى على هذه الفتاة الطهور أن تلوثها تلك القيم ، اكثر من خشيته على ضياع الغرفة منه . اجابت الفتاة فى لغة حلوة :

— تفضل . مرحبا بك .

عال . جلس الشابان فى الغرفة انتظارا لرب البيت او ربته . جاءا معا فى الثانية عشرة . طارت العصفورة . تحمل لهما النبأ : مامى — دادى . انا اجرت الغرفة الخالية . قمت بعملكما . الضيفان ينتظرانكما فيها . وجاء صاحبا المنزل الى الغرفة الموعودة ، ووجما : من المستأجر الابيض ام الاسمر ؟ لم يحييا الشابين . وقاداهما الى غرفة المعيشة . خاطب الرجل وليم :

— هل انت الذى تريد ان تستأجر الغرفة ؟

واجابه وليم :

— لا . هذا السيد . هو الذى يحتاج اليها .

— حسبتك انجليزيا .

فطن الرجل اللماح الى ان لهجة وليم ، ليست لهجة انجليزية نقية . ورد عليه وليم :

— لا انا ايرلندى .

بدا على وجه الرجل ، على التو ، ان الايرلندى اخذ يتنزل من نظره . انخفض من قمة الجنس الابيض ، اى الانجليزى ، الى حضيضه ، اى الى ايرلندى ! لهذا خاطبه على الفور دون مجاملة :

— الم تقرا اعلان تأجير الشقة ؟

ورد وليم :

— نعم قرأنـــاه .

— كيف تدخلان بيتى ، اذن ، فى غيبتى ، وغيبة زوجتى ؟

كان الرجل الانجليزى ، صاحب البيت ، يخاطب وليم فقط ، واهمل حسن تماما . طعنة فى كرامته ، صبر عليها . ولكن عندما لفظ عبـارته الاخيرة رد حســـن :

— ان ابنتك الجميلة ، كانت لطيفة ، ودعتنا للدخول .

وهنا تدخلت « البرعمة » بحماس وبراءة :

— نعم يا دادى . انا طلبت منهما الدخول وانتظاركما .. وددت ان اقوم بعملكما . هل ارتكبت خطأ ؟

طلب الرجل من ابنته الذهاب الى حجرتها . غادرت الحجـــرة . وبعد ان قفلت الباب خلفها قال صاحب البيت :

— هذه بنت صغيرة . ما كان يجب ان تستغلاها .

وانتفض وليم :

— كيف تخاطبنا بهذه اللغـــة ؟

— كيف تقتحما بيتى دون اذن ؟

وتولى حسن الكـــلام :

— الحقيقة اننى لم افهم الاعلان تماما عندما قرأته .

ورد الرجل :

— كتبت فيه ، بحروف كبيرة جدا ، يقرؤها من له عينان ، ان الملونين لا يقبلون .

كان الرجل مصرا على مخاطبتهما بلهجة غير صديقة . وكان وليم متحفزا لمهاجمته لولا أن حسن كان يستوقفه . وقال حسن :

— من تقصد بالملونين ؟

— كل من ليس أبيض .

— فى شمال مصر ، مصريون بيض البشرة . وفى تونس والجـــزائر والمغرب ، وسوريا ولبنان وفلسطين بيض كثيرون . هل تعتبر هؤلاء من الجنس الممتاز ، ومواطنيهم السمر او السود من جنس منحط ؟

— لا اريد ان ادخل معك فى جدل . انت اسمر ملون . ولن تسكن غرفة فى منزلى على الاطلاق !

وتدخل وليم :

— صديقى جاء من بلد له حضارة عمرها سبعة آلاف عام . وهى اول الحضارات الانسانية على الاطـلاق . تسبق الحضارة الرومانية بأربعة آلاف سنة . وعندما جاء الرومان لغزو بلادنا ، كانوا يطلقون على سكان الجزر البريطانية : البرابرة .

— لا اريد درســـا فى التاريخ .

واجهز عليه وليم :

— فاذا جاز أن يكون هناك جنس ممتاز وآخر منحط — وهذا لا يجوز الا فى الفلسفات الرجعية والاستعمارية — فان الجنس المصرى من أرفع الاجناس . والانجليز من احطها .

وهم الرجل ان يلكمه ، لولا ان ضبط نفسه . وببرود شديد ، قال لهما:

— عن اذنكما ، سأذهب للتواليت .

وبعد دقيقتين تماما ، دخل الحجرة . لم يكن وحده . كان معه جندى من جنود الشرطة . عريض المنكبين ، فارع الطول . خفض من رأسه لكى

يمر من باب الحجرة أحمر الوجه . صارم الملامح . وجهه مكتظ باللحم والجهـامة .

هم حسن باستقبال رجل الشرطة واقفا . كان الوقوف طبيعيا . فهذا ممثل البوليس البريطانى . ومنظره الفخيم . لا يثير الرهبة فحسب ، بل يثير الاحترام ايضا . كذلك ، نشأ فتانا نشأة قروية . كان ومازال ، يقف لاى انسان يدخل عليهحجرة ، وهو جالس . يقوم لتحيته مهما كان موقعه فى السلم الاجتماعى .

أومأ اليه وليم ان يبقى جالسا . يا بنى ، يا حبيبى . نحن نقف للشرطة فى مصر حتى للعساكر ! كانت بدلة رجل سكوتلانديارد فاخرة . صـحته جيدة . معتد بشخصه . لم يكن من الممكن ان يفرق المرء بين ضـابط وعسكرى . الزى واحد . الكرامة واحدة . والصحة الجيدة واحدة ! ونظر حسن الى وليم متعجبا . كانت نظرة وليم حاسمة . بقى مكانه جالسا . ورأى وليم واضعا ساقا على ساق . ففعل نفس الشىء ! كان الجلوس ، ووضع ساق على اخرى ، والشرطى وصاحب البيت واقفان ، كل اولئك هدأ من روعه ، وأعطاه ثقة .

تساءل الشرطى :

— ما المشكلة ؟

ورد صاحب البيت :

هذان الرجلان اقتحما منزلى فى غيابى . ويريدان استئجار الغرفة الخالية بالقوة .

اندفعت الفتاة الصغيرة نحو ابيها والشرطى قائلة :

— لا يا دادى . انا قلت لهم يدخلان البيت ، وينتظرانك .

كانت البرعمة قد اثارها أن يحضر شرطى من سكتلانديارد الى منزلها .

فدخلت الغرفة خلفه . ولما رات « دادى » لا يقول الحقيقة ، اعترضت عليه . . بخ . بخ ! ايتها الوردة المبرعمة النضرة .

وجه رجل الشرطة سؤالا الى وليم :

— ما الذى جاء بكما الى هنا ؟

— جئنا لنستاجر الغرفة المعلن عنها للايجار .

— بالقـــوة . ؟

— لعلك سمعت ما قالته البنت الصغيرة ؟

— سمعتها . انما هذه طفلة .

تصدى حسن للاجابة . جاء دور القانون :

— لكن قولها ينفى اننا اقتحمنا المنزل عنـــوة . وينفى اهم ركن فى الجريمة وهو القصد الجنائى .

دهش الشرطى للاجابة ، وقال :

— هل انت طالب ام محام ؟

— اقوم بدراسة الاقتصاد لنيل الدكتوراة . لكنى درست القانون كذلك.

وقال رجل البوليس :

— سأسال كل منكما سؤالا واحدا فحسب . بعده اتخذ قرارى . وتوجه بسؤاله الى رجل البيت :

— اتريد ان تؤجر هذه الغرفة لهذين السيدين ؟

وتدخل حسن :

— انا الذى اريد استئجارها .

ورد صـــاحب البيت :

— لن يسكن غرفتى ملون .

— وسأل الشرطى حسن :

— هل تصر على سكنى الغرفة ، بعد ان رفضك صاحبها ؟

— نعـــم !

وعقب الشرطى :

— اذن هيا بنا الى مركز الشرطة .

مركز البوليس ، مبنى صغير ، رئيسه كونســتابل . يســمو « الكونستابل الرئيسى » يجلس فى غرفة متواضعة . ابلغه الشرطى الذ صحبنا ، بادعاء طرفى النزاع . منظر الكونستابل كان مهيبا ، صارما حياهم تحية بعد الظهر « من تحت ضرسه » . ودعاهم للجلوس .

قرر الكونستابل ان يحقق الموضوع بنفسه ، فهو يضم انجليزيا ، وايرلنديا ، ومصريا . وسأل الشرطى :

— هل تأكدت من واقعة دخول المنزل قسرا ، دون اذن صاحبه ؟

— هذه الواقعة لم تثبت . فعندما ادعى صاحب البيت ذلك ، ردت عليه ابنته ، بأنها هى التى طلبت منهما الدخول ، وانتظار ابيها ...

— ما سن هذه الفتاة . ؟

— نحو عشر سنوات .

وبدا رئيس المركز التحقيق بسؤال صاحب المنزل :

— مـــا شـــكواك ؟

— دخل هذان الرجلان منزلى فى غيابى ، واحتلا الغرفة الخـــالية بالقوة ، حيث وضع فيها المصرى حقيبة ملابســه .

— دعنا نتجاوز عن مسالة دخول البيت فى غيابك ، فقد ثبت ان ابنتك هى التى سمحت لهما بذلك .وهذا امر اثباته عسير .

وسأله المحقق :

— هل ارتكب المصرى او زميله مخالفة اخرى فى المنزل ، غير رغبتهما فى استئجار الغرفة .

— لا .

— الا تريد تأجير الغرفة للمصرى ؟

— لا . وما كان له ان يدخل بيتى . انا كتبت فى الاعلان المعلق على باب المنزل بخط عريض « الملونون لا يقبلون » .

رفع رئيس الشرطة قبعته المشهورة . ثم حك جبهته ، ووضعها على راســه مرة اخـــرى :

— ماذا تقصد بالملونين ؟

— كل الاجناس عدا الجنس الابيض .

ثار وليم . تدخل فى المناقشة ، دون اذن من رجل البوليس :

— صديقى ليس ملونا .

وتدخل حسن :

— لا يا وليام . انا ملون . انا أسمر !

وهمس وليم فى اذن حسن :

— لا تهزل . فنحن فى مركز البوليس .

واستطرد وليم :

— سيدى رئيس الشرطة : ان صديقى جاء من بلد متحضر . اشعت حضارته على العالم بأسره ، منذ آلاف السنين . ولا يمكن ان يوصف جنسه بانه متضع . وانا اعتبر هذه اهانة يجب ان يحاسب هذا السيد ، صاحب المنزل عليها ...

ورد رئيس الشرطة :

— أنت ستعقد المشكلة . لا نريد تفريعات للمشكلة ، اذا اردتم حلها .

ثم سأل حسن :

— هل دخلت منزل هذا الرجل دون اذن ؟

— الفتاة الصغيرة « الجميلة » ، هى التى سألتنا ان ندخل .

— هل رأيت الاعلان المعلق على الباب الخارجى ؟

— نعم . ولم أوافق عليه .

— لمـــاذا ؟

— لاننا فى انجلترا ، وانتم تفخرون بأن لديكم دستورا يكفل الديمقراطية والحرية والمساواة بين الناس جميعا . فكيف تميزون بين الملون وغير الملون؟

— هل قرأت دستور بلادنا ؟

فطن حسن الى أن الكونستابل يمتحنه . فليس هناك مجلد يطلقون عليه الدستور فى انجلترا . وأجابه :

— دستور بلدكم غير مكتوب. ولكنه مجموعة من القواعد والنظـم والسلوكيات ، استقرت فى التاريخ البريطانى ، ولا تستدعى جمعها فى كتاب، كما تفعل بلاد اخرى .

— هل درست تاريخ انجلترا الدستورى ؟

— نعم . نظام التعليم الذى ادخله الانجليز عندنا ، جعلنا نعرف ملوككم جميعا . ولا نكاد نعرف ملوك الفراعنة !

بسمة محافظة على شفاة الكونستابل :

— انت محظوظ ! ماذا كان حالك لو ذهبت الى الولايات المتحدة ؟ هناك لا تستطيع ان تركب أوتوبيسات البيض . ولا الدخول فى مدارســهم او معاهدهم . ولا الاكل فى المطاعم المخصصة لهم . ولا الفنادق ، ودور اللهو . ومنازلهم ، من باب أولى ، محرمة على الملونين .

— الى هذا الحد ؟

— هل لك صديقة انجليزية ، او بيضاء ؟

— لا ، للاسف . مازلت أبحث !

قال رئيس الشرطة ، الذى لم يكن تنقصه روح الفكاهة :

— ارجو لك التوفيق !

— من « بقك لباب السما » !

وقرب حسن المثل الشعبى الى ذهن الكونستابل .. الذى عـــاد يخاطب حســـن قائلا :

— لو وجدوك مرافقا لفتاة بيضاء ، قد يتقضيك ذلك حياتك . ربما قرأت عن العصابات البيضاء ، التى تجعل من قتل الملونين رسالة وهواية .

وقال حسن بعد تردد ، فهو فى عرين الحرس الداخلى للامبراطورية :

— ارجو ان تسمح لى بالقول ، بأن الامريكان هم ابناؤكم . الستم الدولة المستعمرة الام ؟ انجلترا ارضعت ابناءها فى الولايات المتحدة ، هذا الازدراء للاجناس غير البيضاء .

وفطن رجل الشرطة البريطانى الى ان متهمـــا « ملونا » يهـــاجم الامبراطورية . قال بصوت جهورى :

— لا تنس انك فى انجلترا ، وفى قلب لندن ، وقلعة البوليس . فلا تقل شيئا يؤخذ عليك .ويعقد المسائل ضدك .

وتساءل حسن :

— هل الاجناس البيضاء كلها سواء فى هذا التعالى السلالى ؟

— لو درست تاريخ الاجناس ، لوجدت ان الجنس الانجلوسكسونى هو اعلى الاجناس .

وتململ وليم فى كرسيه . وبدا ارتياح على وجه صاحب المنزا . واحب حسن ان يستخدم اساويه الساخر . فقال مخاطبا الرسستابل :

— هل ادلى لك بطرفة تاريخية عن الاجناس ، التى تتصارع على سيادة الجنس البشرى ؟

— تفضـــل .

— ان فلاسفة العنصرية ، وقادتها ، امثال نيتشة وهتلر ، الذين يؤمنون بســـمو جنس وانحطـــاط الاجنـــاس الاخـــرى ، يقولـــون : ان « الانجلوسكسونيين » ، الذين يتباهى الانجليز والامريكان بالانتماء الهم ، ويستمدون منهم التفوق السلالى ، جاءوا من المانيا ! ولم يكونوا اعلى جنس هناك ، بل كان الجرمان الآر ون ، اعلى الاجناس على الاطلاق !

يبدو ان « الطرفة » وخزت الكونستابل . وطعنت صاحب البيت عميقا فى علو جنسه . ولكنها اطربت وليم الايرلندى . وقال الكونستابل :

— اذا كنت متعمقا فى قراءاتك عن العنصرية . بهذا الشكل ، فلماذا تلوم هذا السيد ؟

— انا لا الومه . ولكنى الوم فلسفة نظام بأسره .

كان التحقيق والحوار ، قـــد طالا . وجـــاء موعد انصراف كبـــير الكونستبلات . قال لهما :

— هذا هو قرارى : لم يثبت دخول هذا السيد المصرى منزل السيد الانجليزى بالقوة ، دون اذن . نبهنا على السيد المصرى الا يدخل بيت غيره بهذه الطريقة .

ارجو ان توقعا على المحضر .

وقعا . وانصرفا .

* * *

« زوبعة فى فنجان » .

كان حسن يود ان يثير قضية الاضطهاد « اللونى » فى قلب البوليس . حتى ولو خاطر بدخول منزل انجليزى فى غيبة صاحبه . وكان لديه امـــل « رومانسى » ، فى ان البوليس سيرغم الرجل على تأجير غرفته له .. كان يطمح كذلك ان تنشر الجرائد قصة الامتهان العنصرى . لكن خاب امله .. الحرية والمساواة فى التقاليد الدستورية الانجليزية ، وضعت للانجليز ، ينعمون بها وحدهم . اما الملونون فهم قادمون من بلاد معظمها مستعمرات لهم . يمارسون فيها السيادة على شعوبها . والاستيلاء على خيراتها . كيف يتخيل المسودون ان يتساووا مع السادة ، فى معقل السيادة ؟ لو حدث ذلك لتداعت الامبراطورية .

لكن الفكرة تنغص عليه عيشه : كيف يحتقر وطنه بجنود الاحتلال الانجليزى ؟ ويمتهن هو فى انجلترا نفسها امتهانا عنصريا ؟ طفق يبحث عن حل يزحزح به هذا الحجر الثقيل الجديد عن صدره . لا وسيلة غير الحوار ! يبدو ان الحوار اصبح طريقا للهروب من المآسى . لقد جابه المآسى الفردية، التى حاقت به وبأسرته . ولكن حينما تصبح المأساة دولية ، كحالة الاحتقار العنصرى ، ماذا يمكنه ان يصنع ؟ لقد وصل الى نتيجة فى تحليله لقضية مجتمع الوسية ! لابد له من جماهير غفيرة منظمة تجتث جذور الوسية . فهل يتطلب الامر التخلص من الوسية الاستعمارية ، التى تضطهد الاجناس الملونة، ثورة شعوبية ؟

اذا كان الامر كذلك فلجوءه للحوار ، كلما تأزمت به الامور ، يعتبر مشروعا . من يحاور ؟ وليم . انه ايرلندى . ولو انه غير ملون ، الا انه فى اسفل سلم السلالات الممتازة ! وهو مستنير الفكر ، يعادى الاستـــعمار والراسمالية . فى جلسة من جلسات الشاى فى الكلية، بدأ حسن الحديث :

— وليم . بماذا تفسر هذه الظاهرة العنصرية ؟

— ورد عليـــه وليم :

— فكرة السموالعنصرى ، فى نظرى ، نشأت اساسا من العلاقات

الاقتصادية والاجتماعية بين الناس . المجتمع الطبقى تملك فيه طبقة راس المال والارض . ولا تملك الطبقات الاخرى ، وهى الاكثرية ، الا عملها . ينبنى على ذلك ان الطبقة الاولى تستخدم الفئات الاخرى باجر . هـذه الطبقة هى التى تدفع الاجر ، وتحدده ، وتمنعه ، بطرد الآخرين من العمل .

لذلك تتحكم فى ارزاقهم ، ومن ثم فى رقابهم . كما كان حال الارقاء والعبيد فى العهد الاقطاعى والعهد القديم . العلاقة هنا هى علاقة سيد بمسود . فتعالى طبقة واتضاع اخرى ، ينجم عن هذه العلاقة . ويدعم ذلك ان الطبقة الاولى تتحكم فى السلطة ، وتمسك بالجهاز التثقيفى ، وتوجه المجتمع الى هذه الفلسفة .

وتساءل حسن :

— وما علاقة ذلك بالبيض والملونين ؟

— اذا نقلنا هـذه العلاقة الطبقية الداخلية الى المجال الدولى ، لوجدنا ان هناك دولا ازدادت قوتها العسكرية والسياسية والاقتصادية . ثم استعمرت هذه الدول ، الدول الفقيرة المستضعفة . واصبح الاستغلال دوليا . الدول الراسمالية « البيضاء » تستعمر الدول « الملونة » فى آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية . ومن هنا نشأ تمييز بين الدول :

دول تملك مستعمرات ، واراضى ، وراسمال فى دول اخرى مستعمرة او تابعة . الاولى تعتبر دول « السادة » والاخرى دول « العبيد » . ومن هنا نشأ التمييز العنصرى وكان له اثر تراكمى . هذا الاسـتغلال لموارد الدول المتخلفة الملونة ، ولعمل اهلها جعل المرض والامية والتخلف ، تعيث فى تلك البلاد . وتجعل من بنيهـا آدميين من مسـتويات مادية وثقـافية متردية . بينما العلم والتقدم والغنى والصحة من نصيب البيض . استندوا الى هذه العناصر ، واعتبروا انفسهم شعوبا سامية .

تساءل حسن : ما هو الحل العملى ؟

— لا حل عندى الا ان تذهب الى احياء الطبقة العاملة . لن تجـد لهذه اللافتة « الملونون ممنوعون » اثرا .

اخذ حسن « قطار تحت الارض » . عندما صعد الى سطح الارض ، وجد دنيا مختلفة تماما . كانت هذه المنطقـة هى « شرق لندن » . هـل يسمونها كذلك ، لانها متخلفة كالشرق ؟ ام ان الذين خططوا لمدينة لندن ، ارادوا ان يكون شرقها فقيرا ، شأن الشرق : الادنى والاوسط والاقصى ، الذى تسببوا فى افتقاره ؟

الشوارع ضيقة ، لكنها نظيفة . المبانى كالحة ، يتشقق طلاؤها ، الذى يشبه الهباب . ليس هنا حدائق ، كتلك التى تحف بالمنازل فى الاحياء الاخرى . الناس هنا اقل اناقة . ملابسهم ليست ممزقة ، لكنها من نوع رخيص . الباعة يركنون عرباتهم فى الشارع ، ويبيعون الفاكهة والخضر وغيرها . الطرقات تعج بخلق الله المتخلفين : الملونين . الهنود الحمـر والسمر ، والافارقة ، والكاريبيون ، والامريكيون الجنوبيون ، والآسيويون . اليفط التى تعلن عن الغرف المعروضة للايجار ، ليس فيها عبارة « الملونون ممنوعون » ! النازحون من الدول الفقيرة « الملونة » ، جاءوا الى هـذا الحى ، ليشاركوا الطبقة العاملة الانجليزية عيشها وسكنها ومستواها .

يبدو ان الطبقة العاملة فى انجلترا ، اكثر سماحة مع الملونين . واذا كان الامر كذلك ، فما سبب تلك السماحة ؟

هل المجتمع الانجليزى مجتمع طبقى ؟ ايوجد فيه فقراء ؟ ايتشابهون مع فقرائنا ؟ من الضرورى ان يكون المجتمع الانجليزى طبقيا . اليس مجتمعا راسماليا ، يحتل المركز فى الراسمالية العالمية . الم يكف النهب ، واستنزاف موارد المستعمرات ، لعلاج الفقر فى بريطانيا ؟ لماذا تتعاطف الطبقة العاملة مع الملونين جميعا ؟ ايكون ذلك لان الراسمالية تستغل الطبقـة العاملة والملونين جميعا . وبذلك ينشأ تعاطف بين المستغلين ضد مستغليهم ؟

دخل حسن بيتا ليرى الغرفة الخالية . البيت نظيف من الداخل . لكن غرفة ضـيقة . الفراش فقير . سرير سـفرى قديم . مرتبته مريحة لحسن الحظ . المنظر مقبض . يطل على البيوت ذات الحوائط « المهببة » . لا حدائق ولا زهور . غرفة حمام وتواليت واحدة ، يستخدمها جميع من فى البيت .

كان قد ارهقه البحث عن سكن . اسـتاجر الغرفة نظير جنيهين فى الاسـبوع .

* * *

— ٦ —

كان استقبال انجلترا لفتانا لطمة لكرامته ، ولكرامة الجنس الذى ينتسب اليه — الا يكتفى هؤلاء القوم بامتهان « الملونين » فى المستعمرات ، وابتزاز عرقهم وثرواتهم . فيصرون على امتهانهم حينما يأتون الى بلدهم ؟ يالهـذا العالم : الملونون يمثلون الاغلبيـة الكبرى من خلق الله . القلة البيضاء ، تحقر من شأنهم . الكثرة الملونة اوزة تبيض لهم ذهبا ، ومعادن ، ومواد غذائية وزراعية ، وعملا انسانيا . تزيد الاوزة من رخائهم . وتكفل لهم التقدم الصناعى والحضارى . ويبقى للملونين التخلف والمهانة .

غلى الدم فى عروقه . كان مضطجعا على سريره « السـفرى » فى غرفتـه المتواضـعة . نور شـاحب ، يتسـلل من نافذة لها زجـاج ، وليس لها « شيش » . تململ فى سريره . فكـرة الاضطهـاد العنصرى تلسعه . ولكنه فاق على سؤال ايقظه : هل جئت الى انجلترا لتقـاتل التفرقة العنصرية ، أم جئت لتدرس الدكتـوراه ؟ وكبت مؤقتا قضـية « الاجناس » بعد ان كبت قضـية « الجنس » فى السـفينة الايطالية . الكبت يترى اشكالا والوانا !

فى الصباح ذهب الى الكلية التى سيدرس فيها . وجدها مدرسة ! « مدرسة لندن للاقتصـاد وعلم السياسة » . اشـهر كليـة لدراسـة الاقتصاد فى العالم . المبنى من الخارج ليس فخيما . اقيم على شارع جانبى صغير . الحوائط غبرها الدخان والضباب والمطر .

المبنى من الداخل متواضع كذلك . غاية فى النظافة والتنظيم . افواج الطلبة ، تفد الى المدرسـة زرافات ووحدانا . لمح حسن بينهم كثيرا من الملونين . عجبا : الانجليز يتقبلون « الملونين » فى جامعاتهم ومدارسهم ، ولا يتقبلونهم فى بيوتهم !

قام حسن بجولة . تعرف على قاعات الدرس ، والمكتبة ، والمطعم ، والكافتيريا ، و « اللونج » ، الذى يسترخى فيه الطلاب ، ويستمعون الى انغام موسيقية هادئة . كل شىء كان عاديا عدا المكتبة . تنظيم مذهل . يأتيك الكتاب الذى تطلبه فى دقيقة . بل تأتيك الوثائق النادرة فى بضـع دقائق . يأتوك بها الى المقعد الذى تجلس عليه . القاعات المتخصصـة تنظم بحيث تقرا فيها الكتب التى تعرض لموضوع معين . كتب تأتى من كل ركن فى العالم ، حديثه وقديمه .

بالمكتبة اقسام ، تضم الوثائق والمراجع عن بلدان العـالم الثالث جميعا : افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، دولة دولة . وجد حسن فيها وثائق ومراجع عن الاقتصاد المصرى ، لا توجد فى مصر ! كيف جمع هؤلاء القوم كل تلك المراجع ؟ هل سرقوها كما سرقوا الثروات المادية والتاريخية لتلك البلاد ؟ أم وجدوا ان ابناء تلك الامم يفرطون فى ثرواتهم العلمية ، كما يفرطون فى ثرواتهم ، وفى ميراثهم الحضـارى ؟ أم ان الحكومات فى هـذه المناطق لا شأن لها بالعلم ولا بالتاريخ ؟

كانت « المدرسة » بيتا ، ومسـتودعا للعلم والمعرفة ، ومنتدى ، ومقهى ، ومطعما ، وقاعة للموسيقى ، ومكتبة بالغة الثراء . فخامة المبنى

فخامة علمية . غرف الاساتذة بسيطة : منضدة صغيرة وكرسيان . لكن مكتبة الاستاذ حافلة ، تمتد بعرض الحائط وارتفاعه .

زار غرفة العميد : لا طنافس ولا سجاجيد عجمية ، ولا نجف كريستالى ، ولا مقاعد من طراز لويس الرابع عشر . قفزت صورة من بلده أمامه : بعض الاساتذة لدينا متواضعون . غرفهم تشبه غرف الاساتذة الانجليز . لكن ما أن يصعد الاستاذ الى رئيس للقسم ، او الى عميد للكلية ، حتى تنقلب أستاذيته رأسا على عقب . بدلا من أن يزداد أستاذية ، ويزيد من حجم مكتبته ، نجده يعنى اول ما يعنى بحجم منضدة مكتبه . وبالسجاجيد والطنافس والنجف !

* * *

المجموعات « الملونة » فى الكلية تنجذب الى بعضها بعضا : مجموعات سمراء وسوداء وصفراء ، وحمراء ، وثلجية : الاجناس الحمراء هم الهنود الحمر ، والثلجية هم الاسكيمو ! كانت هذه المجموعات البشرية تكون لوحة رائعة الالوان . العنصريون لا يرون ما فيها من جمال .

خضع حسن راغما لهذا الاستقطاب . كان يود الا يختلط كثيرا بالمصريين او العرب . يريد أن يحسن لغته الانجليزية . ان لم يختلط بالانجليز ، فلن تستقيم لغته . الهنود والباكستانيون ، والافارقة يشوهون الانجليزية ، حينما ينطقون بها . لم يتركه المصريون . حاصروه ، فلم يجد بدا من صحبتهم . وكانت هناك مغريات : معالجة الشعور بالغربة . الضحك وتبادل القفشات . مناقشة القضايا الوطنية الساخنة .

على أنه كان يهرب أحيانا ، ويختلط بالانجليز وغيرهم من الاوربيين . كان يبحث عن افكار جديدة ، ووجوه جديدة .

حظى بشعبية بين طلبة الكلية وطالباتها . اصبح المصرى المتشق ، البرونزى ، ذو الشارب الفاحم ، مدعوا من كل « شلة » ، ومطلوبا ليشارك فى الشاى على كل منضدة . اخذ يتنقل بين المناضد « الملونة » و « البيضاء » . وهو فى تنقله يثير ضجة هنا ، ويفجر ضحكا هناك . بهذا اسهم فى أن تموج تلك البيئة الانجليزية الباردة ، بالصخب والحركة والحياة .

انتابته سعادة طفولية : ربات البيوت يرفضنه كملون . لكن لونه الخمرى وقامته الفارعة ، وضحكته العالية ، جعلت حسان الكلية يرمقنه بنظرات فيها ود واعجاب . جاءته فتاة بولندية ، بارعة الجمال ، طالبة معه فى الكلية . كان يجلس مع زملائه المصريين يتناولون الشاى الساعة الرابعة . فاجأته الفتاة :

ـــ اننى ادعوك لبيتى هذا المساء !

صاحت « الشلة » المصرية : الله الله . تساءل فرحا ، وهو لا يصدق أذنه :

ـــ اشكرك كثيرا . لكن لماذا ؟

غريب ان يتساءل شاب فى الثلاثين ، عن سبب دعوة فتاة حلوة له الى منزلها ! تخيل اصدقاؤه ، انها دعوة للغرام .

مازال ساذجا فى شئون النساء . تذكر الغجرية الايطالية على ظهر السفينة . انتقل بخياله نقلة غريبة : الفتاة من بولندا . هل تريد أن تناقشه فى الاشتراكية !؟ . لم تمهله الفتاة ليسرح بخياله :

ـــ اريد أن اسجل ضحكتك الرائعة على المسجل فى منزلى !

كان يضحك ملء صدره ، وملء حنجرته . وكأنه يغسل بالضحك ، ما حاق به فى حياته من هموم واشجان . ضحك فى الجيش ، وفى الجامعة ،

ماشاء له الضحك . ولكنه لا يذكر ان كان قد ضحك فى وسية الخواج انيونانى . انه يذكر تفاصيل دقيقة عن حياته فى الوسية ، عاشـــها ثانية ثانية . ولكن الذاكرة يكتنفها ضباب كثيف ، فيما يتعلق بالضحك !

هل كان ضحكه عاليا منسابا ، أم كان خفيضـــا مكبوتا . خفضـــه الجوع ، وكبته الاستغلال . اشتهرت ضحكته بين زملائه الطلاب فى جامعة الاسكندرية . كانت مجموعة أصدقائه تلتقى مســـاء كل خميس فى محط الرمل بالاسكندرية . وطلب احدهم تحديد المكان ، لان محطة الرمل فسيحة ، وفيها جمهور غفير . ورد عليهم اسماعيل زعزوع ، عضو مرح فى الشلة :

— لا تهتموا بذلك ، حسن سيضحك ، وسيرشدنا الى المكان !

جلجلت ضحكاته واصدقاؤه المصريون فى شـــوارع لنـــدن نفسها : كانوا يتجولون فى شارع ريجنت ، من اكبر شوارع لندن . واطلق احدهم « قفشة » . فرقعت الحناجر الشابة فى الفضاء . اذابت جليد الشـــارع الانجليزى المنضبط من غير بوليس ! كان الشارع يغص بالناس . تنساب فيه السيارات الخاصة ، والاتوبيسات العامة . لا تحس لها ضـــجيجا . الناس يهمسون . وموتورات العربات لا تسمع لها دورانا . و « الكلاكسات » صامتة تماما ، وكأنها منزوعة من السيارات .

جاء رجل انجليزى متوسط العمر . وسألهم : من أى بلد انتم ؟

تملكتهم حيرة شديدة : لا شك ان هذا النوع من الضحك غير مألوف فى انجلترا . هل ينظرون الى هذه الظاهرة على انها من ظواهر التخلف ؟ نحن لا نريد ان نرمى بلادنا بالتخلف . نعم ، هى متخلفة ، ولكن لا نريد أن نقلل من شأنها أمام الاجانب ، بصفة خاصـــة الانجلز . ونحن مازلنا نصارعهم فى معركتنا الوطنية .

لكن هذا الرجل ، لا يأتى من الرصيف المقابل ، ليتهمنا بالتخلف . لعله برم بالهدوء القاتل ، الذى يطبع الحيـــاة الانجليزية . ورأى فى قهقهتنا

ختراقا حلوا لهذا الهدوء . ان فى وجهه نظرة صـــديقه . وعلى شـــفتيه بتسامة راضية . لهذا انبرى احدهم ليرد على تساؤله :

— لماذا ؟

— لا لشىء . اريد فحسب ، ان اعرف ما هو البلد السعيد الذى جئتم منه !؟

سعدت المجموعة . عبرت عن سعادتها بضحكة جماعية مجلجلة . اسعدت الرجل كثيرا ، ودعته للاشتراك فيها ! قالت المجموعة له فى صوت واحـــد :

— جئنا من مصر .

بعد ان تمزقت اصداء الضحكة الجوفاء فى الفضاء ، تعلقت بحلقـــه غصـــة ! لامراء ان مصر ، بلد ســـعيد . اســـهمت فى ســـعادته بريطانيا باستـــعماره ، ونهب قطنه وخيراته ، ليزداد التقـــدم الصـــناعى والرخاء لشعبها . وليسعد شعب مصر بالتخلف والتأخر . الم يسعدها البريطانيون كذلك بطبقة حاكمة تسفك عرق أهلها ، وتنشب انيابها فى رقابهم ؟

على أن الغصة ازدادت كثافة عندما نظر الى زملائه . كانت وجوههم جذلة . مشرقة بالبهجة . انهم يعتقدون حقـــا ان بلادهم ســـعيدة . لم يشغلهم اى معنى من المعـــانى التى طافت بذهنـــه . أواه : ان المتخلفين سعداء بتخلفهم ! بل ان الذين سيكونون اساتذة للمتخلفين سعداء ! واغلب الظن انهم ، ومعظمهم اقتصاديون ، سوف يعلمون الطلبة ، ان التخلف والسعادة قرينان . ألم يقل الانجليزى المتقدم ، ان بلدهم سعيد ؟

* * *

زهد فى الالتقاء بالمجموعة المصرية : ضـــحك كله خواء . أحاديث فارغة . ترك هذا وراءه فى بلده . جاء الى هذا البلد ليتعلم أشياء جديدة .

وليرى انماطا من السلوك مختلفة . علّه يصل الى فهم حقيقى لمشكلة الجوع والجهل والقهر فى بلده . يريد ان يتعمق جذور التخلف ، الذى يرين على مجتمعه . وهذا يتطلب ان يبحث كيف تقدم الانجليز ، وكيف ظل بلده راكدا .

عزم على ان يفلت من هذه الصحبة . لولا ان التقى بعبد الحى . زميل يدرس الدكتوراه فى المالية العامة . ليعود استاذا بجامعة القاهرة . صورة لفلاح المصرى . لولا ان الفلاح هنا انيق الثياب . يدرس للدكتوراه فى جامعة اكسفورد ! جاء الى لندن ليفيد من مكتبة مدرسة الاقتصاد .

عبد الحى له نصيب كبير من معارف متنوعة . غير انه كان عدوانيا « لا يعجبه العجب » : كل شىء فى مصر منهار ، فاسد . حكوماتها غير كفئة . اساتذتها وعلماؤها جهلة . هجوميته تحتشد فقط على الاساتذة والحكومة . وتتخذ نغمة متبولة عندما يهاجم اصدقاءه . كان حسن يستمتع بهذا الهجوم :

« فلاحين ايه وعمال ايه ، وتنمية ايه ، اللى انت جاى تعمل فيها دكتوراه . مافيش فايدة » . كان حسن يتقبل الهجوم ، لان فيه نبرة صديقة .

تمت بين حسن وعبد الحى صداقة قوية . نعم فيها حسن بالوان المعرفة ، التى كان يعرضها عبد الحى . وكان من نفحات عبد الحى على حسن ان قدم له زميلا . افاض فى صفاته الممتازة ، وتفوقه العلمى : حصل على بكالوريوس الاقتصاد من لندن ، بدرجة ممتاز . ويعد رسالة للدكتوراه على يد اشهر اقتصادى انجليزى على الاطلاق ، هو « البروفسور هكس » ، الحائز على جائزة نوبل . وهو شاب جاد ، ذكى :

— الدكتور . مصيلح الصراف .

— اهلا يا دكتور .

— الاستاذ حسن خالد .

لم يلقبه عبد الحى بالدكتور ، كما لقب مصيلح . يبدو ان حسن كان مستجدا فى دراسة الدكتوراه . حيا مصيلح حسن قائلا :

— هيلو !

نطق بها بطريقة الانجليز . كان مصيلح طويلا ، رشيقا ، دقيق الملامح . اخذ يخرج « البيب » الذى كان معلقا فى جيب جاكتته الامامى . وعلبة التبغ من الجيب الجانبى . ملأ « البيب » بالتبغ . وأخرج علبة الكبريت من جيب ثالث . اشعل غليونه . لم يتكلم . احب عبد الحى ان يملأ الفراغ . قال له كلمة عن دراسة حسن . عقب مصيلح على ذلك بهمهمة . سحب نفسا طويلا من غليونه . اطلق الدخان ليرسم سحابة تخالط وجهه . التفت الى حسن قائلا :

هيه « بتعمل ايه هنا » ؟

كان اللقاء للوهلة الاولى ليس مبشرا . كما انه لم يكن منفرا . اللقاء حتى الآن لم يتجاوز الشكل : هدوء مصيلح « البايب » هيلو . يتشبه فيها بالانجليز . جاكتته فصلت تماما بالطريقة الانجليزية . ووضع على اكمامها عند الكوعين قطع من « الشمواه » .

الشكل غير حاسم . لكن النغمة التى قيلت بها جملة « بتعمل ايه هنا » ليست مريحة تماما . واجابه :

— جئت اعد رسالة للدكتوراه .

— ما هو موضوعها ؟

— القوى المعوقة للتنمية الاقتصادية فى مصر .

— « هو ده موضوع اقتصادى ده » ؟

تفوه مصيلح بهذه العبارة ، وهو فى وضع استفزازى : البيب معلق

بين أسنانه . دخانه يغبر وجهه ، ووجوه الواقفين معه . كان مائلا بجذعه قليلا الى الجنب . يهز وسطه . يده فى جيب بنطلونه . صعدت الدماء الى راس حسن . كان يتوقع ان يلتقى بانسان ، قدمه له صديقه عبد الحى ، فى صورة مشرفة .

كان حسن قد ألف انماطا مختلفات من البشر . لكن هذا النمط فريد . صابر نفســه . اراد ان يتحقق من الصـــفات الممتازة التى وصـــفه بها عبد الحى . نظر الى عبدا نحى الذى اســـهم فى تهـدئة الموقف ، مخاطبا مصـــيلح :

— طبعا يا دكتور مصيلح . هذا موضوع اقتصـــادى . ان عقبات التنمية ، أو اسباب التخلف قوى يجب ازاحتها ، لكى تتقدم مصر اقتصاديا واجتماعيا .

هدأ حسن بعض الشىء . هز مصيلح وسطه مرة اخرى . امســـك بغليونه . أخذ يداعب النار المشتعلة فى التبغ . ثم قال :

— طبعا . (قالها بالانجليزية) . لكن عنوان البحث يشبه موضوع الانشـــاء .

سكت عبد الحى . لم يجد حسن تفسيرا لسكوته ، غير رابطة معينة ، تربطه بمصيلح . رابطة العلم والشهرة والنسب ! مصيلح يدرس فى جامعة اكسفورد مثله . وتشرف على رسالته الاستاذة « أورسولا هكس » زوجة « البروفسور هكس » المشرف على رسالة مصيلح !

أخذ حسن يعتمد على نفسه ، فى حواره مع مصيلح . قال له :

— هل مشكلات التخلف الاقتصادى فى العالم الثالث « انشاء » ؟

— نعم .

— كلا . انها قوى هدم ، لا قوى انشاء !

— هذه فلسفة وليست اقتصادا .

— هل تعرف شيئا اسمه معوقات التقدم الاقتصادى ، يا ابا مصيلح ؟

وقبل ان يجيب على سؤاله .. استطرد حسن :

— هل تعـــرف أولا لمـــاذا قلت لك يا أبا مصـــيلح . ولم اقل لك يا ابو مصـــيلح ؟

وتردد مصيلح .. ثم اســـتعاد شكله « البروفيســـورى » . ولمس البيب ، وكأنه يستمد منه الشجاعة :

— هل هذا امتحان فى اللغة العربية ؟

— من الضرورى ، وسوف تكون أستاذا فى الجامعة ، ان تكون ملما بلغة بلدك . « أبا » منصوبة لانها منادى . ولانها من الاسماء الخمسة ، فتنصب بالالف . لعلك لا تدرى ما هى الاسماء الخمسة ؟ هى : « ابوك — واخوك — وحموك — وفوك — وذو « وك » .

ود حسن ان يضع كلمة « ملعون » قبل هذه الاسماء الخمسة !

اكتأب وجه مصيلح . لكنه اشرق ثانية حينما قال له حسن :

— لابأس على « عربيتك » ، فانجليزيتك جيدة . اجبنى لو تفضلت على سؤالى عن مشكلات التخلف .

تلعثم مصـــيلح مرة اخـــرى ، ثم اجاب ببرود ، خاله من صـــفات الانجليز .

— مشكلات التخلف ليست موضوع دراستى ، ولا تعنينى !

— كيف لا تعنى بالتخلف ، ونحن متخلفون ؟

اربد وجه مصيلح . تراخت اسنانه . نسى انه يدخن البايب . سقط منه على ارضية الغرفة . تبعثرت محتوياته . لم يدرك انه شوه الارضية

البراقة ، بتراب غليونه . التقط الغليون ، لم يعن بتنظيف آثاره .. هاجم حسن قائلا :

— أنت المتخلف ، ولست أنا ! أنت متخلف بالتعريف . لانك مرتبط بالفلاحين والعمال وغيرهم من الفقراء . وهؤلاء هم المتخلفون فى بلادنا . الا تعد رسالتك فى الدكتوراه عنهم ؟

من الغـريب أن هـذا الهجوم لم يسـتفز حسن ، بل جعله يجنح بالحـديث :

— أنت تتهم العمال والفلاحين والفقراء فحسب بالتخلف .. من اى طبقة اتيت ؟

أحمر وجه مصيلح . اخذ نفسا من البيب ، الذى تصالح معه مرة اخرى . لعله يوحى له بأفكار معاونة . واجاب :

— والدى موظف كبير . مدير خزانة البلدية بالاسكندرية . وعنده املاك كبيرة .

— يعنى صراف .

— صراف « ازاى » ؟! هذا لقب فحسب . لكن اسرتنا عريقة .

— اشكرك ، اذ أعطيتنى مادة يمكن ان نتعرف بها على اصـل كثير مما يسمى بالعائلات او الاسر الكريمة فى مصر .

موضوع « الاسر الكريمة » ، اثاره النائب العام معه . حينما تقـدم له بطلب التعيين فى وظائف النيـابة . رفض تعيينه . لان هـذه الوظائف مقصورة على أبناء « العائلات » الثرية الوجيهة . وهو ليس منها . ورأى فى حواره مع مصيلح متنفسا لتحليل هذه الظاهرة . صحيح أن صلاح ليس من الاسر « الارستقراطية » ، او الوافرة الغنى . ولكنه يتشـبه بهم . ويتوق للانتماء اليهم ، والى قيمهم . فالحديث معه مشروع .

وفاجأ حسن مصيلح :

— أرجو أن تسمح لى بالقول بأن والدك كان صرافا ، وبهذا ينطبق اللقب عليه .

سكت حسن هنيهة ، ورأى صلاح تحمر عيناه ، فأسرع بالقول :

— لا تغضب . فكلمة « صراف » . هى اللفظ القديم لكلمة « مدير خزانة » ! ومهمة الصراف أن يجمع الضرائب من الممولين . والصيارفة كما نعلم ، كانوا يسرقون الفلاحين ، بزيادة الضرائب عليهم . يدفعون الدولة الضرائب الرسمية ، ويستلبون الباقى . هذا الى جانب الرشاوى والهدايا « والعزايم » وماشاكلها .

ارتعش مصيلح . قائلا :

— هذه بذاءه .

— وعلى ذلك فثروة والدك ، أن كان ماتقوله عن ثروته صـحيحا ، مسروقة من الفلاحين الذين تصفهم بالتخلف . وبهذا يصبح المتخلفون مصدر ثروة المتقدمين !

التفت مصـيلح الى عبد الحى ، كأنه يسـتنجد به . رآه مسرورا ، يبتسم ! واصل حسن الكلام :

— لا تبتئس ياعم مصـيلح . فلقب عائلتك يماثل عائلات أو اسرا كثيرة . انبثقت من الفلاحين وكونت ثرواتها ، بطريق أو بآخـر ، منهم . واحترف بعضـهم حرفا ومهنا . ارتحلوا بها الى المدن ، أو زاولوها فى القرى . ثم انقلبوا على أصلهم . واصبحوا عالة متعالية عليه .

اكفهر وجه صلاح . على الرغم من انه ليس من العائلات الثرية . ثم يتركه حسن ليتنفس :

— خذ مثـلا : عائلة « الحمـار » كان منشـئها يقود الحمير . والا ما العلاقة بين لقبه والحمير ؟ اكان يهواها مثلا ؟ وعائلة « الخيال » ، لابد

أن عميدها كان يســوق الخيل . ويمكنك ان تطبق النظــرية على « اسر كريمة » كثيرة . يحتفظــون لها بالوظائف الممتازة فى مصر : الحيــوان ، والجحش ، والبغال ، والخشاب ، والفوال ، والعطار ، والدخاخنى ، والنجار ، والحداد ، والجزمجى . والقائمة طويلة ....

علت الابتسامة وجه عبد الحى ، وقال :

— « ياه » أنت لبخت قوى !

— ما رايك فى هذا التفسير يا دكتور عبد الحى ؟

— والله شاطر يابو على .

واصفر وجه مصيلح مرة اخرى . كان اللونان الاصــفر والاحمــر يتناوبان وجهه مع حجم الجرعة التى يفرغها حسن فى جوفه . واحب حسن الا يفقده ، فأمعن فى ساديته :

— وليس أدل على انك من وسط شعبى . ان اسمك « مصيلح » . وهل هذا اسم يا شيخ ، يليق بجامعة اكسفورد !؟ انهم حتى لم يسموك « صــلاحا » !

— انا لست شعبيا . ولا تنطق بهذا مرة اخرى . والا انصرفت .

ومضى حسن ، فالحوار أصبح لذيذا :

— قل لى بربك : ما هو موضوع رسالتك للدكتوراة ، التى يشرف عليها الاقتصادى العالمى هكس ؟

اعتدل صلاح . تكلم والبيب بين اسنانه :

— انا ادرس صناعة القطن فى لانكشير .

— يا صلاة الزين ! يا صلاة الزين ! يامستر مصيلح ! ....

لم توجعه هذه التسمية . ربما تكون اسعدته :

— هل هذا موضوع يكتبه شاب مصرى ، سيعود ليكون اســتاذا بجامعة مصرية ؟

واجاب فى برود شديد :

— ولم لا .

— الم يلفت نظرك الفقر الكالح ، الذى يجتاح الاكثرية الكبرى من ابناء بلدك ؟ الا تكتب شيئا تسهم به فى علاج ذلك الفقر ؟ اليس فى مصر صناعات ناشئة ، او صناعات يمكن ان تقوم ، لتسهم فى تقدم وطنك ؟ هذه موضوعات جديرة بعقلك المصرى . فأنت مصرى على كل حال . ولابد ان مشاعرك جزء من مشاعر مواطنيك ....

وقاطعه مصيلح :

— يا اخى دعنا من هذا الانشاء . كيف اقوم بعمل رسالة محترمة فى مثل هذه الموضوعات ؟ هل فى بلدك احصاءات او بيانات ، تساعدنى على عمل رســالة علميــة ؟

— الاحصاءات يمكنك الحصول عليها من الاجهزة الرسمية . ويمكنك القيام بها بنفسك . والمكتبة هنا ثرية بأرقام عن مصر ، لا توجد لدينا .

— ليس هذا ممكنا .

— الا تشعر بانه ليس من الطبيعى ، أن يهمل الباحث مشكلات وطنه . وهى عويصة . ثم يستخدم عقله فى خدمة بلد متقدم ، ليس فى حاجة لجهوده ؟

— العلم لا يعرف وطنــا .

— لكن وطنك اولى بعلمك . وخاصة ان الظلم الاجتماعى والتخلف يضربان عميقا فى جذوره . وهو يحتاج لقدراتك العقلية للاسهام فى ازاحتهما .

— .....

— هل خصصت فى رسالتك فصــلا ، لتبين كيف ازدهرت صناعة

القطن فى لانكشير على حساب الفلاح المصرى . مصر كانت مزرعة كبيرة للقطن . استغلت أرضها وعمل ابنائها ، لانتاج قطن رخيص الثمن ، يحتكر شراؤه تجار وصناع لانكشير ويوركشير . ويسهم قطننا فى ازدهار هـذه الصناعة ، التى تقوم بعمل رسالة فيها . رغم انها تسببت فى فقر بلدك .

— انا رسالتى علمية ، فيها رياضيات ، وتحليلات بيانية ، لا تستطيع انت فهمها . ولا شأن لى بموضوعات « الانشاء » التى تتحدث عنها .

وجه حسن حديثه الى زاوية أخرى ، فقال لمصيلح :

— الم يدر بخلدك ان ترد النفقات التى انفقتها عليك الجماهير فى مصر لتعليمك . دفعت فى شكل ضرائب ، وعرق تصبب من جباههم . انها دين عليك ، ويجب ان ترده .

— الجماهير لم تعلمنى . ابى هو الذى علمنى من أمواله الخاصة . وانا تعلمت فى المدارس الاجنبيـــة . ودفع والدى مصروفاتها من جيبه . لا فضل لاحد على .

— والدك ، اما دفع مصاريف تعليمك فى المدارس من مرتبه . وهو مأخوذ مباشرة من الضرائب على الفلاحين والعمال وغيرهم . واما ان يكون قد استلب من هؤلاء بطرائق غير مشروعة .

— سنعود للكلام الفارغ مرة اخرى .

— لا نزاع فى ان مصاريف بعثتك الحالية تدفع بواسطة الجماهير فى مصر .

لم يجد مصيلح ما يرد به . واحس حسن ، الذى وجه الحوار للتنكيل بمصيلح ، اذا به ينكل بنفسه . هذا نموذج ، سيعود استاذا فى الجامعة . ينقل قيمه وفلسفته الى الاجيال التى ستحرر الوطن .

عاد مصيلح بعد انتهائه من دراسة الدكتوراة الى مصر . اشتبك فى

مشاحنات فردية متعالية تافهة ، مع زملائه واساتذته . وجد الجميع ان من المستحيل التعاون معه .

وبرم هو بالبيئة التى انجبته . غادر مصر غير مأسوف عليه . ذهب الى انجلترا ، البيئة التى تلائمه . وجد وظيفة فيها . سعد بالبيئة الجديدة : بيئة هيلو ، والبايب ، والكيمان الشموا ، وبروفسور هيكس .

تخايلت فى ذهن حسن فكرتان : هل حزن على ثروة انسانية ضاعت على بلده ؟ انفق الكادحون ما يملكون من عمل وجهد لاعدادها . ام لعله سعد ، اذ هاجر مصر الى غير عودة . وبذلك نجا الطلاب من قدوة ضارة ؟

لا فكاك لحسن ، ولوعيه ولا وعيه ، من أن يربط بين صور بشرية قد تترابط ، او تتنافر . ذكره مصيلح بمحمد خطاب ، خفير الجرن فى وسية الخواجة اليونانى ! وبالحوارات التى دارت بين حسن وبينه . ما هـــذا اللغو يا أبا على ؟ كيف يمكن الربط بين دكتور « أكسفورد » ، وخفير فقير امى فى اقطاعية الخواجة ؟ اصر حسن ، او بتعبير اصح ، أصرت ذاكرته على أن هناك ترابطا وتقابلا . تحاور حسن مع محمد خطاب فى الظلم الواقع على الفلاحين . كان الخفير أكثر وعيا من الناحية الاجتماعية . استطاع ان يفرق بين السرقة القانونية ! والسرقة المباشرة ، التى يمارسها الخواجة على الفلاحين . الاولى : ايجار مرتفع ، واجور منخفضة ، وشروط مزارعة مجحفة ، تخولها القوانين للخواجة . والسرقة المباشرة تتمثل فى سرقة جزء من محصولاتهم حينما تدخل مخازنه ، فينتقص من وزنها ، ويبخس ثمنها .

قال الخفير لحسن ، ان الظلم والسرقة المباشرة ، موجودة فى كل الوسايا . وان البلد وسية كبرى . ينهبها الانجليز ، والملك ، والخواجات ، والباشوات ، ومن على شاكلتهم . أين وعى هذا الفلاح الامى من وعى مصيلح دكتور « اكسفورد » ؟ انه لا يحس بالاستعمار ، ولا بالخواجات والباشوات . ومن ثم لا يدرى الاسباب الحقيقية للتخلف فى بلاده .

التشابه بين الدكتور مصيلح ، ومحمد خطاب الخفير ، أن كـلاهما سارق . الدكتور يسرق الدولة والجماهير ، التى وصفها بالتخلف ، النقود التى انفقت عليه لتعليمه . ثم يهرب من البلد كأى سارق ، قبل ان يضبط بجريمته . يفر دون أن يسدد الدين . الناس فى مصر متواضـعون . لا يطالبونه بسداد الدين نقدا . لكنهم يودون لو افاء عليهم من علمه . واسهم هذا العلم فى ازاحة كابوس الفقر والتخلف عنهم .

والحق ، أن محمد خطاب الخفير يمكن أن يبرر سرقته . هو مظلوم . الخواجة يسرق كدحه وكدح أولاده . لهذا فهو يسترد حقه بسرقة القمح والغلال من جرن الخواجة . وهذا فى نظره سليم من الناحية الاخلاقية . برر محمد خطاب السرقة باعتبار انسانى آخر : انه لا يستطيع أن يجوع ، هو واولاده ، وهذه الخيرات الجميلة فى حراسته . وأنه واولاده لا يستطيعون اكل الخبز الاذرة ، الذى لا يأكله الا العبيد .

على أن دكتور اكسفورد ، وخفير وسية الخواجة فى قرية الرباعى — وكلاهما من الفئات الوسيطة — يشتركان بشكل يدعو الى الدهشة والتأمل، فى نظرتهما للجماهير العاملة والفلاحية : الم يقل الدكتور أن هؤلاء متخلفون ، برغم أنهم يدفعون نفقات تعليمه ؟ الم يسمهم الخفير بالعبيد ؟ والعبيد هم الذين يزرعون الارض ، التى تنتج القمح ، الذى يسرقه محمد خطاب ، لياكل واولاده خبزا ابيض طريا !

* * *

— ٧ —

احساس بالغربة يكتنف مشاعر فتانا . الغربة بالمعنى الدارج للكلمة . وليس الاغتراب بالمعنى الاجتماعى والنفسى . فالاغتراب يخيم عليه ، حتى فى بلده . الطبقة الثرية ، بتملكها للارض ولراس المال ، قد عزلت الجماهير

الشعبية العاملة ، وابقتها مغتربة عن وسائل الانتاج ، بل عن الانتاج نفسه. لكن الغربة التى يحسها حسن من ذلك النوع المألوف : بعده عن بلده واهله وصحبه . كان يمنى النفس بأنه سيجد فى هذا البلد المتقدم ، ما يشغله . ولكنه فى ايامه الاولى فى انجلترا ، شعر بالعزلة والضياع . الانجليز لا يقبلونه فى بيوتهم لانه ملون . خاب امله فى بعض المصريين فى لندن كذلك . فهم اما فارغون من حيث الوعى الاجتماعى ، والادراك الانسـانى ، أو ممسوخون شائهون .

حتى الشمس المشرقة ، والسماء الزرقاء ، لا وجود لها فى هذا البلد ! كانت السماء عبوسا مدرارا . المطر الغزير ينهمر طول اليوم . لا يرحم الناس ، ولا يعبأون به ! تبتلعه الارض اولا بأول . السيارات تنساب فى يسر . والمشاة يهرعون . والحياة تمضى .

اخيرا اهلت الشمس . اضاف الناس لتحية الصباح : « يوم لطيف مشمس » . كان ينتظر الاوتوبيس فى محطة قريبة من مسكنه . ترتفع الى جانبها كنيسة رشيقة . بنيت على طراز القرون الوسطى . وقف حسن فى « الطابور » انتظارا للاوتوبيس .

وجاءت ! جاءت هيفاء ، تتخطر من بعيد . عود خيزرانى ، يتأود بقدر . قوام ممشوق . هامة مرتفعة . خطوات واثقة . استمدت رفعتها ووثوقها ، من جمال باهر ، واعتداد انجليزى ، مقبول من الفاتنات ! انعكس سنى الشمس على شعرها الذهبى فزاده سناء . تسلل السناء الى عينى حسن فبهرهما . استغرق فى هذا التاج الذهبى ، المترسلة ذؤاباته على كتفيها وظهرها . لم يفطن الى ان جمال عينيها يبز كل جمال . ابتسمت لـه ، فأشرقت ابتسامتها فى كيانه . هنالك فقط ، تملى بأجمل عينين ، وقعت عليهما عيناه . كانتا زرقاوين . من الصعب وصفهما بلون السماء أو بلون البحر . كان قوامها فارعا ، لكنه مازال الرجل ذو القوام الاطول . القوام على المراة !

لحسن حظه كان يقف فى آخر الطابور .وعندما ابتسمت له ، اشعلت البسمة فى داخله قوى ، تود ان تغالب الغربة والوحدة . تشجع وقرر ان يحادثها . صاحبة هذه البسمة المشرقة لن تصدمك . بادرها قائلا :

— صباح الخير . صباح جميل ، وشمس مشرقة .

ردت التحية فى حياء انثوى ، ثم سالته :

— ماذا تصنع فى انجلترا ؟

— أعد دراسة لنيل الدكتوراة فى الاقتصاد السياسى ، لاعود استاذا فى الجامعة !

نفس « الاكليشيه » ، الذى اراد ان يجذب به اعجــاب الغجــرية الايطالية ، على ظهر السفينة . وقالت له مبتسمة :

— حسن جدا . أنت رجل عظيم اذن .

ارتفعت معنوياته . الكلمات لاجمل فتاة قابلها على الاطلاق .

— اشكرك .

— ما رايك فى لندن ؟

— الشهر الذى قضيته فيها شهر كئيب !

— لـــماذا ؟

— نفسى متأزمة ، واشعر بالوحدة .

أمل ، بهذه الاجابة ، أن يثير فيها الوطنية ! لعلها تود ان تحسن من صورة بلادها عنده ، فتصادقه ، وتعالج وحدته . وكان ساذجا ، اذ قالت لــه :

— يمكنك القضاء على الشعور بالوحدة فى الكلية مع الاصــدقاء ، والصديقات . وهم كثار .

خاب ظنه . لكنه تكتم الخيبة . لاحظت الفتاة أن الاوتوبيس رقم ١٣٤

الذاهب الى الجامعة ، قد مر منــه عدد من الاوتوبيسات ، ولم يركب ايا منها ، فسألته :

— لماذا لم تركب الاوتوبيس ١٣٤ ؟

— انه لم يتوقف .

— لن يتوقف ، الا اذا اشرت اليه . هذه محطة اختيارية .

وسألها : اى اوتوبيس ستستقلين ؟

— رقم ٤٣ .

وجاء رقم ٤٣ ، فقرر فى لحظة يائسة ، ان يركب معها اوتوبيسها . وقالت له :

— اسمح لى . هذا هو الاوتوبيس الذى سآخذه « باى باى » .

وتردد . ثم تشجع :

— سآخذ هذا الاوتوبيس معك .

— انه غير ذاهب الى الجامعة .

— اذا لم يكن لديك مانع ، اصحبك . ثم آخذ مواصلة من هناك .

ادهشها اقتراحه . الا انها كانت فى غاية الرقة :

— لكن أظن ان لديك محاضرات .

— لا . اننى ذاهب للمكتبة فحسب . ونصف ساعة معك ، قد يكون لها اثر معنوى كبير .

انداح الورد فى وجهها . خجلت من الاطراء ، وشكرته . جلس الى جانبها فى الطابق العلوى للاوتوبيس . قضى معها نصف ساعة ، فى حديث بهيج ، ورفقة شهية . سألها :

— ما اسمك ؟

— برنـــدا .

— ماذا تعملين ؟

— سكرتيرة فى شركة .

وسألته عن اسمه ، وموضوع دراسته . واجابها :

— اعد رسالة عن موضوع قد لا يروق لك .

— ومـــا يدريك ؟

تشجع وقال لهـــا :

— اعد رسالة عن القوى العائقة للتقدم فى مصر .

— موضوع شائق . مشكلات التخلف فى افريقيا وآسيا وامريكـــا اللاتينية صارخة . وهى مكتوية بأساليب بعضها فنى ، وبعضها يسير . ويكفى أن يكون الشخص مستنيرا ذا وعى انسانى ، ليدرك انه يجب القضاء على التخلف ، الذى يشوهالبشرية فى ثلاثة ارباع العالم .

— هل يظل هذا رايك ، اذا قلت ان اكثر معوقات التقدم شراســـة هى الاستعمار والاقطاع والراسمالية المحلية .

— انا سعيدة اذ تضع هذه القوى فى مقدمة اسباب التخلف فى بلادكم .

ليت مصيلحا هنا ليسمع . الافضل الا يكون هنا . قد يعطى هـــذه الانجليزية المستنيرة صورة شـــائهة لمثقفى مصر . تهلل لحديثها :

— اشكرك على رايك فى موضوع رسالتى ...

وتعجل الامور كعادته . زادت وحدته من تعجله ، فاستمر :

— انت لست جميلة فحسب ، لكنك ذكية القلب . مستنيرة الوجدان .

كانت الجرعة كبيرة . لم يألف الانجليز هذا اللون من المبالغة . مرة اخرى ، زاد احمرار وجهها . لم ترد . حاول أن يهدىء من روعها :

— اعذرينى ، كانت حقاجميلة . واذا كنت قد غضبت ، فانا آسف .

— لا تتأسف . اننى خشيتان تكون مبالغا .

كان حسن لا يبالغ . لم يكن انبهاره بجمالها ، لانه وحيد . او لانه لم يعبر عن غرائزه تعبيرا طبيعيا لمدة طويلة . ولكنها كانت مثله الاعلى فى الجمال . كان يعشق الشعر الذهبى ، والعيون الزرقاء ، والبشرة الوردية ، والقامة الهيفاء . الزرقة فى عينيها زرقة عميقة . خلاصة نقية لأجيـــال واجيال ... ظلت الزرقة فى عيون تلك الاجيال تصفو ، الى ان وصلت الى هـــذه النغمـــة الحلـــوة .

قوامها بانى ، بض . النســـاء فى بلده اكثرهن مبطرخـــات . تزداد « بطرختهن » ، حينما يتزوجن ويلدن . لا يتحركن فى بيوتهن الا بين المطبخ ، والسفرة ، والسرير !

سألته عن مصر . واجاب ، وكأنه مرشد سياحى :

— تعتبر مصر — ولا اقول ذلك كمصرى متحمس لبلده — من اهم واجمل المناطق السياحية فى العالم . انها تبز اسبانيا وايطاليا واليونان وفرنسا وانجلترا . فى اليونان حضارة واحدة ، وفى ايطاليا كذلـــك . فى اسبانيا توجد حضارتنا نحن العرب . مصر ، تجمع كثيرا من حضارات التاريخ : الحضارة الفرعونية ، اعرق حضارة فى الدنيا . الحضارة القبطية المسيحية . المسيح والعذراء جاءا الى مصر .

— هل هذا صحيح ؟

— نعـــم .

واستطرد حسن :

— الحضارة الاسلامية . الحضارة الاغريقية والرومانية لهما وجود فى مصر . هناك آثار للفرس والهكسوس والمغول ، والفرنسيين والانجليز . هذه الحضارات الاخيرة ، خربت الحضارات السابقة عليها !

— كيـــف ؟

— ان هى الا حضارات استعمارية نزفت مواردنا وتاريخنا .

— لك حق . هل زرت المتحف البريطانى هنا ، ومتحف « اللوفر » فى باريس ؟

— لا .

— ستجد فيهما اقساما ضخمة للآثار المصرية . فيها قطع نادرة ، لا توجد فى مصر . سرقوها من بلادكم لا جدال فى ذلك .

انتعش لهذه الاجابة ، وتشجع ليضيف :

— هذا الى جانب الموارد الاقتصادية ، التى نهبت من بلادنا ، ومن البلاد المستعمرة الاخرى .

— طبعا .. ان الحديث معك شائق ومثير . وكنت اتمنى ان امضى معك الى مالا نهاية . لولا اننى لابد ان اغادر الاوتوبيس فى المحطة القادمة . فهنا محل عملى .

— وددت ان اكمل لك الحديث عن مصر .

— احب ذلك . وارجو ان استمع اليه فى فرصة اخرى .

— وهل هناك فرصة اخرى ؟

— من يدرى ؟

— هل نلتقى غدا ؟

— لا اعرف .

لمحت الاسى يعلو وجهه ، وكان مشرقا ابان الحديث معها . استدركت :

— على اية حال ، انا آخذ الاوتوبيس ، كل يوم الى عملى ، من المحطة نفسها .

— فى اى وقت ؟

لم يتلق جوابا . كانت قد غادرت الاوتوبيس .

ذهب حسن الى محطة الاوتوبيس ، قبل الوقت الذى التقى بها بالامس فيه ، بنصف ساعة . ومكث بعده بنصف ساعة اخرى . لم تحضر . احس بخيبة امل ماحقة . خبت ومضة من الامل ، اثارت وجدانه . تخيلها فيها الرفيقة والصديقة . ود انتعينه على دحر هذه الوحدة الموحشة . كان متعطشا للحب . تمنى لو تروى قلبه الجديب . وان تمسح بيدها هذا الغمام القاتم ، الذى يسود سماء هذه البلاد . كانت الغادة الانجليزية اللمسة الحنون الوحيدة ، التى احس بها فى هذا البلد .

لبث حسن مواظبا على الذهاب الى محطة الاوتوبيس كل يوم . يمكث ساعة بين الامل واليأس . ثم يذهب الى كليته . ويعود منها مساء .

الصدمة التى اصابته بضياع حسناء انجلترا من يديه . الانتظار الطويل عند محطة الاوتوبيس كل يوم ، اديا الى سقوطه فى براثن الانفلونزا . وما ادراك ما الانفلونزا فى انجلترا . انها ككل شىء فى هذا البلد : قاتلة !

كان للانفلونزا التى فتكت بحسن فوائد عدة : اكتشف جانبا انسانيا فى الانجليز . كان حسن قد ترك الحى الشعبى فى شرق لندن . اختلط شهرا بالطبقة العاملة الانجليزية وبالفئات الملونة ، القادمة من البلاد المتخلفة . اكتشف دنيا العمال الانجليز . والمدارس الفكرية التى تقتسمهم . وبحث فى نقابات العمال . وتعرف على علاقة هذه الطبقة بالراسماليين وبالاحزاب : المحافظين والعمال والاحرار والشيوعيين . وسع معرفته بالدول الفقيرة فى آسيا وافريقيا . اضاف كل اولئك الى التخلف الذى عاشه فى مصر .

اكتفى حسن بهذا القدر . شاء ان يجرب حظه مرة اخرى فى احياء الطبقة المتوسطة . يريد ان يدرسها . الطبقة العاملة ، « والملونون » ، يقربون الى حد ما ، من البيئة التى نشأ فيها . تردد . تجربته مع « يفط » « الملونون يمتنعون ! » مازالت تجرح احساسه . على الرغم من حياته

الضنك . واصطراعه مع الفقر ، الا أن نشـــأته الريفية جعلته يعشـــق الطبيعة . ومنذ جاء الى انجلترا ، والسماء غاضبة . تسيل مآقيها ليـــلا ونهارا ! . نما فى صدره ضيق بهذه البيئة المعتمة . الحى العمالى ، ليس به حدائق تحف بالمنازل ، كالاحياء المتوسطة . الحى البلدى ، ليس به ورد بلدى !

لعله كذلك يريد ان يرى وجوها اخرى ، غير الوجوه الملونة . ومستوى معيشة اعلى من مستوى الفئات العاملة . يبدو ان هذه الفئات تعانى ضنكا فى حياتها . لا يبلغ ، حقا ضنك العمال فى بلاده ، ولكنه ضنك على اية حال .

لجأ الىالسماسرة.حتىلايواجه بحاجز اللون . سأله السمسار :

— من اى بلد انت ؟

واجـــابه :

— من مصر .

— لحسن حظك ، لدى غرفة يقبل صاحبها تأجيرها للمصريين ! ؟

وازداد فضوله :

— للمصريين فحسب ؟

— نعـــم .

— هل تعلم لماذا المصريون دون سائر الملونين ؟

— هذا الرجل كان استاذا للمصريات فى الجامعة . امضى كذلك جانبا من خدمته العسكرية فى الحرب العالمية الثانية فى مصر .

تهلل جذلا . الحضارة الفرعونية القديمة تشفع له لدى الحضـــارة الصناعية الحديثة . لا مراء ، أن هناك وصالا بين الحضارات !

استأجر الغرفة . كانت صغيرة ، لكنها انيقة . بها مدفأة تعمل بالغاز . نهمة تلتهم « الشلن » فى عدادها ، فى لحظة ! كان لها باب يطل على حديقة

صغيرة ، فواحة بالورد البلدى . الورد البلدى الابيض ، بلون النهار ، والاصفر « الغيار » ، والاحمر مجروح الشفاة !

استبشر بالغرفة ، وبسيدة المنزل . امرأة قصيرة القوام ، دقيقة الملامح ، فى حجم العصفورة ! تطفر داخل الحجرات تنظفها ، وتجملها ، والابتسامة تعلو وجهها « المسمسم » . ومن الغريب أن زوجها كان ضخما ، طويل القامة ، عريض الاكتاف ،فى ساقه عرج خفيف ، أثر اصابة فى الحرب .

كانت هذه الغرفة فألا حسنا لحسن . التقى صبيحة سكناه فيها ، بفاتنته الانجليزية عند محطة الاوتوبيس . كانت الفتاة عنوانا نابضا للحى الانيق . ولكن الحى غدا فى اليوم التالى . كتابا « مجهول العنوان » !

فوجىء فى هذا المنزل بمفاجأة سعيدة . وجد فى المنزل غرفة اخرى . كان يسكنها « وليم » ! لم يشأ وليم أن يحدثه عن الغرفة الخالية . تجربتهما معا فى استبعاد الملونين،قاسية . لم يرد أن يجرح مشاعره مرة اخرى . لكنه سعد بقبول حسن فى المنزل سعادة كبرى : سعادة مصدرها الصداقة ، والفكر الانسانى المشترك .

وبرزت شهامة وليم مرة اخرى . عنى به ابان مرضه عناية خاصة . جعله يؤمن ، بأنه يمكن أن تكون فى هذا البلد قلوب طيبة انسانية . كانت ربة البيت كذلك غاية فى الرقة والحنان . احضرت دواء من الصيدلية .اذابته فى وعاء به ماء مغلى . وضعت فوطة على رأسه ، غطت وجهه . قالت له : استنشق بخار الماء والدواء . ظلت تفعل ذلك ، طيلة العشرة أيام التى افترسته فيها الانفلونزا . كانت تعد له أطباق الشوربة الساخنة . وغيرها من الوان الغذاء . كانت سيدة من انجلترا ، فى الستين من عمرها ، لهـــا قلب من ذهب .

وليم . متوسط الطول ، ملامحه تقترب من ملامح ابناء الشرق الاوسط « البيض » ! يذكرك وجهه بالسحنة السورية . ذكى ، حـــلو الدعابة ،

واسع الاطلاع . عندما خفت حدة الانفلونزا ، اخذ يداعب حسن :

— اعتقد انك لست مصابا بالانفلونزا . انت مصاب بشيء آخر !

— ماذا تقصــد ؟

— انت تعرف قصدى .

قال ذلك بابتسامة خاصة . وسأل حسن عن متاعبه الحقيقية ! الواقع أن صورة الحسناء لم تفارقه . وصارح وليم :

— التقيت بها على محطة الاوتوبيس . بارعة الجمال ، فذة .

— يا سلام ؟ . . . وماذا فعلت بها ؟

— لا شيء . هى التى فعلت بى . اعطتنى أملا . . صرعته فى اليوم التالى . ذهبت ولم تعد .

— اين تسكن ؟

— فى هذا الحى .

— هل تعرف عنوانها ؟

— نعــم .

— اذهب ودق على بابها !

هل انت من مصر ، أم من ايرلندا ؟ انت تفكر تماما ، كما يفكر بعض المصريين المخاطرين .

— اذا لم تكن جسورا . دعنى اقوم لك بالمهمة !

— لا يا حلو . العب غيرها !

ضاع عليه شهران . لم يحصل فيهما شيئا . على ان معاناة من نوع جديد كانت تتربص به .

* * *

عندما فشل حسن فى جولته الاولى للحب ، بدأ يركز جهده فى دراسته. اخذ يتصل بالاساتذة ، ليعرض عليهم موضوع رسالته ،للاشراف عليــه وتسجيله . بدأ بجامعة لندن . قابل « البروفسيور » روبنز • رجل طويل القامة ، متين البنيان ، أنيق الثياب . من ذوى القبعــات العالية ، التى تلبسها الطبقة الارستقراطية فى انجلترا ، أو انطامحين للانتســاب اليها . كان له اسم كبير بين منظرى الاقتصاد الرأسمالى . ادلى بدلوه فى الحوار الشهير عن أزمة الرأسمالية التى تبدت فادحة فى الثلاثينات .

ذهب حسن للقائه فى مكتبه . غرفته لا تتسق مع مظهره الارستقراطى . ولا مع لقب اللورد الذى منحته له ملكة انجلترا حديثا . لم يفت حسن أن يهنئه به . يبدو أن الرجل يحترم علمه . لا يريد أن يكون مكتبه فخما . كانت الفخامة فى مكتبته الضخمة الحافلة بالكتب العلمية .

عرض حسن على الرجل موضوعه ، وخطة دراسته . القى الاستاذ عليها نظرة . ثم قال له « ان الموضوع شائق » . لكن للانجليزى طريقــة معينة . بعد ان يصف الموضوع بأنه جيد ، او هام ، تأتى بعد ذلك كلمة « لكن » . ويعقبها كلام يهدم المقدمة ! واستطرد البروفسور روبنز :

— انت تعلم اننى مشغول . ولا استطيع ان اشرف عليك . وقد كان ذلك يســعدنى .

ورد عليه حسن :

— سوف لا اكون عبئا ثقيلا عليك . ويكفينى لقاؤك ساعة واحدة ، كل خمسة عشر يوما .

— ليست المسألة عبئا ثقيلا او خفيفا . انا لا استطيع أن أفيدك ، لانه ليس لدى وقت .

لم يشأ حسن ان يكرر رجــاءه . فالانجليز لا يقبلــون التكرارات

والرجاءات . ومع ذلك فقد اراد ان يأخذ راى منظر كبير ، من منظرى المدرسة الراسمالية فى الاقتصاد ، فى موضوعه . سأله :

— هل استطيع ان اعرف رايك فى الموضوع ؟

— حسنا ، الموضوع ليس سهلا . فهناك اقتصاديون معروفون ، كتبوا فى الاستعمار . منهم كما تعلم هوبسون ، ودوب ، وباران ، وسويزى ، وغيرهم . وهناك لينين ، اذا اردت اضافته لهؤلاء الاقتصاديين . وهناك هنود ، مثل « دت » وفرنسيين ، مثل بتلهايم ، وبولنديين كاوسكار لانج ، وغيرهم .

— هل من نصيحة تسديها الى ؟

وكانت المفاجأة التى اذهلت حسن قال البروفسور :

— اقترح عليك ان تترك هذا الموضوع ، وتغيره ! الموضوعات التى تناولت التخلف والتنمية تكتظ بها الكتب . كان الرجل ، قد اكتسب جدية معينة . وغلبت على صوته رنة خاصة سأله حسن :

— ايمكننى ان اعرف سبب اقتراحك ؟

— حسنا . سوف لا تجد كثيرا من الاساتذة الانجليز ، يشرف على مثل هذا الموضوع .

وراى الرجل اللماح وجه حسن يتجهم ، فاستدرك قائلا :

— أعنى انهم ليسوا متخصصين فى هذا النوع من الدراسات !

وصلت حسن الرسالة التى يريد بروفسور روبنز ان ينقلها اليه . شكره وانصرف .

لم تكن الصدمة قاصمة . وعيه تطور . قراءاته تقدمت . أصبح يدرك الحقيقة البديهية : الرجل استاذ كبير فى بلد راسمالى . منح لقب « لورد » لولائه الفكرى والعلمى للاستعمار وللراسمالية . كيف بربك تتوقع منه

الاشراف على رسالة تهاجم الاستعمار . وتكل اليه أمراض التخلف ، التى تتفشى فى البلاد الفقيرة . كيف يقبل ان يهاجم الراسمالية المحلية . وهى حليفة للاستعمار ، وتابعة له . وتنسب اليها السبب الرئيسى الثانى فى تخلف البلاد .

راى حسن انه من العبث ان يحاول مع اساتذة آخرين فى جامعة لندن . فروبنز كبيرهم . وهم لا ريب على منواله ينسجون . على انه لا بأس ان يجرب حظه فى جامعة اخرى .

اراد ان يتخذ من موضوع رسالته اداة يختبر بها الاساتذة الانجليز . الذين ملأوا الدنيا « علما » ، وشهرة ، كما ملأوها استعمارا . لقد وقف على راى المحافظين ممثلا فى اللورد الاستاذ روبنز . وآثر ان يختبر علماء الاقتصاد من حيث انتماءاتهم الفكرية . فالفكر هو الذى يبين مكان العالم من مشكلة الانسان . ذهب الى الاستاذ « براون » فى جامعة ليدز . كان من « الاحرار » ، أو « النبراليين » . وجد ممثل الاحرار « عبدا » للاستعمار والراسمالية . الفارق ان الاحرار يؤمنون بالراسمالية المتوسطة ، والكبيرة غير الاحتكارية . والمحافظون يؤيدون الراسمالية الاحتكارية . والواقع ان المحافظين اكثر علمية من الاحرار . فلابد للراسمالية ، وعلاقاتها الانتاجية ، ان تنتهى الى الاحتكار . لهذا رفض براون الرسالة بحسم وصراحة .. قال له : اننى ثمرة لهذا النظام . ومجدى العلمى ينبثق عنه . وانا حفى بهذا المجد . لهذا ارفض رسالتك التى تهاجم الاستعمار والراسمالية

سافر الى شمال الجزر البريطانية . حيث توجد جامعة ادنبرة فى سكتلندا . لعله يجد لدى الاساتذة « الاسكوتش » أملا . بعد ان خابه رجاؤه فى الاساتذة الانجليز .

الاسكتلنديون يفاخرون بأن اهم ملوك الانجليز ، تجرى فى عروقهم دماء سكوتلاندية . لعل اصلهم الرفيع ، ينعكس عليهم ، فيقبلونه فى جامعاتهم .

قابل « البروفسور مارتن » . لم يكن مارتن بأحسن حالا من روبنز وبراون . « من روبنز وبراون الى مارتن ، يا قلبى لا تحزن » . أو « يا عقلى لا تحزن » !

تحزبت الامور . أسود وجه انجلترا ، جنوبه وشماله . لماذا يحمر لونها فى خرائط الجغرافيا ؟ قد يكون اللون الاحمر ، سواء كان على الخريطة، أم فى وجوه بنيها راجعا الى كمية الدماء والغذاء التى امتصت من عروق أبنـــاء المستعمرات .

لا طائل من رحلة البحث عن العلم . وعن استاذ يشرف على رسالته . هو يريد موضوعا يجتث جذور التخلف فى بلاده . وهم يريدون له بحثا عن تقدم الصناعة الانجليزية : النسيج والفحم والخشب ! هنالك يمكن ان تفتح له صدور الاساتذة ، وابواب الجامعات .

فكر فى الذهاب الى جامعة دبلن بايرلندة . الايرلنديون لا يحـــبون الانجليز . خاضوا ضدهم معارك للاستقلال ، عاصرت الحركة الوطنيـــة المصرية . ربما يتعاطفون مع الشعوب المتطلعة الى الاستقلال . لكن ايرلندة ليست متقدمة صناعيا كانجلترا . هى أقرب الى الدول الفقيرة منها الى الدول الغنية . ما الفرق اذن بين اساتذتنا واساتذتهم ؟ النظام الايرلندى ، نظام محافظ راسمالى . تسيطر عليه الكنيسة الكاثوليكية . وهى أشد تمسكا بالافكار القديمة من الكنيسة الانجليكانية ، التى يتبعها الاساتذة الانجليز . وعدل عن فكرة الذهاب الى ايرلندة .

ما العمل ؟ آه .بقىأمل واحد . بصيص تراقص فى ذهنه فانعشه : « البروفسور آرثر لويس » . أستاذ الاقتصاد بجامعة مانشيستر . ذاع صيته فى العالم الثالث .

الرجل ملون مثلنا ،بلحالك « اللون » . كان لويس من جزر الكاريبى من جامايكا . لونه داكن . ملامحه أفريقية « محسنة » !

ذهب الى مانشيستر . مدينة صناعية كبيرة . استقبلته اســتقبالا خانقا . سحابة سوداء قاتمه تغطى المدينة وسماءها . خليط من الضباب ودخان المصانع . يطلقون عليها « سموج » بالانجليزية . كانت قاتلة حقا .

اوشك حسن ان يختنق ، لولا أن جاءه الفرج . دخلت كافتيريا الفندق الذى ينزل به هيفاء من مانشيستر . تلاشى الضباب والدخان ! لم يضع وقتا . ذهب الى المكان الذى جلست فيه فى جراة غير مألوفة منه . وبادرها :

ـــ مساء طيب .

ابتسمت الفتاة عن شفاة مكتنزة عقيق . وعن « ضب » انجليزى سكر. قالت :

ـــ اتقول : مساء طيب قل مساء قاتل وخانق .

ـــ لكن حضورك قد بدد الدخان والضباب .

تقبلت المجاملة ، وقالت له :

ـــ شـــكرا .

كانت رائعة الجمال حقا .. يبدو ان كل فتاة هنا رائعة الجمال ! أصر فى كرم مصرى ، ان يقدملهاالشاى والساندوتشات والكعك . اســـتجابت لكرمه . سعد وتمنى الامانى !

نساء الشمال فى اجسادهن دملجة . وفى عيونهن نداءات . همس لنفسه . « ربنا يتمم بالخير ! » تبادلا الاسئلة والاجوبة عن الاسماء والبلاد ، والعمل . وعندما أنتهى الشاى ، قالت له أنها يجب ان تذهب الى البيت . لقد جاءت من العمل مباشرة وأهلها فى انتظارها .

تماما كما تفعل البنات فى مصر ! أبدى رغبة عارمة فى ان يراها مرة اخرى بعد ان تعود لذويها .ابتكر سببا للمقابلة .لجأ الى الاساليب التى يستخدمها الشباب فى بلاده . أقترح عليها الذهاب للسينما .

لم يبد على الفتاة انها ضاقت بالاقتراح . وعدته وعدا لم يشك فيه ، بأنها ستعود للقائه . خرج معها يودعها . اختارت مكانا ينتظرها فيه . جاء فى الموعد . انتظر وانتظر . ساعة بعد الموعد المحدد . لم تحضر . كتم الدخان والضباب انفاسه منجديد !

ذهب فى الصباح للقاء الاستاذ لويس . لم يكن الوصول اليه سهلا . لابد ان تمر على السكرتيرة التى تحتل حجرة انيقة . سالته السكرتيرة الحسناء :

— هل « البروفسور » ينتظرك ؟

— لا أظن ذلك .

— أخشى انك لا تستطيع لقاءه اليوم ، برنامجه حافل .

— اتيت من لندن خصيصا لمقابلته . والحديث معه ، بشأن رسالتى . فأرجو أن اتمكن من لقائه اليوم .

— دعنى اساله .

سرت السكرتيرة كالنسمة . الى حجرة الاستاذ . وعادت فى الحال :

— ليس لدى البروفسور وقت هذا الصباح . سيراك فى الرابعة بعد الظهر .

وفى الساعة الرابعة تماما دخل حسن غرفة البروفسور لويس . ليست غرفة متواضعة ! لا تشبه غرفة اللورد روبنز ، ولا براون ، ولا مارتن . أحس على الفور انه دخل منطقة متخلفة ! الغرفة وثيرة . فيها ابهة وفخامة ورياش ، مألوفة لدينا فى الدول المتخلفة . المظاهر والترف الذى يضيع الموارد فى بلادنا ، بدلا من استخدامها فى التنمية . وبرر حسن موقف لويس . الرجل أمين مع نفسه ، ومع قيم بلاده . لا يريد أن يظهر بمظهر متواضع ، لا ينطبق على بلاده ، ولا على سلوك الصفوة فيها !

استقبله البروفسور لويس ، باستاذية واضحة . لم يلحظ مثل هذا

المظهر الاستاذى عندما قابل الاساتذة الآخرين . رجل فارع ، مكتنز الاكتاف ، داكن اللون ، افريقى السمات . كان يعالج معادلة رياضية من المعادلات البسيطة على السبورة . كان مستغرقا فيها . خيل لحسن أن هذه المعادلة ، سوف تلغى التخلف والفقر ، فى بلد لويس ، وفى العالم الثالث !
تعجل الاستاذ الحديث :

— ماذا يمكن ان اقدمه لك ؟

— ارجو ان تشرف على رسالتى للدكتوراة .

— هل سجلت الموضوع فى الجامعة ؟

— معى الاوراق كلها . وسوف اسجلها . الامر يتطلب استاذا يقبل الاشراف عليها .

حك « البروفسور » صلعته السمراء ، التى حجب « لونها » ما فيها من بريق . وقال :

— لنستمع لك ، ثم نرى .

— اشكرك . اننى اعد رسالة للدكتوراة فى معوقات التقدم ، او مشكلات التخلف ، التى عرضت لها فى كتابك .

— هذا موضوع شائك وطويل . واخشى الا تستطيع الالمام بأطرافه .

— سأحاول التركيز على عقبتين ، هما ، فى نظرى ، اصل كل العقبات .

— ما هما ؟

— الاستعمار ، وقوى الاقطاع والراسمالية المحلية .

برقت عينا الاستاذ من خلال نظارته السميكة . عينان تعطيك الطابع الافريقى . كانت هاتان العقبتان ، لا ذكر لهما فى كتابه ، الذى يعتبره « المتخلفون » موسوعة فى التنمية . وقال فى انجليزية لا تخلو من لكنة كاريبية :

— سببان غريبان .

— أحببت أن أخرج عن النطاق الكلاسيكى ، الذى يكتفى بذكر مظاهر التخلف : كالامية والمستوى الصحى المتردى ، والدين والعادات والتقاليد ، وعيوب السوق ، وتأخر الصناعة ، وتخلف المراة ، وغيرها .. هذه ليست اسباب التخلف ، ولكنها مظاهره . الاســباب الدفينة توجد فى التنظيم الاجتماعى ، وملكية الارض وراس المال . واستخدام ناتجهما فى ترف القلة المالكة ، وحرمان التنمية والتقدم الصناعى والزراعى منه . والاستعمار ينهب موارد الدول المتخلفة ، وبذلك يتسبب فى ركودها . ســواء كــان استعمارا قديما ، أم جديدا فى شكل شركات عابرة للقوميات . هذا هــو الموضوع مختصرا ، أو موضوعا « فى قوقعة » ، كما يقول الانجليز .

— يبدو انك متأثر بالفكر الاشتراكى .

— ليس من الضرورى ان اكون اشتراكيا ، لأرى التخلف ممسـكا بخنـاق بــلادى .

— الم يعلمك احد الاشتراكية الديمقراطية ؟

— قرأت فيها .

تبسط وجهه القاتم ، واشرق كالقمر . القمر من الناحية الاخرى ! تشجع حسن وسأله :

— لعلك توافقنى أن مشكلتى الاستعمار ، والاقطــاع والراسمالية المحلية هما العقبتان الرئيسيتان أمام التقدم الاقتصادى والاجتماعى ، فى البلاد المتخلفة .

— لا أستطيع ان أوافقك . فهذه ليست مسالة سهلة . الاستعمار له فوائد . وله مضـــار . والراسمالية قادت التقــدم الاقتصادى فى الدول الراسمالية الغــربية .

واعمل حسن فكره لحظة . يريد أن يتأكد من أن الحوار لا يمس شخص

الاستاذ . يريده ان يقبل الاشراف عليه . وفى الوقت نفسه ، لا يريد ان يبدو سطحيا ، يوافق على كل شىء . سأل الاستاذ :

— ما هى فوائد الاستعمار فى جامايكا ، وفى مصر ؟

تحرك الاستاذ فى كرسيه ، وابتسم ابتسامة خفيفــة ، وشت عن اســـنان ناصـــعة :

— لا ادرى من السائل ومن المسئول ؟ .. ومع ذلك ، فأنت تعلم فوائده فى مصر . اما فى جامايكا ، فقد انشأ الاستعمار مدارس ، ومستشفيات ، وطرقا ، وعمائر ، ومشروعات وغيرها .

ورد عليه حسن :

— المدارس التى انشئت من خرجت ؟ خرجت اقتصــاديين وأدباء وقانونيين وتجاريين ، وسكرتاريين وغيرهم من الفئات الضئيلة الاســهام فى التنمية بالمعنى الحقيقى . ضــيعت القوى البشرية ، وهى اغلى عوامل الانتاج . لم تخرج مهندسين وزراعيين ، وصناعيين وتكنولوجيين ، وعلماء . وهم عصب التقدم الصناعى والزراعى . القاعدة الانتاجية الحقيقية فى كل مجتمــع .

دهش ، لأن البروفسور لويس ، لم ينزعج من هذا الرد . على العكس تبدت اسنانه البيضاء ، تعبيرا عن بسمة راضية . وعقب الاستاذ :

— انت تستخدم كتبى ضدى ؟

ومضى حسن :

— المستشفيات . ماذا كان شأنها ؟ المستشفيات الصغيرة الخاصة تعالج القلة المترفة . وهذه لا شأن لها بالتنمية . فلا هى تعمل فى مشروعات التنمية . ولا هى تنفق أموالها فيها . والمستشفيات العامة تعالج الفقراء علاجا غير فعال . لم يكن الهدف انسانيا ، بقدر ما كان اقتصاديا . كانوا

يعالجون العاملين من الملاريا والبلهارسيا ، لكى تزيد انتاجيتهم فى المزارع الاجنبية الكبرى ، وفى المناجم . فوائدها وارباحها للمستثمرين الاجانب . حدد للعامل الوطنى اجر رخيص ، « حفنة من الارز » كما سميت سياسة الاجور فى الشرق الاقصى .

لم يكن « البروفسور » سعيدا ، بهذا التفسير للمستشفيات . كان يهز رأسه ، ولا يدرى حسن أن كان موافقا ، ام غير موافق . مثل هذا التفسير لم يرد فى كتابه !

واستمر حسن :

— والعمائر ، والفلل من يسكنها ؟الانجليز والموظفون الذين يعملون فى مكاتبهم او متاجرهم . والقلة الغنية ، التى تعيش على النشاطات التى يسمح بها الاستعمار . ولست فى حاجة لان اذكرك بملايين الاكواخ ، التى تنحشر فيها شعوبنا فى البلاد المتخلفة .

— صدقت .

انتعش حسن لهذه الكلمة . اطمأن انه يسير على الدرب . واصل حديثه فى حماســة :

— وما المشروعات ؟ خذ مثلا ، مزارع الموز فى جمايكا ، والقطن فى مصر .. اخذ المستثمر الاجنبى الاراضى فى كلا البلدين ، بالغصب . او بثمن بخس . العمال الوطنيون رخيصو الاجر ، يعملون فيها قهرا . يصدر الموز الى انجلترا ليكفل ترفا للمستهلك الانجليزى ، والقطن ليكفل للمصـانع والمستهلك ربحا وترفا . حرمت هذه البلاد من زراعة ارضها بالحبوب اللازمة لغذاء شعوبها . سادت المجاعات .

عند هذه النقطة ، نظر البروفسور الى ساعته ، والى السبورة ، وعليها المعادلة الرياضية . التى ستنقذ جمايكا والعالم المتخلف من بأسائه ! وصلت الرسالة الى حسن . ومع ذلك اراد ان يستدرج الاستاذ للحديث فقـال :

— هذا عن فوائد الاستعمار فى جمايكا ، فما هى مضاره ؟

— انت غطيت الفوائد والمضار جميعا . وقلبت الفوائد مضارا

صمت الاستاذ قليلا ، ونظر الى السبورة ، مرة اخرى ، وقال :

— انا اخشى ان يكون الوقت قد مضى بنا . فلم يعد لدينا متسع منه .

— كمـا ترى .

— حسنا . ماذا يمكن ان اقدمه لك ؟

— ان تتفضل بالاشراف على رسالتى .

— يؤسفنى . اننى لا استطيع .

انزعج حسن . كتم انزعاجه ، وقال :

— اعلم انك مشغول . واعباؤك كثيرة .

— ليست الفكرة مشاغل واعباء . اعفنى من ذكر الاسباب .

— كنت الامل الباقى . فقد اعتذر قبلك اساتذة آخرون .

— وسوف يعتذر الباقون جميعا !

— اذن أعفيتك من ذكر الاسباب ، فقد عرفتها .

— اشكرك ربما لا تعرفها كلها .

— لكنك لست كالاساتذة الانجليز . جئت من منطقة متخلفة . وعانيت مثلنا . او عانى آباؤك البأساء ، والقهر ، والاسترقاق ، والاستغلال . حسبت ان مشاعرك مع المتخلفين .

— ارجو الا تسترسل . هذه قضية منتهية . لا عودة للمناقشة فيها .

سكت الاستاذ الملون هنيهة ، واصل الحديث بعدها :

— على اننى ، وقد سعدت بمعرفتك . اود ان اهمس فى اذنك بنصيحة: لن تجد استاذا فى هذا البلد يقبل هذا الموضوع . واجدر بك أن تغيره وتنتقى موضوعا مقبولا . فاذا فعلت، يمكن أن نلتقى ، ونرى .

كان رد حسن حاسما :

— اننى مقتنع بموضوعى . لابد لى من دراسته . اننى ارى فيه خدمة لبلادى . ودون القضاء على هذين المعوقين ، لا أمل فى قهر التخلف .

اعترته خيبة أمل . لم تكن الخيبة هى اعتذار الاستاذ لويس الملون عن قبول الاشراف على الرسالة . ولكن لانه يقول — وهو من بلد متخلف — ما يقوله البيض « المستعمرون » .

غادر حسن الحجرة . لم يمر على السكرتيرة الحسناء ، ليشكرها ، على غير عادته فى الحفاوة بالحسناوات ! كان كل شىء قبيحا فى مانشستر ، بل فى انجلترا كلها . كان لويس صورة للنخبة المثقفة « البرجوازية » ، فى حزب العمال الانجليزى .

* * *

الظلام يخيم حوله فى هذا البلد . غير انه لا يقارن بالظلام الذى غشيه فى اقطاعية الخواجة . او فى عراكه مع الجهل ، فى الوسية العسكرية . انه اليوم ياكل ، وكان الجوع رفيقه ، فى تلك الفترة الغابرة . الطعام الانجليزى، المسلوق غالبا ، يعتبر قفزة غذائية وصحية للامام . نعم بأكلات السمك والبطاطس المحمرة « واليوركشاير بودنج » تلك الفطيرة التى تشتهر بها مدينة يوركشير . المدينة التى تشتهر كذلك بصناعة القطن . والتى اسهم فى تقدمها ، وفى رخاء اهلها ، وفطيرتهم ، الفلاح المصرى !

لا يقاس كذلك رفض الاساتذة الانجليز قبول موضوعه لدراسة الدكتوراة ، برفض وزير المعارف فى مصر طلبه للتعليم المجانى رغم تفوقه وفقره ، وطرده من المدرسة وحرمانه من التعليم . كان يواجه ، وهو صبى ، لين العود ، نظاما اجتماعيا شرسا ، مهمته تجهيل الملايين وتجويعهم .

انه يسلم بأنه لا مجال للمقارنة . لكنه يحس بأن هناك نوعا من

الرابطة ، بين الطرد من المدرسة الثانوية فى مصر ، والطرد من دراسة الدكتوراة فى انجلترا . الحكومة التى حرمته من التعليم فى مصر ، كانت حكومة صدقى باشا . ممثل الراسمالية المحلية . وهو بالتالى الحليف الاقتصادى والسياسى للانجليز والملك . هذا اللون من الحكومة تقوم استراتيجيته على تجهيل الجماهير . الجماهير المتعلمة ، يمكن ان يرتقى وعيها وتدرك حقوقها . يمكنها كذلك أن تنظم نفسها ، للقضاء على مستغليها .

أما رفض موضوعه لدراسة الدكتوراة فسببه واضح : انه ذهب لمهاجمة الاسد البريطانى فى عرينه . يريد أن يثبت علميا ان الاستعمار والراسمالية هما سبب الفقر فى الدول المتخلفة . ودون القضاء عليهما لا امل لبلاده فى التقدم . ويريد كذلك — وهذا لعمرى أمر عجيب — ان يشرف على تلك الرسالة اساتذة انجليز !

تفهم موقف الاساتذة الانجليز . ينافحون عن بقية المجد ، الذى أمدهم الاستعمار به . جعل الثورة الصناعية ، تقوم فى بلادهم ، قبل البلاد الاوربية الاخرى . الثروات المنقولة من المستعمرات أسهمت فى بناء الاقتصاد الانجليزى وفى رخائه . ومن هذا الرخاء تعلم هؤلاء الاساتذة ، واصبحوا مشهورين . تغزو كتبهم آفاق الارض . لا يهم هؤلاء العلماء ، بعد ذلك ، ان تكون الامبراطورية البريطانية ،قد بنيت من عمل ابناء المستعمرات . ومن عرقهم المتقطر . العلماء اذن هم حماة النظام ومنظروه . الهجوم على الاستعمار والراسمالية مرفوض . هذان هما سبب ما يرفلون فيه من وضع اجتماعى ، ومكانة علمية .

على أن الامر الذى لم يتفهمه . بل جزع له ، هو هذا « البروفسور » لويس . الرجل قدم من الدول الفقيرة ، التى عانت من الاستعمار . انه لا شك قد راى ، وسمع،وقرا ، ان آباءه جلدوا ، وهم يزرعون الموز ، فى مزارع المستعمرين . كانوا يستخدمونهم بأجر رخيص . وفى ظروف عمل

مرهقة . لكى يذهب الموزرخيصا للمستهلك الانجليزى . وفير الربح لصاحب المزرعة . الا يعلم هذا الاستاذ المتالق ، ان اجداده قهرت انسانيتهم ، وحفيت أقدامهم وتشــققت أيديهم فى مزارع قصب الســكر . الســكر الذى ذهب لانجلترا ليسهم فى صنع « شكولاته » فاخرة ، يستمتع بها ابناؤها . ويترك العلقم المر ، يتبلغ به الجمايكيون .

ما بال هذه الصورةلاتتراءى لعينيه . ولم تظهر فى حديثه . لم تعلق بوجدانه صور الفقر يطحن مواطنيه . والتخلف يمسخ انسانيتهم ؟

صلة هذا الرجل بجذوره تقطعت . اصبح نبتة جافة ، لا طعم لهــا ولا رائحة . لعل الاســتعمار جاء به من كوخ فى غابة . علمه فى مدارس الارساليات الدينية ، التى فتحت هذه البلاد مع عساكر الجيش ورجــال الاعمال الانجليز . ثم جاءوا به لانجلترا . ولابد انه كان ذكيا .. واصلوا تعليمه عاليا . أعطوه الدكتوراة . واغلب الظن ان موضوعها كان فى آلاء الاستعمار على «جمايكا »ثم نصبوه استاذا ، عالما من اعلام الاقتصاد . يعتبر ناكرا للجميل ، اذا لم يدافع عن النظام ، الذى كفل له المجد ، والشهرة ، والعيش الباذخ . اذن فكرة مسئولية الاستعمار ، وحليفته الراسمالية المحلية عن الفقر فى البلاد المتخلفة فكرة خاطئة ، يجب مقاومتها . وطرد من يصر على الكتابة فيها . ومحاولةاغرائه بتغيير موضوع الدراسة ، ليتسق مع الثقافة الاستعمارية .

* * *

القطار ، الذى ركبه من مانشستر الى لندن ، يمرق به فى نعومة ويسر بين الجبال والوديان والبحيرات . يشق الجزر البريطانية من المشمال الى الجنوب . ينساب بين أجمل بقاع تلك الجزر . جبال ذات قمم بيضاء كالشمع . لكنها لا تذوب ، فهى قمم من زمهرير ! تلال متعرجة ، كبحر مائج من الخضرة

اليانعة ، غابات باســقات . اروع مناطق انجلترا : منطقــة البحيرات • مرت هذه اللوحات البديعة ، أمام ناظريه ، وكأنه لا يراها .

كأنها ليست الطبيعة التى سحرته دائما . وكتب بين احضانها ، أحلى ما كتب : من اقتصاد وسياسة ، وادب . كانت الطبيعة صحراء عنــدما استأنف دراسته الثانوية فى الجيش . وكانت بحرا عندما كان يدرس فى جامعة الاسكندرية . وكانت قبل ذلك ، حقول الوسية اليونانية ، عندما كان يكتب الانفار .

* * *

— ٩ —

مر بأزمات طاحنة فى بلاده . ولكن الوانا اخرى من الشقاء كانت تنتظره فى انجلترا . ولما تراكمت الارزاء عليه، هبت قوى من داخله تصارعها . انبلجت ومضة من ماضيه لتشحذ ارادته . اصبحت الومضــة شعاعا . تجمع الشعاع فصار قبسا ، مزق ظلام الازمة .

التفاؤل يمضى . والدراسة تصاعد نحو غايتها . يترك منزلــه فى السابعة صباحا ، ليكون فى « المدرسة » فى الثامنة . ويبدأ على التهام الكتب فى المكتبة . كان يمكث فيها احدى عشر ساعة . يسبر فيها بطون الكتب ، ويستدر أسرارها .

اقلع عن نوم القيلولة ، طيلة السنوات الثلاث التى امضاها فى انجلترا . اسهم فى ذلك ملاحظة فكهة ، ابداها زميل المانى من الكلية . كانا يحتسيان الشاى ذات صباح . بادره الالمانى بلهجة عربية ركيكة ، مقبولة :

— صباح الخير .

— صباح النور .

اثارت التحيـة ، موضوع التحايا التى يتبادلها النـاس فى الدول المختلفة . تحدث الالمانى عن تحية الصباح عندهم ، وتحية بعد الظهر ، وتحية المساء . ورد حسن :

— لا توجد لدينا تحية لفترة بعد الظهر .

وسارع الالمانى يسأله :

— هل تعرف لماذا ؟

— لا .

— لان الناس ينامون بعد الظهر فى مصر !

صباح مشرق . أصرت الشمس على أن تمزق السحاب الكثيف ، الذى أزهق انفاس الناس . فرضت الشمس سماء زرقاء صافية . كانت سخية . اشاعت فى الكون دفئا ، استشرى فى اوصال الشتاء . جعل الناس يطفرون فى الشوارع . طاقة الشمس كانت وقودا ، حرك اجسادهم ، التى جمدها البرد . خلعت حسان لندن معاطفهن . زهرات ، تنثرن فى الشوارع عطر الحب ، والوان الربيع .

كان قابعا فى حجرة المكتبة . اطلت عليـه الشمس . تسللت الاشـعة الحانية من النافذة . اصابته ارتعاشة جذلة . انتفض واقفا . جمع اوراقه ، وغادر المكتبة . هذا يوم الطبيعة !

ذكرته الشمس بمصر . قفز الى ذهنه على الفور ، زميـل مصرى ، مريض بمستشفى ، يقع على الجانب الآخـر من نهر التيمز ، القريب من الكلية . فرصة ليرافق الشمس والنهر اطول مدة . ذهب الى المستشفى ليعود زميله . ولما فرغ من زيارته ، اخذ طريقه الى باب الخروج . فجاة ، شاهد انسانا ، كان آخر من يتوقع أن يرى . انسـانا تمنى ان يراه اثناء الليل ، وطرفا من النهار ! اعطاه أحلى الامانى ، ثم وادها !

رأى « برندا » أمامه ، وجها لوجه ! كان المسـتشفى فى وسـط

المدينة . بعيدا عن الحى الذى يسكنانه . ما كان لاى منهما أن يتصور ، انهما سوف يتلاقيان هناك .

تلعثم حسن . انتابته قشعريرة فى يوم دفء ! كانت أمنيته الكبرى ان يراها . ها هى ذى تفاجئه . بادرها على الفور ، وكأنه طفل يلهث :

— مفاجاة جميلة .

— نعم ، مفاجاة لطيفة .

— اين انت ؟

— فى لنـدن .

— بحثت عنك طيلة الشهرين الماضيين . اوشكت ان اقتحم عليك منزلك .

— اوه . يالجراتك . شكرا على انك لم تفعل .

— لـماذا ؟

— ان ابى رجل شديد !

— الله ! حتى هنا فى انجلترا ؟

— طبعا . هل الآباء عندكم كذلك ؟

— الآباء عندنا يقتلون !

— اوه . ربـاه !

— ماذا كنت تفعلين هنا ؟

— كنت ازور خالتى المريضة .

— لاباس عليها .

— شـكرا .

اتخذ الكلام اتجاها عاديا ، انجليزيا ، لا يشبع . تردد حسن فى أن يرفع من درجة حرارته . لم يألف الغزل الانجليزى بعد . هل هناك نمط

عام للغزل ، أم أن هناك انماطا كثيرة ؟ صداقتها تكفيه . أيا كان مستوى تلك الصداقة . النظرة اليها كسب كبير . يريدها ان تؤنس وحدته . حتى لو كان الايناس ثقافيا ! تشجع وغير مجرى الحديث :

— لقد ارسلت اليك خطابا .

ردت عليه .

— وصـــلنى .

— لم تردى عليه .

— أنا آســفة .

وخطى خطوة اكثر شجاعة :

— ماذا يجدى الاسف ؟ وقد كنت عنصرا فى الازمة التى حاقت بى فى بلادكم ؟

— أزمة .. ؟ .. اية ازمة ؟

— ازمة الهوان اللونى . وازمة الاساتذة الانجليز ، لا يقبلون موضوع رســالتى .

— هل حدث ذلك لك ؟

— اجل .. بعدها جاءت ازمة الانفلونزا ، والوحدة . وازمة الحرمان من صداقة جميلة ، حين لم تردى على خطابى . انك حتى لم تعودى تأخذين الاوتوبيس ، من المحطة التى التقينا فيها اول مرة .

— أنا آسفة . انا حقا آسفة .

خشى أن تفر منه مرة اخرى . شجعته نبرة الصدق فى اسفها على ان يقــول لهــا :

— هل يعنى هذا أن نبدا بدءا جديدا ؟

— نبدأ ؟ .. نبدأ ماذا ؟

— الصداقة بيننا .

— نحن اصدقاء .

— صداقة نلتقى فيها عن طريق الصدفة — هذا اذا كانت الصدفة مواتيــه .

— آسفة . لا استطيع ان القاك بانتظام .

— نلتقى بغير انتظام !

ابتسمت وقالت :

— دعنى احدثك بصراحة .

ازداد وجيب قلبــه . الصراحة قد تكون قاتلة لامانيه .. ومضــت تقــول :

— انى جد آســفة على ما ســببته لك . لم اكن ادرى ان مقــابلة عارضة ، ستفعل بك مافعلت . يبدو انكم عاطفيون ، سريعو الانفعال .

توقفت لحظة ثم استطردت :

— انا لا استطيع ان اخوض الآن عملية الحب . او العلاقة مع اى رجل . انا مازلت فى الثامنة عشرة من عمــرى . وانا طالبة فى الثانوية . مازال مصيرى الدراسى لم يتبين لى . اعمل الآن ســكرتيرة فى شركة من الشركات بعض الوقت . وانت رجل ناضج . لا تتعجل . سوف تقابلك حتما فتيات ناضجات . يلذن بقوامك السمهرى ، ولونك الخمرى !

انعكس كلامها ، على رقته وصراحته ، فى قلبه جراحا . وفى نفسه خيبة . لم يخفف من الم الجراح ، تلك الكلمات ، التى وصفت بها قوامه ولونه . أليس هذا اللون ، الذى يعجبها ، هو سبب اضطهاده فى انجلترا !؟

اجابها بقلب كسير :

— انا لا اريد الاك !

واستطرد فى حماسة . طرق ناحية حساسة ، بجراة غير متوقعة :

— .. واعدك وعد الرجال ، باننى لن المسك . فسنك لا يهم .

— انا آسفة . انت لم تفهمنى . الموضوع ليس سنا . ولا خوفا منك . لكننى فى المرحلة التى اجتازها الآن ، ليس لدى استعداد نفسى . لابدا علاقة مع اى رجل . وليس الموضوع متعلقا بك فحسب .

اجابة صريحة وامينة . لكنها لا تهدهد نفسه الممزقة . غاض امله تسلل الوهن الى جسده ، ومعنوياته . تركها دون ان يحييها . لم يرد ذلك . ولكن الضياع الذى غشيه ، هو الذى اراد .

* * *

انفض عرس الشمس . انقلبت الاشعة الذهبية الى اسلاك من حديد صدىء ! انعكس الصدأ على الناس فى الشوارع . صارت ملابسهم دكناء . بشرتهم مربدة . وجوههم تذكر حمرتها ، لا بلون الورد ، لكن بلون الدماء !

تواترت صور المعاناة التى تعرض لها ، منذ فترة مبكرة من صباه . حملت العذابات اليه هذه المرة مخاوف جديدة . كان يرفضها دائما . هذه المخاوف ، لو استقرت فى نفسه ، لعاقت طموحاته . مخاوف تتراقص كالشياطين : القدر ، الحظ ، النصيب ، المصير التعس .

بماذا يفسر هذا الاصرار من القدر على ملاحقته ؟ وهل لابد ان يكون القدر دائما مخربا ؟ بدا القدر الرحلة معه مبكرا . وهاهو يواصل صب لعناته عليه .

على انه ليس قدريا . لم يندب حظه ، ولم ينع من بناه ، وهو صبى عندما ضاعت الارض . والدته بكت الارض .

ونسبت للقدر والبخت سبب الكارثة . الا انه يرى ان القدر لم يسلب الارض . ولكن سلبها شخص بعينه . هو الخواجة اليونانى . وان الخواجة كان مرابيا . وكان يتجر فى الخمر فى بلد مسلم . يبيعها لاعيان الريف فى مصر بثمن مرتفع . يقرضهم النقود بربا فاحش . يتراكم الدين عليهم . يعجزون عن سداده . تنتزع الارض منهم . يتملكها الخواجات . ليس القدر هو الذى انتزع الارض .. ولكن الخواجة ينى اليونانى ! مكنه من ذلك نظام اجتماعى معين . وحكومات تعاون فى نقل ملكية الارض الوطنية الى الاجانب . وجيش من الاحتلال الانجليزى يحمى امتيازات الخواجات .

وحينما اناخ كاهله الاستغلال . واستخدمه خواجه يونانى آخر بمبلغ خمسة واربعين قرشا فى الشهر . لم يكن ذلك نصيبا . وحينما انصب الاستغلال والقهر على الفلاحين فى وسية الخواجة ، لم يكن ذلك حظا . ولكنه كان نظاما يمتلك فيه الخواجات والباشوات الارض ، ويحرم منها ملايين الفلاحين . كان نظاما من صنع المستغلين للبشر . وليس من صنع القدر .

طبق حسن فلسفته على نفسه : لو استنام لطرده من المدرسة وتجهيله ، ولاستغلاله فى الوسية وتجويعه ، واعتبر ذلك قدرا لا فكاك منه ، ما كان قهر الجهل والجوع .

فلسفته تتنامى . يبدو راضيا ، اذ يرفض اساتذة الاستعمار موضوع رسالته ! لماذا لا يمضى فى النضال ؟ الم ينل الثقافة والتوجيهية دون مدرسين ؟ لماذا لا يحصل على الدكتوراه ، دون اساتذة ؟ همته ، وهو صبى ، كانت قعساء . مابالها توشك ان تتقاعس به وهو فى شرخ الشباب . وعادت العزيمة :

ما الدكتوراه ، وما جامعات بريطانيا ، وما الاساتذة الانجليز ؟ الدكتوراه معرفة تحصل وتنظم . وتطوع للهدف الذى ترنو اليه . اصبحت

قادرا على تحصيل العلم . اتسعت آفاقك ومداركك . لم يتبق الا التصميم والابتكار . عليك ان تبتدع عملا ، يسهم فى المعركة ضد الفقر فى بلادك . والدكتوراه أسهل قطعا من « الثقافة » والتوجيهية !

ماذا يضيف الاستاذ الى طالب الدكتوراه فى مصر ، وحتى فى انجلترا ؟ اغلب الاساتذة فى مصر ، لا يرون طلبة الدكتوراه . مشغولون برغيف العيش (أو بالجاتو !) . الدولة التجهيلية لا تكرمهم . ومادام الحاكمون مشغولين بقضايا تثبيت السلطان ، وتراكم الثروات . فالاساتذة كذلك فى حل من تثبيت « الجاتو » ، والسلطان العلمى والتجارى على الطلاب . وتثبيت الدخل من الكتب ، التى تترجم ، او تنقل من مراجع اجنبية بالية . بهذا يضيع طلاب الدراسات العليا « والوطيا » . اذن ليس هناك جديد فى دراسة الدكتوراه ، دون أساتذة مشرفين . بل هى بالنسبة لى فلسفة منعشة : حرمتنى دولة الوسية من مدرسيها وحرمتنى الوسية الاستعمارية من أساتذتها ، فلا زاول هوايتى المفضلة : التعليم دون مدرس أو استاذ .

وما الاساتذة الانجليز ؟ كلامهم فى كتبهم . يمكن قراءتها باستخدام العقل والمعجمات . فى اشرافهم على الرسائل لا يقولون جديدا . عار على لو كتبت رسالة دكتوراه ، تبحث فى صناعة القطن الانجليزية « بلانكشير » ، كما يفعل مصيلح ، وكثير غيره . ما الفائدة ان اقدم موضوعا ، يقبله الاساتذة الانجليز ، يكون تافها ، وعديم القيمة بالنسبة لبلادى ؟ لن انال الدكتوراه من هذا البلد ، اذا لم اتبع النهج الرأسمالى . سوف أبرز تخريب الاستعمار والرأسمالية لبلادى ، مهما كره الكافرون بالانسان .

بقى موضوع لا يهزنى . ولا انتشى به كالآخرين . دكتوراه من جامعات انجلترا او فرنسا او امريكا . عقدة غرسها الخواجات فى تفكيرنا . هذه الفكرة لن تنفخ فى أوداجى . ولن تثير فى تعاليا اجوف .

المشكلة بالنسبة لى الآن ، هى المكتبة . والحق ، ان المكتبات فى

هذا البلد حاشدة ، مضيئة بالعلم والمعرفة . من الحق كذلك انها انعكاس للتقدم الصناعى والحضارى ، الذى قطعته انجلترا . لكن من الحق ايضا ، انها اقتطعت هذا التقدم من شعوب المستعمرات .

سأمكث هنا سنتين . وهما كافيتان لاعب من انهار المعرفة ، التى تغرق هذه البلاد . سوف استقطر هذه الكتب ، واسكبها رحيقا فى رسالتى . وسوف أشكل الرحيق ليكون شفاء للتخلف فى بلدى . عقلى ووجدانى صقلهما الكدح والصراع مع الجوع نفسه ، لا مع كتبه . ومع التخلف ذاته ، لا مع وثائقه . ومع القهر الحقيقى ، لا مع مؤلفاته . هذه المراجع النابضة بالحياة ، تثرى المعارف المكتوبة . وتمكن الكاتب من تقديم علاج أصيل للتخلف . ورسم مسار مضىء للتقدم . لانه علاج استقطر من شقاء الملايين . ولانه مسار يقتحمونه بأمل وثقة وعمل .

وسوف اعود الى بلادى . وسأجد استاذا لا يقل عن الاساتذة الانجليز علما . وهو ابن بلدى على اية حال . مهما كان فكره ، فلا شك ان البؤس يحيق به مباشرة . ولا يبعد المكان والزمان بينه وبينه . كما حدث للاستاذ لويس . سيكون عطوفا على موضوع الرسالة . الثورة كذلك فى مصر ، تقضى على الاقطاع . وتخوض معركة ضارية ضد الاستعمار . وترنو الى اقتصاد وطنى « ممصر » مستقل . لا ينهش لحمه الاجانب . تاركين العظام ينخرها السوس والرأسمالية المحلية . فى هذا الجو لابد ان تكون فرصتى افضل .

* * *

نسى حسناء انجلترا . او هو فى الحقيقة تناساها . لم يحقد عليها . انه لم يحمل حقدا لأحد . حتى لمن وجهوا اليه تلك الضربات الاجتماعية القاصمة . كيف يحقد على الجمال ، وهو من عشاقه .

حاول أن يرفه عن نفسه ، كما يفعل الآخرون . هذه لندن ، والوان الترفيه فيها متعددة . تتراوح بين الترفيه الرفيع ، والوضيع .

كان يغادر السفارة المصرية ، الموجودة فى حى راق من احياء لندن « الماى فير » . راى غادة هيفاء من بعيد ، تتخطر على الرصيف . كانت فاتنة . الا توجدفى هذا البلد غير الفاتنات ؟! حدجها بعيونه النفاذة . كانت تقترب منه ، وبسمة مرسومة تعلو شفتيها . بادرته :

— مسـاء الخـير .

— مسـاء الخـير .

— هل تحب أن آتى معك ؟ !

فوجىء ! تردد . لم يعرف بماذا يجيب ؟ بلد غريب : فريق يرفض صداقتك ، ويفر منك . وفريق يتقرب اليك ، ويعرض نفسه عليك . ولما وجدها تنتظر رده قال :

— لا . اشـكرك !

فطن ، رغم انعدام خبرته فى هـذا الميدان ، الى انها امراة عامة ! وهذا هو المجال الوحيد فى حياته الذى ينفر فيه من العمـومية ! مجال النساء . لكن كيف تكون البغى ساحرة على هذه الصورة ؟! قامة تتاود ، فتتاود معها رغبتك . هامة مرتفعة ، وكانها لا ترتكب امرا مشينا . الصحة والجمال وانرخاء تنبض فى جسـدها . استغفر الله ! الدعارة هنا مختالة أبيه . بينما الدعارة فى بلدى مهينة منكسرة :

كان يتمشى مع خمسة من اصدقائه على شاطىء النيل . « اصطادوا » امراة ، قصيرة القامة ، هزيلة الجسد . سوء التغذية ، شـوه وجهها . واعطاه لونا كالتراب . لم تفلح المساحيق الثقيلة فى تغيير هـذا اللون . اخذها ابناء « الأسر » ، خريجو الجامعة ، الى شقة احدهم . لم يرد ان يصاحبهم . لكنه ذهب ليدرس ! كان فى البيت ثلاثة « شحطة » ، اخـوة

صاحب الشقة . تناوب ابناء « الأسر » ، التى وصفها النائب انعام ، بأنها الاسر الوجيهة الثرية ، التى يحتفظ لها بالوظائف الممتازة ، تناوبوا التهام هذه الفريسة الشعبية . كانوا يلغون فيها كالكلاب . ثمانية غلاظ شداد ، يفتكون بانسانه . ينخر المرض والفقر والمجتمع فى صـدرها ، وجسـدها المعـروق .

دعى للدخـول . رفض ! كان الدين هو السد الاول ضـد هـذه الجريمة . لكن تطورت معه قيم اخرى . العملية الجنسية عنده ، لون من التواصل الجمالى بين انسان وانسان . انه انتقائى ، فى هذا الموضوع . نشأ لديه نفور من المراة « العمومية » . لكنه عندما دفعه هؤلاء الشباب الى الدخول عنوة ، شهد منظرا ، تجسد فيه الهوان الانسانى . كان يظن أن الهوان الانسانى فى المعتقلات فحسب . ولكنه وجد له صورة بشرية زرية اخرى . ما الفرق بين ان تلهب ظهور الشباب بسياط القهر ، وبين أن تلهب عورة هذه الانسانة الفقيرة المريضة الجائعة . لا رحمة هنا ولا انسانية هناك . مجتمع يمتهن بعضه بعضا ! ولا يكفل للعاهرات عملا منتجا شريفا . هذا المنظر المقزز اصبح حائلا اشد مناعة بينه وبين الجريمة .

رفض حسن دعوة البغى الانجليزية ، رغم حرمانه الشديد . ورغم انها كانت بغيا من بلد متقدم صناعى ! يتيه بحضارته ، التى لم تكفل عملا محترما انتاجيا لهذه الفتاة . فى الراسمالية يخضع الانسان للربح وللتجارة ، حتى فى الدعارة .

ليس امامه الا الترفيه الرفيع ، ليغترف منه ماشـاء له الاغتراف . هناك دور الموسيقى والمسرح والسـينما ، والمتاحف ، والمراسم ، ودور الرقص .

* * *

— ١٠ —

عام ١٩٥٦ ، عام القضايا الوطنية الساخنة . يبدو أن الاحداث العامة لا تود ان تفارقه . انه رفيقها ، وصفيها ، وخليلها ! تطيرت القضايا العامة من اتجاهه الاخير نحو الترفيه . الترفيه هنا ، ولو انه يبدو ضرورة . تنقذه من الفراغ العاطفى ، الا انه خطير .

فالترفيه مشتق من « الترف » ! والترف اذا ما امسك بناصيته ، سيكون ذلك نهاية مكافح . نشأ غرام بينه وبين المشكلات العامة . لكنه غرام انانى . الحق ، انه انانى من جانب واحد . كان ، خلال حياته كلها عاشقا للقضايا الاجتماعية . بل كان شهيدا لها ، سعيدا بالشهادة . الانانية كانت من جانب تلك المشكلات الاجتماعية ! لا جدال انها احبت فتاها ، واستأثرت به . منحته سعادة غامرة ، بقدر ما منحته شقاء غامرا . الآن تضن عليه ان يتخفف من اعباء الدراسة ، ومن الخواء الغريزى . شعورها بالخوف من ان يتردى فى وهدة الترف ، لا اساس له . فهو عدو للترف وللثراء ، فكيف يقبل الوقوع فى براثن اعدائه .

كانت الاحداث العامة جساما . لكنها كانت منعشة . وهل تلام تلك الاحداث عندما تكون مصدرا لانعاش الناس ؟ استغرقته الاحداث . لم يعد هناك وقت للترفيه . الاحداث نفسها تحمل الترفيه بين جوانحها !

الحكومة الوطنية فى مصر ، وقد مضت فى تطبيق الضربة الاجتماعية الاولى ، وهى الاصلاح الزراعى ، بدأت ضربة ثانية ، هى بناء السد العالى . كان السد العالى معركة مع الاستعمار القديم والجديد . ومع المؤسسات الدولية التى تمثل الراسمالية العالمية . ولو انها رسميا تمثل الامم المتحدة !

حينما اتخذت الحكومة قرارها بانشاء السد العالى ، لم يكن هناك من يعترض على انشائه . ولم يكن ذلك نتيجة للقهر الذى يقول به المعارضون

لها . ولكن لان فوائده الاقتصادية كانت واضحة للجميع . الاقطاعيون هم الذين يمكن ان ينقدوا بناء السد . لا لانه ضار ، فهم سيفيدون منه . سيظلون نسبيا كبار ملاك الاراضى ، حتى فى نطاق قانون الاصلاح الزراعى ! لكنهم يكرهونه ، لنقمتهم على الحكومة . وهو مجد من امجادها .

المعركة ، اذن ، كانت مع الولايات المتحدة ، وانجلترا ، والبنك الدولى ، الخاضع للامريكيين من حيث راسماله وادارته . الغرب يريد ان يحتوى مصر . يريدها مزرعة للمواد الاولية اللازمة لصناعته ، وسوقا لتلك المصنوعات . يريدها عضوا تابعا لحلف الاطلنطى يسند الغرب فى حربه الباردة والساخنة ، ضد الاتحاد السوفييتى والجبهة الاشتراكية . من المفيد ان يقرضها الغرب لبناء السد . ولكن تحقيقا لهذه الاغراض .

مضت المفاوضات مع امريكا والبنك الدولى . طالت . اجريت الدراسات . الفوائد الاقتصادية والاجتماعية التى تجنيها مصر منه كبيرة . النقائص ان وجدت هزيلة . قرر الغرب ان السد العالى مشروع ذو جدوى اقتصادية واجتماعية كبيرة . يوفر المياه اللازمة لمصر طول السنة . يزيد مساحة الارض الزراعية . ويولد طاقة كهربية تحرك المصانع ، وتثير التنمية ، وتنير القرى .

على ان الغرب استشعر ان حكومة مصر طموحة : شباب وطنى ، طرد الملك . انهى الاقطاع . يحقق الاصلاح الزراعى . وها هو يبنى السد العالى . هذا الشباب يخيف . ينهج نهجا استقلاليا . يعمل على توحيد الامة العربية . ينشىء علاقات مع الدول الاشتراكية . والادهى من ذلك انهم ينشئون مع شعوب العالم الثالث جبهة قوية ، يطلقون عليها « جبهة الحياد الايجابى وعدم الانحياز » . هذا تخريب لاستراتيجية حلف الاطلنطى . الدول الظاهرة فى هذه الجبهة ، الهند ، ومصر ، ويوغوسلافيا ، دول عدوة . حيادها يقوى الاتحاد السوفييتى . انتشرت فلسفة

« مكارثى » . وهى أن « الحياد عمل لا اخلاقى » . من ليس معى ، فهو عدوى . انه شيوعى !

غذت القيادة فى مصر ، الشعور بالقومية العربية فى الوطن العربى كله . وكان لعبد الناصر اثر واضح فى بعثها ورسوخها . القضية الاولى التى يتجمع حولها العرب ويختبرون فيها قوميتهم ، هى فلسطين . لابد من تحرير فلسطين المحتلة من العدو الصهيونى . البشر لدى العرب كثير . المطلوب هو السلاح . لم يعرف العرب مصدرا لســلاحهم طوال العصر الحديث ، غير الغرب . الغرب ، هو خالق اسرائيل ، وصانعها ، وحاميها . من السذاجة أن يطلب العرب منه سلاحا . رفض الغرب طلبا للســلاح تقدمت به حكومة مصر . وبانت للحاكمين فى مصر العلاقات الحقيقية للقوى الدولية . لاحظ المفاوض المصرى أن حماسة الولايات المتحدة وانجلترا لبناء السد العالى تراخت . ان الحصول على ســلاح غربى لتحرير فلسطين مستحيل .

اذن لابد مما ليس منه بد . لم تعد المشكلة مشروعا ، بالغ الحيوية لمصر ولتنميتها ؛ بل اصبحت قضية متعلقة بالكيان القومى . وبالاستقلال السياسى والاقتصادى للبلاد . وغدت بالنسبة للحكومة قضــية متصــلة بكرامة النظام وسمعته .

الاتصالات مع الغرب تتقطع . المحاولات لانقاذها لا تحقق نجاحا . صعد الزعيم المصرى المعركة . طرحها أمام الشعب ، ليقوى وعيه بالمشكلة. انقلبت معركة السد العالى من معركة اقتصادية الى معركة وطنية وقومية ، بكل معانى الكلمة . لم يعد الموضوع قضية أرض عطشى تتطلب الماء ، ولا ريفا مظلما يحتاج للكهرباء . ولكن شعبا يريد التحرر الحقيقى من الاستعمار القديم والجديد . ومن التبعية التى تفرض عليه الفقر ، وتعمق فيه التخلف .

الجبهة الداخلية تغلى . أدى غليانها الى قرار يتخذه عبد الناصر .

« يسلح الجيش المصرى ، من الجبهة الاشتراكية » ، من تشيكوسلوفاكيا ، والاتحاد السوفيتى . صاروخ دوى انفجاره فى أرجاء الغرب كله . بدأت معركة الاستقلال الحقيقى . ضيعة القطن ، وفيرة الخيرات ، ذات الجو الحانى ، والشعب الطيب ، والموقع الاستراتيجى ، تفلت من قبضة الغرب . كانت له مستعمرة ذلولا ، ما يقرب من مائة عام . رفض الغرب تمويل السد رفضا صريحا . كانوا يقصدون توجيه ضربة قاصمة للحكومة الوطنية . أما ان تلغى صفقة الســلاح ، وتخضع لامريكا واسرائيل ، واما أن تصــور لشعبها على انها عاجزة عن بناء السد العالى .

رفض تمويل السد ، كانت له نتيجة ايجابية . بدأت مصر تبحث عن مواردها الذاتية لتمويله . اصل تاريخى هام من اصول التنمية الحقيقية . يمنع ثمرات التنمية من ان يقطفها الاجانب . ويثير العزة فى بنيها : يبنون بلادهم ، ويقهرون التخلف ، بأيديهم ، لا بأيدى الخواجات .

مرت فترة من التربص ، والهدوء ، والقلق . تصميم الحكومة على شراء الاسلحة من اى مكان ، قوبل بحماس شعبى بالغ . اصبحت صورة الولايات المتحدة ، وانجلترا قميئة فى نظر الجماهير . هذان البلدان الممثلان للاستعمار الجديد والقديم ، هما العائقان الرئيســيان لاستقلال مصر ، وتقدمها الاقتصادى .

* * *

— آلـــو .

— هيلـــو !

— من ؟

— انا عبد المجيد ، الا تعرف من انا ؟

— اهلا يا عبد !

— عبد « ايه » . ترق . اتينا بك الى لندن ، ونعلمك الدكتوراة . ومازلت تقول عبد !

ضحك حسن ضحكته العالية الشهيرة . تعود عليها رب البيت وربته . قالت له ربة البيت ، انها تثير البهجة فى البيت . فوعدها ان يجعل بيتها بهيجا « على طول » ! واستطرد المتحدث بصوت آمر :

— تعـــال الى منزلى بسرعة .

المتكلم زميل من كلية التجارة بجامعة القاهرة . يعـد الدكتوراة فى الاحصاء عن السكان . لا سكان انجلترا ! ولكن عن القوى العاملة فى مصر . موسوعة متنقلة من المعارف . معلوماته اكبر من حجمه . واطـــول من قامته القصيرة . وعيه الاجتماعى ناضج . سعد حسن به . وجد فيه نموذجا جيدا ، رد اليه الثقة ،بان هناك نماذج طيبة فى بلده .

سارع حسن الى منزل عبد المجيد • وجد عنده ضيفا آخر : مصطفى بهجت رجل مخلص لبلده ولدراسته . فلاح ، متدين ، متواضع . يضحك ويقطب فى اللحظة نفسها ! يبدو ان احداثا شخصية جعلته لا يستمتع بالبهجة المشتقة من اسمه . البهجة يعقبها عبوس . غير انه كان قادرا باستمرار على اطلاق قفشات تبهج الحاضرين .

بادر حسن عبد المجيد بقوله :

— ما هى المسائل الهامة ، التى دعوتنى من اجلها ؟

ورد عبد المجيد :

— الا تعـــرف ؟

— ما الحكـــاية ؟

— اليوم ٢٦ يوليو . عبد الناصر سيخطب فى الاسكندرية . ولما كنت

« فقران » ليس عندك راديو قوى — ولا ندرى الى متى ستظل « فقران » — قلنا نعطف عليك . وتسمع الخطبة معنا .

— حرام عليك . يكفينى فقر واحد ، لا « فقران » !

ضبط عبد المجيد الموجة التى يمكن بها سماع اذاعة القاهرة . وجاء موعد الخطاب . كان صوت الزعيم قويا جهوريا ، يدوى كالرعد :

« ايها المواطنون » ....

« ازف اليكم النبا التالى » :

« تؤمم الشركة البحرية لقنال السويس ، شركة مساهمة مصرية ! » .

انفجر الجمهور هتافا وتصفيقا وصياحا . قص عبد الناصر قصـــة الصراع مع الولايات المتحدة وانجلترا والبنك الدولى ، فيما يتعلق بتمويل السد . وقصة التسليح . وتصميم الدولتين على أن تظل بلادنا تابعة لهما ، ومستغلة . لكننا سنحقق استقلالنا الحقيقى و « حنبنى السد » .

رقص حسن طربا . وطبل له عبد المجيد ، الذى يجيد الضرب على « الوحدة » ، فى المناقشات السياسية . أما مصطفى ، فقد اصفر لونه وصمت . وخاطبه حسن :

— ما بالك يا مصطفى . هل الاعمال العظيمة يشحب لها وجهك ؟

زم مصطفى عينيه ، وهز راسه ، وهى عادته عندما يكون جادا وقال ؟

— انا سعيد بهذه الخطوات الوطنية . لكننى خائف على بلادى . أن امريكا وانجلترا ، وفرنسا ، بلاد لاخلاق لها . ومن الممكن أن تحاول احتلال مصر مرة اخـــرى .

ورد عبد المجيد :

— هناك مصدران للسلاح : اما ان يسلح الغرب مصر ، ويمول سدها.

واما أن تفعل ذلك الجبهة الاشتراكية . ليس هناك حلول وسط ، أو دبلوماسية .

وقال مصطفى :

— لكن تأميم قناة السويس بهذه الصورة ، ووصفه بأنه لطمة لانجلترا وفرنسا ، وبطبيعة الحال لامريكا ، عملية خطيرة ، لن يتركوها تمر دون عقاب .

وأجاب حسن :

— انجلترا وفرنسا أصبحتا دولتين من الدرجة الثانية .

وقال عبد المجيد ، ومازال يقوم بدور ضابط الايقاع ، فى المناقشة :

— كلامك صحيح « يابو على » . لكن لا احد يستطيع ان يتنبا بأمور السياسة الدولية ، وتطوراتها . ولا يمكن للمتنبىء أن يصل الى نتائج دقيقة .

— المتنبى الشاعر ، أو المتنبى الاحصائى ؟

ضحكوا . خفت حدة المناقشة . وتكلم حسن :

— أيا كان الموقف الدولى ، الذى اعتقد انه موات ، فان شعب مصر مصمم على بناء سده ومصر على قهر التخلف ، وبدء التنمية . وعازم على استرداد مرافقه وموارده وثرواته ، التى نهبها الخواجات . وفرط فيها حكام مصر .

بدا ضابط الايقاع يضبط الحوار ، وينتقله نقلة للامام :

— الآن قضى الامر . اممت القناة . اشترى السلاح من الروس . وبدات المعركة ضد الغرب . ولا ريب اننا جميعا نقف خلف حكومتنا ، وندافع عن مصالح بلادنا .

وسكت عبد المجيد ليستجمع افكاره ، بعد ان حك صلعته ، ثم قال :

— دعنا نفكر ماذا يمكن أن نفعل هنا فى انجلترا . يجب أن نتصل بزملائنا المصريين ونطرح القضية للمناقشة .

وأسهم مصطفى :

— ما يمكن أن نفعله ، هو أن نقوم بحركات سلمية ، لتنوير الرأى العام الانجليزى ، بصفة عامة ، والطلاب بصفة خاصة ، بقضية مصر . وذلك عن طريق المحاضرات والمناظرات فى الجامعة . والقيام بمسيرات فى الشوارع .

وفى الصباح التقى ثلاثتهم بكلية الاقتصاد ، واتصلوا بالمصريين فيها . وحدد اليوم التالى للقاء .

* * *

العناوين المسعورة ، تتصدر الصحف الانجليزية . تهاجم مصر وعبد الناصر :

« الديلى تلجراف » : ناصر يغتصب قنال السويس .

« الديلى ميل » : عصابة الضباط يخطفون قناتنا .

« الديلى هرالد » : سرقة دولية .

« الديلى ميرور » : ناصر يتحدى بريطانيا العظمى ، وفرنسا .....

وهكذا ، انتقل السعار من جريدة الى اخرى . حتى « التيمز » ، وهى الجريدة العتيدة الوقور ، خرجت عن وقارها . وصدرت لأول مرة فى تاريخها بعناوين عريضة ، تندد بعدوان عبد الناصر : « هذا الرجل لابد من عقابه » . ولم يشذ عن هذه الحملة الضارية ، الا جريدتان : جريدة حزب العمال . صدرت بعنوان كبير محايد . « ناصر يؤمم شركة قنال السويس ، ويمول السد العالى من ايرادها » . وجريدة الحزب الشيوعى : « الديلى ووركر » .

تنفرد من بين الصحف جميعا بعناوين صديقة : « مصر تسترد قناتها ، وتحقق استقلالها الاقتصادى » .

حكومة المحافظين ، تنتابها الهستيريا . الحكومة التى « تحافظ » على بقايا الامبراطورية البريطانية . تتخيل ان بريطانيا مازالت عظمى . ايدن هو الذى يرأس الوزارة . بقدر ما كان وزير خارجية ناجحا ، كان رئيس وزارة خائبا . كانت صفعة تأميم قناة السويس قوية مهينة . أخذت الانجليز والفرنسيين والامريكين على غرة . وكان وقعها على ايدن ماحقا . جعلت رئيس الوزارة الانجليزى البارد ، متوترا عصبيا .

فى هـذا الجو المشـحون جاء عبد المجيد الى الكلية مبكرا ، ليلتقى مع حسن :

— جئتك اليوم لامر عاجل . اتصل بى بعض الزملاء الانجليز والافارقة والاسيويين . وقالوا انهم سينظمون لقاء عن أزمة القناة فى كلية الاقتصاد . يحضره طلاب الجامعة جميعا . سيتحدث فيه استاذ من الكلية ، ينتمى الى حزب العمال ، وطالب هندى ، وانت .

— أنـا ؟ !

— نعـــم .

— أنت تعلم أننى امضيت فى انجلترا بضعة اشـــهر فقط . ولغتى الانجليزية لا ترقى الى لغة الخطابة السياسية .

— المهم فى الخطابة الســياسية ، هو صـــدق الخطيب . وايمانه بقضيته . والحرارة التى تشع من عباراته .

— لكن الحرارة ، والايمان ، والصدق ، تتطلب تعبيرا عنها مقنعا وقويا . وخاصة نحن فى جامعة انجليزية .

— دع عنك هذا الاتجاه « النخبوى » !

— يا ولـــد !

— دعنا نناقش معا النقاط التى ستتناولها .

— لماذا لا تقوم أنت بهذه المهمة ، وانت هنا منذ سنين . وتتحدث الانجليزية بطـــلاقة .

— هب ان لغتى جيدة ، وهى كذلك ! لكنى لست خطيبا سياسيا وجماهيريا مثلك .

— لماذا لا يقوم بهذا العمل مصيلح الصراف . فهو يتحدث الانجليزية بلهجــة اكســـفورد ؟

— لا تهزل من فضلك ! ... واود ان اقول لك ، اننى لم اخترك . اختارك الزملاء الانجليز والافارقة . حماسك المشهود . والضـــجة التى تثيرها فى مناقشاتك ، لفتت الانظار اليك .

— المسألة اذن حماسة وضجة فقط !

— لا . انى امزح .. لا تخف . عندما تقف امام الجماهير سينطلق لســـانك .

ابصر عبد المجيد بالمجموعة المختلطة ، التى طلبت ان يشترك حسن فى اللقاء تقترب منهما . لفت نظره ، قائلا بصوت خفيض :

— « هش » انهم يقتربون . ولا تتردد .

وبادرهم عبد المجيد :

— حسن سيشارك فى الاجتماع !

كان امامه يوم واحد ، ليعد الخطبة ، ويراجعها . قال لعبد المجيد :

— توافينى فى منزلى فى المساء ، لتراجع معى ما اكتب . ونرى ما اذا كانت لغتك الانجليزية ، التى تتيه بها ، قوية ومفيدة !

* * *

القاعة الفسيحة تغص بالطلاب من كل لون . جاءوا كالسـيل من كلياتهم المختلفة . المقاعد تمتلىء بهم . يقفون فى الطرقات والردهات التى تحيط بالقاعة . تحدث الاستاذ البريطانى اولا . هاجم حكومة المحافظين . ايد مصر ، فى منطق استـاذى هادىء . وجاء الهندى ، واثار حمـاس المستمعين . لم يستطع حسن ان يفهم الا نصف خطابه . لهجته الهنـدية تجعل الانجليزية قريبة من « الهندى » لغة الاكثرية فى الهند !

وقف حسن ، وسمرة النيل تسرى فى وجهه . اخرج الورقة من جيبه لكنه لم يقرأ منها . انطلق يحكى قصة قناة السويس : حفرها الشـعب المصرى بأظافره ، وسياط القهر تدمى ظهره . السـخرة التى فرضـها الفرنسيون والخديو عليه ، تنهش آدميته . جماجم العمال الموتى من القهر والجوع والسخرة ، بنيت بها شواطىء القناة . طبق ديلسبس ، والشركة الفرنسية ، التى حصـلت على امتياز القناة ، مبادىء الحرية والاخـاء والمساواة . الحرية فى تسخير عمال مصر . والاخاء بين ديلسبس والخديو اسماعيل وسعيد . والمساواة بينهم فى استغلال الشعب المصرى .

اقترض الخديو من اوربا قروضا فادحة الربا ، ليشترى نصف اسهم شركة القناة . وينقذها من الافلاس . انفقت على القناة لحفرها . وعلى ملوك واباطرة اوربا فى حفلات افتتاح القناة الباذخة . بيعت هـذه الاسهم الى الانجليز بثمن بخس. تسببت الديون فى خراب مصر وافلاسها .

القناة اذن ، حفرها الشعب المصرى على ارضه . تسببت فى افقار الاقتصاد المصرى . وفرض السيطرة المالية عليه . وعن طريقها احتلت مصر بواسطة الجيش الانجليزى . اصبحت شريان الامبراطورية البريطانية . تلك قصة القناة . ارايتم حينما يسترد المصريون مواردهم ، ليستخدموها فى القضاء على التخلف ، يرميهم ايدن بأنهم يخطفون القناة الانجليزية الفرنسية.

ضجت القاعة تصفيقا وهتافا . ذكره ذلك بالايام الخوالى ، فى كلية

الحقوق بالاسكندرية . حينما كان ينظم المناظرات ضد الاستعمار الانجليزى والاقطاع ، وملاك الوسية .

التقى بعبد المجيد بعد المحاضرة . دهش لانه نسى وقاره . جرى نحوه وقبله . هذه عادة شرقية مستهجنة لديه . وهى مستغربة فى انجلترا . الرجال هنا لا يقبلون بعضهم بعضا . لكنهم يقبلون النساء ! وجاءت المجموعة المختلطة . عانقه الافارقة بحرارة . سلم عليه الهنود بحماسة . قبلـه الباكستانيون . شد الانجليز على يده ! لم يتساءل عن مسـتوى النحو والصرف الانجليزى . المهم ان الرسالة الوطنية ، وصلت لجمهور المستمعين عبروا عنها ، بهتافهم الراعد : « يسقط ايدن » .

وسأل حسن عبد المجيد :

ــ اين الزملاء المصريون ؟

ــ لا ادرى .

ثم استدرك .

ــ هؤلاء هم .

واشار الى عبد الحى ومصطفى .

ــ والباقى ؟

ــ رايت زميلين من كلية الطب . وعلى حسن من الآداب . ولكنهم انصرفوا . اطمئن فقد اعجبوا بخطابك .

ــ انا لا اسأل عن اعجـابهم . انا اتسـاءل عن الزملاء الذين لم يحضروا . انهم لا شك يعلمون بالمحاضرة . اعلنت عنها المجموعة الاجنبية المنظمة لها ، فى كل مكان فى الجامعة .

* * *

معركة القناة محتدمة . عناوين الصحف تزداد استفزازا . تتضخم حروفها . ويحمر لونها . تنذر باراقة دماء الشعب الفقير ، مغتصب القناة ! الحكومتان البريطانية والفرنسية تفصحان عن هدفهما بغزو مصر : يجب تأديب البرابرة ، الذين انتهكوا القانون الدولى . كيف يستردون قناتهم التى اقتطعها الاستعمار من جسدهم ؟ القناة التى حولت أرباحها الى لندن وباريس ، مليارات من الجنيهات الاسترلينية ، والفرنكات الفرنسية .

تدخلت الامم المتحدة . وبدات المفاوضات بين الغاصب والمغصوب . الغاصب يزمجر ، ويهدد بغصب جديد . فرضت الدولتان شروطا للتفاوض : يلغى قرار التأميم . وتعود ملكية القناة الى الانجليز والفرنسيين . تبقى الاتفاقية التى منحت الدولتين امتياز القناة نافذة حتى ١٩٦٨ . وهو تاريخ انتهاء العقد . بعد ذلك تبدأ المفاوضات مع الدولتين ، لتنظيم مستقبل الممر الدولى . ومعنى ذلك ، بغض النظر عن موضوع سيادة مصر على اراضيها ، أن تحتفظ مصر بالتخلف والفقر . ولا تمسهما من قريب ، أو من بعيد .

واعلنت مصر شروطها : لا رجعة فى استرداد الشعب المصرى لقناته السليبة . تعطى مصر التعهدات الدولية ، بضمان حرية الملاحة فى القناة لجميع الدول . تدفع مصر تعويضات معقولة لحملة الاسهم .

وعرض المعتدلون من الانجليز والفرنسيين رأيا هادئا مؤداه : انه اذا تمسك المصريون بتأميم القناة ، فان عليهم أن يدفعوا لانجلترا وفرنسا قيمة راسمال القناة . يضاف اليها الارباح التى كان يمكن للقناة ان تحققها حتى نهاية العقد ! وبهذا فالمعتدلون لا يريدون الحرب والعنف . يريدون فحسب ، ابتزاز الدول الفقيرة فى يسر وسلام !

المفاوضات تدور . شوارع لندن تمور . الشباب الانجليزى ، وشباب افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية ، يموج فى شوارعها . يهتف بسقوط حكومة ايدن . حمل لافتات مكتوب عليها : كف يدك عن مصر يا ايدن .. القناة لمصر .

كفى نهبا للمستعمرات .، لم تعد بريطانيا عظمى . قراصنة القرن الثامن عشر يعودون من جديد ....

الاجتماعات ، والندوات ، تعقد فى الكليات الجامعية . دور حزب العمال ، والحزب الشيوعى ، ونقابات العمال ، والجماعات المثقفة والمستنيرة ، انقلبت الى خلايا نحل . تطن باستمرار . تلسع كلماتها وصحفها حكومة المحافظين .

انخرط حسن فى هذه الاجتماعات والمسيرات . ذكرته بمظاهرات الطلبة والعمال فى النصف الثانى من الاربعينات . هناك كان الرصاص يئز . ودماء الشباب تسيل . يهرقها الجيش الانجليزى ، والبوليس والجيش الملكيان . الهدف واحد فى الحالتين : الجماهير تهاجم الاستعمار ، والنهب لموارد الدول المتخلفة . والشباب واحد : الطلاب والعمال . الفارق انه كان فى مصر رصاص ودماء وخيانة . بينما فى لندن ، مسيرات حرة . تهتف وتحمل شعاراتها ، ضد الحكومة . يحرسها البوليس الانجليزى غير المسلح !

دهش حسن لهذا التناقض . هؤلاء القوم يجرمون فى حق الشعوب . يحصدونهم بالرصاص لو طالبوا بحرية بلادهم . ثم يمنحون الناس حرية القول ، والتجمع ، والهجوم على الحكومة فى بلادهم . على أن هناك ظاهرة ملفتة : العمال الانجليز ، والطلاب ، وبعض الاحزاب والمجموعات المثقفة . يساندون مصر !

كيف يهاجم العمال الانجليز الاستعمار ؟ لقد افاء عليهم بخيراته . جاءهم بالغذاء رخيصا من المستعمرات . لعلهم يدركون انهم كانوا يتلقون الفتات من عملية النهب الاستعمارى . هم على وعى بأن الرابح الاكبر من الاستعمار هم الراسماليون . وانهم مازالوا مستغلين . الغذاء الرخيص ، مقرون بانخفاض الاجور . الامر الذى يخفض من نفقات الصناعة . ويعظم من ارباح الراسماليين . عملية الاستغلال تنصب على الطبقة العاملة الانجليزية ، وعلى

شعوب المستعمرات معا . هناك تعاطف بينهم . الم تر ان العمال الانجليز ، لا يعلقون على منازلهم « الملونون يمتنعون » ؟

أيوجد تعاطف بين الطبقات العاملة فى كل دول العالم ؟ ايمكن ان يتعاطف الفقراء المتقدمون مع الفقراء المتخلفين ؟ الم يتعاطف حسن ، حينما كان ممسكا بمفاتيح المخازن ، فى وسية الخواجة اليونانى ، مع الفلاح محمد محمود . وسرق له « جوالا » من الاذرة ، لينقذه وبناته من الجوع ؟ لابد ان يكون هؤلاء العمال صادقين فى تأييدهم لمصر ، ومعارضتهم لحكومتهم . وكذا الشأن بالنسبة للجماعات المثقفة والاحزاب اليسارية الاخرى .

هذا هو موقف الجماعات الانجليزية ، التى لم تهدأ منذ امم « ناصر » القناة . موقف جديد . ليس الانجليز كلهم اشرارا او استعماريين ، كما ظن حسن . هناك قطاع كبير مستنير ، يساند مصر . فما بال المصريين الدارسين فى لندن ؟ اين هم ؟ ان الاجتماع الذى بذل عبد المجيد ومصطفى جهدا ، فى الدعوة له لم يحضره الا ستة مصريون . وهم اكثر من مائة . كيف يتقاعسون؟ أليست هذه قضية مصر ؟ اندفعت الى ذهنه الاسماء القريبة منه . « مصيلح الصراف » أمره معروف . لم يكن فى وقت من الاوقات مشاركا بلاده فى قضاياه الاجتماعية والتنموية والوطنية . لكن « ضياء فرج » ماذا دهاه ؟ انه يحظى بسمعة طيبة بين زملائه . صادقه حسن ، لما رآه مهذبا مجتهدا ، لا يغضب احدا ، ويصادق الجميع . ما باله ، تشتعل معركة القناة والسد ، ولا يسهم فى حمل شعلتها مع زملائه . انقطع عن الكلية والمكتبة تماما ، منذ برزت مشكلة القناة !

وباح لعبد المجيد بهمومه :

— أين ضياء فرج ؟

— دعك منه .

— كيف ؟

— انه خائف من الاشتراك معنا فيطرده الانجليز ولا يكمل الدكتوراة .

وعندما أتم الدكتوراه اخذ الطائرة راسا الى الخليج حيث الذهب الاسود

وبقى هناك . لم يفد منه وطنه فتيلا . .

* * *

« مستر بيفان » الزعيم العمالى الانجليزى . يدعو الجماهير الانجليزية الى اجتماع عام . يعقد فى ميدان « ترافاجار » . يهيب بالقوى العاملة والمستنيرة ، ان تشق شوارع لندن . فى مسيرات احتجاج على حكومة المحافظين . يجب منعها من ارتكاب حماقة ضد مصر .

وفى اليوم الموعود ، تجمعت الجماهير فى طوابير طويلة عريضة . تحمل اعلامها ولافتاتها . تخترق شوارع لندن ، وتتجه نحو ميدان «ترافالجار» مظاهرة الشباب الجامعى تمور حماسا . وتخفق الوانا . خليط من الشباب الاسود ، والاسمر ، والاصفر ، والابيض .. والوردى ! باقة انسانية عطرة . لا يستطيع أصحاب البيوت الانجليزية العنصريين أن يروا جمالها ، او يستروحوا شذاها . وهذه جحافل العمال ، فى حللها « وافرولاتها » الدكناء ، تطرزها الزيوت والشحوم . ويسيل عليها العرق ، الذى يصنع الخير للناس . وهؤلاء هم « الموظفون » ، ذوو الياقات البيضاء ، فى حللهم السوداء الانيقة . يحملون فى اعتداد ، شعاراتهم الهاتفة ، بتنحية ايدن ، والمؤيدة لمصر .

انقلبت شوارع لندن الى روافد . تموج بلجج من البشر . تصب من افواهها حمما ضد ايدن . وتنفث صدورها عطرا ، وهى تدافع عن حق مصر فى القناة . كانت الغدران البشرية تنساب الى ميدان ترافالجار ، تصب فيه ، وكأنه محيط لجى .

وجاء بيفان . اعتلى قاعدة تمثال نلسون . استقبلته اللجة البشرية بموجة راعدة من الهتاف والتصفيق . وخطب . خطب بلغة انجليزية قوية .

لها جرس عربى ، ولحن مصرى ! طرب فتانا ، وتثنت أعطافه . لم يسمع من قبل خطيبا بمثل هذا السحر . كلماته الانجليزية ، تتحول الى انغـــام مصرية : القناة لمصر . ليسقط ايدن . لتذهب حكومة المحافظين الى الجحيم . انقذوا شرف بريطانيا ، الذى يلوثه الاستعماريون .

انفعلت الجماهير . كما لم تنفعل بخطيب ، فى هذا الميدان ، من قبل . واتفق على ان تعود المجموعات بأعلامها ولافتاتها ، مارة بالشوارع ، التى جاءت منها . وذلك لمواصلة حث الراى العام الانجليزى ضد ايدن . واخذ حسن ، الذى كان يسهم فى قيادة كلية الاقتصاد ، يعد مجموعته للعودة . كان يتقدمها ، حاملا لافتة تقول :

« يسقط ايدن .قناة السويس لمصر . حنبنى السد ! » .

اخذ يتحرك بفريقه . لمح على بضعة أمتار منه فتاة شقراء . كانت تنظم مجموعتها للعـــودة .رآها من ظهرها . فتيات لندن ، كثـــير منهن هيفاوات شقراوات . واتته خاطرة غريبـــة ، فى هذا الجو الحماسى . يوم مصر وقناتها . عهد باللافتة الى زميله « وليم » . اندفع الى حيث توجد الفتاة الشقراء .... هى ! معبودته المتمنعة عليه : برندا .

جلال اليوم . عظمة المناسبة . سعادته الكبرى ، بيوم اغر من ايام بلده . اضف الى كل ذلك لمسة . زادت اليوم جلالا ، وعظمة ، وسعادة : برندا ، الفاتنة الانجليزية المستنيرة ، تسهم معنا فى يوم مصر ! الجمت هذه المعانى لسانه ... لكن للحظة قصيرة . انقذته هى :

— هـــالو .

— هالو . كيف حالك ؟

— انا على ما يرام . اشكرك .

— ما الذى جاء بك الى هنا ؟

— الذى جاء بك !

— لكننى مصرى .

— الا ترى هذه الآلاف المؤلفة ؟ كم مصرى من بينهم ؟ حينما تثور قضايا الشعوب المستغلة المقهورة . وحينما تكون تلك القضايا عادلة . فانها تثير وجدانات المستنيرين فى كل مكان ، مهما كانت جنسيتهم .

— صدقت .

لم يشأ حسن ان يقول لها ، كم من المصريين والمصريات ، اشتركوا فى هذا اليوم . كانوا ستة .أولئك الذين كانوا يتجمعون فى كلية الاقتصاد ، منذ بدء الحملة على حكومة ايدن . انضم اليهم اليوم سابع من جـــامعة كامبردج ، وهو مصطفى العبادى .

اقترح عليها ، ان تنضم مجموعته الى مجموعتها ، فى رحلة العودة . وافقت . تقدما معا يحملان لافتتها . أمسك هو بطرف منها . وامسكت الفاتنة الشقراء بالطرف الآخر . تبعتهما المجموعتان . كان شعار مجموعتها ينادى : « كفوا ايديكم عن القناة . يسقط الاســـتعمار . ايدن يجب أن يذهب » . بعد أن تفرق الجميع سألها :

— هل انت عائدة الى منزلك ؟

— طبعـــا .

— هل نركب الاتوبيس معا ؟

— سيكون ذلك لطيفا .

صعدا الى الطابق الثانى فى الاوتوبيس . جلسا فى المقدمة . كان سعيدا . تناسى العلاقة بمعناها المعروف بين الرجل والمراة . اليوم تتحول عاطفته نحوها ، الى غرام عقلى ووجدانى . انها تسهم معه فى معركة بلاده . دار بينهما حديث . تناول احداث اليوم ومشكلة القناة ، والسد العالى . قطع الاوتوبيس المسافة ، التى تأخذ عادة ساعة ، فى دقيقـــة ! غادرا الاوتوبيس . عرض عليها ان يوصلها الى منزلها . فرحت !

مضى يوم . وفى الصباح الباكرمن اليوم التالى ، دق جرس التليفون . . اسرع بالرد :

— آلـــــو .

— صباح الخير . هذه برندا .

— لا اصدق .

— لا . صدق !

— اذن هو صباح اجمل من الخير .

— لا تكن « شقيا » . ليس لدى وقت .

واستطردت :

— نقابة العمال ، فى الشركة التى اعمل بها ، ستنظم لقاء عن مشكلة قناة السويس . سوف يتحدث فيه رئيس النقابة . طلب منى ان ادعو مصريا للحديث . سأنتظرك عند محطة الاوتوبيس ، التى نزلت عندها ، عندما التقينا أول مرة . تسمى محطة « السيتى » الساعة الواحدة تماما . الى اللقـــــاء .

فى الموعد المحدد وجدها تنتظره . اتجها الى مكان الاجتماع . جمع كبير من البنين والبنات . المنطقة استراتيجية . تضم معظم الصحف الكبرى: « شارع فليت » . خطب رئيس النقـــابة . بالطريقة الانجليزية المتئدة . استمع الحاضرون فى هدوء غريب . لكن فى استيعاب اكثر غرابة . تجلى فى تصفيق طويل فى نهاية الخطاب . كان من الواضح ان الخطيب مثقف تقدمى . أبرز بالتاريخ والتحليل ان القناة مصرية . وانه ليس لبريطانيا الا حق التعويض . ويجب على الشعب البريطانى ان يسقط ايدن . وان يمنعه من جريمة الاعتداء على مصر . وهى جريمة سوف تشين بريطانيا .

وتبعه حسن . لغة انجليزية اقل نقاوة ، واشد حرارة . صوت اكثر قوة واندفاعا . أوضح حسن الصورة البربرية الحقيقية لنشأة القناة . كيف

انسكب فى القناة عرق المصريين ودماؤهم . كيف غرقت فيها موارد المصريين وثروتهم ، قبل ان تغرقها مياه البحرين الابيض والاحمر . ضجت القاعة بالتصفيق . اندفع من وسط القاعة أحد الحاضرين . يهدد حسن بالثبور . صـــاح فى وجهه :

« أنتم الاجانب . . . الملونون ! تأتون الى بلادنا ، وتهاجموننا ؟ ارجع الى بلدك ! » :

طار الشرر من عينى حسن . هب للرد عليه . صديقته كانت قد نبهته الى مثل ذلك الهجوم : أوصته الا يعبأ به . فهو يأتى من بعض المحافظين . الذين مازالوا يتباكون على الامبراطورية . لا تلق اليهم بالا . الكثرة معنا . ونفذ نصيحتها . وكسبا يوما آخر من أيام مصر .

* * *

— ١١ —

اشتركت برندا فى يوم قناة السويس ، بدفعة ذاتية . انسانة مستنيرة. تتعاطف مع الشعوب الفقيرة . ومع الطبقات المستغلة ، فى كل مكان . لم تكن تعلم ، انها ستلتقى بحسن . وهو ايضا ، لم يخطر بباله ان يلقاها مرة اخرى . لكنه سعد لاسهامها فى معركة بلاده . ابتهج لدفاعها ، والجماهير الانجليزية ، عن عدالة حق مصر فى القناة .

اصبحت الرابطة بينهما ، ذات بعد اجتماعى وانسانى . كان لها ، وللجمهور الذى تجمع فى ميدان ترافالجار ، فضل عليه . اثبتوا ان الجماعات المستنيرة ، والطبقة العاملة ، هى بطبيعة تكوينها الفكرى والاجتماعى ، تتعاطف مع الشعوب الفقيرة والمستعمرة .

طلبها فى التليفون :

— تى . يو . دى ٧٧٥٨ .

هذا ليس صوتها . ربما تكون أمها . لا تخف نحن فى انجلترا !

— هل أستطيع التحدث الى « مس كيف » من فضلك ؟

— نعم . لحظة ، اذا سمحت .

— هللو . هذه برندا .

— كيف حالك ؟ حسن يتحدث .

— أوه . كيف حالك ؟

— شكرا على اجتماع الامس . أنت صديقة عظيمة لمصر .

— عفوا . كنت سأفعل ذلك . حتى لو كان الامر متعلقا بفيتنام !

— أعرف ذلك . لكن لهعندى مذاقا خاصا . لاننى مصرى .

— أوافقك الآن . فأنت فى قلب معركة بلادك . وقد نناقش هذه الفكرة فيما بعد .

سكت برهة . كان مترددا :

— هل اقترح شيئا ؟

— اقترح . نحن فى بلد حر !

— هل سترفضين ؟

— أنت لم تقل شيئا . قل ، ولا تبالى .

— كيف ستمضين عطلة آخر الاسبوع ؟

— العادة ، اننى اقضى يوم الاحد كله مع والدى ،. واعد نفسى للعمل فى الاسبوع التالى .

— ويوم السبت ؟

— التقى فيه احيانا ، ببعض صديقاتى .

— هل أستطيع أن اقترح شيئا ، فيما يتعلق بالسبت القادم . ؟

— تفضـــل .

— هل تودين الذهاب الى السينما ؟

— سيكون ذلك جميلا .

— اترك لك اختيار الفيلم ، والسينما . ولنلتق عند محطة الاوتوبيس الشهيرة !

جلس الى جوارها فى السينما « مؤدبا » ! كان يخشى أن تبدو منه حركة ، تفسد هذه الرابطة . انه يرتضيها ، حتى لو اقتصرت على الوجدان والعقل . الفيلم لشارلى شابلن « الاندفاع الى الذهب » ! كان مشوقا ومثيرا . يعرض فيه شارلى فى سخرية لاذعة ، بالجشعين ، وطلاب الثروة . جعل منهم نماذج ممسوخة ومضحكة .

قاعة السينما ملأى بالشباب من الجنسين . لا يلجأ الشباب هنـــاك للمقاعد الخلفية ، ليسرق قبلة أو لمسة . لكنهم يجلسون فى وسط القاعة . يتساقى المحبون ما يشاءون من قبل . وتضطجع الرؤوس على الاكتاف . وتسيل الشعور الذهبية والعنبرية ، فوق الصدور .

صاحبنا يجلس الى جانب فتاته « كالألف » . فى وضع انتباه ! وكأنه مازال فى الجيش . كان حريصا ، حرصا بالغا ، على الا يفقدها هذه المرة . شاركته معركة بلاده . اندمجت معه فى فكره الانسانى . تنافح عن الشعوب الفقيرة فى كل مكان . تعادى الاستعمار ، والراسمالية ، القاهرين لشعوب . لم تعد تقتصر على غزو قلبه .أوغلت فى عقله ووجدانه . اذا ضاعت منه ، ضاع العقل والقلب والوجدان .

فى السبت التالى ، اقترح عليها أن يتناولا العشاء معا . وأن تختار هى ايضا ، المطعم الذى تفضله . ذهبا الى مطعم قريب من ميدان بيكاديللى . بوابة المطعم ، بوابة امبراطورية . السجاجيد العجمية الحمراء . «النجفات»

التاريخية الاسطورية . الخـدم المتأنقون . يرتدون مـلابس القـرون الوسطى ، فى قصور الاقطاعيين . تقدمت برندا . تتخطر فى خطوات ملكية واثقة . التاج الذهبى يعلو راسها . رفعته الى اعلى . بان جيدها العاجى . اضاف عنصرا جماليا ، كانت تخفيه ذؤابات شعرها .

فاجأت برندا فنانا بمفاجاة . رقصت لها مشاعره . وضعت ذراعها فى ذراعه ، وهما يدخلان المطعم ! كونا معا زوجا متسقا . القامة السمهرية . الشعر الذهبى الحـرير ، يقـابله الشـعر الاسـود المجعـد . البشرة « السكسونية » البيضاء ، المطعمة بالورد ، تتـلاقى مع سمرة النيل ، والبشرة الخمرية . تقابل لونى مثير . اين أصحاب البيوت العنصريين ، ليروا هذه اللوحة الانسانية الجمالية . اغلب الظن ، انهم كانوا سيقلعون عن التفرقة العنصرية ، التى غرسها الاستعمار فيهم : « الملونون ممنوعون »

طافت براسه فكرة ساذجة . يريد أن يجرب التعالى ! الا يتعالى اصحاب البيوت والمحافظون على « الملونين » . لماذا لا يبادلهم التعالى ، ويتذوقون طعمه . نوع من الانتقام من هؤلاء القوم . كان يدرك انه انتقام طفولى . لا بأس من ممارسـته ولو مـرة واحدة . جمال برندا رفيع بطبيعته . قوامها « ارستقراطى » . فهى ليست فى حاجة للتعالى . رفع هامته الى السماء . تعلقت برندا بذراعه . انحنى لهما « المترودوتيل » ، وانحنى السفرجية . كانوا يرفلون فى الحلل المطرزة بالذهب والسندس . قذف لهم بمعطفه « وكوفيته » . بدا تعاليه طبيعيا ولو انه كان مصطنعا ! لحسن الحظ لم تلحظ صديقته ذلك . قد لا تهضم هذه المحاولة المتخلفة . فطن بعد دقيقة من التعالى ، الى ما فيه من تفاهة . اقلع عنه . لا يريد ان ينضم الى زمرة التافهين . اسهم فى اقلاعه عن التعالى ، أن « الجارسون » كان انسانا رقيقا . قادهما الى مكان استراتيجى ، على حافة النافورة ، فى ادب جم .

كانت النافورة ملتقى الطبيعة والفن . تنبثق المياه من صخورها ، وكأنها ينابيع تتفجر من اعالى الجبال . يتناثر القطر فوقها رذاذا ينعش الوجوه . لوحة فنية تمتع البصر ، والسمع ، والفـؤاد . انسـابت من جوانبها موسيقى . توحى اليك بأنها صادرة من عوالم وردية . الاعجاز الفنى فى اللوحة ، يخاطب عناصر الاحساس بالجمال فى الانسان . توليفة من درر الماء ، والوان الطيف ، وانغام الموسيقى ، تأخذ بلبك . لأول مرة ، يرى الموسيقى درات تنتثر ، واطيافا تتراقص . يسمعها بعينيه . وكان عهده بها أن يسمعها بأذنه . كيف استطاع الفنان ، أن يحول قطرات الندى ، والوان الشروق ، الى شكل للبيانو . تتلاعب اصابعه ، عندما يأتى دوره ، فى القطعة الموسيقية المعزوفة ! وهكذا « الهـارب » ، « والفيولين » ، « والفلوت » . الماء ينساب اسلاكا فضية . تعلو وتهبط . ترافق الاطياف ، والانغام ، كلما علت الطبقة الموسيقية أو انخفضت . ثم يهطل الماء . ويبرق الطيف ، كلما صخبت الموسيقى وأرعدت . ويغدو الماء رقة تسيل ، ويصبح الطيف حلما ، عندما تنساب الالحان رقيقة حالمة !

استيقظ حسن ، بعد استغراقه فى هذا الجمال . وجد فاتنته ترمقه بعينين لم يستطع فنان النافورة أن يقلد لونهما . قال لها :

ـــ انت رائعـــة .

ـــ شكرا . كيف ؟

ـــ ما هذا الاختيار الموفق لهذا المكان الجميل . لا عجب فأنت فنانة .

ـــ فنانة فحســـب ؟

ـــ لدى كلمة اخرى . لا استطيع قولها .

ـــ عهدتك شجاعا .

ـــ الا فى الحديث مع النسـاء .

ـــ هل تحادث النساء جميعا ؟

فطن الى ان قدمه اوشكت ان تزل ، صحح قوله :

— أقصد الا فى الحديث معك .

— لـــاذا ؟

— صدمتنى مرتين . ولا اقوى على صدمة ثالثة . تحملت الصدمة الاولى والثانية . كانتا تمسان اعجابى بجمالك فحسب . الآن اصبح الاعجاب بفكرك وعقلك . وبالانسان الرابض فى وجدانك . لا اريد ان افتقدك . فأفتقد وجدانى وعقلى .

داعبته مداعبة ذكية :

— يعنى الآن اذا ضيعتنى ، فسوف لا يضيع قلبك ؟

— آه . هذه « فقشـــة » .

— انك لم تجبنى على سؤالى الاول : هل اختيارى للمكان يدل على اننى فنانة فحسب ؟

— أنه يدل على أمر آخر اكثر حسما .

— مـــا هو ؟

— اختيار المكان يدل على انك فنانة ... و .... وعاشقة !

صعد الورد الى خديها . ورد الحياء والحب ، الذى يغطى لونه كل الالوان ! سكتت ولم تجب . ثم انبعث من عينيها شعاع . كان فيه المعنى ، الذى طالما تمناه .

مضت السهرة الرومانسية ، بين انغام النافورة ، المقطرة كالشهد ، والوان الطيف المغموسة بالامانى . كان الطعام فخما لذيذا . ضـــاعت نكهته ، وسط جو شاعرى ، اكثر فخامة وطعامة .

فى طريق العودة ، ركباالاوتوبيس ، فى مقعدهما المفضل . ام تنس برندا أن تكافئه مكافأة حلوة . وضعت راسها على كتفه ! اقتربت منه بدرجة اكبر . انسابت أسلاك الذهب على صدره . غريب أمر هذا الفتى . مازال

وجلا ، مترددا . لم يبادلها هذه المبادرة الحلوة . لم يسند راســـه على راسها . وكان ذلك أمنية عمره . وعندما غادرا الاوتوبيس ، وضـــعت ذراعها فى ذراعه . كان يشعر ان الدنيا كلها معلقة بذراعه !

حينما ودعها عند باب منزلها ، قدمت له هدية منعشة . كانت خطوة على الطريق . قبلته .... ولكن فى جبينه ! سعد بهذه القبلة المتواضعة ، كالطفل ، يبهجه ان يقبله الكبار فى أى موضع !

* * *

— ١٢ —

قوى الغدر البربرية ، الانجليزية والفرنسية ، تضرب بورســـعيد بقنابلها . تقتحم اساطيلها ميـــاه مصر . تنزل جنودها فى بورســـعيد ، وبورفؤاد . تماما كما ضربت انجلترا المدينة ، ودخلت القناة ، للقضاء على الحركة الوطنية ، التى قام بها الشعب المصرى بقيادة احمد عرابى .

غزت انجلترا مصر ، حينئذ وحدها . وغزاها الفرنسيون وحدهم فى الحملة الفرنسية . قاوم الشعب المصرى المعتدى مقاومة باسلة . لم يجعل الغازى يهدا للحظة واحدة . كما دحر شعب مصر الانجيز فى حملة فريزر عام ١٨٠٧ — الآن تهجم الدولتان البربريتان على مصر معا . تريدان اغتصاب قناتها من جديد . الشعب يقاوم المعتدين مقاومة شرسة . يبعث الرعب فى قلوب الغازين . يفجر سفنهم وطائراتهم . يفتك بمن ينزل من جنودهم . المصريون يتقدمون للشعوب مثلا للنضال ، ضد الاستعمار والاغتصاب .

قوى الاستعمار الباغية ، تستشعر ضعفها . تحيك مؤامرة ، تنحط بشرف الدولتين . اتفقتا مع العدو الصهيونى على مشاركتهما الاعتداء . وكانت فضيحة كبرى لانجلترا وفرنسا ، امام العالم ، وامام شعبيهما . لم تنقذهما

اسرائيل من مهانة الهزيمة . المقاومة الصلبة للشعب المصرى ، دحرت الاعتداء الثلاثى . الروس يرسلون انذارا الى كل من نجلترا وفرنسا : ستضرب لندن وباريس بالصواريخ ، اذا لم يتوقف الاعتداء . الراى العام الانجليزى والفرنسى والعالمى ، تظاهر ضد العدوان . الولايات المتحدة تؤيد العدوان أولا ، ثم تتراجع .

فشل الاعتداء . انتصر الشعب المصرى . انسحبت قوى العدوان الثلاثية من الاراضى المصرية . جلل العار ايدن وجى موليه . سقطت حكومتاهما . احتفظ الشعب المصرى بقناته . بدا يبنى السد العالى . توثقت الروابط الاقتصادية والسياسية بين الاتحاد السوفيتى والدول الاشتراكية وبين مصر . أسهمت روسيا فى بناء السد ، وفى عملية التصنيع فى مصر . مضت عملية التنمية الاقتصادية قدما .

* * *

قررا أن يحتفلا معا بانتصار مصر ، فى معركة قناة السويس . اقترح عليها أن يقوما برحلة فى التاريخ والجغرافيا والحب !

استقلا زورقا انيقا من مرسى « وستمنستر » ، المجاور للبرلمان . انساب بهما الزورق على صفحة نهر « التيمز » . شتان بين التيمز والنيل . حينما تركب النيل ، يحملك الشعر على اجنحته . تغرد لك الاطيار . يتاود امامك النخيل . تغسل وجهك الوان الاصيل . لكنك حينما تركب التيمز تشعر بدنيا اخرى : دنيا الصناعة ، والسفن البخارية ، والورش . ستدرك على الفور انك وسط حضارة صناعية ، وليست حضارة زراعية .

لم يكن حسن على استعداد ، فى هذا الوقت ، لكى يفاضل بين الحضارات . كان فى ملكوت آخر ، ملكوت الحب . فاتنته تجلس بجواره . الشمس مضيافة . شعرها الذهبى يثبت أن للشمس فى لندن سنى ! الشقراء

الانجليزية اتت بالشعر ، والجلال ، والدفء ، من النيل ، وسكبتها فى التيمز . لم يكن يدرى ، اهمايسريان على صفحة النيل ، أم على صفحة التيمز ، أم على صفحة الكوثر !

جاءته موسيقاها :

— اتحب ان اذكر لك تاريخ البرلمان ؟ مبناه هناك .

— احب !

سعدت بالكلمة . لم تعلق عليها . مضت تقول :

— المبنى الحالى للبرلمان ، انشىء عام ١٨٦٠ . المبنى السابق احترق عام ١٨٣٤ . ودمرت قاعة المناقشات بقنابل هتلر فى ١٩٤١ ، فى الحرب العالمية الثانية . وافتتحت عام ١٩٥٠ .

وهذا البرج العالى الذى تراه هو « بج بن » وهو الجرس الموجود فى برج ساعة البرلمان . صنع عام ١٨٥٨ . ويعرف شعبيا بـ (ب ـ ب) . ويبلغ وزنه ١٣½ طنا من الحديد .

توقفت برندا . ثم بدا انها تخشى ضياع معلم اساسى من معالم النهر . اسرعت تشير اليه قبل أن يختفى :

— العمود المرتفع هناك ، والتمثال من فوقه ، هو عمود نلسون . وضع وسط ميدان ترافالجار . وهو اسم المعركة التى هزم فيها نلسون نابليون . ووطد سيادة الامبراطورية البريطانية .

نسى حسن أن هذا اليوم يوم قلبه . قفزت عبارة الى لسانه :

— هذا بطل من ابطال الامبراطورية . مهد لانجلترا استعمار العالم .

انسابت من عينيها نظرة عتاب : هذا ومنا . انني اتفق معك فى موضوع الاستعمار . لماذا نقحمه فى دنيانا اليوم ؟ على انها بدات تعرف صديقها تماما . افكاره الاجتماعية والوطنية ، تقتحم عليه دنياه مهما كانت دنيـاه سعيدة أو بائسة . لكنها ودت أن تكون حاسمة معه . لا لانها ترغب فى التهرب من مناقشة تلك القضايا الاساسية . ولكن لان هذا يومها . ومن حقها أن تعيشه . وللقضايا ايام طوال . قالت له :

— ان نيلسون يمثل لبريطانيا ، ما يمثله رمسيس وتحتمس بالنسبة لمصر . الم يحقق هذان البطلان انتصارات كبيرة لمصر ؟ هزما الهكسوس ، والفرس ، والفينيقيين ، والجنوبيين .

افحمته . انها ملمة بتاريخ بلده .

— من أجل عينيك اوافق .

ابتسمت بسمتها الخجلى . وسالها :

— ما هذا المبنى المجاور للبرلمان ؟

— هذا « وستمنستر ابى » « كاتدرائية » ، انشاها سبرت ، ملك السكسون الشرقيين فى أوائل القرن السابع . توج فى هذا المبنى كل الملوك الانجليز (عدا ادوارد الخامس) ودفن كثير منهم فيه .

بهت حسن لهذه المعرفة التاريخية ، التى تلم بها . خاصة التواريخ والاسماء . وقال لها :

— أمرشدة سياحية انت ؟

— هذه معلومات أولية ! حسبتك دارسا لتاريخ الفراعنة ؟

— ليس لدرجة حفظ الاسماء والتواريخ بالتفصيل . ساذاكر تاريخ الفراعنة ، حتى أشرحه لك عندما تاتين الى مصر !

ابتسمت . اخذت الملاحظة ، وكانها قضية مسلمة ! فرح . اجتاز القارب فى هذه اللحظة برج لندن الشهير . كان حسن قد زاره فى جولة

سياحية . تذكر على الفور ابشع ادوات التعذيب . كان الملوك والقسس والكهنة ، يستخدمونها ضد الاحرار ، والعاملين فى حقول الملك ، والكنيسة الشاسعة . قالت له :

— هذا هو برج لندن . قلعة بنى برجها الابيض نحو عام ١٠٧٨ . استمر قرونا طويلة مقرا للملوك ، وسجنا رئيسيا للدولة . يستخدم الآن ثكنة للعساكر ، ومخزنا للسلاح ، ومتحفا . ومن المسجونين الذين اعدموا فيه ، توماس مور .

وسالها :

— توماس مور ، الاشتراكى المعروف ، أحد الاشتراكيين الخياليين ؟

— نعـم .

— هل اعدم لافكاره الاشتراكية . ام للحرية الدينية التى ناضل من اجلها . ام لمعارضته زواج الملك ؟ . . .

— لا ادرى . . انهم يركزون على القصة الدينية . ولا يذكرون شيئا عن الاشتراكية . ربما اعدم لهذه الاسباب جميعا .

واستمرت برندا :

— وهذه هى كاتدرائية سانت بول : اكبر كنيسة بروستانتينية فى انجلترا . من ملامحها الداخلية ، المتحف الهامس ! ولوحة تذكارية لولنجتون . قائد كبير آخر . وكذلك قبرا ولنجتون ونلسون .

والتفتت اليه قائلة :

هل تهمك الفنون ، أم انك تعنى فقط بالتاريخ ؟

— بدات اعنى بالفنون ، لانك تدرسينها .

ابتسمت وقالت :

— الفن جميل فى ذاته ، درسته انا ام لم ادرسه .

يمكن اذن ان تصم الانجليز جميعا بالاستعمار . وهناك قوى انجليزية تساند الشعوب . الم تر الى الطبقة العاملة تستضيفك فى بيوتها . بعد ان لفظك المحافظون العنصريون .

ربما تستطيع انت ان تفرق بين مجموعة من الانجليز ، ومجموعة اخرى . ولكن الشعب المصرى يساوى بينهم جميعا . الجندى الانجليزى عندما يطلق النيران على المصريين ، لا نستطيع القول بانه عمالى او محافظ .

تناثر وجدانه ، كما لم يتناثر من قبل : واحسرتاه ! حتى فى الحب ، يتقطع قلبى . وتتمزق نفسى . فى النضال الاجتماعى ، صارعت قوى الجهل والجوع والقهر . لكن كيف اناضل ضد قوى العاطفة ؟ كيف يمكن ان يوصف الصراع هنا ، بأنه هزيمة أو انتصار ؟ فى ميدان القلب ، من القاهر ، ومن المقهور ؟ . اذا انتصرت على قلبى ، فمن يكون المنتصر ومن المهزوم ؟ واذا انتصر القلب ، على من ينتصر ؟

انت شخص غريب ، غريب . هل تقتحم المسائل العامة ، وقضايا التحرر كيانك ؟ ثم تتولى هذه الامور ، مصير عاطفتك . وقلبك ؟ . ليس هذا من طبيعة الامور . ماذا تعنى ؟ هل تلقى بآمالك وبمثلك فى اليم . لكى تنعم بزواج فاتنتك ؟ ان اطراح هذا النضال العام ، يعنى الموت الزؤام .. اذن ، ضح بعاطفتك ، وبحبك . كيف بربى ، يعيش المرء بلا قلب ؟ . ماذا يتبقى له ؟ كيف يحقق طموحاته بقلب كسير ؟ غشيه الضياع . وادلهمت به الازمة .

ماذا يصنع ؟ ذهب الى عبد المجيد . ربما يجد لديه بعض الفرج . دق بابه فى ساعة غير متوقعة . لقيه عبد المجيد بوجه باش . كان حسن متجهما فطن عبد المجيد الى ان صديقه متأزم . بادره بابتسامته الصديقة :

— ماذا دهاك يا أبا على ؟

— داهية ، ليس لى بها عهد .

— انت يا ابا على تدهم الداهيات .

— يبدو اننى ادهم الآن نفسى .

— لماذا . . . . حفظك الله !

— لا تلجا لاسلوبك الساخر ، فانا فى غمة .

— « ليه يا بنى » الله لا يغمك ! يا بنى . نحن نحسدك . وكنا نتمنى ان نكون فى مكانك . لقد نزلت بك غمما . وانصبت عليك حمما . وقد فرجت انت الغمم . وسلطت الحمم على المصائب الاجتماعية ، فقهرتها .

كان عبد المجيد يتيه بلغته العربية . كما كان يتيه بلغته الانجليزية . وكانت الازمة تعصف بحسن . لكن البسمة المشرقة فى وجه صديقه . ولغته العربية « البديعية » ، أسرعتا بالبسمة الى شفتيه . كان يستريح لمجالسة عبد المجيد . وينتعش لحديثه . ومضى عبد المجيد مباهيا بذكائه :

— انا اقول لك ماذا اصابك ؟

— محلل نفسانى حضرتك ؟

— لا . محلل احصائى .. « شوف يا سيدى » . انت تحب !

لم يجبه حسن بجدية ، يتطلبها الموقف . قال له :

— يخرب عقلك . انت يا بنى « طلعت لى منين » !

— انا اللى « طلعت لك » ، والا انت « طلعت لى » !

خشى حسن ان يتخذ صديقه من الموضوع فكاهة . قال له على الفور فى صوت عميق :

— نعم انا احب .

— الفتاة التى رأيتها معك ، فى يوم القناة ، بميدان ترافالجار ؟

— نعـم .

— لك حق . انى أعذرك !

ولم يتردد حسن :

— ماذا ترى فى الزواج من اجنبية ؟

بهت عبد المجيد . تلاشت ابتسامته . اكفهر وجهه :

— لا اعتقد انك ترتكب هذا الخطأ الكبير .

— خطأ ، وكبير ؟

— نعم ... نحن قوم لنا تقاليدنا ، وعاداتنا : وديننا . ولا تتسق الاجنبيات مع كل هذا .

— أنت متدين .وتعلمان النبى صلى الله عليه وسلم ، قد تزوج بماريا القبطية . اما التقاليد والعادات ، فأنت تعلم كذلك ، ان معظمهـــا يرتبط بالتخلف . وقليل منها يجمل الانسان حقا . كالصدق والامانة والوفاء . وهذه اخلاق توجد فى الغرب ، اكثر مما توجد فى الشرق . واقامتنا فى انجلترا ، أثبتت لنا هذه الحقيقة .

عدد عبد المجيد خصالا اخرى :

— والنجدة والمروءة ، والتعاطف بين افراد الاسرة ، والكرم .

— أنت آخر من يتحدث عن الكرم ! بقى لنا سنة معك . ولم تدعنا الى الطعام المصرى الجميل . رغم ان زوجتك ترافقك . فاترك حكاية الكرم هذه !

ضحك عبد المجيد قائلا :

— الله يفضحك !

— أما النجدة والمروءة ، فهذه مسائل توجد لدى شعراء الجاهلية ! وهى مسائل فردية . وتسود فى المجتمعات المتخلفة .

سكت حسن برهة ثم واصل :

— دعنى اقول لك ان هذه الخصال « الجميلة » ، احدثت عقدة عندى . عندما كنت صغيرا . ضاعت ارضنا . وكان من اسباب ضياعها ان والدى

كان ذا نجدة ومروءة . ضمن كثيرا من الدائنين . لم يســددوا ديونهم . اضطر الضامن الشهم أن يسدد تلك الديون . تحملت أرضنا الغرم . ونزعت ملكيتهـــا .

— الراوبط الاسرية مفككة هنا ، قوية فى بلدنا .

— اية روابط اسرية ؟ الاولاد هنا ينعمون برعاية وحب واضحين . وعندما ينتهى الولد من تعليمه . ويصبح قادرا على الكسب . فانه يستقل بنفسه ، وبصفة خاصة عندما يتزوج . هل يعجبك ان يظل الولد ، وفى وجهه شنب غليظ . عالة على أبيه .. غير قادر على الخلق والاستقلالية ؟

وتدخل عبد المجيد فى يأس :

— حتى هذه المسائل ، لا تريد ان نتفاخر بها ؟

— كيف نتفاخر بقيم متخلفة ؟ وكيف ندعى صفات حسنة ، ليست وقفــا علينــا ؟

برقت عينا عبد المجيد .. مال براسه الى أسفل قليلا . تساءل :

— اتريد ان تنتصر فى الحوار . حتى وانت جريح القلب ؟

سكت لحظة ، ثم واصل :

— على اية حال ، انا رجل صعيدى . ولن تثنينى عن رأيى . وانى انصحك كصديق ان تقلع عن فكرة الزواج بأجنبية . وبصفة خاصـــة انت تريد ان تشتغل بالعمل السياسى . وليس من المقبول ان تجابه الجمـــاهير ، وزوجتك اجنبية .

كان عبد المجيد « صعيديا » فى هذا الرد . حسن ضيق الخناق عليه فى المناقشة . وهو صعيدى لا يقبل الهزيمة . ويضرب عشوائيا لينتقم . الحق انه لمس النقطـــة الضعيفة . لم يســتطع حسن حلها بالحــديث الى نفسه . جاء الى عبد المجيد كصــديق ، ليعينه عليها . فاذا به ينكأ جراحه . وساله حسن :

— احقا يا عبد المجيد ، ان ذلك سيكون عقبة امامى فى العمل السياسى ؟

— لا جدال .

تلمظ عبد المجيد . بانت فى عينيه نشوة الانتصار . وخاصة ، عندما احس النغمة الضعيفة التى سأله بها صديقه .

ترك عبد المجيد ، كما دخل عليه ، كسيفا مكلوما .

* * *

فى صبيحة اليوم التالى بحث عن عبد الحى . لعله يجد لديه ، ما يرد اليه قلبه . وكأنه يعرض مشكلة قلبه على استفتاء عام ! رآه فى « كافتيريا » الكلية . اقبل عبد الحى عليه . شعر ان حسن لا يصخب ، ويضحك ، ويناقش كالعهد به :

— مالك « يابو على » ؟

— اجلس يا عبد الحى . كنت ابحث عنك .

— خيرا .

— ليته كذلك .

— هل قامت القيامة ؟ انتصرنا فى معركة قناة السويس . وكنت فارسا من فرسان المعركة . فماذا يحزنك ؟ وانت تشيع الحياة والمرح انا ذهبت .

— مشكلة خاصة ، اود ان اسر بها اليك : هل من الممكن ان يتزوج المرء بأجنبية ؟

— طبعا ! انا شخصيا ، لو وجدت فتاة أوربية مناسبة ، لن اتردد .

— سؤال آخر : هل لا تكون عقبة اذا ما اشتغلت بالعمل السياسى ؟

— اية عقبة ؟ .. ليس هناك اى اعتبار ، يمكن ان يتدخل فى حرية اختيار الانسان لزوجته . هناك كثير من الشخصيات الكبيرة يعملون فى السياسة ، ومتزوجون من اجنبيات خذ بعض الامثلة : د . عبد المنعم القيسونى . د حسين خلاف ، وزيران فى عهد عبد الناصر . انت تعرف الزعماء الافارقة ، ورؤساء الجمهوريات . كثير منهم زوجاتهم اجنبيات : سنجور فى السنغال مثلا . كبار الادباء . طه حسين ، ويحيى حقى ، وغيرهم . بعض اعضاء الثورة ، زوجاتهم بنات لسيدات اجنبيات . وقد يصبحن حكامنا !

ثم سكت عبد الحى لحظة ، وقال :

— ماذا دهاك يا ابا على . حسبناك رشيد الراى ؟

— لكن الانجليز يحتلون ارضنا . ويهرقون دماء شبابنا . والشعب لا يغفر الزواج من بناتهم ؟

— الشعب سمح . ولكن المتصنعين للوطنية ، هم الذين يتظاهرون بهذه الوطنية الساذجة .. ثم اليس الانجليز بآلافهم الكثيرة ، هم الذين تظاهروا ضد حكومتهم ونادوا بسقوطها . وانتصروا لمصر ؟

سكت عبد الحى . زم شفتيه . عقص انفه . الامر الذى يفعل ، حينما لا يعجبه راى محدثه :

— يا عم حسن . انت رجل مكافح . لا تفكر تفكيرا سطحيا .

تراخت اعصاب حسن . قال لعبد الحى :

— لكن عبد المجيد له راى مخالف .

— عبد المجيد صعيدى . لا يعرف شيئا !

— سأقول له ذلك !

— انت وهو لا تهمانى . انتم قوم متخلفون . اذهب يا عم الى بلدك .

وتزوج من المتخلفات من أمثالك . فتحيل حياتك الى سلسلة من التخلف . فلا تصلح للسياسة ، ولا لغيرها .

هجــوم عبد الحى ، هجوم محبب . وخاصة فى هــذا الموضــوع بالذات ! تهلل لهذا الهجــوم . ود لو يســترسل عبد الحى ، بعدوانيته المشهورة ، فى هذه المســألة بعينها . كان عبد الحى كريما ، اذ واصــل الهجــوم :

— أنت احسن لك أن تتزوج من خضرة ، او ام الخــير ، او ســت أبوها ! وستجد اباها يطلب منك مهرا كذا .. لابنته العصماء . ويطالب بوزنها ذهبا . وهى تافهة لا تساوى « وزن ودنها نخالة » ! ثم الشبكة وغيرها من الشروط المعوقة . وتدفع كل ذلك ، ولا تراها !

انطلق صاروخ من عمق ذاكرته . أمر هذه الذاكرة عجب ! لم تكن ضنينة عليه بأية معلومة من معلومات الماضى .. بل كانت دائما سباقة مسنونة . يبدو ان ذاكرته تسعفه بصور الشقاء فحسب ! وبصفة خاصة اذا كان الشقاء معوقا قتالا . يصر على تنغيص الحاضر . لكن اذا كانت الصورة الشقية ، منقذة له من عذاباته ، فانها تتمنع ! تغوص فى أعماق نفسه . وتتردد فى أن تطفو .. عبارة عبد الحى قسرتها على ان تبرز من مكمنها !

* * *

— ١٤ —

القرية الحالمة . الحالمة بالتقدم ، منذ سبعة آلاف ســنة ، ومازالت حالمة . الاسرة العتيدة ، أسرة حسن ، تجتمع فى منزلها — المنزل الذى اجتمعت فيه من قبل ، منذ عشرين عاما . كان اجتماعهم الاول بهيجا حزينا . الام وبناتها سعاد وهنــد وثريا وابنها فيصــل ، براعم بين الخامســة

والعاشرة . اجتمعن مع الابن الاكبر حسن . المناسبة تفــرح وتؤسى . احتفلوا بتفوق حسن فى الشهادة الابتدائية . احتفلوا فى الوقت نفســه بضياع أرضهم ، وبطرده من مدرسة الزقازيق الثانوية ، أعجزهم عن دفع المصروفات . المأساة تبلغ ذروتها . دخل الاب السجن لان الاسرة اكلت الاذرة المحجــوز عليها . انتهزوا الفرصــة ليحتفلوا بتنصيب حسن ربا للاسرة ، وعائلا لها ، وهو فى الثانية عشرة !

الاجتماع الآن لمناسبة بهيجة ، ولو أن البهجة فى هذه الاسرة ليست خالصــة . ارتحل الأب للقاء ربه . بعــد ان فرح بحصــول ابنه على الليسانس . لكنه قام بالرحلة مبكرا . لعله برم بسجن الدنيا ، وبسجون دولة الوسية . آثر ان ينعم بالحرية الابدية فى ملكوت السماء .

اجتمعت الام بأبنائها وبناتها ، لتزويج حسن . هذا الفتى منهمك فى العلم . ونسى انه يقترب من الثلاثين . تحدث فيصل :

— نريد ان نزوجك يا « متر » .

— « ايدى على كتفك » .

— عندى عروسة « لقطة » .

— من هى ؟

— بنت عمك ، الشيخ تقى الدين .

— هل رايتها ؟ اهى حلوة ؟

— جميلة جدا . تربيتها دينية . هم اقاربنا . قوم محافظون . وهى متقدمة لامتحان التوجيهية هذا العام .

— « وبس » !؟

ضحك فيصل ، لانه أخفى العنصر الرئيسى فى مؤهلات الفتاة . ثم قال مبتسما :

— وامها ، تملك ماية فدان . يعنى نصيبها خمسون فدانا .. ياحلو .

— هذا هو الكلام . ما كان لك أن تؤخر هذا « المؤهل » الهام !

كان فيصل يعلم ان اخاه يزهد فى الارض والمال والغنى . لكنه تحمس :

— طبعا ، هذا عنصر اساسى .. الى متى سنظل فقراء ؟

أثار قوله مشاعر الاسرة كلها ، وبصفة خاصة والدته . كانت الارض مصدر سعادتها وشقائها ، شهدت دورة العز ، حينما كان جد حسن ، يملك مائة فدان ، وعندما ورث زوجها عشرين فدانا بعد وفاة ابيه . وانشرخ قلبها ، حينما ضاعت الارض .

وها هى خمسون فدانا تغازلهم من وراء الافق . شهد حسن بريق السعادة فى عينى أمه . وأشعة الامل فى عيون اخواته . اليست هذه هى الاسرة التى كدح من أجلها صبيا ويافعا ؟ لماذا لا يسهم فى اسعادها ، وهو فى شرخ الشباب . وقال لاخيه :

— يالله ، شد حيلك .

وفاجأه فيصل :

— هيا نزورهم .

— هكذا على الفور .

— خير البر عاجله .

ذهب ثلاثتهم : حسن ، وفيصل ، وحليم — أخ للشيخ تقى الدين — لزيارته بالزقازيق . فتحت الباب لهم فتاة مفرطة الجسد ، صغيرة الراس . وما أن رأتهم حتى فرت مذعورة . لا تحية ، ولا سلام ، ولا كلام .. جرت الفتاة ، دون أن تعلم من هؤلاء . ولو أن من الزائرين عمها الشقيق ! لم يكن هذا الوفد قد أعلن عن بغيته . جاء الشيخ . رحب بهم . قادهم الى غرفة الجلوس .

تمنى حسن من اعماق قلبه ، الا تكون هذه هى الفتاة المرجوة ! كان جسدها الوفير وراسها الصغير ، غير مشجعين . نكوصها السريع الراكض عند رؤيتهم ، دليل على الاخلاق الفاضلة ، لدى فيصل وحليم . ولكنه لم يكن دليلا كافيا لدى حسن !

كان باب الغرفة مفتوحا . مرت الفتاة من بعيد فى الصالة . استشعر الشيخ الحريص على الفضيلة ، حرجا . قام وقفل باب الحجرة ! يبدو أنه تخايل أن فكرة الزواج ، هى التى جمعت هذا الثلاثى . وعلى ذلك ، فالفتاة محرمة على من يفكر فى خطوبتها !

حسن يوافق فيصل وحليم على الخطوبة . اشترط أن يرى الفتاة ، وتجلس معه . وعداه بذلك . حسن وفيصل من أقارب الشيخ . المفروض أن تأتى امرأته وبنته لتحيتهما . لم تحضرا . اخذ حليم ، الشيخ الى خارج الغرفة . فهم حسن ما يريد حليم : ان تأتى الفتاة ، وتسلم على حسن . فهو قريبها ، ويريد خطبتها . غابا عدة دقائق . استنتج حسن ان المفاوضات معقدة ، وتجتاز مراحل صعبة ! دخلا الحجرة . الجواب على وجهيهما . المفاوضات فشلت . عليه أن يخطب الفتاة التى سيعيش معها حياته كلها ، وينجب منها مناضلين لتحرير هذا البلد ، عليه أن يخطبها غيبا ، دون أن يراها .

تململ فى مقعده . هداه فيصل ، بضغط اصابعه على ذراعه . حركة تعنى : اصطبر . رجاه حليم وفيصل أن يتحدثا فى الموضوع . قال لهما :

— نتحدث فى موضوع أجهله ، ولم أره .

وقال فيصل :

— ستراها . اتعهد انا وحليم بذلك .

— طيب .

بدأ فيصل يتحدث . العادة ان ابا العريس ، او اخاه ، او عمه ، هو الذى يخطبله العروس من ولى امرها .

خاطب فيصل الشيخ ، وكلاهما ازهرى :

— يا فضيلة الشيخ . حضرنا فى مهمة يباركها الله .

— أهلا يا فضيلة الشيخ ! واهلا بكم جميعا .

— نحن أقارب . فلنتحدث ، دون مقدمات .

— تفضـــل .

— « احنا طالبين القرب منك » !

ورد الشيخ على الفور :

— فى مين !؟

أوشك حسن أن يطلق ضحكة من ضـــحكاته العالية . كانت قطعا ستفسد الموضوع برمته . حول حسن الضحكة الى كحة ! ذكرى طافت بمخيلته ، عند ســـماعه كلمة « فى مين » . كان لحسن وهـــو طالب فى الحقوق ، صديق هو ابراهيم غباشى كان مغرما بقصـــة خطوبة البنت الفـــلاحة . هكذا يصـــورها : يذهب وفد من عائلة العـــريس الى والد العروس . يقول كبير الوفد :

— يا شيخ ابو غـــلان .

— ويرد عليه والد العروس :

— أى نعم .

— احنا طالبين القرب منك .

— فى مين ؟

ويمضى ابراهيم غباشى فى رسم صورته : والد العروس يجلس على

الحصيرة . امامه موقد النار . يأخذ من الموقد عصـــا من حطب القطن . يخطط بها فى تراب الموقد بعض الوقت ، وكأنه يفكر . ثم يقول لهم :

— فى مين ؟!

ويعلق غباشى :

— « فى ام الهم .. فى ام قويق .. فى المصيبة اللى جوه ، هو فيه غيرها ؟ »

كانت هذه قصة تستثير ضحكها .. وهذا ما حدث بين الشـــيخين الازهريين . لم يكن لوالد العروس ، غير بنتين : احداهما تزوجت ، وبقيت بنت واحدة .

رد فيصل على الشيخ :

— فى الآنسة « نفيدة » !

ورد الشيخ على الفور ، وكان يعرف سمعة حسن وكفاحه .

— انه ليشرفنا ان نرتبط « بالدكتور » حسن بهذا الرباط المقدس .

« هالله .. هالله » ، وبقينا دكاتره » !

فرح حسن بهذا التشريف وتطير . فرح ، لان صهره المقبل ، يرفعه الى مصاف الدكاتره ، وهو مازال معيدا . وتطير ، خشية ان يحسب انه دكتور حقيقة ، ويطلب مهرا وشبكة يتناسبان والمؤهل !

وبدا فيصل على الفور فى الكلام فى الشبكة والمهر — دارت مناقشات عصبية . طالت وتعقدت . تخيل حسن انه فى سوق للسلع ، أو للمواشى . تحتدم فيه المساومة . كتم الالم فى نفسه . الشيخ يطالب بمبلغ كبير للشبكة والمهر . على ان يدفعا معا . بذل فيصـــل جهـــدا فى الحوار . حليم كان محايدا . انه يفضل هذا العريس . لكن لا يريد ان يبخس ابنة شـــقيقه حقهـــا .

وقال الشيخ بعزة :

— ابنتى من « اسرة » ! اختها دفع فيها مهر وشبكة قيمان . لا اقبل أن تنخفض قيمتها عن قيمة اختها .

نفذت كلمة « اسرة » داخل حسن كالسهم . النائب العام يقصر وظائف النيابة على « الاسر » . وحرم حسن منها . حتى مصيلح ابن الصراف تحدث عن الاسر ! وهذا هو الشيخ تقى الدين قريبه يتحدث عن الأسر . اصابه تقزز . منطق الامور انه لا يصلح لبنات « الاسر » . كما لم يصلح لوظائف « الاسر » . لكن الرجل قبله زوجا لابنته . وموضوع « الاسر » اثير بمناسبة المهر والشبكة فحسب . الاسر هنا تعلو وتهبط حسب مكانها فى السلم الاجتماعى . او حسب فدادينها . بنات هذه الاسرة يساوين خمسمائة جنيه ، وتلك بناتها الف .. وهكذا !

واتت حسن ، فى هذه اللاحظة روح السخرية :

— يا فضيلة الشيخ . انت وانا من اسرة ايضا — بل من اسرة واحدة .

— قصدت أن أسرة والدتها أسرة عريقة . اسرة باشوات .

سهم آخر ، شرخ وجدانه . قصته مع الخواجات والباشوات معروفة . لكنه استمر فى اسلوبه الساخر :

— هل تنسب البنت الى ابيها واسرته ، ام الى امها واسرتها ؟

بلع الشيخ ريقه . كان السؤال مفاجئا . اجاب :

— الى اسرة ابيها طبعا .

— اذن اتفقنا .

— انا لا اريد أن اكسر بخاطر البنت . ولا يجوز أن تكون اقل من اختها .

المبلغ الذى يطلبه مرتفع ، لا يستطيع جمعه . لكن فيصل وحليم الحا

عليه ان يوافق . وسوف يدبر المبلغ .. هذه عروسة « لقطة » . لا تدعها تفلت من يدك وتحت هذا الالحاح وافق .

* * *

عملية جمع المهر والشبكة ، كان فيها جمال ، بقدر ما فيها من معاناة . تجلى جمالها فى ذلك الحنان ، الذى احاطته به قلوب ذهبية . حنان اخواته ، واخيه ، وامه . جاءت هند :

— هذا يا اخى « كردانى » خذه ليسهم فى مهر عروسك .

قال لها :

— انت يا هند فى حاجة اليه . زوجك عاطل . لا امل يرجى منه . وانت التى تكدحين فى قطعة الارض التى تملكونها . اولادك مازالوا صغارا . يحتاجون لكل مليم اديك .

— هذا « الكردان » ، وما املك ، بل وحياتى كلها ، انت مصدرها . كنت اخانا ، وابانا ، وعائلنا . هذا بعض جميلك نرده اليك .

— استغفر الله . لا تقولى هذا الكلام .

واصرت هند ان يأخذ حسن عقدها الذهبى ، حتى « لا يكسر بخاطرها » . وبانت سعاد . مدت يدها بلفافة لاخيها :

— هذا حلقى . لا املك غيره . هو كل ما استطيع تقديمه اعذرنى .

— مستحيل يا سعاد ان آخذه . زوجك فقير وعندك اطفال كثار . الواجب على أن اعاونك .

دمعت عيناها ، وتهدج صوتها :

— اترفض اسهامى فى فرحك ، وقد ربيتنا ، بعد ضياع الارض ؟

— انا لا ارفض . انت يا سعاد كبيرة اخواتى . كنت تذهبين بى على الحمارة الى مدرسة كفر صقر ، ثم تعودين بها وانت فى السادسة . فانت جميلك فى عنقى .

— لقد اشتريت لى حليا فى عرسى ، وحياة المرحوم والدك ، لا تكسفنى .

انصاع حسن لرجائها بمآق مدرارة . ودخلت ثريا بحماسة واندفاع . دست فى يده اسورتين ذهبيتين :

— هذا ، يا شقيقى شىء بسيط . هدية منى فى فرحك .

كان لا يمكن محاورة ثريا . فهى ستكسب اى حوار معه . وليس من المعقول ان يرفض هديتها ويقبل معاونة اختيها .

وجاء دور فيصل . كان حديث التخرج . عين مدرسا فى المدارس الابتدائية منذ سنة واحدة . جاء بمدخراته جميعا . وقدمها لاخيه .

— حتى انت يا فيصل ؟

— انا الرجل . وقوام على البنات .

— مرتبك صغير ، وتحتاج لمدخراتك للزواج .

— مهمتنا الآن تزويجك انت ، وهذه ضريبة صغيرة ، لا تعوض العناء الذى تحملته من اجلنا ، ومن اجل تعليمى .

— دعك من هذا الكلام بربك .

— لا تجعلنى اشعر بأننى اقل بذلا من البنات .

— وشاء فيصل ان يتخفف . فقال باسما :

— ومع ذلك ، « فكله يتعوض » . والخمسون فدانا قادمة !

— المشايخ يسيل لعابهم على الارض .

— والناس جميعا .

— هناك قيم اخرى ، اجمل من الثروة .

— دعك من هذا الخيال ، والمثاليات . الفقر طحننا ، ونود ان نعيش .

— حتى الدارسين للأديان ، تملأ عيونهم وقلوبهم المادة .

— يا اخى ، المعانى الاخرى موجودة — انما المادة هى الركيزة !

— طيب يا عم فيصل .

كانت الام ترقب هذا العطاء الانسانى ، يقوم به فيصل والبنات . يبذلون من اقواتهم وحليهم فرحين ، وهم يسهمون فى تزويج اخيهم . لم تقدم الام شيئا لابنها غير حنانها . ليس لديها شىء آخر تقدمه . اكتفى بشعاع الحب ، يلمع فى مآقيها ، ومآقى اخته الصغيرة سهام ، ذات الاثنى عشر ربيعا .

باع حسن فدانا من الفدانين اللذين اشتراهما وهو عسكرى فى الجيش . وباع الحلى ، وضم مدخراته ، ومدخرات فيصل . المبلغ مازال ينقص عن قيمة المهر والشبكة خمسين جنيها .

* * *

ذهب حسن للقاء الشيخ تقى الدين :

— سلام الله عليكم .

— عليكم السلام ورحمته وبركاته .

بدا حسن حديثه بمقدمة :

— فضيلتك تعلم أن الانسان الربانى الفاضل لا يقاس بالمال !

ارتعش حاجبا الشيخ الكثيفان الاشيبان . تقلص جفناه . متقدمة توحى بشىء . رد ردا مقتضبا :

— نعم .

ــ وان الزواج علاقة قدسية . تحكمها مقاييس مثلى ، ليس المال اهمهـــا !

اتسعت حدقتا الشيخ . انفرج ما بين شفتيه . لكنه لم يملك الا ان قـــال :

ــ نعـــم .

راى حسن فى عينيه تساؤلا حائرا : ماذا يريد هذا الشاب ؟ ايريد ان يعطينى درسا فى الدين ؟ وهو يعلم اننى احمل العالمية . ام يريد امرا آخر ؟ دلف الى الموضوع .

ــ اتيت بقيمة المهر والشبكة .

سكت برهة . . ثم استمر .

ــ . . لكن المبلغ ينقصه خمسون جنيها .

طمس العرق فجاة وجه الشيخ . حبات كبيرة تساقطت من ذقنـــه الحليقة على جبته . برقت عيناه الغائرتان . اغبر لونهما الاخضر ، كقطة مذعورة . لم يجب على الفور . على الرغم من ثقافته الازهرية ، كان ثقيل اللسان . تخرج الالفاظ من فمه ، بطيئة متعثرة . استرد جأشـــه . قال بصوت فيه حـــدة :

ــ ليس هذا ما اتفقنا عليه .

ــ فضيلتك ، تعـــرف اننى تخرجت منـــذ سنتين . جئتـــك بكل مداخراتى ، ومدخـــرات اخى . وبعت فدانا من ارضى . كما جئتك بحلى اخـــواتى .

لم يعبأ الرجل بهذه المعانى :

ــ اتفقنا على مبلغ محدد . يجب أن تنفذ الاتفاق .

ــ كيف ، ولم يبق لدى شىء ؟

ــ ابنتى غالية عندى ، ويجب أن تضحى لتثبت انها غالية عندك .

ــ اتقصد ان اقومها بالمال . ؟

ــ اجـــــل .

ــ انا لا اوافق على هذا التقييم ــ فهناك معان اغلى من المال .

ــ جرى العرف على أن تدفع مهور وشبكات كبيرة لبنات الاسر .

ــ الاسر مرة اخرى ؟ لا اخال الاسر « الارستقراطية » الثـــرية ، ينتقص من ثرائها خمسون جنيها . هذا مبلغ ضئيل .

ــ اذا كان ضئيلا ، عليك أن تدفعه .

سكت هنيهة ، ثم أردف :

ــ . . . ان حرمى لن تقبل ان آخذ المهر منك ناقصا قرشا واحدا .

ــ حرمك ؟ اين قوامة الرجال على النساء يامى الشيخ ؟

تلعثم الشيخ . ولكنه مضى ، وكأن الوخزة لم توجعه :

ــ هذه شريكتى ، ولابد من احترام رأيها .

كانت الثروة ثروة المراة . والشيخ تقى الدين يشبه « الخولى» لديها . تفهم موقفه . سأله مرة أخرى :

ــ هل تنقص الخمسون جنيها من قيمة ابنتكم ؟

ــ نعـــم .

ــ يا فضلية الشيخ . هذا الكلام ليس من الكتاب والسنة فى شىء .

ــ كيف ذلـــك ؟

ــ الرسول صلى الله عليه وسلم ، انخفض بالمهور الى خمسة وعشرين قرشـــا !

ــ هذا خاص بالفقراء .

جرحته كلمة « الفقراء » كان يعتبر نفسه واحدا منهم . والتعريض بهم تعريض بـــه .

— الفقراء احباب الله ، يا مولانا .

— احباب الله فى الآخرة !

— صدقت . لو كانوا احبابه فى الدنيا ، ما تركوا للبؤس يطحنهم . وما تركهم أنتم ملاك الارض ورأس المال تسفكون عرقهم ، وتستغلون كدحهم !

— الله ؟ ماذا جرى يا دكتور ؟ ... اتعطينى درسا اجتماعيا ، كما حاولت أن تعطينى درسا دينيا ؟

— أنا لا اعطيك شيئا ، ولا آخذ منك .

انتفض حسن من مجلسه واقفا :

— سـلام عليـك .

حاول الشيخ أن يستبقيه لتناول طعام العشاء . رفض :

— العشاء قد يكون مكلفا . اقترح عليك أن تخصم ثمن الوجبة من الخمسين جنيها .

هذه الومضة من حياته الماضية ، التى نكشها عبد الحى ، كانت القول الفصل فى زواجه ببرندا . اقتحمت راسه خاطرة :

ألم تسهم برندا ، مع آلاف المتظاهرين والمتظاهرات الانجليز ، معنا فى معركة قناة السويس ؟ اين كانت المصريات الدارسات فى لندن ؟ المصريات المحصنات . لم يظهرن فى حركة الجماهير الانجليزية . التى امتدت اسابيع قبل الاعتداء على بور سعيد . أواه . من اى شىء هن محصنات ؟ من العمل الوطنى ؟ من التقدم ؟ من المسار الحضارى ؟

سوف اتزوج برندا . ناضلت من أجل مصر فى بلدها . وستناضل من اجلها حينما تأتى اليها . المخاوف التى تخشاها ساذجة . الشعب فى مصر صادق النظرة . يتواصل مع اولئك الذين يعتبرون قطعة منـه ، ومن امانيه ، ومن نضاله .

* * *

السنة الاخيرة ، التى امضاها حسن فى انجلترا ، سنة راضية مرضية . انتصر وطنه فى معركة القناة . وانتصر هو فى معركة القلب . عندما ينبض القلب نبضا هادئا بالحب ، فان النفس تصفو ، والاداء يسخو . لم ينعم بمثل هذه الهناءة من قبل . هناءته هنا سخية مزدوجة . كان عهده بالسعادة انها مفردة ! فهى اما فردية ، لا تشبع الوقدة الاجتماعية فى وجدانه . واما جماعية لا تغازل القلب وتنعمه .

غاص فى بطون الكتب يتشرب عصارتها التى سيشكلها فى رسالته . كتب رسالته بالانجليزية ، وبعض فصولها بالعربية . أراد اعدادها لتكون جاهزة للمناقشة فى مصر .

فى هذا الجو الثرى كاد يرتكب حماقة . يريد أن يمسك بناصية السعادة، لكى لا تفلت منه . برندا مصدر هذه السعادة . يريد أن يبقى المصدر بجانبه .

قاما برحلة الى أوربا ، فى طريق عودته الى مصر . زارا فيها بلجيكا ، وهولندا ، والمانيا ، وسويسرا ، وايطاليا . كانت رحلة الى الفردوس . بحيرات سويسرا الزرقاء الرائعة ، تنتصب حولها جبال خضراء . تتعمم قممها بثلوج بيضاء . يغازل سناها العيون ، عندما تشرق الشمس . وتعطى للارض جلالا تحتاجه ، حينما تريد أن تتصل بالسماء !

جرعات السعادة اكبر مما يمكنه أن يستوعب . الآن ، السعادة المعطاء ، تذكرت انها كانت دائما معه ضنينة . كأنها فطنت انها منحته قدرا كبيرا . وهو أمر طبيعى ، يتسق مع المجتمع الذى كان يعيش فيه . اما ، وهو عائد الى مصر ، فمن المنطقى أن تعود الى عادتها القديمة ! وفىرحلته فى اوربا، مازالت السعادة رحيمة به . تود أن تتيح له فترة انتقالية . حتى لا يفاجئه الشقاء دفعة واحدة !

قامت فى صدره ، رغبة مفاجئة : لابد أن يتزوج برندا فى هذه الرحلة ! رغبة عكست كل بذور التخلف ، التى زرعها مجتمعه فيه . تجمعت فيها

المخاوف والقلق والعناءات التى قاساها . وعلى الرغم من عدم معقوليتها . كانت رغبة منطقية ! لم ينعم فى حياته ، بمثل هذه السعادة . من حقه ان يعض عليها بنواجذه . اذا طارت منه . طارت منه الحياة . حاولت اقناعه بكل السبل :

ـــ لا داعى للخوف ، ولا للقلق ، انا احبك . وسآتى الى مصر ، لأتزوجك هناك .

ـــ ان خوفى عليك شديد . وانا لا اطيق مفارقتك .

ـــ ربطنا حب كبير . وهو رابطة لا انفصام لها .

ـــ اريد ان امسك بيدى ضمانا .

ـــ الحب اكبر ضمان . وثيقة الزواج التى تقترحها ، لا تقوم مقام الحب .

ـــ ارجو ان تعذرينى . نشأت نشأة شقية . عصفت بى نازلات ، سلبت الطمأنينة منى . ولا اشعر بالأمان ، كما تشعرين .

ـــ انت تعرف ، ان لى ابا واما ، واخا . من المعقول ان استشيرهم . ويحضرون زواجى .

ـــ انت بلغت الواحدة والعشرين . اصبحت سيدة نفسك .

ـــ بلوغ الرشد ، والاستقلال ، لا يلغى الرابطة الانسانية بين البنت ووالديها .

ـــ لك حق . ماذا اصنع ؟ انا مضطرب ، خائف ، مبتئس .

سكتت برندا لحظة . عكستنظراتها الحلوة معنيين : تريد أن ترضيه، فهى تحبه . وهى كذلك ، وجلة من هذا التسرع الفجائى . اثارت موضوعا آخر :

ـــ أمامى سنتان للحصول على بكالوريوس الفنون الجميلة . لقد كنت

مصدر الهامى فى الحصول على الثانوية ، المستوى العالى . وفى دراستى العليا للفنون .

ـــ دراسة الفنون لا تمنعنا من عقد القران . واهلك يسعدون نسعادتك . انا قلق ، واخشى ان يعوق القلق اتمام رسالة الدكتوراة .

جزعت برندا . رضيت باقتراحه . لكنه اجرم فى حق نفسه وفى حقها ، جرما تأسى له كثيرا . عندما رضيت باقتراحه ، كانت عيناها معكرتين . عكستا رضا مقهورا ، ونفسا كليمة .

اتصل حسن بالقنصليات المصرية فى المانيا وسويسرا وايطاليا . وكانت النتيجة : السبت والاحد لا يعملون . الجمعة يصلون . الخمس يجتمعون مع السفير . بقية أيام الاسبوع ، يعملون الى منتصف النهار . يئس . تسبب سلوكه فى غزل غمامة قاتمة ، غطت رحلة الحب .

حاولت ان تطمئنه مرة اخرى :

ـــ الحب اكثر قداسة من وثيقة الزواج ! سأنال شهادتى . واحضر مع والدى . واتزوج بك . ولن تفلت من يدى !

ضحك حسن ضحكة « انجليزية » هادئة . وهو صاحب الضحكة الفضية ، التى يملأ رنينها الآفاق . رجع الى نفسه : هبك تزوجتها . وحملت وثيقة الزواج فى يدك .ثملمتحضر الى مصر . هل سترغمها ؟ لا ارغام فى الزواج ، أو الحب . صدقت برندا : الحب هو الذى سيأتى بها الى مصر .

ودعها فى محطة روما . كان وداعا حزينا . ركبت القطار . كأن قطعة من قلبه تدور مع عجلاته . كان وجهها مربدا . الزرقة السماوية فى عينيها تحولت الى زرقة أرضية ! اختفى الورد من وجنتيها ، وشفتيها . خيل اليه أن الذهب فى شعرها ، تحول الى فضة ! كان القطار مرتفعا . نوافذه عالية . حاول الوصول الىشفتيها ، عندما صفر القطار ، وبدأ يتحرك . الوصول اليها شاق . لمسها لمسة خفيفة . لم تشبع نهمه لقبلة وداع طويلة .

تشاءم . هذه القبلة ، التى ما كادت تلمس شفتيها ، تنم عن علاقة متباعدة . بعد انجلترا عن مصر .

استقل السفينة الايطالية الرشيقة من نابولى الى الاسكندرية . لم تكن هناك غجرية ايطالية . لم يبحث عنها ، ولا عن غيرها . لم تكن السفينة بجعة بيضاء . ولا البحر الابيض « بحيرة للبجع » !

استقبله أهله واصدقاؤه فى الاسكندرية ، استقبال الفاتحين . الفاتحين فى معركة العلم . من الطبيعى ان يعتقدوا بانه حصل على الدكتوراة. لم يشأ أن يقلل من فرحتهم . كلها شهور ويناقش رسالته فى الجامعة . والدكتور من مصر ، كالدكتور من لندن « بتاع علم » ! كما يقول نجيب الريحانى .

لكن استقبال الاسكندرية ، والاستقبال الكرنفالى فى القرية ، من رجال القرية ونسائها ، وصبيانها ، وصباياها ، حركا فيه حب الناس ، الذى يطويه بين جوانحه . هذه امه وأخواته يستقبلنه بدمع مدرار . فالدموع فى بلادنا تهطل فى الفرح ، كما تهطل فى الحزن ! وهؤلاء هم فلاحو الوسية اليونانية ، يقبلونه ، ويحملون اليه ذكرى عطرة . أمر واحد شاب فرحته . لم يشهد والده المهرجان . ارتحل للقاء ربه .

* * *

— ١٥ —

قاعة المحاضرات الفسيحة بالجامعة ، تعج بالاساتذة والطلاب ، وباصدقاء حسن من الفئات الشعبية ، والمثقفة . المنضدة المخصصة للاستاذ المحاضر ، يجلس عليها ثلاثة من الاساتذة الجهابذة — هم لجنة مناقشة رسالة للدكتوراة — الحداد من بينهم . نسخة من الرسالة فى يد كل منهم .

امامهم باقة من الزهر ، عطرت هذا الجو العلمى ، الذى ليس من الضرورى ان يكون دائما عطرا !

وقف حسن على منصة جانبية . تلى ملخصا لرسالته . أثار اكف الجمهور . بدأت المناقشة سعيرا . الاصطراع بين مدارس فكرية متعارضة. كهنوت العلم البرجوازى يصرون على الافكار القديمة . صال حسن وجال . كان الجمهور معه . انسحب أعضاء اللجنة للمداولة . حضروا ثانية. نطق رئيس اللجنة بالحكم :

« يمنح الطالب حسن خالد درجة الدكتوراة فى الاقتصاد ، بمرتبة « الشرف » .

انفجرت القاعة بالتصفيق . احدثت كلمة « الشرف » طنينا فى أذنه ، كطنين الذباب . واحدث التصفيق رنينا حلوا ! عرض عليه زملاؤه أن يكرموه . اعتذر لانه متعب . قاده الطنين والرنين الى شاطىء النيل . هام على الشاطىء الخالد وحده .

كان الحصول على الدكتوراة ، نهاية ملحمة من البأساء . بأساء لا عهد له بمثلها ، على تواتر البأساء عليه طوال حياته . بأساء شككته فى الانسان . الانسان الذى عاش فى داخله . والذى عاش يحلم به . ويهفو لان يسهم فى تحرره . تخايلت امامه معاناة السنتين الماضيتين .

كان قد عاد الى وطنه ، بعد ان طال الحنين ، وأعرضت الامانى . وطنه ينتصر على المستعمرين فى معركة القناة . يبنى السد العالى ، ليبنى التنمية . يسترد الفلاحون ارضهم من الاقطاعيين . خلقها الله لهم . ينبتون منها الخير . دون عملهم تبقى الارض يبابا . لم تخلق الارض للاغنياء ، ذوى الايدى الناعمة ، التى لا تعمل . الايدى المترفة لا تزرع الارض . بل تزرع القهر والاستغلال . الزارعون للارض ، ذوو الايدى الخشنة ، هم الذين ينتجون من الارض سبع سنابل .

المعركة الوطنية الاجتماعية ماضية فى طريقها . ليس الاستعمار ان تقتحم قواه العسكرية بلادنا ، كما فعلوا فى بورسعيد . الاستعمار الحقيقى هو هدف هذه القوى البربرية . اغتصاب قناة السويس ، واغتصاب ايرادها الضخم ، الذى استلبوه بلايين وبلايين . شركة قناة السويس تعتبر مثالا للشركات الاجنبية الاخرى . تعيث فى اقتصادنا فسادا . تنهب خيراته . تنقلها ارباحا وسلعا الى بلادها ، لتسهم فى رخائها وتصنيعها . وتترك لنا التخلف والركود .

الحكومة تمصر تلك الشركات . التمصير لا يحل مشكلة الاستغلال . الرأسماليون المحليون حلفاء طبيعيون لتلك الشركات . يباشرون ايضا عملية الاستغلال . الا ان القوى الوطنية قادرة عليهم . حينما يسترد الشعب ممتلكاتهم ، ليس لديهم جيوش يستخدمونها ضده .

انعشته هذه الخطوات . الحكومة والمجتمع يبدآن عملية التحرر . يفطنان الى الاسباب الحقيقية للتخلف فى مصر . موضوع رسالته ، « القوى المعوقة للتقدم فى مصر » . تركز على الاستعمار ، والاقطاع والراسمالية . يريد لرسالته أن تكون أساسا علميا لهذه الحركة السياسية . اعترته رعدة لذيذة . جهوده العلمية تسهم فى معركة بلاده ضد التخلف .

ذهب للقاء الاستاذ ، الذى عين مشرفا على رسالته . شاب وسيم . اشتهر بين زملائه بالخلق القويم . ينعتونه بأنه عالم مبرز فى الاقتصاد . درس فى انجلترا . حصل على الدكتوراه من جامعة لندن . استبشر حسن بهذه الصفات . لقيه الرجل لقاء باشا مهذبا ، وسأله :

— ماذا فعل الله بك ؟

— خيرا . جمعت مادة الرسالة كلها . وكتبت معظم فصولها بالانجليزية ، وبعضها بالعربية ، وقرأ الفصول الانجليزية بعض الاساتذة الانجليز .

— عظيم .

سكت الاستاذ برهة يفكر ، ثم قال :

— وما هو موضوع رسالتك ؟!

كان ذلك السؤال « دشا باردا » : كيف لا يعلم استاذ ، عين بقرار من مجلس الكلية ، بموضوع رسالة دكتوراه يشرف عليها ؟ لعله آخر من يعلم ! واجاب حسن بحماسة .

— موضوعها : القوى المعوقة للتقدم الاقتصادى فى مصر .

— ما هى القوى المعيقة ؟ انها كثيرة .

— ركزت على عائقين رئيسيين : الاستعمار والاستثمارات الاجنبية ، والاقطاع والراسمالية المحلية .

شحب وجه الاستاذ شحوبا شديدا . ذعر حسن . راى فى وجه الرجل صورة الاساتذة الانجليز — روبنز وبراون ومارتن — ثم برزت امامه صورة آرثر لويس . كانت صورته فى وجه الاستاذ المصرى اشد سوادا من صورة الاستاذ « الكاريبى » الاصلية ! وبعد هنيهة ، اجهد الاستاذ نفسه ليقول :

— من الذى وافق على تسجيلك لهذا الموضوع ؟

— الاستاذ الذى سبقك ؟

— من هو ؟

— الدكتور محسن مخلوف .

— كيف يقبل هذا الموضوع ؟

كان الاستاذ قد ترابط جاشه ، واخذ يتكلم باستاذية ، وبشجاعة اكبر :

— هذا الموضوع ، لا يصلح لرسالة الدكتوراه !

تذكر الاساتذة الانجليز . هؤلاء رفضوا الاشراف على الرسالة ، ولكنهم قبلوها علميا . رفضوها لانها تهاجم الاستعمار والراسمالية . وهم لا يقبلون هجوما على بريطانيا ، « ام الاستعمار » ، وموطن الراسمالية الاول . كانت الصدمة مروعة لفتانا . نتاجه الفكرى ، الذى سعد به ، أراد له أن يضرب فى جذور التخلف فى بلده . كدح علمى ، تساقط فيه ذهنه ، وجفت مآقيه ، خمس سنوات طوال .

تمالك نفسه . قال بصوت خائر ، هدته الصدمة :

— لكن يا استاذى . (لم يكن الرجل استاذه فى يوم من الايام !) . هذا العمل حصيلة خمسة اعوام من الكد والسهر ، وافق عليه الاستاذ المصرى السابق عليك . هذا الاستاذ علمنى وعلمك !

كان قد حصل بعد الليسانس ، على دبلومين عاليين فى مصر . وسجل رسالته للدكتوراه فى جامعة القاهرة ، ووافق الاستاذ عليها . وكأنه كان يتوقع المصاعب التى جابهته مع الاساتذة الانجليز .. واستمر فى الحديث :

— .. وعلى ضوء الموافقة جمعت المادة اللازمة لهذا الموضوع ، سنة فى مصر ، وثلاث سنوات فى انجلترا ، وقرا معظم فصول الرسالة معى أساتذة انجليز ، وافقوا على الموضوع وقدموا لى نصائحهم .

— ومن هم هؤلاء الاساتذة الانجليز ؟

— الدكتورة فيرا آنستى ، والاستاذ موريس دوب .

وما ان سمع اسم « دوب » حتى امتقع لونه مرة اخرى ، وقال :

— كيف اتصلت بموريس دوب ؟

— أليس استاذ الاقتصاد فى جامعة كامبردج ؟ قرات كتبه ، وجدت فيها علما يثرى موضوعى .

ورد الاستاذ ردا غير متوقع :

— من اجل هذا قلت لك ان الرسالة لا تصلح !

ادرك حسن هوية الشخص الذى يخاطبه . كان امامه طريقان : ان ينفجر فى وجهه ، او يصابره . وكأن حياته سلسلة من الصبر والمصابرة . الطريق الاول يرضيه رضاء لحظيا . هذا الرجل يمسك بمستقبله ، ومن ثم عيشه . تماما كالخواجة اليونانى فى الوسية ، والنائب العام فى وظائف النيابة .

انتصرت ، للأسف ، قوى التعقل ! خاطب الرجل خطابا رقيقا :

— انت عالم يا دكتور . وقبل ان تحكم على الموضوع ، ارجو لو تقراه بعقل العالم . هكذا فعل الاساتذة الغرباء . وانا اتقبل حكمك مهما كان .

لم يكن لديه خيار ، فى ان يقبل حكم الاستاذ ، او لا يقبله . الاستاذ هنا دكتاتور علمى . قوله هو القول الفصل . لاراد لقضائه ! يبدو ان النغمة الرقيقة ، والتركيز على « علمية » الاستاذ ، جعلته يتقبل الاقتراح :

— اين الفصول التى كتبتها ؟

— بالانجليزية ، ام بالعربية ؟

— الفصول العربية .

سلمه الفصول العربية . شكره ، وانصرف .

* * *

مضت اربعة شهور كاملة . حاول خلالها ان يتصل بالاستاذ فى الكلية ، وتليفونيا فى منزله . الاستاذ يماطل : « لم اقرأ بعد » . « مشغول » سأتصل بك عند انتهاء القراءة . اخيرا التقيا فى مكتبه .

كان فى عجلة . قلب الرسالة بأصابعه تقليبا سريعا . ذكرته حركة أصابعه بحسين الباشكاتب فى وسية الخواجة اليونانى ، فى اول يوم التحق فيه بالوسية . كان الباشكاتب يمسك بدفتر كتابة الانفار فى الحقل . يقلب صفحاته بطريقة زرية تماثل تقليب الاستاذ فى رسالته . الباشكاتب يقذف بالدفتر فى وجهه قائلا : اذهب واكتب الانفار فى الحقل . تماما كما القى الاستاذ بالرسالة . كان الاستاذ مهذبا القاها على منضدة المكتب بطريقة جارحة ! قال الاستاذ فى عجالة :

— لدى موعد آخر . كما قلت لك ، ان الرسالة لا تصلح ! يجب ان تكتب من جديد . تجمعت فى حلق حسن غصة . فاقت كل الغصص التى تعلقت بحلقه ، ابان حياته المأساوية . تكاد الغصة تزهق روحه . تخايلت له فكرة : يطلق الغصة فى شكل بصقة ، تغطى وجه هذا المخلوق ، وينقذ نفسه من هلاك محقق . وبينما كانت الفكرة تراوده ، قطعها ، اسوء الحظ ، صوت الاستاذ :

— .. وبصفة خاصة ، يجب ان تحذف حذفا ، الفصول الخاصة بالاستعمار ، وبالاقطاع وبالراسمالية !

لكن حذف هذه الفصول ، هو حذف للرسالة برمتها . الغريب ان هذه العبارة خففت عنه ! هذا هو مربط الفرس . الغصة تنزل الى مكان فسيح فى صدره . افسحت فى حلقه مكانا للتنفس . اجل موضوع البصقة ، لقد تسربت مادتها الاولية !

وقف الاستاذ قائلا :

— انصحك ان تستعين برسالتى وكتابى .

خرج الاستاذ من الغرفة . نطق بجملة قصد بها المصالحة :

— وستجد فى الكتابين صفحات متصلة بموضوعك . يمكن نقلها مـا هى !

واقفل الباب خلفه ، تاركا حسن « ينعى من بناه » .

أهذا هو العلم فى بلدنا ؟ صدق نجيب الريحانى . كان الريحانى يقصد بعبارته الجارحة ، وبالصوت المهين الذى صاحبها ، ان الدولة لا تعنى بالمعلم او الاستاذ ، ولا تكفل له حياة كريمة . اغلب الظن ، انه لم يرد فى ذهنهان المهانة تاتى من جانب المشتغلين بالعلم انفسهم .

ما الذى ارضع الرجل هذا الحب للاقطاع ؟ ما الذى زرع فى عروقه هذا الغرام بالراسمالية ؟ ان كلمة « الاستعمار » لا تثير مشاعره . على العكس ، هو ينافح عن الاستعمار بضراوة اكبر من ابنائه . الاساتذة الانجليز ، استمعوا على الاقل لوجهة نظره . اللورد روبنز — وهو من اساطين الفكر الراسمالى — استمع اليه ، وذكر له مراجع تعاونه على فهم نظرية الاستعمار . اذا كان الاستاذ الحداد ، لم يقرا شيئا عن الاستعمار ، الم ير الرصاص يحصد زملاءه من الشباب ، الذين تظاهروا ضد الاستعمار ، وهتفوا باستقلال مصر ؟ قطعا انه لم يره ، ولم يسمع ازيزه . امثاله يقبعون فى الجحور ، ابان الحركات الوطنية . الم يقرا ، ولو فى جريدة يومية ، ان بلدنا مزرعة كبرى ، تنتج القطن وغيره من الخيرات ، لتصدر الى انجلترا رخيصة . ويحرم منها الشعب الذى انتجها . الم يسمع عن الاستعمار يجدد نفسه بغزو بورسعيد ، واغتصاب القناة وايراداتها مرة أخرى ؟

المذهل ، ان هذا الشخص ، ليس غنيا ، او راسماليا ! من اين جاءه هذا الغرام بالراسمالية ؟ اتولد الراسمالية مع الطفل يوم مولده ؟ هل صيحة الطفل ، يوم نزوله الى هذه الدنيا ، صيحة خوف أم تخويف ؟ ايخاف الطفل من النظام الراسمالى ، ومن غابته التى يفترس فيها القوى الضعيف ؟ أم ان صيحة الطفل تخويف ؟ تعلن ان الاطفال القادمين لن يسمحوا بنظام تستغل فيه قلة من الاطفال اطفال العالم جميعا . ام ان

الصيحة ، صيحة « طرزانية » ، ينضم الطفل فيها الى ملوك الغابة ؟ من اى لون كانت صيحة الاستاذ ، حين ولدته امه ؟

وعاودت فتانا اللوثة القديمة : عندما اعتقل فى عام ١٩٤٩ ، ورأى هوان الانســان فى السراديب السفلية ، وشاهد زميليه ســالم وعونى ، يشوه التعذيب جسميهما ، خرج من المعتقل منفســخ الروح . تمثل لــه الانسان حيوانا بربريا ، ضاربا كان او مضروبا .

بربرية الضارب ، الناهش للحم الانسانى ، كانت واضحة . كان الوحش فيه هو الذى يفتك بالضــحية . بدائية المضروب تمثلت امامه فى آدمية شائهة ، مفتوءة العينين ، مجزورة الرقبة ، مطحونة العظام .

غادر المعتقل ، وذهب يستذكر دروسه . امتحان الليسانس قريب . وجد الكتب القانونية تشرع للجــوع ، وتفقه للظلم . تحرس ملكية ملاك الوسية . تقدس استغلالهم للعاملين فى وساياهم . التعليم اذن ، فى هذا المجتمع ، لا خير فيه . انتابته لوثة . قذف بالكتب . قرر الا يقراها ، والا يكمل دراسته ، لولا ان انقذه صديقه اسماعيل زعزوع .

هذه هى اللوثة تعود اليه . مرارتها اشد . القهر يأتى هذه المرة من القائمين على العلم . اخذته الصدمة الى تســاؤله القديم : هل لابد لاسهامه فى تحرير شعب مصر من القوى المستغلة القاهرة ، ان يصــبح دكتورا ؟ الاجابة واضحة . الدكتوراه لا اهمية لها فى المعــركة . التعليم الذى كان حلم يومه وغده ، اصبح كابوسا . اليس الاستاذ الدكتور الحداد على قمة التعليم فى بلده ؟

انب نفسه تأنيبا شديدا : كيف يترك هــذا الرجل يفلت من يديه . الصدمة احدثت عنده شللا . فتح الباب . انطلق خلف الاستاذ . اراد اللحاق به . رغب فى تصفية حسابه معه ، على مرأى من طلاب الجامعة ،

واساتذتها ، وفراشيها . لسوء حظه ، ولحسن حظ الاستاذ ، كان قــد غادر الكلية .

عاد الى مكتب الاستاذ . كان قد ترك الرسالة فيه : حملها بين يديه ، كطفل عزيز عليه . انفق خمس سنوات لتربيته ، والحدب عليه . ولده فى انجلترا . جاء به فرحا لوطنه ، ليسهم فى انارة طريقه الى التنمية . وئد طفله الحبيب بين يديه . العلم والسهر والكد ، الذى انفق فيه ، يذهب هباء . ماذا يصــنع بوليده ؟ اين يذهب به ؟ اغتيــل فى محــراب العلم البرجوازى . اين يدفنه ؟ ايقطعه ؟ انه جزء منه . كيف يقطع ذاته ؟

لم يذرف على وليده دمعة واحدة . كانت مآقيه جدبة . تفتق ذهنه المكلوم عن فكرة . وجد لوليده مضجعا لينا . وضعه فى صندوق «الزبالة» . كان الصندوق أمام غرفة الاستاذ . لعل « الزبالين » يقرأونه . فيسهم فى زيادة وعيهم ، وفى هذه الحالة يمكن للوليد ان يبلغ رسالته . « الزبالون » من الجماهير . وهو كتب الرسالة لتنوير الجماهير بمستغليهم ، وبالقوى الخارجية والداخلية التى تعوقهم عن التقدم . لهذا سيكونون اكثر حنوا على الوليد . قد يترعرع فى أوساطهم . ويسرى من تلــك الاوســاط الى النهر الجماهيرى العريض . هنالك يكون الوليد قد وجد بيئة صالحة .

ذهب الى الشقة التى استأجرها مع صــديق له . لم ينم . طفق يفكر فى مصيره ومصير وليده . مصيره مشوش . لم يعد للدكتوراه بريقا . ليست سلاحا للنضال من اجل الانسان فى مصر . اثرها قد يكون عكسيا . ربما تولد فى الانسان شعورا « نخبويا » ، يعزله عن الجماهير . فيصبح مغتربا عنها . يتطلع الى مزايا ليست متاحة لها . لكن الرســالة الوليدة تهمه . نتاج فكرى يسعد به . يتمنى لو نما بين النــاس ، وادى دورا فى المعركة ضد التخلف . الكرى لم يداعب جفونه . احس بصــحوة عقلية : ما الذى دهاك لتضع الرسالة فى صندوق الزبالة ؟

فى الصباح الباكر ذهب الى الكلية . فتح صندوق القمامة . لا شىء فيه .. اسف بعض الشىء . تخلص من الاسف . الزبالون لديهم قدرة على الانتقاء . يصنفون الزبالة تصنيفا علميا . بقايا المأكولات ، يقذف بها الشباعى ، مختلطة فى فوضى . الزبالون الجوعى يفصلون بنود هذه البقايا بندا بندا . يريدون ان ينعموا بأكلات مرتبه « محترمة » ! ثم يحلون ببقايا الفاكهة ، او بقشورها .

يعزلون ايضا الاوراق القذرة من النظيفة ، والمقطعة من الصحيحة . لكى يبيعوها للمحلات ، لتلف فيها السلع التى تباع للناس . لامراء فى ان الرسالة الانيقة المكتوبة بالالة الكاتبة ، التى تضم ستمائة صفحة ، سوف تلقى معاملة خاصة . انهم سيقرأونها . جوعهم ليس جوعا جوفيا فحسب ، ولكنه جوع عقلى كذلك .

* * *

عزل نفسه عن العالم . قبع فى البيت لا يغادره . كان زميله فى المسكن ، من ابناء « الذوات » السابقين . الدنيا لديه امراة « وبدلة » وسيارة . راى حسن مغبرالوجه . سارع لنجدته . لكن حسن طلب منه ان يتركه . خرج من البيت ولم يعد .

حينما تتراكم المصائب على المرء ، فانها تتنزل عليه ركاما كالجبال ، وتساقط عليه كسفا من السماء . لم تكتب له برندا منذ مدة . ماذا جرى ؟ حتى انت يا برندا !كم اتوق لكلمة منك تواسينى . اين عيناك السماويتان ، تخففان اشجانى ؟ بسماتك انشفيفة ، كان يمكن ان تشفينى . كانت خطابات صديقته ، اذا ما انسابت فى مواعيدها ، يبيض معها الليل . واذا انحسرت ، يسود معها النهار . ملهمة العقل ، ومنعشة القلب ، ليست معه تشد من ازره ، وتجمل له الحياة .

المعاناة التى تعصف به هذه المرة عاتية . كانت معاناته من الجوع ، وهو تلميذ فى المدرسة الثانوية ، معقولة . كان يتعامل معها ، بسرقة الخبز ، او بقاياه من مطعم المدرسة . لكن كيف يسرق العلم . واله العلم يقول له : « رسالتك لا تصلح » . كيف يسرق الحب ، وآلهته بعيدة . تختفى فى سماوات لندن .

وبينما كان يجتر معاناته ، دق جرس الباب . ذهب ليفتح الباب . فوجىء بصديقة تأتى لزيارته لاول مرة .

ــ اهلا يا نواعم .

ــ اهلا بك .

قادها الى الصالة . يوجد فيها ثلاثة كراسى خشبية . تمثل قاعة الجلوس . سألها .

ــ كيف عرفت العنوان ؟

ــ هذه اسرار ، يا دكتور !

ــ شرفت .

ــ اهكذا تنسانا ، ولا تزورنا ؟ عودتنا ، وعودت اصدقاءك ومعارفك على التواصل . ماذا جرى لك ؟

ــ امور كثيرة . لاداعى للخوض فيها .

كانت نواعم من اسرة فقيرة . حديثة العهد بالزواج . قطعة من الجمال البلدى الفائر : الارداف النائتة . الجسد الشرقى المدملج . السيقان الملفوفة ، كاقماع السكر . مقياس الجمال والانوثة عند المصريين . كان حسن حديث التخرج فى السادسة والعشرين ، عندما رآها ، خاما لم يقرب النساء . صراعه الاجتماعى المرير ، واستغراقه فى دراسته ، حالا دون أن يقتحم ميدان النساء . اشتهاها . ومالت اليه . لكنه تأبى العلاقة معها . كانت متزوجة . لا يريد الاعتداء على حق احد .

لكنها الآن مطلقة . لم يعد لاحد حق عليها . ها هى تاتى اليك طائعة . لكننى احب براندا . لا اريد ان اشوه هذا الحب . اصبح لبراندا حق على . لكنك لم تتزوجها بعد . ولو ، العهد فى القلب ، وهو عليه ضنين .

وجدت نواعم الا فائدة فى الكلام . قامت ، وشمرت عن ساعديها وساقيها . تجلى مافيهما من انوثة واغراء . نظفت البيت ، ورتبته . كانت فى غدوها ورواحها ، يغدو معها الجنس ويروح . خصر نحيل . ارداف ثقال . تتراعش حينما تمشى . تصعد ، وتدور حينما تنثنى .

كان حسن مكسورا . مشروخ القلب والعقل . كيف ينعم بالجنس دون عقل وقلب ؟ منظر نواعم زاد من تمزقه . غادر الصالة ليذهب الى السرير ، كان جسده منحلا ، انحلال روحه . اراد ان يوفر على نواعم الجهد المشكور ، والعرض المثير ! قال لها :

— ساذهب الى السرير ، لاننى متعب .

وردت عليه :

— هل تريدنى ان ارحل ؟

— لا انت تؤنسينى . لكننى منهوك . ارجو أن تسمحى لى بالتمدد على السرير .

— تفضل .

بعد أن انتهت من مهمتها ، جاءت اليه . جلست على كرسى بعيدا عنه . دار بينهما حديث عادى . تململت على الكرسى . جاءت لتجلس بجواره على السرير . كانت ودودة . لو جاءت فى وقت مختلف ، لكان له معها شأن آخر . لكنها جاءت ، والصدمة تمور فى داخله . لا يستطيع ان يستجيب لما فى عينيها . ولا لما يختلج به جسدها . تلطف معها بالقول . سألها عن أحوالها . حالها ليست أحسن من حاله . حينما بدأت تعرض

عليه أمورها ، اختفت ، فى الحال ، النظرة الناعسة . فرت الغريزة والجنس من الجسد الفائر !

عادت اليه بعد يومين . جاءت نابضة بالحياة . فواحة بالانوثة والمودة . فاجأته بسلة ملأى باللحم ، والخضار ، والفاكهة ، والسمن ، والبصل . ستعد له « غدوة » لاحظت فى المرة السابقة الا شىء يؤكل .

اخذت تعد الطعام . ذهب حسن الى سريره . الازمة مازالت تجرش كيانه . كان يمكن ان يفلسف صدمته مع الاستاذ . اصبحت النماذج من هذا النوع مالوفة لديه . لكن تزامن هذه اللطمة ، مع لطمة انقطاع رسائل الحبيبة ، اوهن من مقاومته .

فكر فى نواعم ، وهى فى المطبخ . تجهد نفسها لارضائه . تعرض عليه انوثتها . تدخل فى وحدته القاتلة ، عنصرا جماليا ! كيف يرضيها ؟ جسده انتزع منه أغلى ما فيه : العقل والقلب . كيف يستمتع ويمتع ، وهو مسلوب من اسلحة الحب والجنس ؟ نواعم ، نموذج جمالى ، يتسق ومزاجه الانتقائى .

وبرندا ؟ هل يمكن ان يكون لدى الكسير المكلوم وفاء ؟ اجتث عقله وقلبه . ينبوعا الجمال والوفاء فى الانسان . كيف يمكن ان يستمسك بالقيم العليا ؟ ادوات التمسك بها خربت .

اهلت الانثى المثيرة . تحمل الطعام الشهى . كانت طباخة ماهرة . نعم معها بوجبة لذيذة لم يذقها منذ عهد طويل . انتعشت أعضاء جسده . نواعم ، ترتدى قميص البيت « الخفيف » يبرز ما كان الفستان يخفيه .

وبعد ان انتهيا من الوجبة ، قدمت له « الحلو » . اكل الحلو بنهم شديد . شاركته فيه بنهم اشد . كان الحلو خليطا غنيا : « الجلى » ، الموز الافريقى الكبير ، التفاح ، القشدة ! « الجلى » مصنوع من الفراولة . غرس

فيه ملعقته . تذوقه ، سكره خفيف « على الريحة » . غاص عميقا . قد يكون السكر مترسبا فى القاع . وجده « سكر مظبوط » . لم يبلغ مذاق « السكر الزيادة » . كان غياب العقل والقلب ، قد استل جانبا كبيرا مما فى الحلو من سـسكر !

الانعزال فى البيت ، ليس سلاحا من اسلحة هذا المكافح . عانى ضربات قاصمات فى حياته من قبل . لماذا يعتبر هذه الضربة الاخيرة ، اقسى الضربات جميعا ؟ الانه لم يتوقعها ؟ . الانه جاء الى بلده بقلب مفتوح ، يود ان يسهم فى كفاحه ضد التخلف ، ثم يصدم فى اعز ما انتج فكره ، وتقرحت من اجله عيناه ؟ ما هذا التناقض فى مجتمعه ؟ ايمكن ان يناضل الشعب الاستعمار على مدى التاريخ . ويقاتله فى معركة مازالت ساخنة فى القناة . وينزع الارض من الاقطاعيين . ويعطيها للفلاحين . ثم يأتى اسـتاذ ينافح عن الاستعمار والاقطاع . ويتنكر لمشاعر الناس فى بلاده ؟

مهما كان الامر ، فقد وصل الى حل : الدكتوراة لم تعـد تهمـه . « الدكاترة » لن يحرروا مصر . ستحررها جماهير واعية . وحتى اذا الحت عليه الدكتوراة لاتمامها ، لانه بذل فيها جهودا مضنية ، فليس من العسير ان يعيد كتابتها . ستأخذ منه سنة اخرى ، ليس للسنين لديه حسـاب . ضاعت سنين عندما طرد من المدرسة الثانوية . لا بأس ان تضيع سنين اخرى ، من اجل الدكتوراة .

تعود دائما ان يستشير زملاءه فى قضاياه . قفز الى ذهنه عبد المجيد . انه الآن مدرس بكلية التجارة . لقيه عبد المجيد بابتسامته الشهيرة ، وبشوق واضح . سأله :

ـــ متى عدت يا ابا على ، وماذا فعل الله بك ؟

ـــ فعل الله بى خيرا . وفعل البعض بى شرا .

ـــ الى متى سيظل الشر يلاحقك ؟

ـــ الى ان نقضى عليـه .

ـــ هل هو الحب مرة اخرى ؟

ـــ انت رائق دائمـا .

ـــ اليس هـذا اسلوبك ؟

ـــ لكننا عدنا الى مصر ، والتنغيص هو القاعدة .

ـــ الم ينغصوك فى لندن ؟

ـــ بـلى .

ـــ هذا ما انت فالح فيه « البـلا » !

روى له حسن ، ما حدث مع الاسـتاذ ، الذى عين للاشراف على الرسالة . استاء عبد المجيد :

ـــ كيف ذلك ؟ اليس له ضمير ؟ وماذا فعلت ؟

ـــ جئت اليك يا عبد المعين ! .... هذا الشخص يكره كراهية شديدة، ان تذكر امامه كلمات : الشعب ـــ الفلاحون ـــ العمال ـــ الفقراء .... يزعجه كثيرا ان تمس الراسمالية من بعيـد أو قريب . يفزعه ان تهاجم الاستعمار . هل هو غنى ؟

حك عبد المجيد صلعته . هم بالكلام . تردد ، ثم تكلم :

ـــ الم تلاحظ ان اسم الرجل : سيد الحداد .

ـــ اجـل .

ـــ انت شاطر فقط فى اجل وبلى ؟ ! ... ابوه حداد فعلا . مهمته ان يطرق الفئوس والمحاريث التى يستخدمها الفلاحون فى الحقول . ثم نزح الى المدينة . وفتح ورشة حدادة . يطرق فيها صفائح القمامة ، وسنابك الخيل !

ـ لكن الحدادة عمل يدوى شريف . وعمله فى طرق الفئوس والمحاريث عمل منتج .

ـ اتريد ان تتفلسف ، أم تريد ان ازودك بمعلومات عن هذا الرجل ؟

ـ اذن فهو ليس راسماليا ، ولا ارستقراطيا . لماذا هـذا الحب للراسمالية ؟ وهذا الكره للجماهير الشعبية . ؟

ـ هذه هى قصة ابيه . اما قصته هو ، فهو متزوج من بنت احـد الباشوات !

ـ من هـو ؟

ـ لا . هذه معلومات نادرة . ثمنها كبير . انما لانك « أبو على » ، سأمنحها لك مجانا . هو صهر مرزوق باشا الدمنهورى .

ـ لكن هذا الرجل كان « بوستجيا » .

ـ لا يهم كثيرا أن يكون الشخص بوستجيا ، أو جزمجيا . من الممكن ان يرقوا الى مدارج الباشوية ، اذا تطلبت مصلحة النظام ذلك .

ـ الدكتور اذن ، انضم الى الطبقة المستغلة . وتحرر من حـرفة الحدادة . نسى أن الرجل الذى رباه ، وعلمه ، جاء من الفلاحين .

ـ بدأت الآن تستخلص المعانى التى تسعدك ، بعد ان امددتك بالمعلومات .

ـ انت ينبوع للمعلومات والاحصاءات .

تبدى الشعاع الذكى ، الذى ينساب من عينى عبد المجيد ، وخاصة حينما يضيف الى الحوار جديدا :

ـ وفى اعتقادى ان هناك سببا آخر قويا ، لرفضه لرسالتك . لقـد درس للدكتوراة فى لندن . قدم رسالته للجنة المناقشة . رفضتها . اعادتها اليه ليكتبها من جديد .

ـ تماما ، كما صنع معى . لكن لماذا فعل ذلك ؟ أهى عملية انتقام ؟ لكننى لم أسبب له ضررا .

تمطى عبد المجيد فى كرسيه الخشبى ، الذى يشبه الكراسى فى انقهاوى البلدى ، فقد كان مدرسا مستجدا بالكلية . وأجاب ممتعضا من الكرسى !

ـ يجب ان تدرس علم النفس . الانسان مخلوق غريب . قد يكون ذلك انتقاما منك . ينتقم منك لنفسه ، ولو لم تسىء اليه . لماذا يرفضون رسالته فى لندن ، ولا ترفض رسالتك انت كذلك ؟ اضطروه أن يدرس سنة اخرى كاملة ، ليعيد كتابة رسالته . ان نفسية بعض الناس معقدة . تفح سما زعافا . وأؤكد لك انه سعيد ، اذ يتحكم فيك كما تحكموا فيه من قبل .

ـ هل يمكن ان تكون نفسية استاذ يعلم الاجيال مريضة لهذه الدرجة ؟!

ـ لم لا . وما الاستاذ ؟ انه نتاج بيئة معينة ، تنعكس عليه كل موبقـاتها .

ـ النفوس لا تنضح بمثل هذا القذى ، الا فى المجتمع الفردى الذى يفترس فيه الانسان أخاه الانسان . اليس فرويد ، ومدرسته فى التحليل النفسى ، من اشرس المدارس ابرازا لفردية الانسان ؟ وبهذا تعتبر اصلا فلسفيا من اصول النظام الراسمالى .

ـ انت انتهازى ! تفيد من تحليلى لتهاجم النظام الراسمالى . وانا الآن احلل لك مصيبتك فحسب !

هذا التحليل ، الذى امده به عبد المجيد ، خفف جانبا من ازمته . لم يشأ ان يتناول الجانب الآخر ـ جانب القلب . كان عبد المجيد فى لندن . معارضا للزواج من برندا . لا يريد ان يشكوها اليه . سوف يذكره بوجهة نظره . وهو صعيدى سيثأر منه ، لانه لم يستمع لكلامه !

اسهم عبد المجيد ونواعم فى تفتيت الازمة ، كل حسب قدراته ! تيقن حسن ان الانسان مهما كان صلبا ، فهو فى حاجة الى الجمـاعة . ودون

الجماعة مصيره التفسخ والهلاك . تكشف حسن مرة اخرى ، ان سيد الحداد ، نمط التقى به من قبل . « انكور » الذى كان ابوه ينفخ النار به ، شوه أصابع الاب . شرر النار غشى بصره ، واحرق جلده . لكن النار لم تطهر ضمير الابن ووجدانه . لم تجعله ينتصر للحدادين والفلاحين والعمال . النار التى شوت وجه الاب ويديه ، شوهت عقل الابن ، ومسخت تطلعاته . احرقت الانسان فيه . لا يهمه ان تستغل الجماهير الذين نشأ أبوه بينهم .

اخذ حسن يتخفف من الصدمة العلمية . لكن مضى شهران طويلان دون خطاب من صديقته . كانت تكتب كل اسبوع . معركته مع الاستاذ معركة مباشرة . يراه ، ويعانى من سخائمه . لكن موضوع الحب ليس فى متناول يده . هى بعيدة كأنها فكوكب آخر . جراح القلب لا يدخل علاجها فى اختصاصه . الكفاح ضد النازلات الاجتماعية امر سهل . الموضوع الذى يمكن للعقل أن يسهم فيه ، يمكن حله . اما الحب فله طرفان — لا يمكن لطرف واحد أن يقضى فيه .

* * *

انصاع حسن لراى الدكتور الدكتاتور ! افترض ان الجامعة وسية علمية ، كما كانت عندما كان طالبا فى كلية الحقوق . كانت الوسية العلمية ، حينئذ ، فيها عميد مترف ، متفاهم تماما مع حرس الوسية السرى . وفيها فراشون ، يرقص احدهم فرحا بنصف قرش ، أعطته الدولة له علاوة ! يضاف الى المابة وخمسين قرشا ، مرتبه الشهرى . المرتب الذى يعول به خمسة عشر فردا !

الدكتور الحداد ، أضاف الى الوسية العلمية بعدا جديدا : فاشية العلم ! يسيطر على المجال العلمى سيطرة كاملة . يملك قسم الاقتصاد بالكلية وكأنه ملكية خاصة . يتصرف فيه ، وفى الرعايا ، الذين يتعلمون

به ، كما يتصرف فى أملاكه ، ورقيقه . تماما كالخواجة الاقطاعى صاحب الوسية . بل ان الخواجة كان رفيقا بكلابه وخيوله . يطعمها الحمام ، والسكر . لكن سوء حظ الاستاذ أنه لم يكن فى وسيته حيوانات . كانوا كلهم بشرا !

على ان ابشع ما فى ملكية هذا الرجل فاشيته . هذه هى الصفة التى يضيفها الى ملامح الوسية . لا معقب على حكمه ، ولا راد لقضائه . كان حسن يعتقد ان العلم لاينمو الا فى جو من الحرية والديمقراطية . كيف يمكن للباحث العلمى ان يفكر وينتج . ويعطى قطعا من قريحته تسهم فى تقدم مجتمعه ، ويشترك فى خلق مجتمع افضل . كيف يمكنه ذلك ، والقهر يسحقه. وسيف الدكتاتور العلمى مسلط على عنقه ؟ وتساءل : هل هذه الفاشية العلمية ، تراث جامعى ، أم انها ظاهرة جديدة ؟ هل هذا التدهور العلمى الذى يلحظه ، اثر من آثار ذلك القهر ؟ لقد شاهد من قبل اساتذة احرارا وديمقراطيين فى جامعة الاسكندرية . وشهد اساتذة انجليزا احرارا فى انجلترا، بعضهم رفض الاشراف على رسالته . ولكنهم حاوروه فى ديمقراطية .

انصاع حسن الى راى الدكتاتور . وبدا يعيد كتابة الرسالة . قدم له خطة جديدة . مضى الى ابعد من هذا . اختار عنوانا للرسالة لا يثيره : « دور رؤوس الاموال الاجنبية فى الدول المتخلفة — مع دراسة خاصة بمصر »! كان اختيارا ذكيا .

لم يرد لجهوده أن تذهب هباء . تفتق ذهنه عن هذا الحل « السعيد » : يمكننى أن اكتب افكارى بأسلوب آخر ، وتحت عناوين اخرى ! فما هو الاستعمار ، على اية حال ؟ شركات أجنبية ، تعمل فى الدول المتخلفة . تختار هى النشاط ، بحكم قدرتها الاقتصادية والسياسية .تستغل المواد الاولية فى تلك البلاد . تصدرها الى بلادها . تغذى المستهلكين هناك بسلع زهيدة الثمن . تمد الصناعة بمواد اولية رخيصة ، تؤدى الى ازدهارها . تستنزف

موارد المستعمرة ، وتعمق من تخلفها . تصدر للدول الفقيرة سلعا مصنوعة غالية . ترهق المستهلكين الفقراء . توئد صناعاتهم . تغيير عنوان الرسالة اذن ، لا ينال من الموضوع ،الذى أريد أن أوصله للناس .

الاقطاع ، أو الملكية الكبيرة للارض ، والراسمالية المحلية ، حليفان لتلك الشركات . يمكن ان توجد صياغة لهما ، لا تهيج هذا الاستاذ ، الذى يذكرنى بالثيران الاسبانية ، تهيجها الراية الحمراء ! التى يحملها مصارعو الثيران !

كتب خطة الرسالة ، طبقا لهذا المنهج . فرح بها الاستاذ . بلع الطعم . لم يقرأ فى عناوينها كلمات : « الاستعمار ، والاقطاع ، والراسمالية » !

على الرغم من سعادة حسن بهذا الحل ، الا ان التلاعب فى الصياغات العملية يقلل من جمالها . شعر بأن أى قيد على العلم يشوه جوهره ، ويمسخ نتائجه . ومع ذلك حاول . كانت محاولة شاقة . عانى خلالها عناء بالغا . عناء يقتحم اغلى ما لديه : عقله ، واشرف ما يملكه : وجدانه . ..

افلح فى أن يبقى على عقله ، أن يتمزق . نجح فى الصياغة الجديدة الى حد ما : الموارد الاقتصادية التى تمتلكها الطبقة الراسمالية . والتبذير الذى تتعرض له . وحرمان الاقتصاد المتخلف من استخدامها فى تصنيعه . وضع هذه المسائل تحت بند : « موارد الاقتصاد القومى ، ومدخراته الضائعة » !

كان عليه ، ان يصيغ العلم صياغة دبلوماسية ! تعيس ذلك العلم ، اذ يخضع للمساومات ! كان الاستاذ قد اشار عليه ان يفيد من الكتاب الذى وضعه فى التجارة الخارجية . الرجل فردى . يعشق ذاته . يعتبر أن مؤلفه هذا ، لا يعادله مرجع لا فى مصر ولا خارجها . والحق انه مفيد . لكنه كتب لطلاب السنة الثانية ، فى مرحلة الليسانس . وليس مرجعا لدراسة الدكتوراه . يعرض للتجارة فى الفكر الراسمالى فحسب . تنطبق نظرياته

— اذا انطبقت على الاطلاق — بين الدول الصناعية المتقدمة . ولا قيمة لها فى العلاقة بين الاقتصاد المتقدم والمتخلف .

قبل ان يرضى غرور الاستاذ . العاشقون لذواتهم ، يمكن استغلالهم ، والضحك على ذقونهم بسهولة ! كلمة تقال اطراء لهم ، أو جملة تقتبس من كتبهم ، تفرحهم ، وتنفخ فى أوداجهم . لا بأس من استخدام هـذا السلاح . كان عليه ان يستخدم أسلحة كثيرة ، شديدة التنوع ، للتعامل مع الانماط البشرية فى مجتمع الوسية . تقبل الاستاذ هذا الاسلوب . كان سعيدا به . قال عنه : هكذا العلم !

على أن حسن لم يستطع ان يسيطر تماما على هذا الاسلوب . اظهر كيف خربت الاستثمارات الاجنبية البلاد المتخلفة . وكيف عمقت تخلفهـا وافلست مصر بسببها ، واعتدى على سيادتها . كان التحليل قويا ، مدعما بالارقام . تململ الاستاذ وهو يقرأ . لحسن الحظ ، لم يرفض هذه الفصول .

وهكذا قاست الرسالة مخاضا طويلا منهكا .

* * *

— ١٦ —

اعدت له مضجعا قمريا . كانت تسكن حيا شعبيا . تفوح منه نكهة مصر . حاراته ضيقة ، متربة احيانا ، زلقة احيانا اخرى . مبانيه شائبة . تنخر فيها الرطوبة والبلى .ظلمة تخترق سجفها فى رفق اشـعة القمر . مستوى اجتماعى ، يرين على شعب طال صبره . وطال استعداده لمعركة التحرر . كان الجو كله ، بروائحه ، وظلمته وقمره ، ومستواه ، مثيرا : مثيرا للشعر حينما يرى القمر ، ومثيرا للاسى ، والامل ، حين يفكر فى المستوى الاجتماعى .

كانت نواعم تسكن اعلى البيت ، فى « السطوح » . ومع ذلك ، لم تكن من « الجماعة اللى فوق » ، مع أنها فوقهم ! اتفقت معه على ان يأتى فى وقت ، يكون الحى الشعبى قد هجع الى أوكاره . السطوح محاطة بسور مرتفع . له باب خاص ، تركته له مفتوحا ، حتى لا يقرعه ، ويهتك الصمت . مر من الباب كالنسمة . اغلقه خلفه ، فى الركن البعيد من « السطوح » شاهد مضجعا ، يتلألأ فى ضوء القمر . استقبلته مضطجعة . تعودت ان تستقبله بالوقوف ، والاحترام . لكنها ترحب به الآن بطريقة اكثر احتراما ! كانت مستلقية على الفراش ، كما استلقت من قبلها أمها حواء . تتدثر بغلالة، مغزولة من شعاعات القمر . لاول مرة يرى ثوبا قمريا ، تلبسه انثى بشرية ! حينما يمتزج لجين القمر بلجين الجسد الانثوى ، تمتزج السماء بالارض . ويصعد البشر الى السماء . وتهبط الملائكة الى الارض !

هذا الملاك المتدثر بفضة القمر ، كان بشريا صارخا . لم يات من الفردوس ، كما اتت حواء . لم تخصف على جسدها ورقا . المشهد لاول وهلة ، مذهل . هو ذواقة الفنون الجميلة . لكنه لم ير فى متاحف الفن التى زارها ، على عرض أوربا كلها ، لوحة بهذه الروعة . ولا تمثالا بهذا التكوين . ولا مزجا للالوان بمثل هذه القدرة . كيف يمكن لفتاة تكاد تكون امية ، أن تحظى بهذا الخيال ، وبهذه الموهبة الفنية المعجزة ؟ !

كان كلما اقترب منها ، يتسربل بشعاعات القمر ، دون ان يدرى ! وقف يتأملها . تركته . ارادت لعينيه أن تغزوا جسدها ، قبل ان يغزوها . تحركت لتدارى بساقها — فى حياء ! — ما كشف عنه القمر . لاحظت انه يرتدى هو ايضا حلةقمرية . كانت حلة عنبرية ! امتزج العنبر بالفضة . انارت الشعاعات الحانية له دربه . دربه الودود المضياف . جدرانه فرشت بالطنافس والحشايا . وضمخت بالمسك . جاس خلال الحشايا ، ليشق طريقه الى الخلود .

نهضت نواعم ، يغسل جسدها نور القمر . تود أن تتخمه . تعلم انه قضى عمره جائعا . تعرف حياته الشاقة . كانت خبيرة فنانة . دعته الى دنياها ، ودنيا الناس كلها . استجاب كسير العقل والقلب ، استجابة آلية . ظلت تثابر معه . بدأت ارادته تشترك ، واعصابه تنتفض وتتدغدغ .

اصرت على أن تظل مرتدية قميص القمر . احضرت الطعام . اكل اكلا لما . ذهب الى الحمام . خرج منه كما دخله ! استلقى على الحشايا . جاءت بالراديو . كان القمر بدرا . الاذاعة المصرية تتعاون مع العشاق فى الليالى القمرية ! تهيىء لهم جوا شاعريا . أم كلثوم تغنى : « هلت ليالى القمر » ! وعلى الصوت الذهبى ، واشعة القمر الفضية ، والورد المتفجر من نهديها ، عاش الليل كله . وقال للشمس « تعال بعد سنة » ! سلم نفسه لها ، تصنع به ما تريد . وجد نفسه فى ايد فنانة امينة !

* * *

ذهب الى بيته . نام كالابل ، حتى انتصف النهار . هل يمكن فصل الجسد عن القلب ؟ يحب فتاة بكل جوارحه ، ويميل الى اخرى بجسده ! ان حبه لبرندا ، لم تنل منه هذه المتعة ، التى يشيب لها الولدان . الذكريات تضغط عليه . القلب يرف . يحوم حول حبه . لا يبغى له بديلا . الخطابات منقطعة . مازال يكتبكليوم . زميله على حسن ، يدرس الدكتوراه فى الادب بلندن . جاء فى اجازة الى مصر . حدثه عن ازمته . تطوع على بحمل رسالة اليها ، وان ينقل لها صورة حية عن حاله :

— انا واثق انها ستكتب ، قد يكون لديها اعذار لا نعرفها .

تعلق بزميله على ، كانه يتعلق بقشة تتخبط بين الامواج . كتب الخطاب بقطرات من قلبه . قال لها : أنه مصمم على العهد الذى قطعه . وانه ما كان يدرى أن نوعها العالى من بنى الانسان ، يمكن ان يكون قاسى

القلب الى درجة القتل ، وان رسالته تتعثر .كيف يواجه آلهة العلم الفاشية بقلب محطم ، وعقل مبعثر ؟

سافر على . ذهب لزيارتها . سلمها خطابه . قص عليها ما راى وســـمع .

جاء خطاب من على . احيا فيه الامل الميت قال له :

— لقد تاثرت كثيرا بالصورة التى نقلتها اليها . واسفت غاية الاسف على تقصيرها . وستكتب لك حالا . وبعد اسبوع من خطاب على ، جاء خطابها . ساعى البريد ، الذى ارهقه يوميا بسؤاله ، عرف خطها . جاءه بالخطاب بنفسه . قبل ان يفتحه نفحه جنيها .

« أعز أعزائى حسن »

وجف قلبه « أعز اعزائى حسن » ؟ ! هذه عبارة ، تصور درجة ادنى من العلاقة . كانت دائما تخاطبه « حبيبى حسن » . هؤلاء الناس صرحاء . لا يجاملون ، ولا يكذبون . القطيعة اذن حقيقية ومقصودة . حدث تحول فى شعورها نحوه . هوى من « حبيب » الى « أعز عزيز » . وسينتهى الى « عزيز » فحسب ، ككل الاعزاء .

اظلمت الدنيا . لكنه استطاع بصعوبة ان يقرا الخطاب :

انا آسفة اذ انقطع عن الكتابة كل هذه المدة . كنت فى حال بائسة ، لا تقل عن حالك . عندما عدت الى القاهرة ، هبت على رياح هوج . والدى ، انت تعلم شعوره ضد عبد الناصر . فهو محافظ ، يعتقد ان عبد الناصر يفترس أموال الانجليز . ويصادر ملكياتهم ، ويؤممها . وانت تعرف كراهية المحافظين للتاميم . فهم اصل الراسمالية فى انجلترا . ويقول ان عبد الناصر والمصريين من خلفه ، يكرهون الاجانب . ويطردونهم من مصر ، ويعاملونهم بوحشــية .

وقد اشتركت الجرائد المحافظة هنا فى تشويه سمعة مصر ، وعبد الناصر ، لدى الرأى العام الانجليزى .

ومن ناحية اخرى ، ابوى ، تقدم بهما العمر . وانا وحيدتهما ، ولا يودان أن يفترقا عنى . هذا شعور انسانى ، لا استطيع اغفاله . وصديقاتى ، لم يتحمسن لسفرى لمصر ، وزواجى منك . فهم يحبوننى واحبهم . ودراسة الفنون التى تعتبر انت ملهمها ، عزيزة على . وأمامى للانتهاء منها سنتان . خفت عليها من اصرارك المفاجىء على الزواج .

لقد احببتك حبا ، سيظل فى قلبى حتى أموت . وسوف اذكر دائما بفخار وشرف ، اننى كنت حبيبة انسان عظيم .

ان قلبى يقطر دما ، ونفسى تتمزق شعاعا ، اذ اقول لك هذه الكلمات : انت انسان مناضل . وستكون استاذا فى الجامعة . وستجد من بنات بلدك من يليق بك ، وبنفسك العالية ، وقلبك الكبير . ستقف معك لتحقق طموحاتك كلها . وبصفة خاصة ، طموحك للاسهام فى خلق مجتمع افضل فى بلادك .

ارجو ان تعنى بنفسك من اجلنا . اننى أدعو لك ، وأتمنى الا تنسانى ... المخلصة برندا .

لم تفجاه الفقرة الاخيرة بعد ، قراها والدموع فى مآقيه . لم ير حروفها جيدا . لكن الذى امسك بعينيه مباشرة هو توقيعها . كانت توقع باسمها . ثم تطرزه بقبلات ترسمها هكذا : × × × × × × ، واحضان تعبر عنها فى دوائر : ٥٥٥٥٥٥ . كان كل خطاب يزداد فيه عدد القبلات والاحضان عن سابقه . هذا الخطاب لا قبل فيه ، ولا احضان . كان اختفاء هذه الرموز كافيا لتسحقه الفاجعة .

كان ينظر الى الفاجعات الاجتماعية ، التى حاقت به ، طوال حياته ، وكانها مباراة رياضية . تلكمه الفاجعة . يترنح الى الارض . لكنهــا لا

تصرعه . لم تكن الضربة قاضية . يستوعب عناءها كله . ويسرى عذابها مع السائل الذى يجرى فى عروقه . ولكن ، ما ان يذهب اثر اللكمة ، حتى يقف على قدميه . يصطرع مع المجتمع من جديد .

لكن فاجعته فى الحب ، يتبدى عجزه التام أمامها . فى ميدان العقل ، وفى ميدان النزال الاجتماعى ، لديه اسلحة . لكنه فى مجال القلب ، منزوع السلاح . انه لا يدرى أين تربض قوى العاطفة ، ليواجهها . فى اى مكان تختبىء : فى القلب . فى العقل . فى الروح . فى الاعصاب .. فى الكون ؟ !

حينما تباطأت رسائل محبوبته ، وحينما توقفت ، تشبث باعذار ، وآمال . كانت واهنة . غير أنها عاونته على أن يعيش بنصف قلب . اسهم نصف قلبه فى أن يتحمل جاهلية الدكتاتور العلمى . اعاد كتابة جـزء من الرسالة بنصف عقل . وجاء خطابها اخيرا . كان ينتظره ، ليعيد له النصف الآخر من قلبه . ويكمل له عقله . فاذا به يسحق القلب والعقل جميعا .

لم تكن اللطمة العاتية ، متصورا اثرها ، على خيانة العهد . او غدر حبيبة بحبيبها . القصص فى هذا المجال كثيرة . يعانى منها المحبون فى كل زمان ومكان . لكنها صدمت فتانا فى اغلى مخلوق لديه . كـان حتى الآن يتعشقه . هو الانسان . برندا جسمت له الانسان ، الذى تخيله ، ويتشوق لوجوده . ليست العبقرية فى جمالها الجسدى . لكن كانت فيها كانسانة . اسكن الله وجدانها ، ومضة الحب للبشرية . واودعه عاطفة ، تربطهـا بالانسان ، الذى يعانى من القهر والاستغلال . أيا كان لونه وجنسه ودينه .

هل هذا القلب ، تبلغ بهالقسوة ، فيطعن قلبا يحبه . ويشاركه حبه للانسانية ؟ لقد كتب لها بصراحة لا تقبل تأويلا . انها اذا هجرته ، فستهزم فكرة الانسان فى وجدانه . وهى بذلك تمحق اغلى فكرة ، تجعله يستمسك بالحياة .. اذا انعدمت ثقته فى تحرير الانسان ، لم يعد لبقائه فى الدنيـا معنى .

علقته الازمة بين السماء والارض . اصبح لا وزن له . جاءت نواعم . حاولت انتشاله من حالته دون جدوى . لا الليالى القمرية ، ولا الثوب القمرى ، عاونتها فى ان يستجيب لدعائها . عندما وجدته عازفا عن الحديث اليها . اقترحت أن تعد له الطعام . رفض • انسحبت من البيت طعينة . سلاحاها الرئيسيان مغلولان : الجنس والطعام .

وجاء النجدى ، زميل السكنى . وجده فى السرير :

— مالك يا بنى ؟

— لا شىء .

— نفس الاجابة ، التى هربت منك من اجلها .

— ......

— الم تأت خطابات ؟

كان النجدى . على علم بمسألة الخطابات . اسهم فى احضار بعضها .

— جـاء خطـاب .

— طيب يا اخى . لماذا لا تفرح به « وتهيص » ؟

— ليتـه ما جـاء .

— لمـاذا ؟

كانت فى النجـدى رجولة وشـهامة . فطن الى النغمة الحـزينة المستضعفة . تعاطف معه .

— احك لى . بيننا عيش وملح ، وقربى ، ومأوى .

ناوله الخطاب قائلا :

— هذا خطابها . خذه واقراه .

— لا يا عم : اولا ، فيه أسرار حبك . ثانيا ، مكتوب بالانجليزية .

— انت تعرف الانجليزية .

ــ أعرف « الانجليزى البلدى » ! انما هذه اللغة بين المثقفين ، امثالكم، لم أرتفع اليها .

ــ لا تهزل .

ــ أنا اجد . دعنا نقلع عن التظاهر فى كل شىء : نتظاهر بالغنى ، وبالارستقراطية وبالعلم . اصبحنا شعبا ، ليس لديه غير المظاهر التافهة . لا يستند على أصول قوية ، ينطلق منها الى حضارة اعلى .

ــ يا ولد ! هل هذا كلام يقوله احد ابناء الاسر الارستقراطية ؟

ــ موضوع « الاسر » الارستقراطية ، موضوع مظهرى . قال بـه آباؤنا واجدادنا . كانوا جهلة كما تعلم . ورثوا هذا الميراث التافه . هـذا الرجل من أسرة ، وهذا ليس من اسرة . تركه لنا المستعمرون والحكام ، من الاتراك والانجليز .

لم يكن عهد حسن بالنجدى انه عميق الفكر . الفه لا حديث له غير النساء والنكت . ايقظت هذه المعانى حسن . جعلته يرهف السمع . وارتفع صـوت النجـدى :

ــ خذ اقرا الخطاب ، وترجمه .

ترجم حسن الخطاب له . استمع له النجدى . اصغى جيدا للاسباب التى ذكرتها فى خطابها ، ومنعتها من الكتابة ، وتمنعها من مواصلة الحب ، والحضور لمصر للزواج . كان النجدى قد عركته الحياة : عمل فى مزرعة والده ، واشتغل بالتجارة ، والسياحة ، والفنادق وغيرها . أحس بعمق أزمة صديقه . وجد أن علاجها بالتخفف المبالغ فيه لا يجدى . اخذ يقترب منها اقتراب المعلم : رويدا ــ رويدا .. بدأ بأمر ، يدل على براعة كبيرة . بدأ بالخطاب . تحسس طريقه الى سطوره . قال :

ــ الفتاة تحبك حبا قويا !

واكمل حسن :

ــ حبا قويا ، لدرجة القتل !

ــ لا . حبا ليس فيه قتل على الاطلاق .

رضى حسن رضاء باطنيا ، بهذا البدء الجميل ، وقال فى سره : قواك الله يانجدى . انجدنى بربك !

استجاب النجدى لضراعة صديقه المرئية ، غير المسموعة .

ــ لا اود ان اطيل عليك ....

قاطعه حسن :

ــ لا .. اطـــل !

ــ الحمد لله ، اصبح حديثى مرغوبا فيه ...

وواصل القول :

ــ عبارات الحب المباشرة واضحة . اعترفت لك بأنها لم تحب ، ولن تحب انسانا بمثل هذه الدرجة من الحب .

ثم تسلل الى الاسباب التى ذكرتها ، لعدم الكتابة . والصعوبات التى جابهتها بعد رحيله :

ــ لناخذ هذه الاسباب التى فجعتك واحدا بعد الآخر : تقول لك انها وحيدة امها وابيها ، وانهما يخشيان عليها من هذا البلد البعيد . وهى صغيرة السن لا تجربة لها .

ورجع النجدى الى تخففه فقال :

ــ ... وانت عجوز !

قاطعه حسن :

ــ اختشى يا ولد !

ضحك النجدى ، وابتسم حسن ، ومضى الاول :

— أليست خشيتها عليها منطقية ومعقولة ؟ هذا البلد البعيد هو مصر — مصر التى حاربتهم فى معركة القناة ، وأفشلت اعتداءهم . .

سكت النجدى لحظة ، ثم استأنف :

— لا تقل لى ان الجماهير الانجليزية ، تظاهرت ضد حكومتها ، وانتصرت لمصر . كان هؤلاء هم الطلبة والعمال ، والمثقفون ، والشيوعيون . أنــا أتحدث عن أبيها المحافظ . يكره عبد الناصر . الرجل الذى يحطم صــورة الامبراطورية ، ويخطف القناة ، والشركات الانجليزية والاجنبية .

تقول لك ، ان الجرائد تدعى كراهية عبد الناصر — الذى هو مصر فى نظرهم — للاجانب . يضطهدهم ، ويصادر أموالهم ، ويطردهم من البلاد . بربك تخيل انك فى مكانه . ألم تكن تشعر بنفس شعوره ، وتبرر ســلوك برندا ، وترددها فى أن تتزوجك ؟

سكت حسن . النجدى لميدعه . رفع صوته :

— أنا أسألك . لابد أن تجيب .

— ماذا اقول ؟ كلامك معقول . لكن الحب .

— الحب علاقة بين بشر . وليس بين ملائكة ، أو بين طرفين : احدهما انسان والاخرى ملاك . كما يقولون فى قصائد الشعر ، والقصص الرومانسى.

وجد النجدى بلماحيته : ان حسن بدأ يستمع . ويقتنع بما يسمع . انتهز الفرصة وأدلى كاملا بدلوه .

— قل لى يا حسن : هل تطمئن أنت نفسك — وانت كما يقال عنك ، مثقف ثورى — الى مستقبلك وحريتك . ومستقبل بلدك ، وتحرره الحقيقى ؟

تردد حسن . لم يجب . اكتفى النجدى بتردده . وانطلق :

— فى بلد يمسك فرد واحد بمصيره . وتلعب فى أصابعه الخيوط ، التى تمسك برقاب الملايين . يحركها كيفما شاء . لا أحد يضمن الا تنقطع الخيوط . وتهوى الملايين الى الهاوية .

كان النجدى متعلما تعليما متوسطا • لكن ثقافته السياسية ، وتجاربه فى ميدان السياسة والتجارة والزراعة أكسبته نظرة تحليلية عميقة ، لشئون المجتمع . دخل معارك سياسية فى انتخابات المجالس النيابية على المستوى المحلى والوطنى . كما فعل ذلك أبوه وجده .

وعلى الرغم من أن حسن لم يوافقه صراحة ، الا ان النجدى استنتج رضاه الضمنى على تحليله . وخاصة فهو يبرر سلوك برندا . وعاد النجدى للحديث .

— هى كذلك لا تريد ان تترك والديها ، وصديقاتها ، أليس هذا معنى انسانيا ، يهز أى انسان ؟

— وأنــا ؟

كانت اجابة النجدى غير متوقعة :

— انها لم تتركك ! ولم تتخل عنك ، كما تقــول .

قفز حسن من السرير ،وامسك بالنجدى .

— بربك اين قرأت هــذا الكــلام ؟

— انت الذى ترجمته لى ! . . . دعنى انتهى أولا من الاسباب التى هيىءلك ، انها ترفضك من اجلها .

— تفضــل .

الآن انت مؤدب معى !

— اعذرنى . لم اكن اعلم انك بهذا العمق . أيكون هذا لانه ميدانك المفضل ؟ ! ضحكا : ضحكة عالية من جانب النجدى ، وخفيضة من جانب حسن ، على غير عادته .انماكانت أول ضحكة منذ جاء الخطاب .

— تقول انها تريد أن تكمل دراسة الفنون الجميلة . ألست أنت ملهمها ؟

— اجــل .

— اجل ؟ اذن لماذا تتعجل حضورها يا قيس ؟ !

ضحكة اخرى . ومع كل ضـــحكة يتناثر جزء من الازمة . ســـعد النجدى ، اذ وجده يضحك . اوغل فى اظهار قدراته :

ـــ وتقول لى يا دكتور ، انك تجيد الانجليزية . فاتتك نقطة هامـــة جدا . انها تقول لك فى خطابها ، خد بالك من نفسك ، « من اجلنا » . لم تقل من أجلى ومن اجلك . تقول « من اجلنا » يا استاذ الاقتصاد !

شهق حسن ، شهقة فرح ودهشة . هذا التخريج لا يصدر الا من انسان متمكن ، وقال له :

ـــ يخرب عقلك ، يا ولد ، يا نجدى ! من اين لك كل هذه الدقة ، والعمق ، والتحليل .

ـــ ارايت ؟ المسألة ليست مسألة شهادات ودكتوراهات !

مضت الحياة على هذه الوتيرة سنتين ، حتى نال الدكتوراة . انقطع عن الكتابة اليها . لكن تشجيع النجدى ، دفعه لان يكتب خطابا اخيرا . اقترح عليها أن تحضر فى صيف العام القادم . لتمضى الاجازة فى مصر . ولترى بعينيها كل شىء . وتقرر ما يحلو لهـــا .

* * *

— ١٧ —

قضى الاسبوع التالى لحصوله على الدكتوراة فى خدر لذيذ . آثر ان يكون وحيدا . ساعده على ذلك أن النجدى كان كثير الاسفار . وأن نواعم عادت الى زوجها . اصبحت حراما عليه . امضى راحة كسولة . كان فى حاجة اليها ، بعد المجهود المضنى ، الذى بذله سنوات طوالا .

كان متمددا ، مع شطحاته فى سريره . جرس الباب يدق دقا متواصلا . رنين قوى ، فيه نرفزة واصرار . فتح الباب . كان الطارق الحاج احمد

ابراهيم ـــ قريبه . زميله فى مدرسة كفر صـــقر الابتدائية . الذى رهن طربوشه نظير مليمين ليتقدم له عجلا « وورورا » ! وهو ايضا رفيقه فى مدرسة الزقازيق الثانوية ، الذى تعلم منه سرقة بقايا الخبز من مطعم المدرسة ، لكى يتبلغوا بها فى الافطار والعشـــاء . كان حسن يزوره فى عزبته دائمـــا . ويتطارحان ذكريات الصبا . ويطلقان ضحكات تفرقع على الترعة ، عندما يتخطران على شاطئها .

كان به وفاء فريد . لم ينقطع عن زيارته فى ازمته ، وفى انطلاقه . وكان رشيقا فارعا ، حلو الملامح . عيناه هذه المرة تلمع بمعنى بهيج . وكان حاد الذكاء يعلم قصة الحب كلها ، من اولها لآخرها . ورأى فرحة حسن عندما يأتى خطاب منها . وبأساه عندما تنقطع خطاباتها . بادره الحاج احمد قـــائلا :

ـــ ايه ده . انت نائم فى عز النهار . « ايه الرواقة دى » ؟

دخل الحاج احمد . ورجاه حسن ، ان يأتى الى غرفة النوم فهـــو متعب . الفرحة تكاد تنطق على لسان الحاج احمد . لكنه كان قديرا فى السيطرة على لسانه . انما الفرحة تشرق فى وجهه . ويحاول أن يخفيها . فهو تاجر عصامى . بنى نفسه ، من ولد صغير صبى لتاجر غلال فى الارياف ، الى تاجر كبير للقطن . وعزبة وحدائق واعناب ! كان وهو يتعامل مع الناس ، يفرح بالصفقة ، ولكن يظهر على وجهه عدم رضائه بها . وهو الآن يباشر هذا الفن على حسن . لكن هناك فارقا . فحسن قريبه وصديق عزيز عليه . وهذه ليست صفقة تجارية .

قال الحاج أحمد لحسن :

ـــ اعطنى خمسين جنيها .

ـــ خمسين جنيها ؟ من اين ياحاج ؟ لست صاحب عزبة مثلك .

ـــ انت حر . لدى موضوع ، قيمته فى نظرك ، الوف الجنيهات .

— أنت تعلم الحال . قل عشرة جنيهات .

— طيب . من أجل خاطرك ، ولانى احبك ، هات عشرة جنيهات .

— ليس معى الآن .

— طلع من تحت البلاطة !

— قل لى اولا : لماذا ؟

— لا يا حلو . ان لم تدفع العشرة جنيهات ، سأرفعها ثانية الى خمسين .

— خذ العشرة ، والامر لله .

— طلب آخر . تعزمنى على العشاء ، فى كازينو الحمام .

—من أجل امر لا اعرفه .. هل عينونى مدرسا فى جامعة اسيوط ؟

— مدرس ايه ، واستاذ ايه .

وضع الحاج احمد يده فى جيب قفطانه الداخلى . كان يلبس ملابس بلدية فاخرة انيقة . واخرج خطابا .

ضرب قلبه جدار صدره . يريد أن يقفز خارجه . ترقرقت دمعة فى محجريه . ستارة لؤلؤية شفيفة ، تعرف من خلالها على خط الحبيبة . راى طابع البريد يحمل صورة ملكة بلدها . الحاج احمد يهوى المرح . كان فى هذا اليوم ساديا . لوح بالخطاب يمينا ويسارا . لوح عنق حسن ، وازاغ بصره . حاول حسن أن يخطفه منه . جرى وراءه فى الشقة ، دون جدوى . قال له اخيرا :

— قبل يدى اولا .

— حـاضر .

وقبل يده ، واتبعها براسه وخديه . واخيرا اعطاه الخطاب . تردد فى فتحه .سأله الحا جاحمد :

— لماذا لا تفتحه ؟

— ليس لدى الشجاعة . قد يكون خطابا صاعقا كالذى سبقه .

— انت تعلم ، أن يدى هذه ، لا تأتى اليك الا بالخير والفرح !

— واذا صدمنى الخطاب ؟

— يظهر ان تفكيرك ليس هو تفكير « الدكتور حسن » . هل يعقل أن تكتب لك خطابا بعد سنة ، ليصدمك ؟ افتح الخطاب ، وانا المسئول .

فتح الخطاب . وقرأ : « حبيبى حسن » : قفز من سريره . أخذ الحاج احمد بالاحضان . قبله فى « شفتيه » ! وقال له الحاج أحمد :

— الله الله .. أنت فاكرنى برندا !

— الرسول الذى حمل خطابها ، حبيب الى قلبى .

لم يقرأ حسن الخطاب . لكنه نظر الى ذيله ، الى توقيعها . وجـده محاطا بالقبلات وعلامتها: × × × × × × × ،وبالدوائر التى تمثل الاحضان: ooooooo كان بالخطاب قبلة سابعة ، وحضن سابع ! كانت قبلاتها وأحضانها فى الخطابات السابقة ستا !

اخذ هدنة ، حتى يتماسك قلبه . تركه الحاج احمد يقرأ وحده . وذهب الى غرفة اخرى لينام . وقرأ : حبيبى « يا اعز حبيب » .

« قضيت السـنة الماضية فى حرب سـجال مع نفسى ، ووالدى ، وصديقاتى ، وبلدى . كانت معركتى مع نفسى أسهل المعارك . تفسير ذلك واضح ، فأنا احبك . وقد تغلبت كذلك ، دون صعوبة ، على موضـوع صديقاتى ، وبلدى . صديقاتى واعيات . ادركن شعورى ، فباركننى . اما بلدى ، فبلاد الله هى بلادى . هى البلاد التى استطيع ان اشارك الانسان فيها معاناته وامنياته . ولم تعد دراسة الفنون عقدة . خـبر سيفرحك فهو من صنع يديك : حصلت على بكالوريوس الفنون الجميلة فى

الرسم والتصوير . وبقيت العقبة الكبرى : تركى لوالدى . انا وحيدتهما ، وقد طعنا فى السن ، ويحتاجان الى . ارد لهما جميلهما ، اذ ربيانى صغيرة . اصطرعت فى هذا المجال ، لا معهما ولكن مع نفسى . تعذبت ، تمزقت بين عاطفتين : حبى لك ، والعاطفة الانسانية التى يكنها المرء لوالديه . احسا بى وبعذاباتى . كان لوالدتى فضل على وعليك قامت بدور الملاك . ثابرت لاقناع والدى . اخذ الاقناع سنة كاملة . اصبحا سعيدين بالفكرة . اصررت على ان ابقى معهما . تضرعا الى ان اكتب لك ، واؤكد العهد الذى كان فى وجدانى دائما . اقترحت عليهما فكرتك : ان احضر الى مصر ، ويحضرا معى . نرى مصر واهلها ، والظروف التى سأعيش فيها .

وهانذا اكتب اليك . واعتذر عن الآلام التى سببتها لك . ولعلك تصفح عنى . فلك قلب نبيل . فاغفر لانسانة تحبك . عاطفتى لم تتخل عنك فى اى لحظة ، حتى فى قلب الازمة . اقرا خطابى ، الذى اعتبرته كارثة ، تجد ان كل سطر من سطوره ، ينطق بحبى ووفائى .

* * *

جاءت برندا الى مصر . رافقها ابواها . السفينة الايطالية . البجعة البيضاء التى اقلته الى انجلترا . تحمل ساكنة القلب . ذهب للقائها . اصطحب معه صديقه الحميم عبد الرحمن سليم .

عبد الرحمن انسان ، يعبر بصدق عن الصعيدى الاصيل . الصعيدى بكل عبله العظيم ! شهامة تقتل . رجولة تبهج . حلو الحديث ،فكها ، قفاشا . ضحك معه حسن ضحكا يكفى لاضحاك الدنيا . ربطت هذه الصفات بينهما برباط لا تنفصم عراه . كانت ضحكاتهما استفزازية . حسدهما عليها الاصدقاء ، وغير الاصدقاء . تساءلوا :

— كيف يمكن أن تضحكا هذا الضحك ، وسط المشكلات التى نعيشها ؟

— ما هى الموضوعات التى تضحككما ؟

— اضحكونا معكم .

اقترح عبد الرحمن ، الا ينتظرا نزولها على الرصيف . راى ان يستقلا زورقا بخاريا ، ليلقاها حسن فى عرض البحر !

كان حسن قد ذكر له ان السفينة التى تحملها ، هى التى حملته الى انجلترا . وانه شبهها بالبجعة البيضاء ، والبحر الابيض . ببحيرة البجع . كان عبد الرحمن قد راى الباليه . لم يكن اقتراحه خالصا . الاصل فيه ان يعطى انطباعا قويا لبرندا : حسن يركب البحر من اجلها . لكنه لم ينس روح الفكاهة . قال له عبد الرحمن :

— الى جانب هذا الهدف ، فنحن نريد ان نكمل الصورة .

— كيف ؟

— « بحيرة البجع » فيها بجعة ذكر اسود ، شيطان .. وانت تمثله . بينما برندا تمثل البجعة البيضاء !

— طيب يا عبد الرحمن . « طول بالك » .

رجعا بالقارب ، بعد ان لوحا لها . شعرها الذهبى ، تبرز جماله شمس مصر . وتشعل ما فيه من سنى . سماء مصر تعكس فيروزها فى عينيها . سماء لندن الدكناء ، لم تسبر ما فى اغوارهما من صفاء .

اختلطت الاحضان ، بالقبلات ، بالدموع . استحدث حسن سنة جديدة . قبلها فى شفتيها ! على مرأى من المستقبلين ، والمستقبلات . وما ان لمح الناس الرجل الاسمر الجرىء ، والغادة الشقراء ، حتى حمى وطيس القبل على الشفاة !

انزلهم فى فندق انيق على شاطىء البحر • امضوا بضعة ايام فى الاسكندرية . ينعمون بالسباحة فى الضحى ، وبالسياحة عصرا ، وبالوان

من الترفيه مساء ، وبالاكلات المصرية الشهية ، افطارا ، وغداء ، وعشاء .

أرتحلوا للقاهرة . برندا تعلم انه يسكن فى شقة من غرفتين ، مع اخته سهام . أقترحت ان تقيم معهما فى الشقة . وان تستأجر لوالديها غرفة فى فندق معقول فى هليوبوليس ، وقال لها :

— الشقة متواضعة ، فراشها غير وثير ، فى الدور الارضى .

— ولــو !

— الاقامة فيها قاسية خشنة ، لا تجازفى .

— رحلتى الى مصر نوع من المجازفة . دعنى أستمتع بالمخاطرة .

صادف هذا الاقتراح هوى فى نفسه . الحق انه يريد ان يريها واقعه ، وحقيقته . لا يريد تزيينا مفتعلا للحقيقة . طالما نسف التزييف علاقات زوجية كثيرة . قال لها :

— هذا كلام طيب .

نامت فاتنة انجلترا فى غرفة باهتة الطلاء ، على سرير قديم . اثاثها كرسى خشبى دون حشايا . شارك حسن أخته غرفتها . سألها فى الصباح :

— هل نمت جيدا ؟

— نعم كان نوما مريحا !

— تقولين « مريحا » ؟

نعــم .

— واظنك حلمت أحلاما سعيدة ؟

— طبعــا !

— هنيئا لــك .

اعدت سهام طبق الفول ، والطعمية . واكرمتهــا بطبق من البيض المقلى . اكلت برندا بشغف .

— هل اكلت الفول من قبل ؟

— لا .

— كيف تجدينــه ؟

— لذيــذ !

وسألته :

— ما هذه الكرات الخضراء ؟

— هذه هى الطعمية .

— مم تصنع ؟

— من الفول المجروش .

— كأنكم تأكلون الفول صحيحا ، ومجروشا .

— نعم ، ومطحونا كذلك !

تذوقت الطعمية . وقالت على الفور :

— حلـــوة !

— الله يحلى لك عيشتك .

الاثارة تغمر برندا . بلاد جديدة . ناس مختلفون . طعام مختلف . حركة الناس فى الشوارع . العربات تجرها الحمير والبشر . الحناطير تركض بها الخيل . الازياء المتنوعــة : البلدى والفلاحى ، والمدينى ، والصعيدى ، والغربى . الباعة الجائلون : أصواتهم المنغمة ، تنادى على بضائعهم .

لاجدال ، ان برندا كانت تعرف ، ان هذا الفول هو غذاء الحيوانات . كما قالت له الغجرية الايطالية ، فى حوارها معه ، على ظهر السفينة . على

ان برندا لم تكن تعرف ان الفول يصبح معه الشعب المصرى ، ويمسى . وانها اذا كتب الله لها العيش فى مصر ، سيصاحبها فى العشى والابكار !

رتب حسن لوالديها ، ولها ، رحلات سياحية متنوعة ، راوا خلالها عظمة مصر التاريخية ، وتنوعها الحضارى .

كان قد اعطى برندا صورة للشعب ، ومستواه الاجتماعى . ولكنه اراد ان ترى وتحس وتسمع ، حتى تكون الصورة نابضة . ود ان تتلاقى بوجدانها مع الواقع ، ليزداد تطهرا ! رغب كذلك ان يرى مشاعرها نحو الجماهير البائسة ، وغير البائسة . اراد ايضا ان يريها صورة مصر كما هى ، دون الوان . وان تتعرف تماما على المجتمع ، الذى قد تختاره للعيش فيه . صارحها بأن مرتبه خمسة عشر جنيها الآن . وسيصبح اربعين جنيها ، عندما يعين مدرسا ، وسيبقى فى هذه الشقة الى ان يتم تعيينه . ثم ينتقل الى اخرى اكثر اتساعا .

صحبها الى القرية . قرية بالغة التخلف . استأجر لها تاكسى . خوفا من الرحلة القاتلة فى القطار او الاتوبيس .

استقبلها نساء القرية ورجالها ، فى مهرجان يهز القلوب . النساء يقبلنها وهى تقبلهن . مشهد انسانى ، مذهل ومثير : بنت « التيمز » ، تعانق بنات النيل . الانجليزية التى جاءت من مجتمع ، هو قمة التقدم ، تقبل فلاحات ، ملابسهن رثة ، حافيات ، شاحبات . كانت سعيدة بقبلاتهن . انهمرت دموعها تأثرا باللقاء . لاحظ حسن دموعها ، وتأثرها ، ففرح . برندا تجتاز هذا الاختبار الانسانى بنجاح كبير .

دخلت برندا الى البيت المبنى من الطوب الطينى . كان ، على تواضعه، احسن درجة من اكواخ الفلاحين . اراها الاكواخ ، وهو فى الطريق الى منزله . الشىء الوحيد الذى اولاه عناية خاصة ، هو نظافة البيت من البراغيث والناموس . هذه مسألة لا يستطيع اى انسان (غير الفلاحين !)

ان يتحملها . هى لم تر البراغيث من قبل . افلح فى حملته ضد هذين العدوين. غير ان برغوثا لعينا ، استطاع ان ينتقل اليها من ملابس الفلاحات اللائى عانقتها . اختفى فى ملابسها . لم تستطع مواد التنظيف ان تصل اليه .

وفى الصباح ظهر اثره على جسدها : بقع كبيرة حمراء . ومع ذلك قالت :

— لقد نمت جيدا !

اصطحبتها الزفة الريفية لنزهة فى الحقول على الحمير والجمال . خرجت البلد لوداعها حينما غادرت القرية . مشهد انسانى منعش . لم يجرؤ حسن على دعوة والديها الى القرية . المنزل بالغ التواضع . البراغيث ستزعجهما . المحافظون لا يغفرون للبراغيث فرصاتها ! سينفرون من هذا المستوى المتردى للريف . استشار برندا فى عدم دعوتهم . وافقته . وكفى الله المؤمنين القتال !

هكذا امضت برندا وابواها اجازتهم فى مصر . رضى الابوان . هيأ لهم حسن جوا مريحا ، فى فنادق انيقة . اما برندا المكافحة ، فقد انفعلت بمصر انفعالا حارا . وجدوا ان المصريين كرام ودودون . لا يأكلون الاجانب ! عبد الناصر لا يضطهدهم ، ولا يطردهم من البلاد . برندا تعشقت الشعب المصرى ، وخاصة شعب القرية . اكبرت امانة حسن ، وشجاعته . ابرز لها الحقيقة كاملة .

حدد يوم الرحيل . عندما ذهبوا لحجز اماكنهم فى السفينة ، اطلقت برندا مفاجاة . قالت لوالديها :

— دادى — مامى : انا سابقى فى مصر ! !

فوجىء والداها ، واجابها ابوها :

— اتفقنا ان نعود الى انجلترا معا . ثم تقررين ما تشائين هناك .

— لقد قررت . لست عائدة الى انجلترا .

تجهم وجه ابيها . لم يقل شيئا . تولت امها الكلام :

— هذا شأنها وحدها . هى بلغت الواحدة والعشرين . ونحن لا نبغى الاسعادتها . وهى وحدها التى تحسها . وعلينا ان نباركها .

انفرج وجه الوالد ، بابتسامة غير محافظة ، قائلا :

— مادامت هذه رغبتك ، وسعادتك فى البقاء هنا ، انا موافق . تهانينا .

انهالت برندا على ابويها تقبيلا واحضانا :

— شكرا مامى — شكرا دادى . انتما شفوقان . وانا احبكما .

بقى على الرحيل يومان . احب حسن ان يحضر الوالدان زفاف ابنتهما . سافروا الى الاسكندرية . نزلوا فى الفندق الانيق « بوريفاج » على شاطىء البحر . اصطحبهم الى الشهر العقارى . عقد الزواج . فى المساء قدم لهم مفاجأة : المأذون الشيخ ، جاء يعقد الزواج دينيا ، بعد ان وثق مدنيا . الاب سعيد ، اذ يمسك بيد حسن ، والمأذون يضع يده على يديهما . وكلته ابنته لعقد قرانها . المأذون يرتل الخطبة الدينية المعروفة . يوجه الخطاب الى « مستر كف » والد برندا :

— قل : زوجتك ابنتى برندا ، موكلتى .

قالها بلكنة انجليزية طريفة . وقال المأذون لحسن :

— قل : قبلت زواجها لنفسى .

كرر حسن قوله . انطلقت الزغاريد من نساء اسرة صديقة ، هى اسرة ابراهيم وحامد دويدار ، اخوة زميله محمد دويدار ، الذى يدرس الدكتوراة فى انجلترا . كانت حفلة بسيطة ، رائعة . حضرتها والدته واخوته وبعض اصدقائه . كان والده قد عجل للقاء ربه . لم يشهد افراح العودة من انجلترا ، ولا الحصول على الدكتوراة ، ولا زواج ابنه البكر .

تذكر حسن تقليدا شرعيا : اعطى برندا خمسة وعشرين قرشا ! وسألته :

— ما هـذا ؟

— هذا هو مهـرك !

— بس ؟

وضحك الجميع . وسألت برندا :

— ماذا تقصد ؟

شرح لها قصة المهر والشبكة فى مصر . وان النبى صلى الله عليه وسلم ، كان من الفقراء . وكان بارا بهم ، وزعيما شعبيا ، جاء من الجماهير . فخفض قيمة المهر الى خمسة وعشرين قرشا . فرحت برندا بهذه الفكرة . احتفظت بالخمسة والعشرين قرشا حتى الآن ! قال لهـا حسـن :

— ان المهر الكبير ، والشبكة المغالى فيها فى مصر ، اذا نقصا خمسون جنيها ، مثلا ، فاهل العروس ينقضون الزواج .

— لا افهم .

— احسنت اذ لم تفهمى !

حول الحديث . ليس من مصلحته ان يشرح لها تجربته السابقة فى الخطوبة . قد تطالب منه مهرا وشبكة ، وهو لم يقدم لها غير خاتم ذهبى ، هو خطوبتها وشبكتها ومهرها !

احتل وعروسه جناحا ، يليق بالعرسان . احتل والداها حجرة منه . وامه واخواته حجرة اخرى . رافقا ابويها فى اليوم التالى الى الميناء . ركبا السفينة . ذرفت عيناها قطرات من الدمع . احس حسن ان قطرة منها كانت حبا ووداعا لوالديها ، وقطرتين حبا له !

* * *

— ١٨ —

السيد الدكتور حسن خالد

المدرس بجامعة اسيوط

تحية طيبة وبعد ،

يسرنى ان ابلغ سيادتكم ، انه وقع الاختيار عليكم ، للاسهام فى الدراسات التى يقوم بها مكتب الرئيس للبحوث الاقتصادية ، وتوجيه الباحثين ، فى هذه الفترة التاريخية التى تجتازها بلادنا ، وتتحرر فيها من الاستعمار ، وتبنى اقتصادا وطنيا مستقلا ، اشتراكيا .

مع فائق احترامى

وزير رياسة الجمهورية

عبد المجيد فريد

« يا ستار يا رب » لماذا يختارونه لهذه المهمة ؟ الانه مكافح ، وكان جنديا ؟ ام لانه يثير موضوع التنمية الاشتراكية فى محاضراته ؟ ايكون ذلك ، لانه يحدد الاسباب الرئيسية للتخلف ، بالاستعمار ، والراسمالية ، والاقطاع ؟ هل قراوا رسائله ؟

التطير الذى الم به ، لاول وهلة ، يتقشع . حل محله شعور رضى . انه يستدعى الاسهام فى بناء اقتصاد «متحرر من الاستعمار . اقتصاد وطنى مستقل ، اشتراكى » . هذا حلم عمره ، يدعى لتحقيقه .

اخذ يدرك آلاء الدكتوراة عليه . ويرضى عن الجهود المضنية التى سكبها فيها .

للدكتوراة آلاء اخرى : ارسلت اليه استمارة سفر . ركب بها القطار المجرى من اسيوط الى القاهرة ، بالدرجة الاولى ، الممتازة ، والمكيفة !

تقفز من الدرجة الثالثة فى وثبة واحدة ، ثلاث درجات علا ! المفروض ان يفرح . طالما ملأت الدرجة الثالثة خياشيمه بالتراب ، ودخان القطار . وطالما طقطقت عظامه على المقاعد الخشبية . جسده يتراخى . فى العربة الفاخرة ، التى جعلها التكييف «ربيعا دائما » ! على ان نفسه كانت قلقة . شعر بانه ينتزع من وسطه ، ويقتلع من جذوره . اذا كانت رياسة الجمهورية، هى التى تقفزت به الى الدرجة الاولى الممتازة ، لماذا لا تقفز بالناس العاديين معه ؟ لما هذه التفرقة ؟ الناس هم الذين ينتجون ، ويدفعون الضرائب ، للانفاق على القطارات • وعلى الدرجة الاولى الممتازة ، التى يركبها ناس اكثرهم لا ينتجون . هل يراد به ان ينتزع من الجمهور الذى نشأ فى احضانه ؟ وان يضم الى الصفوة الممتازة ؟

القطار يمرق . الافكار تتخبط فى راسه . امل يداعبه ، فى ان تسهم بحوثه فى تحرير شعبه . صور شعبية منهكة ، يراها من نافذة الصالون الفخم . وصل الى القاهرة . فى اليوم التالى ، ذهب الى الوزارة المركزية بمصر الجديدة . توجد فيها مكاتب رياسة الجمهورية .

دخل على وزير الرياسة . قدمه السكرتير للوزير . منضدة مكتب ملكية .مزركشة حواشيها بالذهب . كرسى الوزير ككرسى العرش . قام الوزير ، فى جلال مهذب . حياه . اجلسه على كرسى قريب منه . بدا الوزير يعرفه بالجالسين معه : صبرى بك . سلام بك . صلاح بك . شريف بك .

سأل نفسه : الم تلغ الثورة الالقاب ؟ اليس هؤلاء القادة هم الذين يحملون الى الناس مبادىء الثورة ، وقراراتها ؟ ما بالهم يصرون على العلاقات الاجتماعية القديمة ، التى تعبر عنها هذه الالقاب ؟ كيف تغير الثورة تلك العلاقات ولم يتغير المنادون بها ؟

كان الرجل رقيقا . رغم المظهر المترف فى مكتبه وملابسه :

ـ شرفت يا دكتور .

ــ شكرا سيادة الوز ر .

ــ انت تعلم ، ان البلد مقبلة على ثورة كبرى اجتماعية ، واقتصادية ، وسياسية . وقد انتقينا من أساتذة الجامعة ، وغيرهم من المفكرين ، نخبة للاسهام بفكرهم فى هذه الثورة . واخترناك للاشـــتراك فى الدراســـات الاقتصادية . نحن مقدمون على فترة ، سيعاد فيها بناء اقتصاد متحرر من التبعية والاستعمار . اقتصاد لجماهير مصر . وليس لحفنة من المستغلين . اقتصاد اشتراكى . تذهب موارده للبناء الصناعى والزراعى . وتحقيق الاستهلاك الضرورى ، لرفع معيشة الملايين فى مصر .

« الله » قالها بينه وبين نفسه . هذا الرجل يقول الشيء نفسه ، الذى قاله فى رسالته . والذى يود أن يفنى عمره فى تحقيقه . هذا كلام واع . هل يدرك كل كلمة قالها ، ادراكا علميا وفكريا ؟ هل هو منفعل بالمشـــكلة الاجتماعية للاكثرية الكبرى من بنى وطنه ؟ تمنى من اعماقه الا تكون هذه خطبا ، أو شعارات تتردد . خاصة انها لا تتسق وهذا المظهر الفخم . ورد على الوزير :

ــ هذا شرف كبير ، اعتز به .

كان الوزير . والمجموعة المحيطة به ضباطا ، عقــداء ومقدمين . يلبسون ملابس مدنية فاخرة انيقة . فيهم اعتزاز ملحوظ . تذكر عندما كان جاويشا فى الجيش . الآن يجلس مع ضباط كبار . بل ضباط ثوار . فضل آخر للدكتوراة عليه .

خاطبه الوزير :

ــ تفضل . سأصحبك الى مكتب البحوث الاقتصادية .

رافقه الى المكتب . قدم له الزملاء العاملين فيه . وقال له :

ــ ستكون لك مهمتان : القيام بالبحوث الهامة . والاشراف على هذه المجموعة .

ــ يسعدنى ذلك .

ــ اى استفسارات ، يمكنك ان تستعين بمدير مكتبى . أو تتصل بى مباشرة . الى اللقـــاء .

كانت الفترة التى قضاها ، فى مكتب الدراسات الاقتصادية ، برياسة الجمهورية ، فترة خصبية . كتب فيها ما كان يود أن يقوله فى رسالته . حلل الاستعمار والاقطاع والراسمالية ، التى رفضها الاساتذة الانجليز . وكشطها الدكتور الحداد . اضاف اليها دراسات عن النظم الاشـــتراكية العلمية ، وغير العلمية . والتطبيقات الاشتراكية المختلفة ، فى أوربا ، وآسيا والصين ، وأمريكا اللاتينية ، وأفريقيا . ودراســـات أخرى عن الاقتصاد المصرى ، وقطاعاته جميعا . كانت دراسات سبقت التأميم ، وعاصرته ، وتابعته .

كان مكتب الرئيس للبحوث الاقتصادية نبعا علميا . انسابت منـــه روافد فكرية . اسهمت فى التجربة الاشـــتراكية فى مصر . وانارت لهـــا الطريق . وحاولت أن نجد لها تنظيرا .

كانت عملية تنظير التجربة المصرية الاشتراكية عملية صعبة . جاءه وزير الرياسة قائلا :

ــ البحوث التى يقوم بها المكتب حازت رضاء الرئيس . لكن المهم ، ليس تحليل التجارب الاشتراكية فى العالم ، فنحن لنا ظروفنا الخاصة . المطلوب تحليل طريقنا الى الاشتراكية . هذا ما تود القيادة ان تتجه اليه جهود الباحثين .

كتابات حسن عن الاشتراكية العلمية ، وتطبيقاتها ، مسألة ممكنة . وقد تكن سهلة . اما بناء نظرية ، لاشتراكيتنا فعمل صعب . انهم يطلقون عليها « الاشتراكية العربية » ، واحيانا « الاشتراكية الاسلامية » . ويصل التناقض فيها الى القول بأنها تؤمن بالراسمالية الوطنية !

كان فى مكتب البحوث ، باحث ناضج ، سنا ، وعلما ، هو محمد عبيد . درس الاقتصاد والاحصاء فى امريكا . نال الماجستير . لم يكمل الدكتوراة . استعداده الذكائى كان يفوق كثيرا من حاملى الدكتوراه . يضاف الى ذلك نظرة عميقة فى السياسة . نشأت بينه وبين حسن صداقة .

أراد حسن أن يستشير محمد عبيد فى موضوع التكليف الجديد :

ــ الوزير ، يطلب منا تنظيرا « للاشتراكية العربية » .

رد محمد :

ــ نحن فى خدمة القيادة .

ــ وفى خدمة العلم ، والحقيقة ، والشعب .

ــ وهل هناك تعارض بين القيادة ، وهذه المسائل ؟

ــ اسمع « يا أبو حميد » اريد مناقشة موضوعية .

ــ تفضـــل .

ــ هناك صعوبات كثيرة ، تواجه القيام بهذا العمل .

ــ ليس هناك صعب عليك . ومع ذلك ما هى الصعوبات ؟

ــ أولا . هذا المصطلح « الاشتراكية العربية » . هل الاشتراكية بدلة تتسع وتضيق ، وتقصر ، حسب الشخص ، أو البلد الذى يلبسها ؟

ــ لكل بلد ظروف خاصة . قد يختلف التطبيق الاشتراكى بين بلد وآخـــر .

ــ هذا صحيح . لكن للنظام الاشتراكى ملامح رئيسية ، يجب ان تتوافر . بغيرها لا يكون نظاما اشتراكيا . وليس من المقبول ، مثلا ، ان نقول « الاشتراكية العربيـــة » « والاشتراكية الهنديـــة » « والاشتراكية الجابونية » ... وهكذا . وبذلك يكون هناك مئتا اشتراكية فى العالم ،

بقدر ما فيه من دول • هذا تمزيق للاشتراكية . يسعد به الراسماليون ، واعداء النظام الاشتراكى .

ــ ماذا تقترح . بحيث لا تكون التجربة الاشتراكية فى مصر ، نسخة بالكربون من الاشتراكيات الاخرى ؟

ــ الاشتراكية لها اسس لا تختلف حسب الدول . لانها نظام علمى . له قواعد معروفة .ولكن الذى يختلف هو التدرج فى التطبيق ، لارساء هذه الاسس . لذلك يمكن تسمية تجربتنا الاشتراكية . « بالتطبيق العــربى للاشتراكية » ، او « التجربة الاشتراكية فى مصر » .

ــ لماذا لا تقترح هذه التسمية على القيادة ؟

ــ ســـأفعل .

انتقل حسن الى موضوع من ادق الموضوعات ، واكثرها حساسية :

ــ ما رايك فى مسالة الدين . وعلاقته بالتنظيم الاشتراكى ؟

ــ لا يا عم . ليس لى راى . انا رجل مبتدىء فى الاشتراكية . وانت راسخ القدم فيها .

ــ اتريد للحوار ان يكون من جانب واحد . كيف يسمى اذن حوارا ؟

ــ سوف اسهم فيها اعرف . هذه مسالة لا تدخل فى نطاق معرفتى .

كان محمد عبيد من مثقفى الطبقة المتوسطة . تعلم برجوازى فى مصر . تاصيل له فى الولايات المتحدة . لديه استعداد للتطور الثقافى . لكنه كان متحفظا وحريصا . اراد حسن ان يجر رجله :

ــ الاقتصاد علم . والاجتماع علم ،لهما قوانينهما العلمية .

ــ نعـــم .

ــ والاديان تربط الانسان بالله برابطة روحية توحيدية . وتأمره بالعدل ومعاملة الناس بانسانية واخاء .

ــ هذا صحيح .

— الكتب المقدسة تركت ، عن قصد ، العلوم الطبيعية ، والعلـــوم الانسانية . ومنها القواعد التى تنظم المجتمع اقتصاديا واجتماعيا . هذه يصل اليها الانسان بعقله . وهو اثمن شىء خلقه الله له . واعتبر الانسان لهذا أفضل المخلوقات .

— معقـــول .

— لهذا ترك التنظيم الاجتماعى والسياسى والاقتصادى للانسان . ينظمه بعقله حسب تطور المجتمع ، وتعقده . هذا التنظيم خاضع ، بالضرورة، لمصلحة الاغلبية من البشر « مصلحة الكافة » بالتعبير الشرعى .

وتدخل محمد عبيد :

— اكمل انا ، حتى لا اكون مستمعا فقط .

— تفضـــل .

— ولما كانت الاشتراكية تطورا علميا . وصل اليه الانسان بعقله الذى صنعه الله . وهى تلغى استغلال الانسان المالك للارض وراس المال للكثرة الانسانية ، التى تعمل ، والمحرومة من هذه الملكية . اذن الاشتراكية هى النظام الافضل للمجتمع الانسانى .

— هناك حديث شريف يؤيدك : « الناس سواسية كأسنان المشط » .

— الله يفتح عليك . يا شيخ حسن .

— على أن « فضيلتك ! » نسيت أمرا هاما . التنظيم الاشـــتراكى للاقتصاد ، يضع ناتج الصناعة وناتج الارض فى يد الناس جميعا . يستخدمون جزءا منه لاشباع حاجاتهم الاساسية . ويضعون الباقى فى التنمية . وتركه فى يد القلة الراسمالية يجعلها تبدده فى ترفياتها .

تفكر عبيد قليلا . حك راسه الحليق . ثم قدم لحسن احصائية ، ذات دلالة . فقد كان احصائيا ممتازا :

— وتأييدا لقولك فيما يتعلق بمهمة الاديان . وان العلم والعقل الانسانى

ومصلحة الجماهير ، او الكافة ، هى الفيصل فى تنظيم المجتمع البشرى ، اليك هذه الاحصائية :

يوجد فى القرآن نحو ستة آلاف آية . منها نحو أربعين آية فحسب للمعاملات بين الناس ، والباقى كله لتنظيم علاقة التوحيد بين الانســـان وخالقه . والعبادات ، والثواب والعقاب ، والفضائل والرذائل وما شاكلها .

— هكذا يكون الاستخدام المستنير للاحصاءات ! من القواعد القليلة فى القرآن ، التى تتعلق بالحياة الاقتصادية : الزكاة ، وتحليل البيع ، وتحريم الربا . والواقع ان تحريم الربا يدعم الاشتراكية فى تحريم استغلال الانسان للانسان . ويهدم أصلا من اصول النظام الراسمالى فى التجارة ، والاستثمار، والبنوك . وهو الاقراض بفائدة . الذى يقوم عليه النظام الراسمالى كله .

ابتسم محمد ، عن اسنان غير برجوازية ! وقال :

— على الارقام ، وعليك التحليل .

— وانت كذلك محلل !

واحب حسن أن يطمئن محمد . على انهما اكبر حرصا على جوهر الدين من ادعيائه فقال له :

— خذ هذا الحديث : ذهب قوم الى النبى صلى الله عليه وسلم . يسالونه امرا من امور الزراعة . رد عليهم ردا واضحا صريحا . قصد به نبى البشرية ان يكون دستورا للتنظيم الاجتماعى : « انتم اعرف بأمور دنياكم »

انتعش محمد لهذا الحديث وقال :

— والنقطة التالية ؟

— انهم يدخلون فى تحالف قوى الشعب العامل قوة ، لا يمكن أن تكون عاملة ولا شعبية . ما اسموه « بالراسمالية الوطنية » .

— الحق ان هذه العبارة القت بى فى غيبوبة .

— هذا المبدا فيه تناقضان كبيران : الراسمالية .. والوطنية . كيف يمكن أن تعتبر قوة عاملة اولئك الذين يتملكون راس المال والارض بكميات كبيرة . هاتان هما الوسيلتان لاستغلال الجماهير العاملة . واخذ فائض عملها فى شكل ارباح . الراسمالية هى النظام المناقض تماما للاشتراكية : من المستحيل ان يندمج النظامان المتعارضان فى مجتمع واحد — والا كان مجتمعا « سكلنصا » !

— التناقض هنا واضح . لكن الامر الذى يكثف الضباب فى راسى ، هو لفظ « الوطنية » .

— الراسمالية الوطنية ، تنطبق على انصار الثورة ، والراسمالية المستغلة تنطبق على خصومها .

— لكن هذا معيار شخصى . قد يكون خطيرا على مستقبل النظام . فمن يعتبره الحاكم اليوم راسماليا مستغلا ، لانه خصم ، قد ينظر اليه حاكم آخر كحليف « وطنى » ، وغير مستغل . وقد ينقلب الراسماليون «الوطنيون» خصوما للنظام الاشتراكى . فهم يريدون تراكم أرباحهم ، وتضخم ثرواتهم . وليس هذا طريق الثورة الاشتراكية . فلا منص من الصدام .

اعجب حسن بتحليل عبيد . اراد ان يضيف :

— كذلك وجود هذه الطبقة ، يدمر الروح المعنوية للعمال والفلاحين والمثقفين . تراكم الثروة فى يدها ، يجعلها قوة اقتصادية وسياسية خطيرة داخل النظام . القوى الاقتصادية تسيطر تاريخيا على السلطة ، وعلى مصائر الشعوب . النمط الاستهلاكى لهذه الطبقة باذخ . يستفز الجماهير يضعف ثقتهم فى نظام يقول بالاشتراكية بينما تقوده البرجوازية .

وعقب محمد :

— ياالله يا عم . لديك مادة جيدة للكتابة .

* * *

اعد حسن الدراسة عن « التطبيق العربى للاشتراكية » متضمنة تلك المعانى . اعطاها لوزير الرياسة . حملها للرئيس . استدعى الوزير حسن الى مكتبه . خاطبه فى تؤدة شديدة . حدجه بنظرة نفاذة . توجس حسن ، قال بطريقته المتخفنة :

— على اى جزء من الدراسة ، تقع هذه النظرة ؟

تحدث الوزير :

— الدراسة جيدة . الرئيس راض عنها . ولكن هناك ملاحظتين : الاولى اين العنصر الدينى ؟

— هل هذه الملاحظة ابداها الرئيس ؟

— نعم . الرئيس يتفق معك فى ان الدين اراد الله به الا يتدخل فى التنظيم الاقتصادى للخلق . فالنظام الاقتصادى يخضع لتطور العقل الانسانى ، ومصلحة الكافة ، ويجب ان يكون نظاما يليق بالانسان ، الذى كرمه الله ، واعتبره اشرف مخلوقاته .

— عظيم . الرئيس يؤيد وجهة نظرى .

— ومع ذلك ، فهو يرى الاديان مسالة اساسية بالنسبة للمجتمع المصرى . وانت تعلم ان الراسماليين ، وحلفاءهم من المتحدثين بالاديان ، وخصوم الاشتراكية فى كل مكان ، يرمونها بالالحاد . وذلك خدمة لمصالحهم ، واعطاء لمسة مقدسة من الاديان — كذبا وبهتانا — لتبرير استغلالهم وجشعهم . يعاونهم فى ذلك انتشار الامية ، والوعى المتخلف فى البلاد الفقيرة . لهذا ترى القيادة ان تفوت على الرجعيين غرضهم ، وان ينص على الدين كدعامة من دعامات النظام .

— اتفق مع الرئيس تماما فى هذا التفسير . لكن الصعوبة ، هى كيف نقحم على نظام اقتصادى علمى نصا روحيا ؟

— هذا هو دورك .

— سأحاول .

استأذن حسن فى الانصراف . فاستبقاه الوزير قائلا :

— مازال الحوار سجالا يا دكتور ... الملاحظة الثانية : اين مكان الراسمالية الوطنية فى النظام ؟

تململ حسن . ثم قال :

— أهذه ملاحظة القائد كذلك ؟

تردد الوزير ، واجاب :

— لا . هذه ملاحظتى انا .

الحمد لله . انت مقدور عليك ! تشجع حسن للرد :

— احساسى يقول : ان الرئيس لم يبد هذه الملاحظة عن قصد . فالراسمالية والاشتراكية نظامان متعارضان . وسيظل التناقض بينهمـــا قائما ، الى أن يفترس أحدهما الآخر . والمفروض طبقا للمنهج التاريخى العلمى ، أن المتناقضات داخل الراسمالية ، ستقوض دعائمها . وتحل محلها الاشتراكية . لكن هذا يتطلب ظروفا موضوعية ناضجة . تتطور فيها وسائل الانتاج . وتسيطر القوة العاملة على هذه الوسائل . وهذا يتطلب وعيـــا قويا . ووقتا لنضوج هذا الوعى . وحينما تغيب هـــذه الشروط ، فان الراسمالية « وطنية » كانت أم غير وطنية ، سوف تفتك بالاشتراكية الوليدة. لا سيما ، وأنت تعلم ، انهحتىالقطاع العام ، يديره برجوازيون .

أعترى وجه الوزير شحوب عارض . لكنه تمكن من وجهه ، فاسترد لونه الطبيعى :

— لكن الراسمالية الوطنية مبدأ معلن من مبادىء ثورتنا .

— اكبر الظن ...... انه وضع « تكتيكيا » .

— تقصد انه ليس أصلا منأصولاشتراكيتنا . ولكنه وسيلة تكتيكية مؤقتة ، تحقق غرضا انتقاليا .

— تماما .

— اشكرك . اضف الفقرة الخاصة بالدين ، واعد لى البحث .

اضاف الفقرة الدينية . سعدكثيرا بالدراسة ، وبقبولها من القمة امر الرئيس بأن توزع على أعضاء التنظيم الطليعى . نتج عن هذه الورقة كسبان كبيران : أن « الاشتراكية العربية » ، اصبح يطلق عليها « التطبيق العربى للاشتراكية » ، وأن الراسمالية « الوطنية » لم تذكر من بين قوى الشعب العامل . على أن هذه العبارة الاخيرة بقيت موجودة فى خطاب القادة ، وفى التنظيمات السياسية .

خاض حسن معارك كثيرة لترسيخهذين المبداين . منها المعركة التى شنها على فريق « الاشتراكية العربية » فى مجلس محافظة القاهرة . كان هو عضوا منتخبا فى المجلس ، وكان هناك اعضاء معينون . قام استاذ جامعى « لامع » ، ليعلم الناس « اصول الاشتراكية العربية » . كـــان « لامعا » بكل ادوات « التلميع » المتعارف عليها فى مصر : استاذ فى الجامعة . محدث لبق . عالم . لكن « حداقته » كانت اكثر من علمه . سليط اللسان ، اتخذ من السياسة « تجارة » رابحة ، كما فعل فى العلم . له علاقات فاخرة بكل القوى المضادة لتحرر الشعوب . علاقته بالامريكيين قوية ، وبشركاتهم . لديه عقود وتوكيلات معها . يدير مكاتب استثمارية لها . له علاقات مجزية كذلك « بسلاطين » البترول .

هذا الرجل نصب نفسه استاذا . يعلم اعضاء مجلس المحـــافظة الاشتراكية . قال كلاما قميئا . مسخ النظام . لم يجعله راسماليا فحسب ، قلبه الى مخلوق شائه . كانت الاستاذية وشخصيته واتصالاته ، قد خلعت عليه صفاقة وعدوانية ، وتعاليا واضحا .

لا مفر من ان يتصدى لهذا الرجل . انه لا شك ليس عضوا فى التنظيم الطليعى ، والا لقرا دراسته . اراد حسن الرد عليه ؛ أن يشذب هـــذا التعالى البرجوازى ، وأن يقص اجنحة هذا الوكيل للمؤسسات الراسمالية

والرجعية . بين ان الاشتراكية نظام علمى . لا يمكن ان توضع عليه ماركة مسجلة . هذه اشتراكية صنعت فى مصر . وتلك صنعت فى امريكا ! ومن الغريب أن هذا الاستاذ اختير وزيرا . ثم نائبا لرئيس الوزراء فى عهد الثورة الاشتراكية . ثم رئيسا للوزراء فى عهد الخليفة !

* * *

« شقة العازب » ، لم تعد تصلح بعد الزواج . زوجته جاءت من وسط نظيف متحضر . هى حقاقبلت ان تسكن معه . قوى اكبر منها اغرتها على القبول . طاقة فكرية وانسانية كبيرة : لماذا « تترف » ، وشعب باسره يغوص فى التخلف ؟ حب شفيف يجعل هذه الحياة الجافة ، مع من تحب ، لينة رضية . هذه المعانى جعلت من هذا العش الارضى ، مكانا اشبه بالفردوس . لكن من خصائص الفردوس ان يكون نظيفا . وهى تملك نظافته الداخلية . اما النظافة الخارجية فتخرج عن اختصاصها .

كان لاحدى غرف الشقة « فرندة » تطل على حوش قديم . كانا يجلسان فيها لتناول « شاى بعد الظهر » ! فجاة وقع المقدور : كومة من « الزبالة » ، انصبت علىراسيهما . لسوء الحظ ، حظيت برندا بنصيب اكبر . كم تمنى لو سقطت كلها عليه . فهو معتاد على هذا « التقليد » الجميل ! برندا رات الزبالة فى الشارع ، وامام البيوت ، والشقق . ربما تكون قد غضت الطرف عنها . لكن ان يقذف بها فوق شعرها الذهبى ، وثيابها الانيقة ، وهى سعيدة بشرب « شاى العصر » ، وتتخيل انها فى انجلترا ، فذلك امر كان وقعه سيئا عليها للغاية . لم تتمالك نفسها . انفجرت صارخة بصوت بحته المباغتة القذرة . اهذه هى مصر الجديدة ؟ اهذه هى الطبقة المتوسطة ؟ والمتوسطة العليا ؟

انسحبت برندا الى الداخل . انفجرت فى بكاء ، ادر مدامعها . عكر لون عينيها السماويتين بلون كالتراب . بذل جهدا فى التخفيف عنها . كان

قد بحث عن شقة فى منطقة اخرى فى نفس الحى . استأجرها . آثر ان يسكن الادوار العليا . حتى لا تنصب لعنة الطبقة المتوسطة « العليا » على راسيهما مرة اخرى . قال لها :

— سننتقل خـلال يومين .

احتضنته شاكرة . اراحت راسها على كتفه . هدأت نفسها .

وفى اليوم التالى . ذهب الى محلات « الموبيليا » . بدأ بغرفة النوم . لها اولوية ! لا يستطيع ان يؤثث الشقة كلها دفعة واحدة . الاربعون جنيها التى تخصم منها الدمغة والتأمين والمعاش ، لا تكفى . وفى اليوم الذى يليه ، تركا الشقة التى كانت الطبقة المتوسطة تتخذ منها « مزبلة » .

جزع حسن من القمامة ، لا لان منظرها مقزز ، ولا لانها تعيث فيها الجراثيم ورائحتها كريهة . ولكن لانها كشفت المستوى المعيشى المتردى لهذه الفئة العريضة التى تمثل وسط المجتمع . القمامة التى تلقى فى الصباح فيها بقايا الفول ، وبقع الطعمية على الورق ، واعواد الفجل الذابلة . وكان هذا شأنها فى المساء . وقمامة الظهر كذلك فقيرة . لم تظهر فيها آثار للعظام ، ودعك من الحديث عن اللحم .

الفرحة بالشقة الجديدة ، وبغرفة النوم الانيقة ، غطت على موضوع « الزبالة » وعلى مضامينها . الشقة الجديدة نقلة حضارية . اربعة غرف واسعة . صالة كبيرة ، شرفات وبلكونات من ثلاث وجهات : الشمال والجنوب والغرب . تطل على فضاء فسيح — فناء المدرسة الانجليزية . حيث تركض الخيل . الفرسان الصغار من التلاميذ ، الذين جاءوا من الطبقات العليا . يركبون الخيل . ويعدون للفروسية . ميراث الطبقات البرجوازية من عصور الاقطاع . لابد أن هؤلاء الفرسان وذويهم يقذفون بالزبالة على رؤوس الناس ! الشقة الجديدة من الناحية الغربية ، تقدم لوحة تاريخية ،

رومانسية : اهــرامات الجيزة الثلاث ، تطل عليهمــا من وراء الجيزة والقاهرة ! منظر أخاذ . حينما يحمر قرص الشــمس خلف الاهرامات ، ويتزركش الافق بغمامات شفقية ملونة ، تقدم لهما الطبيعة الحــنون ، والتاريخ التليد ، لحظات شاعرية ، تساقيا فيها كاس الحب مترعة .

عملت برندا مدرسة بالمدرسة الانجليزية . ارادت أن تسهم معه فى شراء الاثاث . رحب بعملها . لانه يعتقد أن المراة العاملة ، انسانة خلاقة . العمل يصقل الانسان ، ويضىء عقله . ويجعل منه مخلوقا منتجا ، يسهم فى تقدم مجتمعه . بدلا من ثقافة المطبخ ، والسرير ، التىتتميز بها ربات الصون ، والراقدات فى الخدور . عملها ،ودخلها كذلك سيرفعان من مستوى معيشتهما.

هو نفسه ، بدأ يعمل فىكل الاتجــاهات . ما أن عمل فى رياســة الجمهورية حتى أنهالت عليه أعمال اضافية ! رجاه الوزراء ، وعمداء الكليات ان يعاونهم فى مجالاتهم ! كليات الاقتصاد ، والحقوق ، والخدمة الاجتماعية ، والآداب بجامعة القاهرة ، وعين شمس ، وكلية الشرطة ، ومعهد الدراسات العربية العليا ، ومعهد التخطيط القومى ، تستدعيه للاسهام فى محاضراتها ! رحب بكل ذلك ، ولم يرفضه . محاضراته فى جامعة اسيوط يلقيها فى يومين . الخمسة أيام الاخرى ، يخصصها للقاهرة . كان يريد ان ينشر افكاره فى كل مكان . كان كذلك يريد أن يفرش شقته . مازالت غرفهــا خاوية ، عدا غرفة النوم .

هذه الاعمال المرهقة ، ذكرته بأمر قاسى منه كثيرا فى وسية الخواجة اليونانى . حينما ذهب الى كلية الاقتصاد ، ليقبض اجره عن المحاضرات . فوجىء بأنهم يعطونه جنيها فى المحاضرة ! ذكره الجنيه بمرتبه فى وســية الخواجة . ومع ذلك فقد كان هناك فارق بين جنيه الوسية ، وجنيه كلية الاقتصاد . كان الاخير تنقصه عشرة قروش دمغة ــ فيصبح تسعين قرشا . وكانت الرحلة اليه شاقة : يركب المترو أو الاوتوبيس من مصر الجديدة الى ميدان المحطة (رمسيس) ، ومنها أوتوبيس آخر الى الجامعة . يتشعلق

كما يتشعلق الركاب . بل كان عبؤه اكبر . يحمل شنطة ثقيلة ، فيها الكتب والمحاضرات . كان ذلك يكلفه عشرين قرشا ، اجرة المواصلات . يصبح الباقى سبعين قرشا اجر استاذ يلقى حصيلة عقله ، ليكون جيلا جامعيا جديدا .

لذلك كان وصف « استاذ الشنطة » الذى اطلق على اساتذة الجامعة فى تلك الوقت ، كان واقعيا ، شديد الواقعية .

بهذا الدخل الاضافى ، والاصلى ، ومرتب برندا ، اشترى ــ على حلقات ــ باقى الاثاث . واخذت برندا تضع لمسات جمالية للشقة ، مستخدمة فنها الرفيع . وهبت الريح عليهما رخاء .

* * *

الرحلة الاسبوعية الى اسيوط ، ممتعة . اقنع محمد عبيد ، بأن يذهب معه لتدريس الاحصاء فى جامعة اسيوط .

القطار المجرى فخيم . صالون الدرجــة الاولى ، المكيف ، يغرى بالاستعلاء . لمح فى وجه عبيد ، وفى جلسته تعاليا . خاطبه قائلا :

ــ اظن انت ، أول لمرة ، تركب مثل هذا القطار .

ــ طبعا ، البركة فيك .

ــ اراك مستمتعا ، مستعليا .

ــ دعنا ننعم بآلاء الجامعة ، والرياسة .

سكت محمد عبيد لحظة ، ثم أردف :

ــ الذى يشغلنى ، كيف يمكن لبلد شيوعى ، ان ينتج قطارا بمثل تلك الفخامة ؟

ــ شغلتك الفخامة ، ولم تشغلك التكنولوجيا ، والفن الصناعى الذى وضع فيه .

— دائما تنحرف بنا عن متاع الحياة الدنيا !

— الصناعة المتقنة ، هى التى تستهوينى .

— الامر لله . سأحرم نفسى من المتعة ، وانعم معك بالصناعة !

— الم يخطر ببالك يا ابا عبده ، ان المجر بلد شبه متخلف .

— الم يخطر ببالك يا ابا على ، انها كانت محتلة بواسطة السلط العثمانية ، تماما كما كانت مصر .

— لماذا ينهضون ، ونتخلف ؟

— هذا سؤال صعب . كل ما استطيع قوله ، انهم ركزوا على الصناعا وتخصصوا فى انتاج القطارات ، ومعدات السكك الحديدية ، فوصلوا ال هذه الدرجة .

— الامر يتطلب نظرة اعمق . البلد كان متخلفا ، ونشوء هذه الصناع المتقدمة الثقيلة ، وتفوقها على انجلترا ، التى قامت فيها الصناعة منذ نحو مائتى سنة ، امر جدير بالتفكير .

— انت يا عم ، متخصص ، وانا مبتدىء .

— لا تضع هذا « الاكلشيه »دائما ، تهرب .

— انا « مش قدك » .

— لكنك خطير . اعتقد أن للنظام الانتاجى ، وللنظام الاقتصـــادى الاجتماعى دخلا فى هذا الموضوع .

— هذه لعبتـــك .

— اعطاء وزن للصناعة الانتاجية الثقيلة فى نظام التخطيط ، يعتبر سببا من أسباب التقدم .

— لكن هذا سبب فنى ، يتعلق بتخطيط الموارد .

— من الصعب فصل السبب الفنى ، عن الاعتبارات الاجتماعية

والمادية . فمادام الشعب يتملك ، ويسيطر على وسائل الانتاج ، جماعيا ، اذن ناتج العمل ، يستخدم منه جزء فى الاستهلاك الضرورى للناس قاطبة ، وجزء يخصص للصناعة الثقيلة . فيتسارع معدل التنمية . الانفاق الترف للقلة المسيطرة فى المجتمع الراسمالى ، يضيع الموارد . وهى توضع فى الانتاج الثقيل ، فى الاقتصاد الاشتراكى .

— الحق ، انك تثيرنى ، وتجر رجلى . اعتقـــد أن النظام الاشتراكى فى المجر ، وغيرها من دول البلقان ، شبه المتخلفة ، يثير موضوعا آخـــر متصلا بالفكرة العنصرية .

— الله يخرب عقلك . فكرتنى .

— لا . انتظر ، ياحلو ، لما اقول فكرتى .

— تفضـــل .

— الانجليز والامريكيون ، او الانجلوسكسونيون ، والالمان الآريون ، يقولون بأن القدرة على القيام بالمشروعات ، والعقلية العلمية فى الصناعة ، مقصورة على الجنس الابيض ! وعلى ذلك فسكان افريقيا ، وآسيا ، وأمريكا اللاتينية متخلفون ، لانهم اجناس ملونة . تجربة البلقان تدحض هذا الكلام . انت تعرف أن المجر ، والبلغار قبائل جاءت من آسيا الوسطى ، وبـــلاد المغـــول .

— اليابانيون مثال آخر . السبب الاكبر فى تقدمهم أن بلادهم هى الوحيدة التى نجت من الاستعمار .

الحديث مغر . القطار يسرى فى يسر . لم يشعرا ، الا والقطار يقف فى مراغة . ترك حسن زميله ، ينعم بالمقعد الفاخر ، والتكييف المنعش . جذب بصره منظر الناس على الرصيف . كانوا لا يركبون القطار . هذا المجرى المكيف ، تذاكره مرتفعة الثمن . لا يقدر عليها هؤلاء الحفاة . لابسو الجلاليب الزرقاء الكالحة . انهم ينتظرون « القشاش » . قطار الشعب . هل فرض على هذا الشعب ان يكون دائما شعبا من الدرجة الثالثة ؟

استغرق حسن فى هذا المنظر وحده . ترك محمد عبيد ينام فى العسل . هذه الوجوه العظمية ، الايدى المعروقة ، الارجل المشققة ، ليست غريبة عليه . شهدها منذ عشرين عاما فى محطة القاهرة ، حين طارده الخواجة . وطرده من وسيته . تطوع فى الجيش . أستقبلته محطة « باب الحديد » ، بعمال التراحيل . ضاقت بهم وسايا الاقاليم . نزحوا الى القاهرة ، عاصمة الوسية الكبرى . هؤلاء هم زملاؤهم . مازالوا يحملون العيش المصنوع من الاذرة الحمراء ، فى قفف ، واجولة ممزقة . أمن الممكن ان يظل البؤس يفعل افاعيله بهم ، بعد ربع قرن من الزمان ؟

انقذه القطار السريع الفاخر من المنظر ، الذى بدا يقرح وجدانه . ليس لدى هذا القطار وركابه وقت ، يفقدونه فى التأمل فى المشكلة الاجتماعية.

اخذ القطار يطوى الارض . تجلجل عجلاته على القضبان . اخترق مركز مراغة فى نحو ساعة ونصف — ماية وخمسون كيلو متر — تراءت له صور تلك الوسايا الشاسعة ، قبل الاصلاح الزراعى : معظمها لاسرة واحدة. منها شيخ للازهر ، وابن له وزيرا للداخلية . ما العلاقة بين المستغلين للاديان والمستغلين للسلطة ؟ الفريقان يحميان النظام الاقطاعى الرأسمالى . يكفلان لـه الامن . بعض المشايخ والقساوسة والاحبار ، يستخدمون الاديان لاستغلال الناس . يحاولون ان يلبسوا الاستغلال رداء مقدسا . ابنـاء المشايخ ، الوزراء ، عن طريق العساكر والقهر ، يحمون النظام . المنادون بالعدالة فى نظرهم ، مخربون ملحدون هدامون .

وصل القطار الى المحطة التالية . راى عمال التراحيل ، مرة اخرى . منظر محمد عبيد النائم فى العسل يستفزه . لابد ان يستيقظ ليشاركه المشهد الممض :

— محمد ، محمد .

تمطع وفرك عينيه ، ثم قال :

— مـــاذا ؟

— استيقظ لترى المنظر . .

فتح محمد عبيد عينيه . اشار حسن بيده الى المجموعات البشرية ، التى يغص بها الرصيف :

— اى منظر ؟ هؤلاء ناس .

— ناس ؟ هذا البشر الممصوص . حامل الخبز الاحمر . الا يثيرك ؟

— الا تستطيع أن تتخفف قليلا . فتريح وتستريح ؟

— كيف ، يا محمد . والانسان حولى ، لا يشبه الانسان ؟

— هل اخترتنى لارافقك الى اسيوط ، لتنفث فى عناءاتك ؟

— انك لا تعرف طعم الخبز ، المصنوعة من الذرة الحمراء . لهـذا لم يمس المنظر وجدانك .

— يبدو ان هذا قدرى معك . لابد ان ندلف الى البؤس . حتى ونحن فى هذه العربة المجرية المترفة .

بلع محمد عبيد ريقه . « ودعك » عينيه مرة اخرى ، وقال :

— كنت احلم احلاما وردية ،لاول مرة فى حياتى .

— كيف تحلم احلاما وردية ، والحديقة كلها اشواك .

— « من نفسى » يا اخى !

— فى الفترة التى نمت فيها فاتتك ظاهرة طريفة .

— عمال التراحيل فى المحطة السابقة ؟

— ليس هذا فحسب . لكن القطار مرق كالسهم فى اقطاعية مراغة استغرق المروق ساعة ونصف .

— ماذا تعنى ؟

— هذا طول الاقطاعية التى كان يملكها المتحدثون باسم الاديان . والممسكون بناصية السلطة والامن .

— يبدو انك تخصصت فى هذا اللون من الظواهر . انا لا استطيع مجاراتك .

— هذه الظاهرة تكشف الذين يستخدمون الاديان لاستغلال الشعوب : شيخ للازهر ، وابنه وزير للداخلية يملكان آلاف الافدنة .

ايقظت هذه الملاحظة محمد . وحينما يستيقظ تنشط ذاكرته .

— المستغلون للاديان وللشعوب ، وحلفاء الاستعمار ، الامثلة عليهم ، متعددة عبر التاريخ . أتذكر موضوع الشيخ خلف . مفتى الديار المصرية مع شركة الكوكاكولا الامريكية . دعا احمد حسين فى حملته على الشركات الاجنبية الى مقاطعة الكوكاكولا والبيبسى كولا ، وغيرها . لجأ هو ايضا الى الدين . قال أن هذه المشروبات ، يدخل فى صناعتها كبد الخنزير !

وفى اليوم التالى لم تبع هذه الشركات زجاجة واحدة . اوشكت على الافلاس . رأس المال الاجنبى حليف لرأس المال المحلى ، وللكهنوت الدينى . فى اليوم التالى صدرت فتوى من الشيخ خلف :

— القائلون بأن الكوكاكولا ، والبيبسى كولا ، وشبيهاتها مصنوعة من كبد الخنزير ، كذابون آثمون . هذه مشروبات حلال زلال ! ثم جاء بآية من القرآن الشريف : « يسألونك ماذا احل لهم ، قل احل لهم الطيبات » كان ابنه رئيسا لمجلس ادارة شركة منها :

— يابو حميد ، ياواعر .

— لعلك ترضى عنا .

— ليس رضاء ، لكنه اعجاب .

— نحن تلامذتك .

— لن تفيد من ذلك .

* * *

— ١٩ —

كان حسن ومحمد عبيد فى طريقهما الى مكتب البحوث . سمعا تصفيقا

وهتافا . توجها الى مصدره . حشد كبير . يخطب فيه المرشحون للجنة الاتحاد الاشتراكى بوحدة رئاسة الجمهورية .

قال محمد عبيد :

— لماذا لا تتقدم لهذه الانتخابات ؟

— هذه التنظيمات ، لا تقنعنى .

— انت تسهم مع الثورة فى بناء اقتصاد اشتراكى . لماذا لا تسهم فى الجانب السياسى ؟ انت لا تستطيع ان تعيش بعيدا عن الجماهير .

المرشحون وخطبهم . التصفيق والهتاف . حب العمل مع الجماهير . اغراءات محمد عبيد . جعلته يدلى بدلوه . خطب . انفعل الناس . خاض المعركة ... نجح وانتصر فيها . رغم انه من اسيوط . ويعمل باحثا بعيدا عن الجماهير . وفى وحدة صعبة . انهزم فيها وكلاء وزارات !

ثم تقدم لانتخابات أمين الاتحاد بمصر الجديدة . دائرة شاسعة . ثمانون وحدة اساسية : مصانع ، مدارس ، مستشفيات ، مصالح حكومية . انتخب امينا . اصبح جزءا من النظام السياسى . لم يعد نشاطه مقصورا على الجانب الاقتصادى .

مصر الجديدة . الدائرة التى يسكنها الزعيم . يقول فيها اكبر عدد من الناس لا « لعبد الناصر » فى استفتاءات انتخاب رئيس الجمهورية ! تتجمع فيها قوى عديدة ، مضادة للثورة : عدد كبير من الراسماليين ، والاقطاعيين ، والتجار ، الذين أممت ممتلكاتهم . فيها طوائف دينية ، ناقمة على الثورة . ومجموعة كبيرة من المثقفين ، الذين لا يرتضون الحكم الدكتاتورى العسكرى ، حتى ولو قام باصلاحات اجتماعية . هم يعشقون الديمقراطية بغض النظر عن مضمون الحكم الاقتصادى الاجتماعى .

وكان هناك محام ، تتجمع حوله هذه القوى . يهزم فى انتخابات مجلس الامة ، شخصا يدعى حمادة شاهين منسوب للنظام .

جاءه الوزير عبد المجيد فريد . قال له :

— الرئيس يرى أن تتقدم لانتخابات مجلس الامة ، فى مصر الجديدة . واجــاب :

— انا غير معروف فى مصر الجديدة . لم اتول الامانة العامة للاتحاد ، الا منذ اسبوعين .

— لا يهم . أنت من جامعة اسيوط . وفزت فى انتخابات رياســة الجمهورية . ونجحت فى مصر الجديدة كلها ، فأصبحت أمينا .

— اذا كان لابد لى أن اتقدم للانتخابات ، فدائرة بلدى كفر صقر اولى . والناس هناك يعرفوننى .

— أنت مختار لمصر الجديدة بالذات ، لحكمة ستعرفها فيما بعد .

كانت امامه عشرة أيام فحسب ، للقيام بدعايته الانتخابية . مسألة شاقة . ثمانون وحدة أساسية . دائرة شاسعة تضم منشية البكرى ، ومدينة نصر ، ومصر الجديدة حتى المطار . المرشحان الآخران : زكريا خميس المحامى ، وحمادة شاهين يقيمان فى الدائرة منذ ثلاثين عاما . خبرة بالانتاخابات . لديهما امتيازات أحدهما يسـيطر على القطاع الخاص ، والثانى : رئيس مجلس ادارة شركة كبيرة فى القطاع العام . الاموال ، والانصار ، والعربات ، تحت أيديهما . هو لا يملك الا عمله . سـيقوم باتصالاته بالناس مشيا على الاقدام . ليس لديه سيارة . مازال يركب الاوتوبيس ، أو بعبارة « ادق » من « متشعبطى » الاوتوبيس . لقد كان جنديا فى المشاة ، حتى فى الجيش ، لم يكن جنديا راكبا !

بدات المهمة الشاقة . زار المصانع ، والمدارس ، والمستشفيات ، والمصالح . كانت أسلحته : تاريخه ، ومبادئه .

كان أروع استقبال له فى المصانع ، والورش . تحدث اليهم بلغة العامل الى رفاقه العمال . الم يكن عاملا فى مزرعة الخواجة ؟ كشف عن عناءاتهم ،

واثار امانيهم . ذهب الى المدارس . تحدث الى المدرسين بلغة المدرس الزميل . اليس مدرسا فى جامعة اسيوط ؟ . وفعل نفس الشىء مع العاملين فى المصالح الحكومية . اسف ، اذ لم يستطع ان يذهب للجيش ، ليقول لاخوانه العساكر : انه عسكرى مثلهم .

ابرز هذا المعنى فى لقاء انتخابى . نظمه الوطنى الكبير فتحى رضوان . كان مشرفا على الانتخابات فى شرق القاهرة . قدم المرشـحون أنفسهم للجمهور .

قال يقدم نفسه : انه تتجمع فيه قوى الشعب العامل ، التى تمثلها ثورة يوليو . فهو من العمال ، والفلاحين ، والجنود ، والمثقفين جميعا . طبقة واحدة لم يسعده حظه بالانتماء اليها ، هى الراسمالية الوطنية !

هذه جولاته بالنهار . اما جولاته المسائية ، فكانت لا تقل اثارة . جعل من مصر الجديدة ، ومقاهيها ، وشوارعها ، شيئا اشبه بالحى اللاتينى فى باريس . عندما كان خطباء الثورة الفرنسية يثيرون حماس الناس . يقف على الكراسى والمناضد ، والارصفة يخطب . ويشعل وعى الجماهير . اصبحت شوارع وميادين هارون الرشيد ، والنزهة ، والاهرام ، ونورماندى ، وعثمان بن عفان ، وروكسى ، ساحات للخطابة .

لم يكن التنظيم الذى يعنى بحملته الانتخابية جيدا . بعض المتطوعين من زملائه اشتركوا فى المهمة . المتطوع يشكر على جهده ، بغض النظر عن النتيجة . مجموع اصواته تقل خمسين صوتا عن حمادة شاهين . اعيد الإنتخاب بين حمادة وخميس . اعطوا لحمادة اصوات عساكر الجيش ، رغم انه عسكرى . نال عددا كبيرا من الاصوات فى فترة قصيرة ، كانت كافية لفوزه ، لولا اصوات العساكر ، وسوء التنظيم .

احدث اعطاء أصوات العساكر زملائه لشاهين ، فى نفسه الما . كان هذا من « شلة » سمير شريف ، احد المقربين من الرئيس .

بذل حسن مجهودا شاقا في المعركة الانتخابية . احدثت الهزيمة لــه صدمة . « الشللية » هى العنصر الفعال . قرر ان يتخفف . اتفق مع « اركان حربه ! » فى المعركة ، على ان يغادروا مصر الجديدة ، الى مكان مجهول . ليستريحوا من وعثاء المعركــة . اقترح ابراهيم العشــماوى « المحامى » أن يذهبوا الى منطقة القناة فى فايد . له « فلة » على القناة ، على المــاء مباشرة . القناة تتلاشى فى بحيرة التمساح . رقعة فسيحة من الماء الهادىء الرقراق . اشعة الشمس حانية . يزيد النسيم العذب من حنوها . خلعوا لباسهم ، ولباس الانتخابات . تركوا اجسادهم المنهوكة تدلكهــا الشمس والماء والهواء . جاءوا بسمك طازج ، صعد لتوه من القناة . اكلوا بشهية . نسوا الانتخابات .

بعد يومين من الاستلقاء على الشاطىء ، بدات الوساوس تنخر فى الهدوء . قال حسن لزملائه :

— نحن نشكر ابراهيم « خليلنا » . لكنكم تدركون ان قوى النظـــام الظاهرة والمستترة ، انسها وجنها ، يبحثون عنا الآن فى كل مكان .

وقال ابراهيم :

— ومالهم بنا ؟ خذلونا فى الانتخابات . اخذوا اصواتنا ، واعطوها لحمادة شاهين .

— انا احس انهم سيطلبون منى ان اعاون شاهين ، فى معركته ضـــد خميس . والا سيفترسه ، كما فعل من قبل .

ورد عرب ، احد الاصدقاء ، الذى اسهم معه فى المعركة الانتخابية :

— دعه يفترســـه .

— انتم تعلمون عقلية بعض المشرفين على هذا النظام ، وهم لا يرحمون اباهم . ونحن لا نملك اسلحة غير ثقافتنا . وهى سلاح غير فعال ، فى الدنيا التى نعيش فيها . انا اقترح أن نعود اليوم . فقد نعمنا بفترة استجمام جميلة فى فيلا ابراهيم الانيقة .

وافقوا . شدوا الرحال الى القاهرة . المخابرات والمباحث ، القوى الخفية ، تتسلح بأدوات للمعرفة والتحرى ، لا تتفوق عليها الا قدرة الله على علم الغيب . هذه القوى بحثت عنهم فى كل مكان . فى القاهرة ، واسيوط، والشرقية . لا اثر لهم . اذن هذه القوى الرهيبة ، احيانا لا تعلم . كانوا فى مكان مفتوح للسماء والارض والماء . لم يكونوا فى جحور .

الدنيا قلبت راسا على عقب . سمير شريف ، اتصل بنائب الوزير فى رياسة الجمهورية . ساله عن حسن . التوتر بلغ اقصاه بينهما . قال سمير لنائب الوزير « اذا لم نكن نستطيع معرفة اين حسن ، فالاجدر بنا ان نصفى قواتنا ، ونذهب لمنازلنا » .

وعندما وصل حسن الى منزله ، وجد مظاهرة كبيرة : وزير الرياسة . نائب الوزير . مدير وسكرتير ، وسعاة مكتب الوزير والنائب . بادره نائب الوزير :

— اين كنت ؟

— فى فــايد .

— لقد قلبت عليك الرياسة البلد .

— البلد كلهــا ؟

— لا وقت للهزل . اذهب مباشرة الآن الى سمير شريف . فقد جند اجهزة الدولة كلها للبحث عنك .

— انا متعب . سأذهب اليه غدا . الوقت متأخر الآن .

— لابد أن تذهب فورا . لا اريد ان اقول لك اكثر من ذلك . انهم يملكون ان يفعلوا اى شىء . انت استاذ ، وعاقل ، ومكافح . الريح عاتية . لا تجعلها تعصف بك .

ذهب حسن فى سيارة نائب الوزير الى سمير شريف . اعتذر النائب بانه لن يصحبه : « الانسب ان تذهب وحدك » .

استقبله سمير شريف عند باب مكتبه بالاحضان ! وقبله .

ـ اتدرى لماذا اقبلك ؟

ـلانى ثورى ، وانت كذلك !

ـ لا . لانك نجحت فى مصر الجديدة !

ـ لكنى سقطت فى الانتخابات .

ـ نلت عددا كبيرا من الاصوات ، فى دائرة صعبة ، وفى فترة وجيزة ، ودون انفاق هذا انتصار يقدره الرئيس ، والثوريون من حوله

ـ لكن الثوريين تخلوا عنى . وتركونى فى النضال وحدى .

ـ من قال هـذا ؟

ـ قال لى البعض : اعطيتم اصوات العساكر لشاهين . بينما انا زميلهم ، والجدير بأصواتهم .

ـ ليس لك شأن بهذه الامور . انت نجحت فى مصر الجديدة . هـذا هو كلام القائد ، وهذا يكفيك .

ـ رضا القائد يفخر به المرء .

ـ القائد كذلك ، له تعليمات اخرى .

ـ أنا على استعداد لتنفيذها .

ـ تقول التعليمات : ان تعاون حمادة شاهين . انت تعلم انه ينتمى الى الثورة .

ـ لا علم لى بشىء . اذا كان ينتمى الى الثورة ، لماذا رشحتمونى ضـده ؟

نظر سمير شريف اليه بعينيه البارقتين . ثم قال :

ـ حمادة شاهين كذلك ، عضو فى التنظيم الطليعى .

ـ اهـو عضـو ؟

انتقل سمير شريف من مقعده . ذهب الى منضدة مكتبه ، ليحضر مصحفا وليقسم عليه :

ـ وحياة هذا المصحف الشريف ، ان شاهين عضو بالتنظيم ، وان الرئيس قال لى ، ان ابلغك بمعاونته فى معركة الاعادة بينه وبين خميس .

اضطرب حسن لهذا السلوك . هذا الرجل ، يسعى اكابر الدولة للقائه. وهو يعين الوزراء ، ورؤساء المؤسسات ، وقادة الاجهزة الكبرى ، ويمسك بقوى المخابرات ، والمباحث العامة ، والخاصة ، السفلية والعلوية . هذا الرجل يقسم بالمصحف ، ان القيادة تدعوه لمعاونة شاهين ! تأثر كثيرا ، وقال :

ـ لا داعى لان تقسم سيادتك . انا اصدقك . انت رسول القائد الكبير لنا . فلست فى حاجة للقسم على المصحف . وها انذا رهن اشارتك . ما هو لون المساعدة التى تريد تقديمها لشاهين ؟ هل انزل بثقلى كله خلفه ؟ ام هل اؤيده تأييدا كافيا لانجاحه ، اى اعطيه مجهودا وسطا ؟

دهش حسن كثيرا ، اذ كان الجواب :

ـ اعطه فقط جرعة تأييد متوسطة ، كافية لانجاحه !

ـ لك هذا . وشكرا على استقبالك ، وعلى قبلتك التى اسعدتنى كثيرا .

ـ « وانت لسه شفت حاجة . ده فيه قبل اشد ! » .

يا ساتر يارب ! ودعه ، وانصرف . لا يدرى ان كانت القبلة قد اسعدته حقا . على الرغم من ان سمير شريف ، كان وسيما ، وردى الخدود ، منساب الشارب ، الا ان ملمس قبلته كان شائكا . والله وحده يعلم مدى ملمسها الخفى .

انغمر فى موكب حمادة شاهين ، يدعو لـه الناخبين ، ويخطب فى

تجمعاته . كانت العبارة التى يرددها ، والتى يبرر بها تاييده لخصم الامس :
« انكم اخترتمونى ، لانى كنت احمل علم الاشتراكية خفاقا . الهدف ان تظل رايات الاشتراكية مرفوعة ، ممتشقة . انا اقدم اليوم لكم من يحمل الراية ، وسيان حملتها انا ، او حملها رفيق » !

كان يثق بقائد الثورة ثقة كبرى . ولو أنه لم يجلس اليه جلسة خاصة « راسا لراس » ، كما يقول الفرنسيون . اعضاء مجلس الثورة ، رئيس الوزراء ، وزير الرياسة ، يحملون اليه افكاره . لهذا عندما كان يدعو لشاهين، لم يكن متصنعا . كان يعتقد أن هذا الرجل ثورى ، مادام الرئيس يرشحه . الحق أن هذه القناعة لم تكن راسخة فى وجدانه . فالمظاهر التى تنخلع على شاهين : الفلة الانيقة ، السيارة الفارهة ، العمارات الشاهقة ، رئيس مجلس ادارة لشركة كبرى ، تعمل فى عشرات الملايين من الجنيهات ، القطاع العام الذى يمرح فيه ، كل هذا كان يشككه فى انه ثورى او اشتراكى . لكن الايمان التام بالزعيم غلب على قناعته .

اكتسح شاهين منافسه خميس . اول مرة يفوز عليه . رضيت الرياسة بنجاحه ورضيت عن حسن . وبرضائها ، ترضى كل درجات القيادة .

* * *

عظات ، يكتسبها من المعركة الانتخابية . بينت له ان الشعب ، بكادحيه ومثقفيه ، يستجيب للمبادىء الثورية . من الممكن ان يتكتل ليتحرر من الاستغلال . الناس يلتفون حول الانسان شفيف الوجدان . الذى يضرب على اوتار معاناتهم . ويعزف على نغمة الحق ، والخير ، والجمال . الحق فى ان يملك الناس جميعا مواردهم ، ولا تغتصبها القلة الشرهة . والخير فى اقتسام الدخل القومى قسمة عادلة ، لا قسمة ضيزى . والجمال الذى يرتفع بالمجتمع الى مستوى ينعدم فيه القبح والاستغلال .

اكتسب تجربة الغوص فى مكنونات النـاس . زارهم فى الورش ، والمعامل ، والمصانع ، وحجر الدراسة ، وعنابر المرضى . احس نبضهم ، اصبح جزءا من نبضه . بان له أن احلال نظام عادل محل نظام ظالم ، لا يتم الا بالجماهير ، التى تحتشد للتحرر من ظالميها .

تعلم ان الناس ليسوا كلهم فاسدين ، ومرتشين ، ومرتزقة . تجمع حوله نفر من المثقفين ، والعمال ، والطوائف الشعبية ، دون أن يعرفهم . التفوا حوله . لم يكلفوه مليما . فهو ليس لديه ملاليم كثيرة . كانوا يأتون من كل فج ، من احياء القاهرة البعيدة ، ومن تربته ، والقرى المجاورة لها .

اصابته رعشة هزت كيانه . راى فى موكبه الانتخابى ، زميلين له فى وسية الخواجة اليونانى : محمد محود الفلاح ، ومحمد خطـاب الخفير ! اخذهما بالاحضان . كان يحضن نضالا عمره ثلاثون عاما :

ـ لماذا تحضران ، وتتعبان ، وقد تقدم العمر ؟

وسمع صوت محمد محمود :

ـ ان لك فى عنقى جميلا ، سيظل معلقا به الى أن القى ربى .

ـ استغفر الله ـ يا عم محمد ـ ما صنعت شيئا .

ـ اتذكر شوال الاذرة ، الذى « سرقته » لنا من مخزن الخواجة فى جنح الليل ! اطعمنى ، واحيانى ، وبناتى .

ـ الاذرة كانت من حقك . نهب الخواجة عرقك ، فرددته اليك .

ـ لكنهم يعتبرونها سرقة . ولو ضبطنا كان مصيرنا السجن معا

ـ ربنا سترها هل مازلت فى وسية الخواجة اليونانى ؟

ـ هجرتها ، بعد ان اشتد بنا الجوع ، وازدادت قسوة الخواجة وقد حمدت الله على تركها .

— اين ذهبت ؟

كنت محظوظا . انتقلت الى تفتيش الامير محمد على ، المجاور لارض الخواجة .

— هل تستجير بالامير من الخواجة ؟ !

— ربنا كان يحبنا . فانا انتقلت من عزبة الخواجة ، واستاجرت فدانين من تفتيش الامير . وبعد سنة واحدة ، نفذ جمال عبد الناصر الاصـــلاح الزراعى . وكنت محظوظا اذ اصبح الفدانان ملكا لى .

— وكيف حالك يا عم محمد ، بعد الاصلاح الزراعى ؟

— الحال عال العال . الفرق كبير ، بين أن نزرع بالمزارعة ، او بالايجار المرتفع عند الخواجة او الامير ، وأن تكون الارض ملكنا . لم يكن يبقى لنا شىء كما تعلم . كان الخواجة ينهبنا بالقانون وبالسرقة . وانت تذكر انك رحت ضحيتنا . كنت تود أن تحافظ على محصولاتنا ، وتجرى لنا حسابات امينة ، فطردك الخواجة .

— يبدو انك سعيد يا عم محمد .

— طبعا . الارض ملكى — فدانان — محصولهما يدخل دارى . وقطنها ينفق على عيالى . لم تعد المشنة « فاضية » ، كما كنت تراها . ولم يعد هناك كلاب تاكل « الحمام » ، ونموت نحن من الجوع . وهتف محمد محمود هتافا ، كان قد ابتكره صديق « وكيل النائب العام ! » : « عاش مدرس الاشتراكية » . وردد الناس الهتاف .

قال حسن لمحمد محمود :

— مازال هناك كلاب تاكل الحمام يا عم محمد ؟

— على الاقل ، اختفت الكلاب ، او عدد كبير منها ، من الريف .

— احسبك الآن تاكل لحمة وخضار ، بدلا من العيش الاذرة والمخلل .

— طبعا الاكل تحسن ، ولكنه مازال متواضعا : ناكل لحمة مرة كل

سبوعين ، كل ثلاثة ، كل شهر . لكن « العيش » موجود وخير الله عال .

نظر محمد محمود الى حسن بعينيه الصغيرتين ، اللتين احاطهما الزمن والوسية ، بهالة سوداء ، وقال :

— « الاشيا معدن » . يدوب الفدانين ياكلونا لحمة فى الشهر مرة . كنا لا نتذوقها الا فى المواسم !

اعطى الرجل ، الذى لم يظهر اثر اللحمة الشهرية على جسده العظمى ، صورة معقولة لفلاح الاصلاح الزراعى . قارنها حسن بدراسة قام بها عن الفلاحين . وجدها قريبة . يظهر أن الفلاحين يعرفون ما يعرفه « المشتغلون بالعلم » !

كان محمد خطاب يتنمر للحديث . الرجل الذى كان قويا . عريض الفكين ، اسود الشعر ، فى الوسية اليونانية ، غضنه الزمن . وسكب على راسه ولحيته لونا كالحليب . مازالت عيناه تبرقان حيوية وذكاء . عيل صبره ، طالت المناقشة مع محمد محمود . وهو يتوق للكلام مع حسن . التفت اليه وقال له :

— وانت ياعم محمد خطاب . ماذا فعل الله بك ؟

— خيرا ، « يا سيدنا الافندى » .

كانت كلمة « سيدنا الافندى » ، أو « افندينا » ، هى لغة الخطاب بينه وبين حسن لما كان ينامعه فى جرن الوسية :

— هل مازلت فى وسية الخواجة ، خفيرا للجرن ، تحرس الخيرات ، وتنال منها نصيبك ؟ !

ضحك الرجل ، ضحكته الرزينة القديمة . لكن الضحكة الآن جعدتها الايام ! لم تعد الضحكة القوية ، التى كانت تنفرج عن اسنان وضروس كضروس النمور .

— انت لسة فاكر — يافندينا — زمان العز انتضى !

— هل تركت الوسية ؟

— للاسف لم اتركها .

— هل استولى عليها الاصلاح الزراعى ؟

كم كان حسن يود ، أن يكون الاصلاح الزراعى ، قد اخذ ارض الخواجة . وردها الى الفلاحين اصحابها الحقيقيين . وانهى سنين طويلا من القهر والاستغلال .

لكن محمد خطاب اخبره :

— لسوء الحظ . باع الخواجة ارضه ، قبل تنفيذ الاصلاح الزراعى . بمده . ولم يكن حظى سعيدا ، كمحمد محمود . أنت تعلم ، اننى تنقلت بين وسايا الخواجات ، والباشوات ، والملك ، قبل حضورى الى وسية الخواجة اليونانى . كنت برمت بالترحال . فاردت أن استقر فى وسية الخواجة .

وتدخل حسن مازحا :

— لتظل متصلا بخيرات الجرن ، وانت خفيره . وتنعم بها ؟

لم يحدث التدخل الاثر الفكاهى ، الذى قصد اليه حسن . بل صدرت من الرجل آهة من اعماق صدره . ومضى يقول :

— ... واعقب ذلك ان باع الخواجة الارض لبعض المصريين الاثرياء . قطعا تتراوح مساحتها بين مائة فدان ، وخمسين فدانا .

— اذن انت تحرس الخيرات فى وسايا اصغر .

— الملاك المصريون المتوسطون هؤلاء ، لا خير يرجى من ورائهم . يشرفون بانفسهم على ارضهم . ليس لديهم اجران كبيرة ، ولا خيرات ، ولا خفراء . بعضهم يحرس ارضه وجرنه بنفسه . البركة فى عبد الناصر . قضى على الاقطاع ، وقضى علينا . وزال المجد !

— وماذا تفعل اذن . وقد كانت وظيفة الخفير ، تمثل بالنسبة لك الحياة والمكانة الاجتماعية المميزة . وتخول لك الاتصال بالخيرات .

— هذا قضاء الله . انا الآن فلاح عادى . استأجر واولادى ، ثلاثة افدنة من احد الملاك المصريين ، ندفع ايجارها . وما يتبقى بعد الايجار ، لا يكاد يكفى لاكلنا وعيشنا .

— انا آسف ياعم محمد . هل عدت الى الخبز الذرة ، وراحت ايام الخبز الطرى المصنوع من القمح ، الذى كان يؤخذ من جرن الخواجة ليلا .

— ماذا اصنع وهذا مصيرى ؟

واحب حسن ان يهزل معه ، ويذكره « بفلسفته » فى الايام الخوالى :

— اذن اصبحت من « العبيد » ياعم محمد . الا تذكر أنك فى حديثنا ، كنت تطلق على الفلاحين ، الذين يرضون بالخبز الاذرة والمخلل ، «العبيد» ؟

لم تخف العبارة عنه ، بل نكأت جراحه وسمع حسن صرير اسنانه . كان صريرا عجوزا ضاعت منه رنة الشباب . كان الرجل وعرا لم تستطع السنون ، ولا ضياع الوسايا ، ومجد الخفراء القديم ، أن ينال من شخصيته. وبدا لحسن ان كلمة « العبيد » ، التى يريد أن يخلعها عليه الآن قد آلمته . كان حسن يقصد المزاح . الرجل العتيد يرد لحسن الوخزة ، بذكاء وادب :

— « اليوم اللى بفوت ما يجيش احسن منه » . لهفى على الايام الغابرة الجميلة ، والخيرات المكومة فى الاجران . رحم الله ايام اخبز المصنوع من القمح ، « والفطير المشلتت » !

وكزت الذكرى حسن . كان صبيا ، نقى النفس ، يخاف من الحرام . حرم الله السرقة فيجب الا يقترفها . « احرار » الوسية : الباشكاتب . والباشخولى . الخفراء . اغروه بالسرقة . قالوا له : البشكاتب القديم كون من السرقة ، خمسة عشر فدانا . اراد محمد خطاب الخفير ان يفحمه ، ويجعله ، ولا خيار له . ارسل زكيبة من القمح الى اسرته . طحنتها .

وصنعت منها فطيرا مشلتتا . اكل منه وهو لا يدرى . تساءل عن مصـــدر القمح . اخبروه عن منحة محمد خطاب ، التى اخذها من جرن الخواجة ليلا

مازال الرجل واعرا سأله :

— أما زلت ، يا دكتور — « بلاش افندينا بقى » — تعتبر أن اخذ قمح الخواجة سرقة ؟

تردد حسن فى الاجابة . ثم قال :

— الحق يا عم محمد ، انك لم تكن سارقا !

— الله اكبر . عاش نائب مصر الجديدة . عاش مدرس الاشتراكية .

ثم قال محمد خطاب راضيا ، متخذا صفة الاب فى خطابه لحسن :

— الم اقل لك يابنى ، انك كنت صغيرا ولا تدرك الحرام من الحلال .

— دعنى أبين لك ياعم محمد ، الجزء الحلال من الجزء الحرام .

— ليس هناك اى جزء حرام !

— « طول بالك » .

— تفضـــل .

— الجزء الحلال ، ان الخواجة اغتصب الارض الوطنية . وانه يعتصر عرق الفلاحين . ويكون منه ثروة . والقانون الذى وضعه ، ملاك الوسية وحاكموها ، يحمى سرقة الارض ، واستلاب عمل الشعب . وهذا يشبه أعمال العصابات . ما الفرق بين أن تنهب عصابة أموال الناس فى وضح النهار . وتستخدم الاسلحة ، فى سطوها . وعصابة اخرى تنهب الارض ، وناتج العمل . وتحرسها القوانين التى وضعتها واسلحة العساكر ؟

اذن استردادك للمال من الخواجة ليس سرقة . فهو مال مغتصب اسهمت فيه أنت واولادك بجهدك .

— الله يفتح عليك .

وتفكر الرجل الاشيب ، العريض الفكين مليا ، ثم قال :

—هل كان يجب أن تحصل على الدكتوراة ، لتصل الى هذه النتيجة ؟ لقد وصلت اليها وانا أمى !

— هانذا اعترف ... لكن ....

وقاطعه محمد خطاب قائلا :

— ليس هناك لكن . انا اعرف ما تود قوله : تريد أن تقول اننى كنت اسرق محصولات الخواجة . واسترد حقى منـــه . لكننى اسرق حـــقوق الفلاحين ، وناتج كدحهم .

— الله ينـــور عليك .

— يا استاذنا — فقد اصبحت استاذا وكنت فى الوسية افندينا ! — انا سلطتى ، وانا خفير ، وامسك بندقية ، نفذتها فى حدود ما استطيع . وفى دائرة اختصاصى . انا لست صاحب نظرية انسانية واجتماعية مثلك . ليس لدى معايير او مكاييل ، لأفصل بين أموال الخواجة ونصيب الفلاحين . الفلاحون صامتون عن حقوقهم . راضون بمصيرهم . ولست زعيما فلاحيا ، لاقودهم للتحرر . الساحة مفتوحة امامهم ، لاسترداد ناتج عملهم لست انا مسئولا عنهم .

كان الحديث شهيا . الذكريات تترى عليه وتسعده . كان الموكب قد اوغل فى شوارع مصر الجديدة . فوجىء حسن بانسانة لم يتوقع ان تسهم فى موكبه : أمـــه :

— كيف يا اماه تتحملين مشقة السفر ، ثم تسيرين فى الموكب ؟

— لمن غيرك اتعب ، وافرح ، واهتف ؟

— الســـن يا أماه .

— لا تخف ان عظامى قوية !

— لا يا أمى . سأطلب من اخى فيصل ان يصحبك الى البيت ؟

— أتريد أن تحرمنى من هذه السعادة . وقد تقدم العمر ؟

— قال لها فى صوت خشنه التأثر :

— بارك الله فيك يا أماه .

هتفت أمه تحييه :

— عاش مدرس الاشتراكية ! .

ردد الهتاف المشتركون فى الموكب . وتأثروا بهتافها كثيرا . وتساقط من السيدة العجوز دمعات صافيات من مآقيها . وسألته فى انفعال :

— « اشتراكية يعنى ايه يا بنى ؟ »

— سأشرح لك عندما نعود الى المنزل .

* * *

لم تستطع برندا أن تسهم فى الانتخابات . ولكنها لم تقنع بأن تكون مجرد زوجةلرجل يشارك فى الحياة العامة . أرادت أن تقوم بدور فيها ، بطريقتها الخاصة . بالفن الجميل . الذى تستطع أن تبدع فيه .

وضعت فنها فى خدمة الثورة . أقامت معرضا للوحاتها . رسمت لوحات للسد العالى ، وللتصنيع ، وللاصلاح الزراعى ، وللعدوان اثلاثى ، ومعركة قناة السويس ، بلندن وبورسعيد . وضعت المجتمع المصرى السابق على الثورة فى لوحات دامية : هياكل بشرية عظمية ، تفترش الطرقات . وقفت مرة عند مشهد من هذا النوع ، وهما خارجان من دار للسينما . تسمرت فى مكانها ، كانت اللوحة البائسة ،لثلاثة أطفال . كونوا شكلا هندسيا ، يزرى بالانسان ، وبنظمه الاجتماعية جميعا .

افتتح وزير الثقافة المعرض ، زاره فنانون من كل مكان . وكذلك الجماهير . هذه هى « الاجنبية » ، التى كان حسن يشفق من زواجها ، خوفا على مستقبله السياسى .

سعدت برندا بالاستقبال الحافل لمعرضها ، بوساطة وزير الثقافة ، وفنانى مصر وجمهورها . هذا لا يحدث فى انجلترا ، فيما يتعلق بالفنانين المبتدئين . شجعها ذلك على أن تخلد حركة التحرير فى مصر فى لوحة منحوتة كبيرة . المجهود الفنى هذه المرة ، نحت . عمل كبير ، أطلقت عليه « يقظة مصر » . ينحت على حائطكبير طوله عشرة أمتار ، وارتفاعه ثلاثة ، يعلق فى صالة كبيرة بالمدرسة .

كان الناظر متحمسا . عاونها فى شراء المواد اللازمة . بذلت برندا وزملاؤها من مدرسى الفنون ومدرساتها ، جهدا خارقا ، استمر عامين طويلين . صورت مصر ، فى وسط اللوحة « رجلا ! » على خلاف المألوف . الفنان مختار صورها فى شكل امرأة ريفية ، فى تمثاله الشهير « نهضة مصر » . خرجت برندا على هذا الاتجاه . رأت أن مصر القوية ، يجب أن يمثلها رجل !

والرجل هنا من يمثله : العمال — الفلاحون — الموظفون — المثقفون ؟ حقا ان الاغلبية هم العمال والفلاحون . الا أن الذى يمثل مصر ، يجب أن يجمع ملامح كل العاملين فى مصر . نحتت مصر ، رجلا ، قوى العضلات ، حلو الملامح ، صارمها ، مرفوع الهامة ، رافعا ذراعيه ، ليمسك بالشمس فوق رأسه . قيد حديدى فى معصميه . القيد يحطمه فلاح على يمين «مصر» . بفأسه . تسانده فلاحة ، رشيقة شامخة . تنبثق سنابل القمح ، ولوز القطن الناصع ، من بين قدميها . ويحطم القيد من اليسار عامل صناعى بمطرقته . تسهم معه زوجته وولده الذى يحمل كتبه بيد ، ويشير بالاخرى الى « مصر » . تحيط بالعامل مصانع ، ومداخن ، وسد عال ، يتدفق منه الماء والكهرباء .

اتمت برندا العمل . لكن فاجأتها وزوجها ، حادثات . ذهب حسن بعدها ليعمل فىالامم المتحدة . رافقته ، ومعها « رفيق » و « شيرين » ، التى انضمت للاسرة أخيرا .تركت اللوحة قطعا جاهزة للتركيب . أوصت

الناظر بها . المطلوب فقط تعليقها . وعدها الناظر بأن يتولى ذلك ، خلال وجودها فى الخارج . ظلت تكتب خطابات منتظمة ومســتمرة للناظر ، ولزميلاتها فى المدرسة ، تسأل عن اللوحة ، لم تتلق خطابا واحدا .

جاءت فى أجازة لمصر — بعد سنتين —وجدت قطع اللوحة مبعثرة فى فناء المدرسة تعلوها الرمال والتراب . وتطأها أقدام التلاميذ ، والمدرسين والمدرسات . فجعت برندا فى وليدها . وضعت فيه عصارة جهدها وابداعها . الناظر القديم احيل للمعاش ، الناظر الجديد لا يهوى الفن ! ذهبت اليه ضارعة ان ينقذ فنا تدوسه الاقدام . عمل انسانى ، عضلى وذهنى ، يصور مصر التى تتحرر . وعدها . لم يكن وعد الحر !

انقضت الاجازة . رجعا الى عملهما . كتبت للناظر ، وغيره ، دون جدوى . عادت فى أجازة أخرى ، بعد سنة . لم تجد القطع مبعثرة فى فناء المدرسة . توقعت أن تجدها معلقة. ذهبت الى المعرض ، وصالة الرسم ، والى كل مكان . لم تجد شيئا . الناظر لا يدرى . مدرسو الرسم ومدرساته لا يعرفون . حزنت برندا ، حزنا شديدا . ثم لجأت الى الاحلام ! لعل احد هواة الفن الجميل وجدها ، واخذها . وعلقها فى مكان ما ، لينعم بها ، وينعم بها معه الذين يسعدهم الفن . « اذا كان الامر كذلك ، فمجهودى ليس ضائعا » !

* * *

— ٢٠ —

لجنة الاتحاد الاشتراكى بمصر الجديدة ، مكونة تكوينا عجيبــا . عددها عشرون عضوا : سبعة منهم لواءات ، وعامل واحد . رغم ان القانون يعطى ٥٠٪ من عدد الاعضاء للعمال . الباقى مهندسون ، ومحامون ، وصحفيون ، ومدرسون . واعتبروا كلهم عمالا . جزع حسن ، لا من التركيبة الغريبة ، فهذه مألوفة فى كل مكان ، ولكنه جزع لامر آخر :

فى جلسة من جلسات اللجنة ، خاطب اللواء ابو العطا ، زميلــه اللواء فؤاد كالآتى :

— انا اتفق معك يا باشا .

فيرد عليه :

— اشكر سعادتك .

واذا باللواء عثمان اغا يختلف معهما فى الراى ، ليقول :

— انا لا اتفق مع الباشوات : ابو العطا ، وفؤاد ، فرايى كذا . . . .

ويتدخل اللواء نصار ، ليعطى رأيا توفيقيا :

— الخلاف الذى ثار بين الباشوات هو خلاف ظاهرى ! . . .

فجعت المناقشة حسن . آثر ، على غير عادته ، الا يتصدى لهــذا الموضوع مباشرة . هؤلاء سبعة لواءات ، يمكن ان يهزموا دولة بالجيوش الجرارة التى يقودونها ، أو التى كانوا يقودونها ! الحق ، انه لم يكن يخشى اللواءات . لكن تقززا الم به . اللجنة التى تبث الفكر الاشتراكى ، فى دائرة من اهم دوائر القاهرة — دائرة الرئيس نفسه — يديرها الباشوات . وجد حلا وقتيا منقذا . قال لزميله عرب ، الذى عاونه فى الانتخابات :

— تفضل ايها « الفريق عرب باشا » ! وارأس الجلسة . فانا متعب .

وانسحب من القاعة . كان صديقه عرب اذاعيا وصحفيا . لكن النظام يعتبره « عاملا » . وكان وكيلا للامين .

* * *

كيف يمكن لهذه اللجنة ان تبث الثقافة الاشتراكية بين الناس ؟ قرر ان يضطلع هو بالمهمة . نظم موســما ثقافيا . دعا اليــه محاضرين من الاشتراكيين : علميين وغير علميين . اجتذب الموسم عددا غفيرا من جماهير مصر الجديدة .

وفى ليلة من الليالى . بينما الجماهير مستغرقة فى الاستماع الى محاضر جليل ، اذا بهتاف وضجيج خارج أسوار الحديقة ، التى كانت تلقى فيها المحاضرة . توقف المحاضر عن الحديث . اقتحم شخص يدعى حسين الاجتماع قال لحسن :

— حمادة بك شاهين حضر !

— « طيب وايه يعنى » .

— « ايه يعنى ازاى » ؟

— قل له يتفضل يدخل بهدوء ، ومن معه . يجلسون فى المقاعد الخلفية . حتى لا يشوشوا على المحاضرة ، وعلى السامعين .

ارتفع صوت حسين ، وازداد وقاحة :

— كيف تقول هذا الكلام ؟ وهذا حمادة بك . وليس شخصية عادية .

— الثورة الغت الالقاب .

— هذه سفاسف !

لم يستطع حسن الصبر . صرخ فى وجهه :

— أنت تسمى قرار الثورة سفاسف ؟

ارتعش ذنب « حمادة بك » . وولى مسرعا ، يبلغ سيده ما قاله له .

رأى حسن حمادة شاهين ، يتسلل الى مقعد خلفى ، ويلحق به تابعوه . مكثوا بضع دقائق ، يستمعون الى المحاضرة . لم يعوها . ثم انصرفوا .

أهذا شاهين ، الذى أقسم سمير شريف على المصحف ، بأنه ثورى ، ومن الجهاز الطليعى وان الرئيس يوصى بانتخابه ؟ !

نسى حسن هذه الحادثة . لكن شاهين لم ينسها . لم يكن الامر مقصورا على الناحية الشخصية : ينكر عليه لقب بك . لا تتوقف المحاضرات

عند حضوره . لا يخلو له مكان فى الصدارة . لم يهب الناس واقفين لاستقباله . هذا كلام يؤلم . لكن الالم الحقيقى ، هو أن حسن يضرب بمعاوله لهدم مجده . مصر الجديدة التى يتبوأ عرشها . ترشك ان تضيع ، ويتهاوى صرح المجد .

بدأ شاهين ، يلجأ الى وسائل غريبة . اعوانه يمزقون الاعلانات عن محاضرات الموسم الثقافى . يدعون أنصارهم لمقاطعتها . يبعثون بحوارييهم الى المحاضرات للتشويش على المحاضرين . شاهين مختف تماما . ناكر لكل هذا . أركان حربه حسين هو الذى يقود العمليات .

* * *

لكن مصر الجديدة ، دائرة على اتساعها ضيقة . يريد للتثقيف الاشتراكى ، ان ينتشر بين الشباب على نطاق اكبر . وخطرت له فكرة :

السيد الاستاذ الدكتور رئيس جامعة القاهرة .

تحية طيبة وبعد :

تعلمون سيادتكم ان الفكر الانسانى ، يكتشف النظريات العلمية ، التى تنظم المجتمعات البشرية . قبل تطبيق تلك النظريات بزمان طويل .

هذه القاعدة يحدث عكسها تماما فى مصر . اتخذت الحكومة خطوات نحو التقدم بالمجتمع المصرى ، وبنائه بناء اشتراكيا . فأصبحت ملكية الشعب لوسائل الانتاج تشمل معظم القطاع الصناعى والتجارى . والقطاع الزراعى ينقى من الاقطاع . يحدث هذا والعلوم الانسانية عندنا ، وبصفة خاصة ، الاقتصاد والسياسة والاجتماع ، متخلفة .

لا يليق مثلا ، أن يركز الاساتذة ، فحسب ، على الفكر التقليدى الراسمالى . أو على المدرسة الحديثة التى تستهدف انقاذ النظام الراسمالى من البطالة والانهيار . يبدو أنهم لا يعلمون ان هناك فكرا يغطى اكثر من نصف العالم . فكرا اشتراكيا ، أقام دولا ، وحقق تقدما ، وحرر شعوبا . يجب على العلم والفكر ، أن يستيقظا ليلاحقا التطبيق على الاقل . وينيرا

السبيل امامه . ويسهما فى بناء مجتمع جديد ، خال من الاستغلال . ان التطبيق الذى لا يقوده فكر واع ، ومنهج علمى ، قد يتخبط به الطريق .

انى اقترح عليك ، أن تعقد مؤتمرا ، يضم أساتذة الجامعات ، لتغيير مناهج الدراسات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

مع موفور احترامى

المخلص
د . حسن خالد
المدرس بجامعة اسيوط
والمنتدب بمكتب الرئيس للبحوث الاقتصادية

تحير فتانا من أمر هذه الراسمالية : الاساتذة يصرون على تدريسها دون غيرها . التطلع اليها يبرق فى عيون الناس . لا تهذب المعانى الحلوة ، كالعلم ، والدين ، والانسانية ، منها ، لدى عشاقها . لا شك ان الاساتذة يعلمون أن الراسمالية ، تعنى أن طبقة ، تنعم ، وتترف ، وتحكم ، وملايين من الشعوب تجوع ، وتتعرى ، وتمرض . يعلمون أن الراسماليين يمتصون دماء الملايين . ليس من الضرورى أن يكون الامتصاص ، عن طريق غرس الانياب مباشرة فى العروق . العبرة بالنتيجة . هم يستغلون عمل الملايين . يستنزفونه . يحرمونهم من استخدام ما ينتجون فى الحصول على غذاء صحى .

مدير الجامعة — الذى يكتب اليه — عالم كبير كلاسيكى . العلم هالة يحيط بها نفسه . يعطيه مركزا اجتماعيا ، يضاف الى ثروته الموروثة والمكتسبة . حقن الثروة الموروثة بثروة جديدة ، تأتى له من كتبه . الكتب ذات السوق المحتكرة . سوق الطلاب ، الذين لا يستطيعون مناقشة سعر الكتاب ، الذى يفرضه الاستاذ والناشر .

على أن الرجل كان جليلا — بمقاييس الجلال المألوفة فى المجتمعات

المتخلفة . كانت له مع حسن قصة . كان استاذه فى جامعة الاسكندرية . عميده فى كلية الحقوق . جرت بينهما حوارات ، واصطدامات . نظم حسن مناظرة فى كلية الحقوق ، فى الاربعينات . والصراع مستعر ضد الملك والانجليز . وصف فيها كلية الحقوق بأنها مؤسسة لتشريع الجوع ، وتفقيه البؤس . والمنظر لمجتمع « الوسية » . كان العميد يكره كراهية شديدة ، هذا اللفظ ، لدرجة انه فى حوار مع حسن ، فى مكتبه الفاخر ، قال له فى صراحة :

— انايا اخى عندى وسية !

غضب العميد الى جانب هذه الغضبة الطبقية ، غضبة حرفية : كيف يجرؤ « أمباشى » أن يهاجم الكلية التى يتعمد عليها ؟ !

دارت هذه الخواطر فى راس حسن ، حينما فكر فى الكتابة الى مدير الجامعة . كان يدرك انه اذا وقع الخطاب « كمدرس بجامعة اسيوط » فحسب ، سوف لا تكون له قيمة كبيرة . لذلك نجده يضيف بدهاء الخبير عبارة « المنتدب بمكتب الرئيس للبحوث الاقتصادية » ! كانت هذه العبارة هى القول الفصل . هو يعلم نفسية استاذه ، ونفسيات الاساتذة . بعضهم لا شك ذو كبرياء . لكن كبرياء رئيس الجامعة مشروطة : الولاء للنظام ، حتى ولو كان ظاهريا ، أمر لا مناص منه ، لارتقاء المناصب العلا . النظام ينادى بالاشتراكية ، يجب أن ينادى بها .

هذا « الولد » المدرس بجامعة أسيوط ، متى أصبح مدرسا ؟ لى قصة معه . هل مازال يذكرها ؟ كان حسن قد اعتقل بحجة معرفته لبعض الاخوان الهاربين . نما لعلمه أن العميد « العالم » ، قد تعاون فى هذا الامر مع القوى السفلية لمجتمع الوسية . على انه لم يكن يحمل له اية مرارة .

احدثت عبارة العمل فى رياسة الجمهورية ، التأثير الذى اريد لها ان تحدثه . بعد أسبوع واحد ، جاءه خطاب من رئيس جامعة القاهرة ،

يدعوه الى مؤتمر يعقد فى الجامعة . يحضره الوزراء الاقتصاديون ، ومديرو الجامعات ، وعمداء كليات الاقتصاد والحقوق والتجارة ، ورؤساء أقسام الاقتصاد فيها . عندما وجد نفسه بين هؤلاء الفطاحل ، شعر بفخر طفولى ! مدرس بين جهابذة . على أن فرحته كانت ومضة مالبثت أن خبت : دعى مدرس بين « العمالقة » ، لانه يعمل فى رياسة الجمهورية !

قدم مدير الجامعة لمهمة المنتدى بقوله : « نجتمع اليوم لنعيد النظر فى مناهج الدراسات الاقتصادية ، كى يسهم العلم فى بناء « اشتراكيتنا » ، وتحت كلمة « اشتراكيتنا » ، قال — وتبعه بعض الاساتذة — كلاما هلاميا . وجاء دور حسن فى الحديث :

— « ثورة ٢٣ يوليو ، تسبق الفكر والعلم فى الجامعات . ومع ذلك فنحن لا نحتاج لثورة يوليو ، لتقول لنا درسوا الاشتراكية . جامعات باريس ولندن واكسفورد وكامبردج ، والجامعات الامريكية : هارفارد ، وستانفورد ، وحتى شيكاغو تدرس الماركسية . فيها أساتذة متخصصون فى الاشتراكية العلمية . ومعاهد وأقسام خاصة بها . تشرحها شرحا امينا . وتنقدها نقدا امينا كذلك . هذا فى البلاد المتقدمة التى تنافح عن الراسمالية والاستعمار . كيف لعمرى نتخاذل عن تدريس الاشتراكية فى جامعاتنا ؟

التقط حسن انفاسه. تفرس الوجوه . وجدها صلدة . استطرد :

— الادهى من ذلك ، ونحن فى عام ١٩٦٥ — وقد مضى على الثورة نحو ثلاثة عشر عاما — مازلنا ندرس الاقتصاد الراسمالى وحده . انا لا ادعو الى استبعاد النظام الراسمالى من المناهج . تدريسه ضرورة علمية وتاريخية، اذا اردنا أن نفهم الاشتراكية العلمية .ولكنى اقول قولا بديهيا : كيف يمكن أن يستدعى اقتصادى منا ، ليعطى رأيا فى السياسة الاقتصادية ، فى بلد يبنى الاشتراكية وهو لا يعلم عن الاشتراكية كثيرا ؟

سكت حسن لحظة ، خاطبهم بعدها :

— هل تسمحون لى بمزيد من المصارحة ؟ كيف يمكن لاستاذ جامعى يحترم عقله ، وعلمه ، أن يقتصر دوره على نصف المعرفة الانسانية ، ونصف الفكر الانسانى ؟ الاشتراكية العلمية تغطى دولا تقترب من نصف الدنيا ، وتستشرى فى النصف الآخر ، الى مثقفيه ، وعماله ، واحزابه . كيف لعمرى ندرس لطلابنا نصف الفكر الانسانى — اى الراسمالية فحسب ؟ فكر لا يصلح لقيادة تنميتنا . ووضع فقط للاقتصاد الصناعى المتقدم . اننا اذ نفعل ذلك — وارجو ان يعذرنى اساتذتى — نكون انصاف اساتذة ، نخرج انصاف طلبة !

أيده بعض الاساتذة . وقال أحدهم : انهم يدرسون الاشتراكية العلمية فى كل جامعات أوربا وفى الهند . على انه كان هناك استاذ « لامع » فى الاقتصاد السياسى . « لمعانه » فيه كثير من « الفهلوة » . عالم تقليدى : كتب كثيرة ، لا تضيف جديدا . تنقل من الكتب الاجنبية ، مقتبسات تباع للطلبة . اعترض الاستاذ « اللامع » على تدريس الاشتراكية ، فى بلد من المفروض انه يطبقها . الاستاذ ذكى بالمعايير المصرية . القى محاضرة معروفة فى بعض أوساط الاتحاد الاشتراكى ، الذى كان عضوا فى قمته . تميز الاستاذ بخاصية فريدة : جعل من النفاق علما ! تحدث حديثا ضبابيا عن « اشتراكيتنا » . كان ينتمى الى مجموعة كمال الدين حسين . نزع حسن لهذا المعنى . مر على فكرة « الشلل » مرورا سريعا : حمادة شاهين ، وشلة سمير شريف . العالم « اللامع » ، يؤكد ظاهرة « الشللية » . هل تحكم مصر بالشلل . سكت — فالظاهرة تتطلب السكوت !

فوجىء فى اليوم التالى ، بأن هذا الاستاذ يعين وزيرا للتخطيط القومى !

* * *

استغرقه العمل السياسى ، وانعشه . يقضى فيه ساعات طويلة . لم يستشعر فيه تعبا ولا نصبا . على العكس ، العمل يمده بحيوية دافقة .

لكن العمل ليس سياسيا كله . جزء كبير منه مخصص لاكل العيش ، وفرش الشـــقة .

الغريب ، أن زوجته لا تشكو ! تنتظره الى ساعة متأخرة من الليل : بسمة خجلى ، احضان دافئة ، شفاة يرتشف منها رحيق الورد . الا تشكو هذه الانسانة ، ولو مرة واحدة ؟ العمل اخذه منها ، ومن ابنيه تماما . ما تراه ، جسدا مكدودا ، يستلقى الى جوارها . فى الصباح تحضر له الشاى فى السرير . حتى هذه العادة معكوسة فى حالته . فى انجلترا ، الامر الوحيد الهام ، الذى يقوم به الزوج ، هو أن يستيقظ قبل الزوجة فى الصباح . يعد فنجانا من الشاى . يقدمه لزوجته فى السرير . هذه هى المتعة الوحيدة للزوجة . اخذت شكل العرف فى المجتمع الانجليزى . فيها تقدير من الزوج لزوجته . فيها كذلك لمسة من لمسات المشاركة والحب . هذه العادة توقفت فى حالتها .

على الرغم من خيبة املها ، فى هذه الامنية المتواضعة ، فانها لم تغضب . بررت موقفه : مرهق فى عمله . من العدل ان «يتمطع فى الفراش» . وأن يقدم له الشاى ، وهو مضطجع على السرير .

قال لهـــا :

ـ انا آسف ، يابرندا ، فالعمل اخذنى منك تماما .

ـ لا تتأسف على عمل كبير . تؤديه لجماهير مصر .

ـ لكن العمل اخذ وقتى كله .

ـ انى اتحمل ذلك ، فى سبيل الرسالة ، التى تضطلع بها . انـــا سعيدة بهذا العمل . كم وددت لو أسهم معك فيه .

ـ اتقبلين أن يكون هذا العمل ، على حساب الحب ، والحياة الزوجية الهنيئة ؟

ـ أنه فى نظرى . يضيف الى هناءتى ! الا ترانى سعيدة ؟ درج الناس

على ان يضيقوا من اطار السعادة . فهى عندهم حياة منزلية ، واولاد ، وممارسة للحب . لا يدركون السعادة الكبرى التى تغمر المرء عند القيام بعمل انسانى . الانسان يطرب اذ تسعد البشرية من حـــوله ـ كبرت الانسانية لتشمل العالم . ام ضاقت لتشمل وطنا أو حتى حيا ، كمصر الجديدة .

ـ يا بنت يا شقية !

ـ غير اننى ، لكى اكون امينة معك تماما ، اود ان الفت نظرك لشىء واحد . هذا الشىء ليس انا . لكنه رفيق . متى ستداعب « رفيقا » وتحبه ، وتلهو معه ، اذا لم تفعل هذه الايام ؟

ملاحظة غاصت عميقا فى قلبه .

ـ لك حق . سأفعل ذلك .

* * *

ـ ٢٠ ـ

استدعاه وزير الرياسة . استخدم الوزير اللمبة الحمراء ! الموضوعة على باب غرفته . الباب لا يفتح ، ما بقيت الاشارة الخطرة مضيئة .

جلسا معا على اريكة سندسية . بدأ الوزير الكلام :

ـ اود أن ابلغك ، بأن السيد الرئيس راض تماما عن جهودك .

ـ شكرا . هذا ما أعتز به .

ـ نحن مقدمون على مرحلة حاسمة من مراحل الثورة . الرئيس بصدد تكوين جهاز طليعى سرى ، يحمى الثورة .

ـ وهل تتطلب الثورة حماية ؟

ـ نعم . انت تعلم ان خصوم ثورتنا ، منتشرون فى الداخل والخارج . المعركة معهم طويلة .

— لكن لماذا السرية ، والثورة بيدها الحكم والجيش ، والبوليس ؟ . .

— ليس هذا كافيا . نريد تنظيما طليعيا ، مؤمنا بالثورة ، وباهدافها ، وبالنظام الاشتراكى . ينافح عنه فى السر والعلن . يهب للدفاع عنه ، اذا ما فكرت القوى المضادة فى الانقضاض عليه .

— اذن ستكون الحماية فكرية عقائدية ، وليست عسكرية .

— نعم . تكوين الكادر الذى يمثل الثورة ويحميها ، هو المشكلة التى تواجهنا الآن .

— وما المطلوب منى ؟

— اخترتك ضمن مجموعة العشرة ، الذين يكونون خليتى فى التنظيم الطليعى . هذا هو المستوى الذى يلى مباشرة مجموعة على صبرى ، التى اعتبر انا عضوا فيها . بعد ذلك الرئيس فى القمة . مطلوب منك ان تكون مجموعتك من عشرة . تنتقيهم انت ، من الرجال الوطنيين ، المؤمنين بالثورة الاشتراكية . ولدينا اجتماع يوم السبت بمنزل مدير مكتبى .

دخل شقة مدير المكتب . وجدها ايوانا فسيحا . بها صالة تبلغ ثلاثة اضعاف مساحة شقته ! تتدرج بك الرياش ، خطوة خطوة . هذا « انتريه » من القطيفة الملساء الفاخرة . يسلمك الى صالون ، ارائكه ملكية . يتدلى الكريستال من السقف . يصفع خديك ! تنغرس قدماك فى سجاجيد عجمية . تود من رخاوتها ، الا تخلع قدميك منها . لم يفلت من صورة بيته : حجره شاغرة . أنتريه عادى ، يستخدم صالون وأنتريه ، وغرفة معيشة !

من أين لمدير المكتب هذه الرياش ؟ بعض الطنافس والتحف ، لا يقتنيها غير الملوك والامراء والباشوات . كيف تمكن المدير من اقتنائها ؟ هل « ناله من الحب جانب » ! ؟ اكن الرجل بسيط . موظف ادارى صغير بالرياسة . تدرج حتى عين مديرا لمكتب الوزير . لا بأس . النظام الطبقى ، هذه هى هويته . يتسلل بعض الافراد من الطبقة الوسيطة ، او الدنيا ، او حتى من الشعبية ، الى الطبقة العليا ، وتنمو الامتيازات والتطلعات .

جلسوا على الارائك الوثيرة . قدم الوزير اعضاء خليته :

— الفريق رجب العطار — رئيس مجلس ادارة المؤسسة العامة للكيمياء والادوية .

— الفريق عبد النبى عبد ربه عبد الله — رئيس مجلس ادارة الهيئة العامة لمصانع الادوات المنزلية .

— الفريق حشاد الجمال — رئيس مجلس ادارة شركة مصر للطيران .

— اللواء بخيت النجار — رئيس مصانع الحديد والصلب .

— طبعا تعرفون الاخ عليوة — مدير مكتبى .

— الاخ وجيه — العامل بشركة الغزل والنسيج بحلوان .

التفت حسن الى العامل ، وصعق . العامل يلبس «كرافتة سولكا » . تماما كالكرافتة التى يلبسها وزير الرياسة ، ووزير العمل ! حلة فاخرة . قميص حريرى هفهاف . تتراشــق فى « كرافتته » دبابيس من ذهب ، و « لولى » . شعره كثيف ممشط تمشيطا محكما ، نسقته الدهون والعطور . حذاؤه من النوع اللامع . تنعكس عليه ثريات « عليوة » القوية ، فيغشى عينيك سناه الاسود . كادت تفلت من حسن كلمة شعبية ، تستخدم فى حالات الذعر الشديد : « يالهوى ! » . لكن الله ستر . كان الذعر اقوى من لسانه ، فكتمها .

ثم اكمل الوزير : العقيد فلان — التاجر فلان — وكيل الوزارة علان — الدكتور حسن .

هذه هى المجموعة التى ستسهم فى اقامة الاشتراكية فى مصر . ستنمى وعى الناس السياسى والاقتصادى . ستقود الفلاحين والعمال ، والملايين فى بلادنا للدفاع عن الاشتراكية ، ضد خصومها . ستضع هذه المجموعة ، ومثيلاتها ، الموارد الاقتصادية ، ووسائل الانتاج فى أيدى الشعب . وتقضى على استغلال الانسان للانسان .

أزمته تركيبة المجموعة . أزمة من نوع جديد . هل تعكس هـــذه المجموعة شكل الاشتراكية ، وموضوعها عندنا ؟ اذن كان الناس الذين يصرون على أن « اشتراكيتنا » ، أو « اشتراكيتنا العربية » ، مختلفة تماما عن الاشتراكيات الاخرى ، كانوا بعيدى النظر ! هل يمكن أن يقود الاشتراكية خصومها ؟ هذه فئات برجوازية . وصلت الى الطبقة المتوسطة العليا . وتتطلع باستمرار الى العلا . بينها وبين البرجوازية الكبيرة ، شعرة . سوف تتجاوزها فى زمن قصير . أهذه خطة القيادة ، وتصـــورها للاشتراكية ، وبنائها ، وحماتها ؟ كانت ثقته بالقيادة قوية . لم يتسرب لها وهن . لكن هذه المجموعة زعزعت عقيدته . ومع ذلك فقد طرد هذه الخواطر ، قائلا :

القيادة سليمة . على الرغم من ان الشكل ، لا يبشر بمضمون طيب . لكنك تشتغل بالعلم . ومن وسائله « التجريب » . ابتسم لافراد المجموعة . كان ودودا . أخذ يحييهم واحدا واحدا . تحادث اليهم ، عدا العامل ! انكر منظره انكارا شديدا . حاول ان يقسر نفسه على محادثته . تأبت عليه نفسه ذلك . هذا النمط من العمال اخطر على ثورة الجماهير من خطــر الفرقاء والالوية ! هؤلاء ، طبقة برجوازية وسطى وعليا . من الممكن للثوار وللجماهير . أن يضعوا انظارهم وأيديهم عليهم . وقد يكون لدى رجال الحكم الحاليين ، ما يبرر وجودهم . الجيش هو الذى قهر النظام القديم ، وهؤلاء قادة الجيش . من الطبيعى أن يتبوأوا تلك المكانة . وان كان وجودهم فى قلب تنظيم طليعى اشتراكى ، يثير تناقضا رئيسيا مع الاشتراكية . لكن قد يبرر ذلك ان هذه هى « اشتراكيتنا » !

أما أن ينمسخ العامل . ويفوق « البرجوازيين » فى ترفهم . فهذا خطر على الحركة العاملة . فهو منسوب الى العمال . فى مكان القيادة منهم . قد يصبح مصدرا لتخريب القوة العاملة . لكنك تحكم هنا على الشكل . لماذا لا تنتظر لتتعرف على افكاره ؟ ومع انه كان واثقا ، بأن مظهر

هذا العامل يشى بمضمونه ، الا انه قال لنفسه : تسامحت بالنسبة للفرقاء ، والالوية . وانت تعلم الاقطاع العسكرى ، الذى كان سائدا فى الجيش . لماذا لا تعطى للعامل فرصته . تحادث اليه . وعرفه العامل بنفسه :

ـ انا اعمل فى مصنع الغزل والنسيج بحلوان !

تأمله حسن . لم يجد على وجهه ، « هبوة » من القطن . لم يلحظ فى يديه خشونة من الانوال ، أو شحوما وزيوتا من ماكينات النسيج . قـــال له :

ـ أهلا وسهلا . أنا سعيد بالتعرف عليك !

تحسس العامل رباط رقبته « السولكا » ، الذى يصنع فى باريس فحسب . ووضع ساقا على ساق ، وقال :

ـ الواقـــع ...

نطق القاف سميكة ، والعين فيها قعقعة ! كما كان يفعل بعض المسهمين فى التنظيم السياسى . وكما يفعل أحيانا بعض « المثقفين » ، حينما يبداون حديثهم . والحق ، ان معظمهم كان بعيدا عن « الواقع » البائس المتخلف ، الذى تعيشه الجماهير فى مصر .

ـ .... الواقع ، ان الثورة حققت للعمال آمالا كبارا .

ـ اى نعم .

ـ انا عضو مجلس ادارة الشركة . اجلس جنبا لجنب مع رئيس مجلس الادارة ، ومع المهندسين والمحاسبين وغيرهم .

ـ جميـــل .

ـ وانا عضو مجلس الشعب . انتخبت عن العمال بدائرة حلوان . وانت تعلم انه اصبح لنا ٥٠٪ من مقاعد البرلمان .

— مبـــروك .

ولما وجد حسن صاغيا حريصا على أن يسمع المزيد ، تبسط قائلا ، وهو يهمس ضاغطا بيده على ساق حسن :

— واعطونى بصفتى ممثلا للعمال ، سيارة انيقة ، وشقة فاخرة ، تطل على النيل العظيم .

— ماشاء الله ، ماشاء الله .

تحقق لحسن تماما ما توقعه : مضمون العامل اردا من « شكله » . وبدا الوزير الاجتماع . اعطى للمجتمعين فكرة عن التنظيم واهدافه ووسائله . ثم عن هيكله ونظام وسير العمل فيه . وكان من بين الواجبات :

— ان يرصد الاعضاء ما يقوله الناس ، ويبلغوه الى المجموعة ، فى اول اجتماع لها .

* * *

انفض الاجتماع الاول على هذا المنوال . وعقد الاجتماع الثانى فى منزل الفريق مدير مصانع الادوات المنزلية . كان يعمل فى المصانع ، مدنيون وعسكريون .

الفيلا تحيط بها روضة غناء . يدور حولها سور مرتفع . العساكر والمدنيون يطلبونه ويجملونه . « الفيلا » تتكون من دورين ، يضاف اليهما الآن دور ثالث . الرمل والاسمنت والجير ، والخشب والحديد ، تحمله اللوريات العسكرية . جيش من العساكر منهمكون فى التعمير . رياشات الفيلا تزرى باثاث مدير مكتب الوزير .

وما أن تكامل اعضاء المجموعة ، حتى صلصل جرس الباب صليلا قويا . لم يكن الفريق قد عرف بعد ، اصوات الاجراس المغردة كالطير . مازال جرسه ناقوسا عسكريا ! فتح الخادم المزركش الثياب ، الباب . برز

شاويش ، يقول بصوته الاجش : اين معالى الباشا ؟

اى معالى أواى باشا ؟ ذهب الباشا الفريق الى البـــاب . كان الشاويش يلهث ، وكأنه حط عن كاهله حملا ثقيلا . بعد ان استرد انفاسه ، قال بصوت عسكرى عـــال :

— الثلاجات ، والبوتاجازات ، والغسالات الجديدة ، موجودة فى اللورى تحت يا افندم . وهذه هى الخلاطات . حاول الفريق ان يهمس اليه ، لكى يخفض من صوته . لم يفهم الشاويش . واصل حديثه :

— اين الثلاجات القديمة ، والبوتاجازات . لكى ناخذها ؟

اخذ الفريق ، الشاويش من ذراعه . خرج من باب الفيلا ، ليتحدث اليه . لكن رسالة الشاويش قد وصلت . كانت واضحة . لوريات المصانع ، جاءت بالثلاجات والغسالات ، والافران الجديدة ، لوضعها فى فيلا الباشا ، واخذ الادوات القديمة وارجاعها الى المخازن ، لتحسب كهنة !

وافته ذكرى بعيدة . عندما كان باشجاويشا فى مدرسة ضباط الصف فى الجيش ، قص عليه عسكرى ، قصة المخازن : التموين الطازج ، كالخضار واللحم ، والجاف كالفول والارز والعدس ، كانت تحملها اللوريات الى منزل صول التعيين ، ويوزباشى المخازن ، وقائد المدرسة ، واركان حربه . وكذلك الملابس ، والبطاطين ، والملاءات . هل مازالت فلسفة الوسية كما هى ؟ ام اصابها تطور مع تقدم التنولوجيا ؟

الرسالة ، وصلت لوزير الرياسة ، مائة فى المائة . صوب حسن اليه نظرة يتفحص وجهه . كان وجهه جامدا . جاء الخادم بالحلوى . قال الفريق:

— هذه الحلوى ، والالات ، والادوات التى صنعتها — آلات التسخين والطهو والتبريد — كلها صناعة مصرية خالصة !

بدأ الاجتماع . افتتحه الوزير ، باخبار القيادة ، وقراراتها فى الداخل والخارج . طلب احد الاعضاء الكلمة :

— أقترح أن نناقش النكت التى يطلقها الشعب !

ضحك حسن . كان يهوى النكت . استغرقت النكت الجلسة كلها . نكت لطيفة معبرة . تنم عن ذكاء وعمق . الشعب يسخر من الزعماء ، حتى الذين يعجب بهم ! ما بالك بالساسة ، الذين يزدريهم . هذه نماذج :

رأى حسن الحنفى ، عضو مجلس قيادة الثورة حلما مؤداه : انه كان لابسا ملابس بيضاء فى بيضاء ، ويمشى فى مزارع خضراء فى خضراء ، لا نهاية لها . ورد عليه مفسر الاحلام : « تبقى تور الله فى برسيمه » !

ذهب الملك سعود ، وحسين ملك الاردن ، وعبد الناصر الى الآخرة . عمل لهم استقبال خاص . جلس الله على العرش . نادى جبريل الزعماء : الملك سعود حامى الحرمين ، يتفضل . دخل الملك سعود . وقف الله لتحيته والترحيب به : اهلا وسهلا . تفضل . اجلس على اليمين . ثم نودى على الملك حسين : سليل الاسرة الهاشمية ، حفيد الرسول . حياه الله واقفا . ثم قال له : اجلس على اليسار . ثم نودى على عبد الناصر : سلم الله عليه وهو جالس ، همس له جبريل :

هذا عبد الناصر، بطل مصر ، وزعيم القومية العربية ، لماذا لا تقف وتحييه ؟

— أنا اعرفه ، أتريد ان أقف ليجلس مكانى ! ؟

وكانت هناك نكتة معبرة ، تنقد فى فن رفيع شعبى ، امتيازات الطبقة الحاكمة وعلى رأسها مجلس قيادة الثورة . لكنها للاسف ، تقال ولا تكتب .

لا من ناحية الحياء العام فحسب ، ولكن من الناحية الجمالية كذلك !

عقدت المجموعة لقاء فى منزل العامل فى منيل الروضة ، على مرأى من قصر الامير محمد على ، ولى العهد السابق للملكة المصرية . وعلى شاطىء النيل الخالد ، يسكن « العامل » شقة لوكس . كنا فى اغسطس . السد العالى لم يكتمل بناؤه بعد . الماء يطفح بالغرين . لجج الموج تضرب الشاطئين . وتتدافع فى النهر العميق . جلال النهر ، وامواجه ، تاخذ بالالباب . عصفت الظاهرة برأسه . هذا الرجل يقال عنه « عامل » . الا يدرى ان ملايين العمال من زملائه يسكنون الجحور ، والكهوف ؟ لا ريب انه يدرى . تخرج من هذه البيئة ، ومازال اهله فيها . ليست العبرة ان يعرف المرء ، او لا يعرف . لكن العبرة بأن يحس . كثير من الناس يعرفون . وما يسمى « بالمثقفين » هم اكثر الناس معرفة وعلما . ما قيمة معرفتهم اذا لم يحسوا بآلام البشرية ، واذا لم يعوا مشكلة الانسان ، ويضيئوا له طريق التحرر ؟

لم يظهر على وجه العامل ، الذى ربى الترف له « لغدا » تحت ذقنه ، اى معنى من تلك المعانى . وصوله لهذا الوضع ، هو فى ذاته ، استبعاد لاى شعور بمعاناة طبقته . هل تعتبر ترقية هذا العامل ، خطأ فكريا ؟ جفل من هذا المعنى . حاول طرده . انه خنجر يطعن نضاله ، وآماله . تساءل : ما الحكمة فى أن تمسخ ثورة تنادى بالاشتراكية ، فريقا ، او طبقة . هى بالتعريف صاحبة الاشتراكية المفيدة منها ، والحامية لها . لم يصل فى هذه المرحلة الى جواب .

الشقة تموج بالابهة والعز . ابتكر « العامل » طريقة جديدة للحفاوة بالمجموعة . انه « كريم » . اليس شعبيا ؟ ! لم يكتف بالحلوى الوانا واشكالا ، تقدم للمجموعة . اعد لهم وليمة عشاء : خروف . ديك رومى . حمام ! كل هذا لعشرة ؟ نفقات الوليمة ، تكفى ابويه واخوته ، الذين تركهم

فى الاكواخ ، لشهور عدة . بارك الله فى ممثل الطبقة العاملة !

هكذا مضت الاجتماعات من منزل لمنزل . زاروا الفلل والشقق الا شقة حسن ، ومسكن الوزير ! لم يجد حسن مبررا لامتناع الوزير عن دعوتهم الى منزله . ايكون منزله متواضعا ؟ هذا يعتبر دعاية له : قائد من الصف الثانى ، من خلصاء الرئيس ، يسكن شقة بسيطة . أتكون فخامة مسكنه بالغة ، ويريد أن يخفيها . اذا جاء دوره يعقد الاجتماع فى قصر العروبة . أما شقة حسن ، فنصفها خاو . الانتريه ، فى غرفة الجلوس بسيط متواضع . كنبة تكفى لثلاثة ، واربع كراسى . سبعة فقط يمكنهم الجلوس — اين يجلس الثلاثة الآخرون ؟ ليس هناك نجف . البساط احمدى ، وليس اعجميا ! ولما جاء دوره لدعوة الاجتماع الى منزله ، لم ينبس بكلمة . تلاقت عيناه بعينى الوزير . كان هذا ذكيا . فهم على الفور . من اين علم ، بأن شقته خاوية . يبدو أنهم يعلمون ، ما تبدى الاعين ، وما تخفى الصدور .

الصورة التى رآها فى منزل العامل ، الصور التى لمسها فى منازل الفرقاء والالوية ، زعزعت ثقته بعض الشىء .لكنه مالبث ان استردها . ان أحدا لم يحد من انطلاقاته . لاالوزير ولا رئيس الوزراء ولا الرئيس . ماذا يريد أكثر من ذلك ؟حريته مطلقة فى أن يبحث ، ويكتب . يزور الوحدات، ويحاضر العاملين .

ضاعف من نشاطه الفكرى . وازن الصورة ، التى رآها فى مجموعة الوزير ، بتكوين مختلف لمجموعته . كان تكوين المجموعة صعبا . معظم أصدقائه ، ومعارفه ، من المثقفين البرجوازيين . هؤلاء لا يصلحون فى تنظيم طليعى اشتراكى . كانوا امناء ، وطنيين ، رجال . لكن بناء الاشتراكية يتطلب مواصفات ، تضاف الى الامانة والوطنية والرجولة . كون مجموعته من ستة . لم يكونوا كلهم اشتراكيين — كان منهم اشتراكى علمى واحد ، وآخر يقول بالضبط ما يسمعه من قادة الثورة ، ولا شىء اخر . ضم حسن

عاملا يعرفه من مصانع حلوان . المكان الذى جاء منه عامل « السولكا » . اصبح فى اللجنة ثلاثة اشتراكيون . الباقى كانوا مثقفين مستنيرين ، عاطفين على الاشتراكية فحسب . ترك حسن الاربعة اماكن الخالية فى مجموعته ليملأها بعمال واعين ... حينما يتاح له ذلك .

على ان هذه المجموعة على قلـــة عددها ، احدثت اثرا فى التنظيم الطليعى . كان اول شىء تقترحه ، ان مهمة التنظيم الطليعى هى تجميع الجماهير ، وتثقيفها ، وتوعيتها بالفكر الاشتراكى . وليست مهمته أن يبحث النكت . ويعرض للاشاعات . اقترحت كذلك أن تقدم المجموعات خططا للتثقيف الاشتراكى ، ووسائله العملية ، فى المصنع ، والمزرعة ، والشارع ، والمسجد ، والمدرسة ، والجامعة .

* * *

الزفة قادمة ! هذه المرة زاد المنضمون اليها . وارتفعت حناجرهم . يهتفون : عاش حمادة بك شاهين . يحيا نائب مصر الجديدة . اهلا اهلا بالفدائى . مرحب مرحب بالمجاهد الكبير . تماما كما كان الشأن ، فى الاحزاب القديمة الملغاة . الم يكن مكرم عبيد ، سكرتير عام الوفد ، يلقب بالمجـــاهد الكبير ؟

حمادة شاهين يتقدم الزفة . يرافقه تابعه المخلص حسين العتريس . حسين يبز شاهين فى ملابسه وحليه ، رغم انه من اتباعه . قصير القامة . تراكم على جسده لحم وشحم وفير . مطهم ، كعادته ، بالسلاسل ، والساعات الذهبية ،والسبحة اللولى ، والعصا الابنوسية . وهو الذى يقود الهتاف .

الزفة تنعقد فى يوم المحاضرة بالذات ! وفى الساعة التى تلقى فيها . المحاضر هذه الليلة : استاذ من جامعة القاهرة . يسكن بجوار الاهرامات ! جاء لمصر الجديدة ، متحملا كل هذا العناء ليحرك التاريخ ، فى جدل مع جماهيرها . فوجىء الرجل بالزفة تقاطعه . وتعلو حناجرها حنجرته الهشة.

ظهر الامتعاض على وجهه . قرر الا يتم المحاضرة ، ويرحل . رجاه حسن وزملاؤه ، دون طائل . وقبل ان ييأس ، حاول محاولة اخيرة :

— لماذا تبتئس ؟ هذا هو جدل التاريخ . الذى جئت تبسطه لجمهورنا . جوبهت به عمليا . وهذا اكثر فعالية من مجرد اطاره النظرى . هذه هى القوى المضادة للثورة ، جاءت ترتطم بقوى الثورة مباشرة . هذا التناقض يؤيدك فى محاضراتك . ويعطيك مادة حية يمكنك أن تتمثل بها فى المحاضرة . فتذكى وعى الجماهير . اقتنع الاستاذ ، واكمل المحاضرة .

* * *

عاد حسن من عمله السياسى الى بيته فى الواحدة صباحا . بدا يخلع ملابسه . ويتخلص من حذائه ، ليحرر قدمين ، اعتقلا نهارا كاملا ، ونصف ليل . صليل التليفون يعكر الصمت .ويحدث ازعاجا فى بيئة ، آن لهــا أن تتخــامل وتهجع :

— الو . من ؟

— « الحق » يا دكتور !

— خيرا ؟

— تعال بسرعة .

— اين اجىء ؟

— الى منزلى .

— هل يحترق منزلك ؟

— ليت الموضوع كذلك . الموضوع اخطر .

— لابد أن مصر الجديدة ، هى التى تحترق .

— لا . ان القطاع العام ، ملكية الشعب ، هو الذى يحترق .

تأفف . رد والانهاك يفرى قدميه ، ويطقطق عظامه :

— وهل انا ، يا عثمان ، المسئول الوحيد عن اطفاء الحريق فى القطاع العــام ؟

— الموضوع خاص بصاحبيك : شاهين وحسين .

— هل لا تستطيع ان تؤجل الموضوع للصباح ؟

— لن تجد له اثرا ، اذا ما اشرقت الشمس . سيفوتك نصف عمرك السياسى ! اذا لم تسرع بالحضور . المسرحية تمثل الآن . وسيسدل الستار بعد ســاعة .

جرجر ساقيه . لم تكن لديه سيارة خاصة . كان يمشى ويتمرمط فى الاوتوبيسات . والرخاء والرفاهية تستشرى حوله فى الرياسة . لم يكن ركوب العربات الفارهة مقصورا على القيادات العليا . فهؤلاء يركبون فى كل زمان ومكان . لكن حتى الموظفين فى المكاتب الدنيا ، عربات الرياسة تنقلهم وبنيهم وبناتهم الى الرياسة والى المدارس والاسواق .

ذهب الى منزل عثمان سكرتير لجنة الاتحاد الاشتراكى ماشيا . كتب عليه أن يظل من المشاة ! لحسن حظه كان عثمان يسكن فى مصر الجديدة . فى « العزبة » الحى الشعبى . كيلو متران فقط . عليه أن يمشيها فى وقت السحر . منزله يوجد على حافة العزبة . يمكن منه ان يرى القصور والفلل ، التى يسكنها حمادة شاهين وأسرته ، وتابعه حسين ، التى تقع على حافة الحى الراقى .

استقبله عثمان متحمسا . قال له : .

— هل يجوز أن تستدعينى بعد منتصف الليل ؟

اجاب عثمان ، ينبض الانتعاش من عينيه :

— هذه فرصة العمر . ستشكرنى عليها .

— « ايه الحكاية » ؟

— تعـــال معى .

قاده الى النافذة . اشار بأصبعه :

— انظر . هذه اللوارى هى لوارى القطاع العام . رأيت علامة القطاع العام عليها ، عندما نزلت أرقبها . واذا كنت تود ان تتأكد ، عندى بطارية قوية ، يمكن ان اريها لك .

قاطعه حسن :

— لالا . ضوء البطارية سيكشفنا .

— وما ضرنا ، اذا كشفنا ؟ نحن الذين نكتشف السرقة من القطـــاع العام بواسطة الذين يديرونه ، واتباعهم ؟

— حماسك يسعدنى . لكن يجب ان نستخدم العقل .

سكت حسن برهة . ثم سأل عثمان :

— لكنك لم تقل لى سبب وقوف هذه اللوارى هنا .

— امعن النظـــر .

كان ضوء الثريات الكهربائية فى الشارع خافتا . اللوارى تقف فى الظلال . لكن قمرا باهتا يرسل شعاعا ، يعاون على الرؤيا . قال عثمان :

— هذه اثواب ، وبالات من الاقمشة . تأخذ طريقها تـــارة لمنزل شاهين ، وتارة لمنزل حسين العتريس . وانت تعلم ان شاهين ، رئيس مجلس ادارة شركة كبيرة لحلج الاقطان وغزلها ونسجها . يمكنك ان تحلل وتستنتج .

اجاب حسن اجابة خيبت امل عثمان المتقد حماسة :

— هل كان من الضرورى ان تستدعينى ، لاشهد هذه المحنة ؟

— الست تعمل فى الحقل السياسى ؟ مهمتك على الاقل ان تعرف ما يدور حولـــك .

— اريد الجد ياعثمان . كم كنت اتمنى الا ارى هذا المشهد .

— السياسة تتطلب نفسا طويلا . والا نكون رومانسيين .

جرجر حسن ساقيه . لكن المشهد قد جعل النمل يدب فيها . صحبه عثمان فى تاكسى الى منزله .

وفى الصباح الباكر ، كان عثمان يقرع باب شقة حسن . وكأنه يلاحقه :

— صباح الخير ياافندم .

— اهلا يا عثمان . « انت اخذتنى مقاولة ولا ايه » ؟

— لابد ان نعطيك بعدا جديدا . وثيق الصلة بعملك السياسى . ليس الموضوع كله نظريات ، ومبادىء ، ومثل ، ووعى .

— صـــدقت .

— لا تخف . اعلم انك مرهق . سوف لا اثقل عليك . انت تمشى دائما الى مقر الاتحاد الاشتراكى .سأنحرف بك . . .

قاطعه حسن مبتسما :

— حذار من الانحراف !

— لا . . اطمئن . . . . سأنحرف بك عن الطريق ، مسافة تستغرق خمس دقائق . وسأريك شيئا .

— مازلت تصر ان ترينى .

— طبعا « ليس من رأى ، كمن سمع » .

انحرفا عن الطريق العام . اشار عثمان الى لافتة كبيرة علقت على محل شاسع . كتب على اللافتة «شركة عتريس فورد» ! برقت عينا حسن ، وكأنه يعترف لعثمان بجميل :

— لك الله يا عثمان . انت تثقفنى .

— استغفر الله « يا دكتور » انت استاذى .

— انا استاذ نظرى وانت استاذ عملى .

كان المحل مازال مقفلا . فالساعة مازالت الثامنة . وتساءل حسن :

— ما العلاقة بين عتريس وفورد ؟ الاسم مكتوب ، وكأن « فورد » لقب العائلة او اسم ابيه او جده !

— فورد أعز عليه من ابيه وجده !

— كيف ؟

— استمعنا لك عن دور الشركات الاحتكارية الاجنبية ، التى تسميها الشركات العابرة للقوميات . والتى تستند الى حلفائها المحليين ، لاحتكار الاسواق ، وتكوين الارباح من الجماهير المستهلكة والعاملة .

— الظاهرة عجيبة : الرجل مسلم . ويطقطق بسبحته « اللولى » نهارا وليلا . ويعتز بان فورد جده . ويعلقها بالخط العريض على محله .

— الدين لا يهم هؤلاء . لقب فورد الآن اكثر تقدما من العتريس ، واوفر ربحا . واشرف اصلا .

سكت عثمان ليهدىء من حماسه ، بعض الشىء . ثم قال :

— العتريس يحتكر بيع منتجات فورد : السيارات الفارهة المترفة . المعدات الزراعية وغيرها . ولو كان لديك وقت ، لاريتك وكالاته ، ومكاتبه ، ومعارضه ، ومخازنه ، المنتشرة فى وسط المدينة ، وكثير من احيائها . انه يعمل ويتجر فى كل شىء : المقاولات . ادوات البناء . الاثاث . الاخشاب ، الاقمشة . ويستورد ويصدر منتجات غذائية كثيرة متنوعة . . . .

— تماما كالشركات الاجنبية التى يتعاملون معها ، تتجر فى كل شىء .

واندفع عثمان يسأل حسن :

— هل تريد أن تعرف امرا مثيرا ؟

— منذ ليلة الامس ، وانا لم افلت من الاثارة التى هيأتها لى : تفضل .

— اخوة شاهين شركاء لحسين .

على ان حسن شهق شهقة دهشة وفزع عندما قال له عثمان :

— اتريد ان اتحرى لك العلاقة بين حسين شاهين وسمير شريف ؟

قال له :

— لا . « اعمل معروف » !

— سيكون ذلك فى غاية السرية والحذر .

لا تستطيع ، فالاجهزة تسترق خلجات النفوس . وارجو الا يكون حديثنا قد سجل .

— كيف ؟

— الم تسمع عن السماعات والاجهزة الدقيقة التى تلصق بالحوائط من الخارج او الداخل ، ليسترقوا السمع ، ويعرفوا ماذا يقول الناس منهم .

— غدا ، سافحص مبنى الاتحاد الاشتراكى ، لاكتشف ، اذا كانت هناك اجهزة .

* * *

بعد بضعة ايام . جاء الى مكتب الاتحاد ، احد العاملين فى الجمعيات التعاونية بمصر الجديدة . وذهب مباشرة الى غرفة حسن :

— مساء الخير يا دكتور .

— مساء النور .

— اريد ان احدثك على انفراد .

كانت غرفة الامين غاصة باعضاء الاتحاد ، وزوار المبنى ، واصحاب الشكاوى والحاجات . اخذه الى مكتب آخر خال . وتحدث الرجل :

— جئت لاسالك ، ما اذا كنت ترغب فى قطع خاصة من اللحم . لدينا لحوم كثيرة بعضها ممتاز .

— الناس يقولون أن لحوم الجمعية ، كلها عظام ، وعروق ، ودهون .

— هؤلاء هم الناس العاديون .

— وهل يتعامل مع الجمعية ، ناس عاديون ، وغير عاديين ؟

— اننا نقدم قطعا خاصـــة : البتلو الصـــغير والضــانى الاوزى « والانتركوت » والكبد والكلاوى والقلوب ، الى الخاصة .

— من تقصـــد ؟

— حمادة بك شاهين مثلا ، وحسين العتريس ، واقاربهما .. وسمير بك شريف .

لم يرع حسن عند سماعه للاسماء الاولى . ولكن الاسم الاخير افزعه . واجاب الرجل بهدوء :

— أنا أشكرك على مشاعرك . لكننى لست من الخاصة . وبصراحة اكثر لست من اكلة هذه القطع الخاصة ، لانى لم اتعود عليها . ولم اسمع بها . لقد صعدت قريبا فقط فى سلم الاكل ، الى اللحمة بصفة عامة كصنف ! فاعذرنى ، فانا لا أعرف مفرداتها !

— مفردات ممتازة . انا اقطعها لك .

— لا . وانا اشكرك .

اراد عامل الجمعية أن يعرض عليه أصنافا اخرى قال له :

— نأخذ لهم كذلك صناديق الصابون الممتازة ، والشاى السيلانى ، والارز والسمن البلدى ، والجبن الفرنسى ، والكاكاو الغانى .

— تقول الكاكاو الغانى ؟ اتعرف اين تقع غانا ؟

— يا دكتور نحن متعلمون . حصلت على الابتدائية والاعدادية وانا

عامل فى الجمعية . ومادمت تشكك فى معلوماتى ، وانا أعلم انك شعبى متواضع ، هل اسالك سؤالا :

— بكل سرور .

— اين يوجد افخم سجاد فى العالم ؟

— فى ايران طبعا . السجاد العجمى .

— هذا كان فى الماضى . اما الآن فقد انتقلت فخامة السجاد الى منطقة اخرى هل تعرفها ؟

— لا .

— ارايت ان الدكتوراة لم تنفعك ؟

— صدقت . الدكتوراة عرفتنى جانبا واحدا ، من جوانب المعرفة .

— افخم سجاد الآن يصنع فى الاتحاد السوفيتى !

كان العامل لماحا . راى حسن بنفسه السجاد السوفيتى الفاخر ، ينثر الفخامة فى بيوت بعض اعضاء التنظيم الطليعى ، ومديرى المكاتب .

كان حسن فى حديث له مع الوزير عبد المجيد فريد قد اشار الى ما يفعله شاهين وشلته فى مبنى الاتحاد ، وتويتهم للمحاضرات . قال لـــه الوزير :

— شاهين من شلة سمير شريف .

— هل هناك شلل فى الثورة ؟

— ربمـــا .

— لكن سمير مقرب من القيادة العليا .

— هذه هى المشكلة !

لم تشجعه هذه الاجابة على ان يقص قصة حمادة شاهين مع القطاع العام . وقصة « العتريس فورد » ! مع القطاعين العام والخاص .

* * *

انتزعته من مصر الجديدة انتزاعا .قالت له :

— أنت لم تبر بوعدك .

— اى وعـــد ؟

— أن نهرب من السياسة والعلم ،وشغل البيت ، الى الطبيعة ، يوم فى الاسبوع .

— الم نفعل ؟

— الاسبوع الماضى ، لا . لن تفلت من يدى هذا الاسبوع .

اختارت زوجته الاسماعيلية . ذهبا ومعهمـــا رفيق ، الى شاطىء القناة . وجدت برندا القناة فيحاء . تنبض سلاما ، ورخاء ، لبنى الانسان فى كل مكان . تساءلت :

— أهذه هى القناة ،التىأرادوا ان يخضبوا مياهها الرائقة ، بدماء المصريين ؟

— هى بعينها . ارايت هذا الجمال ، يريح العين . وهذه الرمـــال تبرق بذهب الشمس ؟

— لعن الله الاستعمار !

ما ان نطقت برندا بهذه العبارة ، حتى تذكرت على الفور ، انها اتت به الى هنا لينسيا معا السياسة ، وليوم واحد . المياه رقراقة . والجو بديع . الشمس تحثهم على ان يتحللوا من ملابسهم ،ويتركوا اجســـادهم لاشعة الشمس تدلكها . وليربت عليها الموج الحانى .

ركبته هوايته . قبل برندا فى العراء . انها زوجته ، فالقبلة حلال . ولا احد حولهما ، فلا خدش للحياء العام ، الذى تجرحه اللمسة الجمالية كالقبل ، ولا يخدشه القبح المحيط به فى كل مكان !

هذا هو رفيق . داعبته النكتة المصرية قبل ان يولد ، ويرى ارض

النكت ! عندما كانت امه تحمله ، قال حسن لصديقه اسماعيل زعزوع زميله فى كلية الحقوق :

— برندا حامل . لو جاء ولد ، اريده ان يشبهنى . لو جاءت انثى ، اود ان تشبه امها .

رد اسماعيل ، بخفة دمه المشهورة :

— رايى ، بنتا كان ام ولدا ، أرجو ان يشبه والدته !

وجاء رفيق ، بكل اسف ، اقرب الى والدته . وتحققت نبوءة اسماعيل . عيناه فيهما جمال واتساع ، والوان ، اكتسبها من والدته . على أن حسن لم يترك هذا الجمال طليقا . اكسب عينى رفيق « عكرة » خفيفة ! كانت لمسة ضرورية ، لتكسب العيون الزرقاء ، لون الرجال !

تجمع حول رفيق بنات من كل عمر . براعم لم تتفتح ، وأخرى تفتحت . اصبح رفيق نبعا جميلا ، تنمو الازاهير حوله ، وتحلق فوقه الاطيار . داعبه ابوه يوما كاملا . سعد برفقته . وقف على امكانيات ابنه الطفل ، ونعم بهذه الامكانيات !

اعجبت برندا بالاسماعيلية اعجابا شديدا : قناة السويس ، بحيرة التمساح ، الحدائق النضرة الداكنة الخضرة . الازهار الزاهية الالوان . الشوارع النظيفة ، الفلل الانيقة . سقوفها الحمراء تذكرها بفلل لندن ، والريف الانجليزى .

تركها حسن تجتر اعجابها . لم يشأ أن يجرها الى الحى الشعبى . حى الثلاثين ، كما يسمونه فى الاسماعيلية ، وبور سعيد ، والسويس . كان يعلم أن القلة « الارستقراطية » ، اوربيـــة كانت او تركيـــة ، او مصرية ، لابد لها من خدم ، وعبيد ، وخفر ، وكناسين ، وزبالين ، وحرفيين . هؤلاء لا يمكنهم وليس من المرغوب فيه أن يسكنوا الفلل . حشرهم الانجليز ، والفرنسيون ، كما حشرهم المصريون ، فى حى شعبى . لا يختلف فى قذارته

وانسحاقه عن الاحياء الشعبية فى القاهرة . وهو يماثل تماما « العزبة » فى مصر الجديدة . كان الشعب بفئاته السابقة ، ضرورة واجهت الشركة البلجيكية ، صاحبة الامتياز لضاحية مصر الجديدة . الشركة التى استولت على الارض بمليمات ، وباعتها بملايين الجنيهات . كان لابد لهذه الشركة التى تبنى هذه الضاحية الرائعة ، من خدم وحرفيين ، أسكنتهم العزبة . ورث العزبة النائب السياسى وقطب القطاع العام ، حمادة شاهين . ومعـــه حسين العتريس — ممثل الرأسمالية الوطنية — تغدق عليـــه تراخيص الاستيراد والتصدير . وتمنح له سلع القطاع العام وصفقاته ، حلالا وحراما.

بعد أن لفحته هذه الومضة ، استبعدها راجيا : لا تلحى على الآن . النهار تقترب نهايته ، ونحن فى طريقنا الى القاهرة ، عاصمة الآلام .

* * *

— ٢١ —

فى مكتب البحوث ، احس بأنه يفتقد شخصا . سأل احد الباحثين الشباب :

— اين محمد عبيد ؟

— ابتسم الباحث ابتسامة ، فيها سذاجة ، بقدر ما فيها من خبث ، واجـــاب :

— فى مكتبه . فى غرفة خاصة .

قاده الباحث الصغير الى حجرة محمد عبيد :

— صباح الخير .

— اهلا يا دكتور .

— اين انت ؟ لم نرك لمدة طويلة .

— لدى بحوث كثيرة .

— الا استطيع معرفتها ؟

اخذ محمد عبيد يدير الموضوع فى رأسه . ثم بدا ، وكأنه وصل الى راى :

— سأقول لك بصراحة ، بحكم الزمالة والعيش والملح ، لكن ارجو ان تقطع لى عهدا بأنك لن تقول لاحد .

— اعـــدك .

— لم تسألنى ، لماذا انتقلت الى غرفة خاصة ؟

— امر ليس بذى اهمية .

— انه مرتبط بما اعمل فيه . ان نائب الوزير يعد رسالة للدكتوراة ، وانا اعاونه فيها .

— تعاونه من حيث الاستشارة العلمية فحسب .

— انت ، يابو على ، ذكى « تفهمها وهى طايرة » . انقطاعى عنك ، وعن دراسات المكتب ، وقفلى فى هذه الغرفة ، ثم تقول : استشارة ! اننى اكتب كل حرف فى الرســـالة .

احب محمد عبيد ان يفكر كعادته ، قبل ان ينطق بعباراته ، ثم قال :

— يبدو ان استغراقك فى العمل السياسى ، فى الفترة الاخيرة ، جعلك لا تعلم ماذا يصنع بعض الباحثين ؟

— ماذا يفعلون ؟

— يترجمون المراجع الاجنبية . وانتقى ما يصلح للكتابة فى الرسالة .

لم يخطر ببال حسن ، ان العزبة الجديدة ، او الوسية المتطورة ، يمكن ان تنسحب على دنيا العلم ، بهذا الشكل . الوسية العلمية ، كما كان يعرفها ، لها خصائصها التاريخية . علاقاتها الاقتصادية والاجتماعية تشبه وسية الخواجة الاقطاعى . هذا لون جديد من الاستغلال : باحثون ومترجمون ، موظفون فى الدولة يجندون لكتابة رسالة دكتوراة . سوف يحملها انسان له سلطة . عزبة ذات طابع خاص .

لم يستطع حسن أن يمنع لسانه :

— هل تقبل ذلك ؟

— ماذا افعل ؟ هبه طلب منك هذا العمل . بماذا تجيب ؟

— لا اقبل .

— انت يا عم ، اصبحت سياسيا مرموقا . استاذ جامعى ، يمكنك ان ترفض . اما انا ، فانى اعترف بانى لا استطيع .

اراد حسن ان « يتبسط » مع محمد عبيد :

— لهذا يا ابا حميد ، ازداد اقترابك من نائب الوزير ، يدعوك الى مكتبه . ويحضر اليك فى غرفتك . ويدعوك الى منزله .

— دعنا « نأكل عيش » ، يا ابا الحسن .

— بهذه الطريقة ؟

— اليس هذا النائب قطبا من اقطاب الحكومة ؟

فى اليوم التالى جاءه الباحث الصغير ، وعلى وجهه ابتسامة ، زاد خبثها . قال :

— الم تذهب لتهنئة الاستاذ محمد عبيد ؟

— على ماذا ؟

— على الترقية الى الدرجة الثالثة .

احتار حسن بين صداقته لعبيد ، وانتهازيته . على انه طالما اشتكى من ظروف قاهرة ، عاقته عن الحصول على الدكتوراة ، وزملاؤه مدرسون واساتذة فى الجامعة . ذهب اليه ، وهناه .

بعد شهرين جاء الباحث الصغير الى حسن بقصة طريفة :

تشمم محمد عبيد أن هناك درجة ثانية بجهاز التنظيم والادارة . فانتقل اليه من جهاز المحاسبات ، وهو الجهاز الموظف فيه . ورقى الى الدرجة

الثانية . وبعد شهرين آخرين ظهرت درجة اولى فى جهاز الاحصاء نقل اليه ، وحظى بالدرجة الاولى . وبعد ثلاثة اشهر ، عاد الى الجهاز المركزى للمحاسبات مرة اخرى . خلت فيه درجة مدير عام وقد صعد اليها ! كان نائب الوزير وراء كل هذا .

كان محمد عبيد واقعيا . لم يكن فى اى وقت من الاوقات اشتراكيا بالمعنى الحقيقى . باحث ، استدعى للعمل بمكتب الرياسة للبحوث . والقيادة تريد بحوثا اشتراكية . لا بأس . لديه الاستعداد ليجرى بحوثا . لا غبار عليه . لكن هذا التنفز على الدرجات والاجهزة ، دل على انه مخطط ذكى . قفز اربع درجات فى سنة واحدة .

تفهم حسن موقف عبيد . اصحاب النفوذ يستخدمونه ، وهو يستخدمهم ! كان كذلك يفهم اشتراكية الناس الذين يعمل معهم . ويعرف ان حسن ياخذ الاشتراكية مأخذ الجد . الاشتراكية لا تهمه كعقيدة . تهمه ، لان النظام يقول بها . يقف عند الخطوط التى يقول بها المتحدثون باسم النظام .

مازال حسن حريصا على زمالته لمحمد عبيد . فهو افضل من غيره . كانت فلسفته انه يريد أن يعيش . وقد وصل الى هذه الدرجات ، موظفون اقل منه كفاءة . لماذا لا يصل اليها بطرقه الخاصة ، وهى طرق علمية ؟

الامر الوحيد الذى تحفظ فيه حياله ، هو انه لم يختره فى مجموعته بالجهاز الطليعى . هذا التبرير الذى ساقه لسلوكه ، لا يمكن لضميره ان يتخطاه فى عمل وكل اليه . هو لا يصلح ان يكون رفيقا فى عمل ثورى اشتراكى . الا انه لم يخسر شيئا . عينه نائب الوزير فى مجموعته .

التقى به حسن ، فى حديث خفيف ، وقد تساوت الرؤوس :

— انت ، « يابو حميد » ، مخطط ماهر ، واقعى ، شديد الخطورة .

— نحن تلامذتك .

— العب غيرها . لقد وجدت استاذا آخر .

— نائب الوزير ؟ انا استاذه ! كتبت له الرسالة .

— هل تعتقد انها ستقبل ؟

— بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف !

— الى هذه الدرجة ؟

— ارايت الى الاساتذة يهرعون الى مكتبه ، ليعطيهم بحوثا بالاجر ! او يتقربون منه ، تطلعا الى مكاسب عليا .

— رايت .

— اذن ، مرتبة الشرف !

— معك حق .

اراد حسن أن يغمز عبيد ، لا لتقريعه ، ولكن للمزاح معه :

— انما ، يا محمد ، أناسمعتك يوما ، تقول لنائب الوزير : انت استاذى .

— سوف اصدقك القول . انا لى اسلوبى الخاص .

— تفضل . لكن لا تقل أننى أستاذك .

ضحك محمد عبيد قائلا :

— لماذا تعرقل وسيلتى ؟ اسمع يا سيدى :

— الناس كلهم اساتذتى . وبصفة خاصة فى السلم الوظيفى ، والاجتماعى ، والطبقى ، حتى لا تغضب .

— الى ان تحقق اهدافك ؟

— اجل .

— هذا كلام صريح ...

« لطشته » عبارة « الناس اساتذتى » نقلته نقلة طولها عشرون عاما .

محمد خطاب ، خفير الجرن فى الوسية اليونانية . قال له فى حوار من حواراتهما : الناس كلهم اسيادى : انا اخدم الخواجة ، وامسك حمارة الباشكاتب حسين ، عندما يركب . واقبل يد الشيخ سليم الباشخولى . واتقرب الى الكلافين والخولة ، والمقاولين ، لاصل الى اغراضى . وغرضى الاول ان ابقى خفيرا ، حارسا للخيرات من القمح والفول والارز ، ولآخذ نصيبى منها .

* * *

عاد محمد عبيد الى رحلة القطار المجرى الى اسيوط . واحب حسن ان يتمازح معه :

— اراك يا محمد « بك » قد انتفخت أوداجك اليوم . وكانت بالامس منكمشة !

اجاب بروح رياضية ، لم يتوقعها حسن :

— طبعا . هل يمكن ان تكون أوداج الدرجة الرابعة ، كأوداج المدير العام ؟ !

— اذا كانت درجة المدير العام ، تمنح للعقول الراجحة ، فانى اؤيد صعودك لها ، رغم تخطيك لمئات الناس الذين يستحقونها .

— انا لا ادرى ان كنت تمدحنى ام تذمنى ! ؟ انا اعرف طريقتك : « الطريقة الحسنية » ! انت لا تعلم اننى ظلمت . وفى مجتمع ، الظلم فيه هو القاعدة ، لابد ان تلجأ الى مهاراتك الخاصة ، وهى مشروعة فى الغابة التى نعيش فيها .

— الغابة ؟ حسبتنى فى نظام يبنى العدل والاشتراكية .

— مرة اخرى ، انا لا اقدر عليك ، واتركنى فى حالى « لناكل عيش » ، وسوف تجيب على سؤالك الايام .

— اياكل المدير العام « عيشا » ، ام جاتوه ؟

— والله لا اعرف . المدير الذى يكتفى بمرتبه ، ياكل عيشا . الجاتوه لغير المكتفين !

— من اى فريق انت، يا محمد ؟

— الهذا الحد فقدت الثقة بى ؟

— أنا آسف . كنت احسب ان الحديث ، مازال خفيفا .

سكت حسن لحظة . ود ان ينهى الحديث نهاية سارة . قال لمحمد :

— هل أدلك على فرصة كبرى ؟

— اتوسل اليك .

— هناك نائب لرئيس الوزراء ، يعد رسالة للدكتوراة . لماذا لا تتصل به ؟ فهى تساوى وكيل وزارة .

قهقها معا قهقهة عالية . وقال محمد عبيد :

— الرزق على الله !

وقف القطار فى محطة اسيوط ، بعد اربع ساعات من الحوار الممتع الفكه الجاد . كان فى فكاهته وجده ، حديثا ودودا . وما ان وصلا الى الجامعة ، حتى دارا فى الطاحونة ، التى يدوران فيها كل اسبوع : اربع محاضرات ، يوم الوصول ، وست محاضرات يوم الرحيل .

* * *

تقابلا فى المساء فى استراحة الاساتذة . كان حسن منخول العظام . عظامه تطحن فى القاهرة . ثم تنخل فى اسيوط ! امضى اربع ساعات فى المحاضرات ، وخمس ساعات فى رحلة القطار . استيقظ فى الرابعة ، ليأخذ « مجرى » السادسة . نام ليلة السفر بعد منتصف الليل ، نوما متقطعا . شعر بحاجة الى النوم . اسرع الى غرفته ، وما ان اوشك ان يتمدد على السرير ، حتى طرق محمد عبيد الباب . دخل عليه :

— اسرع . اسرع .

— ماذا ؟

— لا وقت . ستفلت منك فرصة العمر !

جذبه من السرير ، دلف به الى حجرته ، قال له اسمع .

استمع الى حوار مضحك مبك فى وقت معا . كان الحوار بين مدرسين حديثين من مدرسى الجامعة . دار فى الصالة التى وضعت فيها منضدة الطعام . قال الاول لزميله :

— كنت تحدثنى عن شىء اسمه العزبة ، او الوسية . وكنت تطلقه على ما يدور فى الجامعة . وكنت امضغ الطعام . لم اتبين كلامك بالضبط . لا تؤاخذنى .

— كنت أشير الى الجامعة ، التى اقترح تسميتها بالعزبة .

— استمر .

— فى اى سنة تدرس ؟

— فى السنة الرابعة ، واعطى مجموعة صغيرة (سكشن) .

— ومن ذا الذى يدرس محاضرات السنة الثالثة ؟

— الاستاذ . . .

— ومن يدرس للسنة الثانية ؟

— الاستاذ رئيس القسم .

— ومن يحاضر للسنة الاولى ؟

— عميد الكلية .

— هل فهمت ؟

— احسبنى فهمت .

— كلمة « احسبنى » تدل على انك لم تفهم الظاهرة تماما . كلينا

عزبة ، وجامعتنا ومثيلاتها ، عزب كبرى . أطلق عليها زميل لنا كلمة « الوسية » ، تعبيرا عن الاقطاعيات الكبيرة . هذه العزبة مقسمة بين الملاك الكبار : العميد ، ورئيس القسم ، وأساتذة المادة . العميد ، رأس القبيلة ، نترك له سنة أولى . وما ادراك ما سنة اولى : ثلاثة آلاف تلميذ منتظم ، ومثلهم منتسب .سوق واسعة محتكرة لكتابه .

— لقد وجدت هذا الكتاب فى أيدى طلاب الهندسة والزراعة والحقوق.

— الاقتصاد يدرس فى كل تلك الكليات . بل ان هناك اتفاقية ، تشبه اتفاقية الكارتل بين الشركات الاحتكارية . اتفاقية بين أساتذة وعمداء الكليات فى الجامعات المختلفة لتبادل المنافع . وبهذا تتسع أسواق الكتب ، لتغطى آلافا أخرى من الطلاب . المحتكر هنا يفرض الثمن الذى يريده ، والطلبة « الغلابة » يدفعونه ، ويقتطعونه من « لحم الحى » كما يقول المثل الشعبى .

واجاب زميله :

— لست فى حاجة لان تقول لى عن الاقطاعية التى تقطع لرئيس القسم ، وهى السنة الثانية ، وطلابها اقل عددا . ولكنها اكبر عددا من السنة الثالثة ، التى تكون من نصيب أستاذ آخر . هذا وضع منطقى فى مجتمع طبقى ! الثراء يتدرج من القمم الى الدرجات التالية فى السلم الاجتماعى .

همس محمد :

— ارأيت ؟

— وسمعت ؟

لماذا لا تأخذ نصيبك من الوسية ؟

— هل أهاجم الوسية ، وأحارب الاستغلال ، ثم آخذ نصيبى منهما ؟

— الناس جميعا يفعلون ذلك .

تماما كماكان يحرضه «احرار» وسية الخواجة اليونانى على السرقة .. واجابه .

— انا لن افعل . والا اكون قد انتهيت كانسان . واصبحت مستغلا الطلبة الفقراء . ما الفرق هنا بين استاذ الجامعة والراسمالى ؟ انهم يفعلون ذلك حتى فى جامعة الازهر .

— الذنب هنا اقبح . يستخدمون لاستغلال الطلبة الفقراء ، اقدس شىء وهو الدين .

— عندما تذكر كلمة « الدين » تقفز الى ذهنى ، صور استخدام الحكام والمشايخ له لاستغلال الشعوب . هذا يذكرنى بمحمد على . اقطع بعض علماء الازهر اقطاعيات شاسعة . رشوة لهم ، لاستغلال الدين فى تأييده ، ضد القوى الوطنية ، والزعماء الوطنيين ، امثال عمر مكرم . هذه صورة من صور نشأة الاقطاع الدينى !

فلسفة الوسية تطرد : حينما كان حسن يدرس فى احدى الكليات ، اوضح له المعيدون من تلامذته ، صورة للوسية العلمية . قالوا له : ان بعض الاساتذة يستغلونهم استغلالا مباشرا . وبعبارة اخرى يشغلونهم « سخرة ! » . وهى اعلى مراتب الاستغلال . يصحح المعيدون أوراق الامتحان بالالاف . يقبض الاستاذ اجرة التصحيح كاملة . لا يعطى المعيدين شيئا . يوقع هو على الاوراق كانه صححها ، ويتسلم الشيك . ويوقع عليه كذلك !

لم يترك محمد عبيد هذا الحوار يمر ، دون أن يفيد منه :

— هاهم زملاؤك ، اساطين العلم فى الجامعة ، يتخذون منها عزبة كبرى . أو على حد تعبيرك « وسية علمية » . احسبك الآن لا تلومنى على ما فعلت .

— انا لا الومك . ولكنى أشيد بخطورتك !

* * *

— ٢٢ —

مجموعته فى التنظيم الطليعى ، تجتمع فى داره . عددهم ستة كعدد المقاعد فى غرفة جلوسه ! لا بأس ان يعقد الاجتماع فى شقته . اعضاء المجموعة ، أصدقاؤه . يعرفونه قبل أن يكون لديه غرفة جلوس !

رحبت برندا بهم ، فهم يعرفونها . قدمت اليهم الشاى والجاتوه ! ارتفع مستوى المعيشة الى « الجاتوه » . ولكنه كان قطعة واحدة لكل . كان فنجان الشاى الذى اعد للمضيف باللبن . وعندما راى سويلم ، احد افراد المجموعة ، أن برندا تقدم الشاى باللبن لزوجها ، وقف محتجا :

— انا استأذن !

وسأله حسن دهشا :

— الى اين ؟

— الى منزلى .

— والاجتماع ؟

— لن احضره .

— يا رجل .

— كيف أحضر اجتماعا لمجموعة فى جهاز طليعى . يرؤسها رجل مترف يشرب الشاى باللبن !

وضحك الجميع . كان بدءا فكها ، لاجتماع صاخب . كان اللبن
سويلم . كان يعمل استاذا بكلية الحقوق . وكانا يدرسان فيها معا ذهبا لزيارة أستاذ صديق ، طلب اليهما شايا . قال حسن :

— أريد الشاى باللبن لو سمحت .

قامت قيامة سويلم . لم يجد حرجا فى ان يقول لحسن :

— هل كنت تشرب لبنا فى بلدكم ؟

واجاب حسن :

— ولا شايا !

— اذن ، كيف تطلب الشاى باللبن ؟ !

كان الاجتماع مخصصا لمناقشة « تقارير » الاعضاء عن القطاعات التى كلفوا بزيارتها . وكن أول المتحدثين فتحى . اشتراكى ، عميق المعرفة بالتخطيط الاقتصادى . فى الاربعين من عمره .

— زرت شركة الحلج والغزل والنسج ، التى يرؤس مجلس ادارتها ، حمادة شاهين . وزرت كذلك شركة الحديد والصلب . وما سأقوله ينطبق على الشركتين . ثم دلف فتحى الى الموضوع :

— رئيس مجلس الادارة — العمال — النقابة — الاتحاد الاشتراكى ولجانه — الترف — الكادحون . وقالوا لى ، وقلت لهم — الاجور — الحوافز — الانتاج والرقابة !

نظر الاعضاء لبعضهم بعضا . لم يفهموا شيئا . شعر حسن بما فى عيونهم من تساؤلات . استأذن الحاضرين ، واصطحب فتحى خارج الغرفة . قال له :

— ما تقوله خلط . لا يفهم منه شىء .

ابتسم فتحى ، وكأنه راض عن نفسه :

— انت تعرف أسلوبى .

— اسلوبك واضح ، حين تتحدث الى .

— نعم ، فأنت حسن . اعرفك معرفتى لنفسى . اما اعضاء المجموعة ، فلا اعرفهم .

كانت الرعدة تنتاب فتحى ، حينما يتحدث عن الاشتراكية والراسمالية . او السياسة بصفة عامة . كان يلجأ الى هذا الاسلوب الضبابى ، حتى لا يؤخذ عليه كلامه . وكان له عذره ! وضع بعض أقاربه « وراء الشمس » . كما يتداولون . أكدله حسن :

— هذه المجموعة رجال موثوق بهم . اشتراكيون مثلك ، والا ما كنت صادقتهم ، وضممتهم الى مجموعتى .

— جميل . سأتحدث .

حينما عاد فتحى للحديث ، حلت عقدة لسانه :

— زرت العمال ، فى خطوط الانتاج . أمام الانوال ، والمغازل ودواليب الحلج . منظرهم رائع ، وغبار القطن يغطى أهدابهم ، ووجوههم روحهم المعنوية عالية . زملاؤهم فى الحديد والصلب ، تحرق الافران اجسادهم ، ويسود الدخان وجوههم . ومع ذلك فهم فرحون بصناعة تدخل مصر لاول مرة . والفريقان يعتقدان ان المصانع ملكية للشعب ،فيبذلان جهدا خارقا ، وكفاية عالية . الذى يسوؤهم فقط ، أن رئيس مجلس الادارة. وكبار المهندسين ، ورجال الادارة العليا ، منعزلون عنهم ، فى ابراجهم العاجية . لا يشاركونهم هذا الكدح لزيادة الانتاج .

ذهب فتحى ، الى الجناح الذى يحتله رئيس مجلس الادارة للقائه . عملية بالغة التعقيد . قابله على باب المبنى جندى يحمل مدفعا رشاشا — يا ستار يارب — فتحى الذى يرعشه الكلام ، ماذا يفعل به الرصاص ! بعد أن تخطى هذا الخط الدفاعى الحصين ، كان عليه أن يجتاز مواقع كثيرة : الاستعلامات — السكرتير الخاص — منسق الزيارات — مدير المكتب .

المكاتب التى مر عليها فتحى ، قبل مكتب المدير ، مريحة . فيها من الاثاث الفاخر قدر كاف . لكن كانت بها مراوح تخفف حرارة الجو .

لا توجد فى عنابر العمال المنتجين . لكن غرفة مدير مكتب رئيس مجلس الادارة ، كانت شيئا آخر تماما :

التكييف الذى جعل الصيف شتاء . الابهة فى كل شىء فى الغرفة . الاناقة فى ملابس المدير . الشحم واللحم ، ينم عن النعمة ، وعدم التحرك . قال لفتحى للمرة الرابعة ، بعد ان اجاب على السؤال فى المكاتب السابقة :

— ما هى المهمة التى تريد أن ترى الباشا فيها ؟

تعجل فتحى . كان على حرصه ، والرعب الذى يعيشه ، متعجلا . تساءل :

— الباشا ؟ اى باشا ؟

اجابه المدير فى هدوء ، وثقة .

— الباشا ، رئيس مجلس الادارة .

عاد الرعب الى فتحى ، فواتاه الحرص مرة اخرى . قال للمدير ، ما قاله لمن سبقه عن نوع مهمته . قال المدير له أخيرا :

— تفضـــل .

دخل فتحى على رئيس مجلس الادارة . وقبل أن يشرح انطباعاته للجماعة ، استدار الى حسن ، وقال له :

الحمد لله ، لم تذهب انت للشركة . كان شاهين سيرعبك . وكنت استمعت باذنك انه « باشا » ، وليس « بك » كما يلقبه اتباعه !

وجد فتحى ، « شاهين » رئيس الشركة ، شيئا صغيرا . جسد نحيل . لا يكاد يظهر خلف المنضدة التى تمتد بعرض الغرفة . « غاطس » فى مخفخة ، لم يألفها فتحى . وقف « الباشا » للقائه ، نصف وقفة ، خلف منضدته . كان التكييف باردا . واتته الجراة فرجا رئيس مجلس الادارة :

— التكييف قوى جدا . اخشى ان اصاب بالبرد . جئت لتوى من عنابر العمال . والحر فيها لافح . « وهبو » القطن يكتم الانفاس .

تجاهل شاهين هذه الملاحظة . على انه لم يتجاهل جزءا منها :

— هل رأيت العمـــال ؟

— نعم وتحادثت معهم .

رد عليه الباشا فى اسلوب فيه احتجاج وتعال :

— كيف تتصل بالعمال ؟ من اذنك بأن تلتقى معهم ؟

— انا عضو بالاتحاد الاشتراكى بالمحافظة ، ولى الحق فى الالتقـــاء بالعمـــال .

— لكن يجب أن تستأذننا قبل ان تدخل عنابر المصنع .

تبخرت الجراة المؤقتة الى ركبت فتحى . فاء الى نفسه :

— انا آسف . حسبت أن « معاليك » ! على علم بمهمتنا .

التفت اليه « الباشا » بطريقة عسكرية :

— ماذا يمكن أن اقدم لـــك ؟

— وددت ان أسأل ، ما هى العلاقة بين الادارة العليا والعمـــال . ونقابتهم ، وما هو دور لجنة الاتحاد الاشتراكى فى المصنع ؟

— هذا موضوع كبير . العلاقة بيننا وبين العمال علاقة اخوة ! لا مشكلات . طبعا انت قرات البحث الذى عمله « الجدع ده اللى اسمه حسن » ، امين الاتحاد بمصر الجديدة . هـــذا كلام نظرى ، لا يتفق مع الواقع .

استشعر فتحى من ورود اسم حسن . خشى أن يكون قد علم ، بأنه عضو فى جماعته . لكن اطمأن ، أسماء الاعضاء سرية . ثم تشجع ليقول :

— لكنك قائد اشتراكى ! تتولى قطاعا انتاجيا هاما . وانت كذلك

عضو هام فى التنظيم السياسى . فكيف تقول انه بحث نظرى ؟ وهو يهدف ان يصل بهذه العلاقات الى ان تتسق وملكية الشعب لوسائل الانتاج .

— انت كذلك تقول ، ملكية الشعب لوسائل الانتاج !

— هل تؤمن سيادتك ، بهذا الموضوع ؟

— بلى . اؤمن بالقطاع العـــام !

انت ايضا تعرف بلى . والله انت « ابلا » . خاطر جال بذهن فتحى . لحسن الحظ لم يسمعه « الباشا » ، وقال :

— القطاع العام هو ملكية الشعب .

واجاب رئيس مجلس الادارة ، اجابة غريبة . لم يدر فتحى ، ولم تدر الجماعة معه ، حين سمعتها ، ان كان الرجل عميقا ، يدرك حقا ما يقول ، او انها كانت رمية من غير رام :

— التأميم والقطاع العـــام شىء ، وملكية الشعب لوسائل الانتاج شىء آخـــر .

تلعثم فتحى . تنزلت الاجابة الى اغواره . يبدو انـــه اقتنـــع . لم يشـــأ ان يقـــول له : انت تقول ان العمـــال اخوانك . لمـــاذا لا تزور المصانع التى ترؤسها ، وتشارك اخوتك الانتاج ؟ لماذا تعيش فى هذا البرج المترف ؟ أموال الدولة ، انتاج العمال ، تنفق على هذه المكاتب الباذخة . بينما العمال يصل « هبو » القطن الى صدورهم ، فيصدرهم . ما الفائدة ؟ هذا هو النمط البرجوازى . الباشوات الجدد ، الذين يقودون القطاع العام ، والمؤسسات السياسية . ربما يقودونها ، ويقودون مصر الى الهـــاوية .

التقط العامل مجاهد خيط الحوار . فهو يعمـــل فى شركة مماثلة ، يعاصر التجربة بنفسه . قال :

— صحيح انه توجد نماذج جيدة تقود بعض وحدات القطاع العام ، ولكنها قليلة . والصورة التى عرضها علينا فتحى تماثل تماما الصورة فى

مصنعنا . رئيس مجلس الادارة ينعزل فى جناحه الفخيم المكيف ، يصدر الاوامر الى مصانع لا يراها ، والى عمال لا يعرفهم . طبقة مختلفة تماما عن الطبقة المنتجة . يتيه بأبيه وجده ، فهو ابن باشا سابق .

وتعجب عبد العظيم :

ــ كيف يقود هؤلاء بناء الاشتراكية ؟

وأجاب مجــاهد :

ــ هذه هى النقطة التى أود اثارتها : رئيس مجلس الادارة ، فرق بين التأميم والقطاع العام ، وبين ملكية الشعب . اما انه قارىء متعمق . يفهم التفرقة تماما . واما انه رجل عملى واع باتجاه النظام . فالاشتراكية كلمة تقال للجماهير لاثارة حماستهم للنظام . ثم يدار القطاع العام الذى تملكه الدولة بواسطة هذه الفئات البرجوازية ، التى تسيطر على جهازها الانتاجى والسياسى . النتيجة دولة تدار بواسطة الراسماليين . بل ان القطاع العام ، قد يدار وكأنه ملكية خاصة لمديريه .

وتدخل فتحى :

ــ لكن الدولة اذا كانت ممثلة حقيقة للعمال والفلاحين ، وللكثرة الشعبية ، فمن الممكن أن تتسق ادارة الدولة للقطاعات الانتاجية والخدمية مع ملكية الشعب لوسائل الانتــاج .

ورد مجاهد ردا ، ادهش حسن : حينما اختاره ليكون عضوا فى مجموعته كان يعلم أنه عامل واع فقط ، أما ان يكون عميقا هذا العمق ، فهذا ما لم يتوقعه :

ــ عند توافر هذا الشرط ، اتفق معك . ولكن دعنا ننظر المثال الذى نناقشه . قطــاع عام ، تديره وتسيطر عليه طبقة برجوازية . منفصمة تماما فى سلوكها ومصالحها الطبقية ونمط معيشتها ،و تفكيرها ، عن العمال والفلاحين . كيف يمكن أن يبنى هؤلاء الاشتراكية . التناقض قائم منــذ البداية . واذا استمر فالنظام يسير الى تصدع .

سكت مجاهد برهة . ثم قال :

ــ اتريدون ان تعرفوا اسرارا :

رد الجميع ايجابا . استمر :

ــ والد رئيس مجلس ادارتنا ، كان يملــك قبل الثورة خمسمائة فــدان !

رنت كلمة « الخمسمائة فدان » فى اعصاب حسن . تسللت الى مسارب ذكرياته : تماما كالخمسمائة فدان التى كان يملكهــا الخواجة اليونانى ، الذى عمل حسن كاتبا عنده .

واصل مجاهد :

ــ وبقدرة قادر ، وزعت الخمسماية فدان ، قبل قرار الاصــلاح الزراعى مباشرة على الاولاد والبنات . كان نصيب رئيس مجلس ادارتنا مائتى فدان !

وعقب سويلم :

ــ اعتقد ان الوسية الكبرى التى يديرها هؤلاء ، ويسيطرون عليها ، اضخم واخطر بكثير من تلك الوسايا التى تقوم على الملكية الخاصة .

واشترك عبد العظيم :

ــ تدخلاتك القليلة يا عم سويلم ، تضرب فى الجذور . الــحق أن الملكية الخاصة للوسايا ، هى مصدر لاستغلال الجماهير العاملة . لكن البرجوازيين البيروقراطيين يتخذون من الملكية العامة وسية من نوع آخر . فهم يسيطرون عليها . يتصرفون فى انتاجها . يحرمون الشعب العامل من ادارتها . يعزلونه عن ناتج عمله . ضحك على الذقون : الراسماليون يقودون الناس الى الاشتراكية . انهم فى الواقع يشوهون الاشتراكية ، ويفقدون ثقة العاملين فيها .

ثم نقل عبد العظيم الحوار الى موضوع جديد، ولو انه متصل بالحديث السابق :

— موضوع ما يسمى « بالراسمالية الوطنية » ، يسهم فى عملية التقويض للبناء الاشتراكى . لقد استبعد خصوم النظام القدامى فحسب . وحل محلهم باشوات جدد .

وعقب فتحى :

— تعبير الراسمالية « الوطنية » تعبير طريف . فهو يضم الباشوات الجدد ، الذين يسيطرون على القطاع العام . وهؤلاء خليط : بعضهم من ورثة الاقطاع ، وأبناء الباشوات القدامى . بعضهم يتطلع للباشوية المتطورة. الاسر الاقطاعية تجزأت الى وسايا أصغر ، انضمت الى الراسمالية الوطنية . الطفيليون ، المصدرون ، المستوردون ، المقاولون ، الاعيان ، وتجار المخدرات — أصبح كل أولئك شرائح فيها . انبثوا فى التنظيمات السياسية ، وفى البرلمان ، وقطاع الانتاج . ثم كلفوا ببناء مجتمع اشتراكى !

أراد حسن أن يخفف احتدام الحوار :

— ... ومن صورها ، الوكالات والاسماء والالقاب الجديدة : العتريس فورد — ظاظا بيجو — مجبور شيفروليه — عمر موتورز — مقارى كاديلاك — وهكذا ...

وقد ظل عمر الخطاب ، احد أعضاء المجموعة ، ساكتا ، الى ان سمع لفظ عمر موتورز ! يبدو انه ايقظه . كان عمر الخطاب هو « زميل الخلد » لحسن ، أيام أن كان حسن باشجاويشا ، حارسا لرئيس اركان حرب الجيش . كان هو الزميل الذى قهر الجهل بطريقة دولية ! حصل على الثقافة والتوجيهية وليسانس الآداب من جامعة لندن . وذلك من منازلهم ، او اكواخهم بالقاهرة . وكان هذا الزميل هو الذى ابتكر كلمة « الخلد » ، ليطلقها على اكلة الفول (المحلى بالبصل والطماطم والجرجير

والطحينة) استمدت خلدها من انهما لم يتذوقا غيرها فى ذلك الوقت . وظلت تثير شهيتهما لها بشكل خالد !

قال عمر الخطاب ، او عمر الخلد :

— انا اقترح ان تعد المجموعة ورقة دراسية ، يكون عنوانها « البيروقراطية البرجوازية تدمر القطاع العام وملكية الشعب » .

اثار الاقتراح مشاعر مختلفة . تساءل سويلم ، بعد أن مال برأسه الى اسفل وحك جبهته :

— ما هى النقط التى ستتناولها الورقة ؟

واجاب عمر :

— كل ما قاله الزملاء هنا ، عن مشاهداتهم فى المجالات التى زاروها .

التقط عبد العظيم الفكرة . وجزاها بالاشتراك مع فتحى عدة اجزاء ، وزعها على افراد المجموعة . على أن يراجعها وينسقها زميل الخلد . ويصوغها فى صياغتها النهائية . فقد كان اقتصاديا ، يدير البحوث فى مصرف كبير ، مؤثر فى الاقتصاد القومى كله .

اعدت الورقة . حسن مازال مرضيا عنه . تشجعه الرياسة بأن يكتب ما يريد . وزعت الورقة على اعضاء الجهاز الطليعى . احدثت دويا . رحبت بها القيادة والاوساط الثورية . وذعر منها البيروقراطيون ، البرجوازيون . بدات المجموعة تكون بؤرة عكننة لهم .

* * *

ورقة اخرى ، احدثت ذعرا اشد . لكنها يقينا اضرت بالمجموعة . ومن الغريب ان فتحى هو الذى اقترحها . ولم تصبه الرعدة :

— اقترح ان تعد ورقة اخرى ، موضوعها ، الباشوات الجدد !

وعلق سويلم بأسلوبه التهكمى :

— انا اقترح أن يقدم الورقة ، الاخ فتحى !

انتفض فتحى للاقتراح . اصابته القشعريرة الازلية :

— لا يا عم ، للجماعة رئيس .

ورد حســـن :

— نصبناك رئيســـا .

— أرفض بشمم .

وجاء صوت عبد العظيم الذى كان حماسيا دائما . وينم عن وظيفته كمدرس .

— الاقتراح عظيم . والورقة مهمة . اذا كان هؤلاء جادين فى بنـــاء مجتمع جديد فهذه الفئة لا يمكن أن تقوده .

وقال فتحى :

— الحمد لله وجدنا من يحمل الورقة . ويقدمها للقيادة !

ورد عبد العظيم :

— انا مستعد . وانا الذى ساكتبها !

قدمت الورقة . أحدثت قلقا ، فاق الذى أحدثته الورقة السابقة وجاء الوزير الى مكتب حسن . وعلى وجهه قتام غير عادى . بادره الوزير

— ماذا فعلتم ؟

— اى فعل ؟

— هذه الورقة المتعلقة بالباشوات الجدد .

— ما بالها ؟

— اثارت زوبعة شديدة .

— وسيادة الرئيس ؟

— أول ورقة ، لم يرض عنها تماما . مجموعتكم حازت اعجـــاب

الرئيس ، ومعظم التنظيم بما تعده من أوراق ثورية . لكنكم فى هذه الورقة " زودتوها حبتين " .

— سيادتك ، قائدى . وأنا عضو فى مجموعتك . كان يمكنك ان تقرأ لورقة ، وترفضها أو تعدلها بما تراه .

— يا بوعلى ....

قال كلمة ابو على ببسمة مبتورة .

— .... يا بوعلى . الثقة فيك ، وفى مجموعتك كبيرة . ونحن نتقبل ما تكتب ، وتقول ، دون مراجعة .

— ما هى ملاحظات سيادة الرئيس ؟

— يقول الرئيس : ان تخفف حدة الورقة ، وان تلغى عنوانها : « الباشوات الجدد » .

— سوف تنزع عن الورقة اهم اسلحتها .

— هناك الفاظ أخرى . انت استخدمتها من قبل : البيروقراطية .. الخ .

وعدلت الورقة . لكن معناها ، لم يمس . واعيدت الى حسن مرة ثانية . مازالت « حامية » ! كانت اعادتها للمرة الثانية ، اشارة كافية لحسن . تركها ولم يعد تنقيحها .

* * *

رحلة مجاهد كانت اكثر اثارة . دعا اللجنة كلها الى اجتماع شعبى ، يناقش مشكلات الجماهير . يعقده فى « المشيخة » التى يسكن فيها ابو الريش فى السيدة زينب . وخطر لحسن خاطر شيطانى .

سأل مجاهد :

— هل انت من نفس المصنع ، الذى يعمل فيه وجيه ؟

— وجيه من ؟

— وجيه برغوت !

— اسمه وجيه برغوت .. كيف تلد البراغيث وجهاء ؟ !

كان حسن قد أعطى فكرة عن تكوين الجماعة التى يرؤسها الوزير وهو عضو فيها ولم يذكر لهم أسماء . فهو بهذا لم يفش سر الجماعة . كما تقول التعليمات ، باستثناء فرد واحد . هو عامل النسيج ، وجيه برغوت . فقد كان مصدر استفزاز وتقزز لحسن . كان يعتبره عالة على الطبقة العاملة ، مسخا لها ولمعاناتها . اقترح حسن أن يدعى وجيه برغوث لحضور هذا الاجتماع الشعبى . لاقت الفكرة موافقة من الجميع . استحسنها مجاهد كثيرا .

دعاه حسن الى الاجتماع . كانت الدعوة رسمية . جاءت بعد أن قرا حسن تقرير جماعته ونشاطهم ، أمام مجموعة الوزير . بعد أن انتهى من التقرير خاطب وجيه برغوث قائلا :

— وقد قررت الجماعة دعوتك للاسهام فى هذه الندوة .

تململ وجيه . أخذ يفكر فى أسباب للهروب . لكنه سكت على الفور ، لما سمع الوزير يقول :

— لابد أن تذهب . هذه منطقتك ، ومشيختك . انت تمثل العمال فى هذه الدائرة ولابد لنائب الدائرة أن يلتقى بالناس .

لم يجد وجيه بدا من قبول الدعوة . اتفق مع حسن على المكان الذى يلتقيان فيه .

وفى اليوم الموعود ، جاء وجيه يرفل فى الحرير والذهب . يركب عربة انيقة . منحته اياها الحكومة . حيا المجموعة بجلال مكتسب ، مما جعله جلالا مضحكا فى بعض مظاهره . كان لا يمكن للسيارة أن تدخل الحوارى الضيقة . ترك العربة راغما . تأفف . لم يجد مناصا من السير على الاقدام . خاض مع المجموعة فى الحارات التى غمرتها المجارى والمياه الجوفية ومياه

الغسيل . اتسخ الحذاء الابيض الناصع . وتناثر الوحل على البدلة الحريرية البيضاء . وتلطخت « الكارفتة السولكا » .

الموكب كان جحيما لبرغوت . ومتعة لاعضاء المجموعة . كانوا يلبسون قمصانا عادية ، وبنطلونات واحذية ، « متعودة » على الخوض فى مثل هذه البرك .

اخيرا وصلوا الىمكان الاجتماع . استقبلوا بزوبعة من التصفيق والهتاف . كان الخطيب المفوه فى هذا الحفل هو مجاهد . دعا وجيه للخطابة ، احتراما ، للعامل نائب الدائرة . كان يعلم انه عيى .

تحقق الدرس الذى أراد مجاهد وحسن ، أن يلقناه للعامل الممسوخ . قال مجاهد فى خطبته :

— ان الطبقة العاملة ، تعرف خصومها . لكن اخطر ما منيت بـه الطبقة العاملة ، ابان نضالها ، هم أولئك الذين يخرجون من صفوفها . وينقلبون حربا عليها . يمسخون فكرة العمل . تماما كالطبقات المستغلة . ويعزلون انفسهم عن بيئتهم واهلهم . وينقلبون خلقا شائها يعوق التقدم .

عند هذا القدر ، تظاهر وجيه برغوت بالمرض . المجموعة تعـرف حقيقة مرضه . هرب بجلده .

* * *

— ٢٣ —

طرقات ، رصينة ، متباعدة ، على باب غرفته بالرياسة :

— تفضـل .

لم يرفع رأسه من أوراقه . لكن صرير الاكرة أيقظه : ضابط عظيم جليل ، متوسط القامة ، نحيل الجسد . تتلألأ على كتفيه ، سيوف متقاطعة ،

ونسور ، ونجوم . تضوى على صدره أوسمة ، وميداليات ، تزركشها شرائط حريرية ، حمراء ، وخضراء ، وزرقاء . وفى نظرة ثانية ، اكتشف انه محسن مرتضى ! « اليوزباشى » ، قائد سريته فى مدرسة ضباط الصف . عندما كان شاويشا . هو الآن « فريق » قائد لفيلق كبير فى الجيش .

قفز من كرسيه ، ليأخذه بالاحضان وبالقبلات . لم تمنعه الرتبة الكبرى ، وبدلة الفريق ، من أن يعبر عن أشواق ، وذكريات ، عمرها اكثر من عشرين عاما . كان وزير الرياسة يرافقه ، يمشى خلفه . شهد اللقاء الحار . فهم لماذا طلب مرتضى ان يذهب لمفاجأته فى مكتبه . انسحب الوزير ، ليترك العواطف الجياشة تنساب ، دون « عزول » :

— مازلت سيادتك مشرقا بالشباب والحيوية .

— وانت كذلك . فيما عدا انك « سمنت » .

— نحن الآن نأكل !

كان حسن متلهفا على سماع اخبار الجيش . سأله :

— هل لك أن تعطينى فكرة عن تطور الجيش ، منذ أن كنا فيه معا فى الاربعينات ؟

حك الفريق شعر راسه ، الذى وخطه الشيب . ونظر الى حسن بوجهه المستدير الوسيم ، وطابع الحسن يغوص فى اسفل ذقنه . وقال :

— موضوع طويل . لكنى اقول لك ، ان الجندى اصبح اكثر اعتدادا بكرامته . الغى البدل العسكرى . وأصبحت الخدمة العسكرية اجبارية للجميع .

— هل يرجع الاعتداد ، الى انكم ترقون العساكر وضباط الصف الى ضباط ؟

— نعم ، نرقيهم . ويصلون الى رتبة الرائد « الصاغ » .

— هذا بالضبط ما كان يحدث قديما . يصل العسكرى ، او ضابط الصف الى هذه الرتبة . بعد أن يكون قد شاب ، وضاع عمره . ويوضع فى مواقع لا تأثير لها فى الجيش .

— ماذا تريد أن تقول ؟

— اريد ان اقول ،بأن هذا قانون انجليزى استعمارى . وضعه الانجليز والحكام فى مصر ، حتى لا يصل ابناء الشعب الى مناصب قيادية فى الجيش . فيصبحون خطرا على النظـــام .

— ....

سكوت مرتضى شجعه على المضى فى القول :

— هذا النظام اكثر تخلفا ، حتى من سياسة سعيد باشا ، الذى سمح بترقية العساكر الى مراتب الضباط دون قيد . وبهذا رقى احمـــد عرابى ، ابن الفلاحين الى الرتب العالية . ثم قاد حركة الفلاحين المصريين ضد السادة : الخديو توفيق ، والانجليز ، والاتراك ، والجراكسة . أولئك الذين كانوا يمتهنون المصرى ، ويسفكون كرامته .

وقال مرتضى :

— النقطة الثانية : ان مستوى التدريب ارتفع كثيرا . اصبح الجندى المصرى كفئا فى توجيه أحدث الاسلحة .

— هل الاسلحة الروسية ، وما يلحقها من تدريب ، وتكتيك ، ترقى الى مستوى الاسلحة الانجليزية والامريكية ؟

— الروس فى اداة الحرب وفنونهـــا متفوقون .. وقد يدهشك أنهم يتفوقون كثيرا على الغرب فى مجالات عدة .

— الاسلحة الروسية فى حرب فيتنام قصــتها معروفة فى هزيمـــة الامريكيين .

— الامريكيون لم تهزمهم الاسلحة الروسية . فالجندى الفيتنامى كان سيهزم الامريكيين بأية أسلحة . ان لديهم أسلحة من الصين . عقيدة الرجل الفيتنامى السياسية ، وقيادته وتنظيمه واعداده ، هى التى جعلته يقهر اكبر قوة على الارض .

— هل صحيح ، أن الضباط المصريين الممتازين ، الذين دربوا فى الاتحاد السوفيتى أبعدوا من الجيش ؟

— لا اجـابة .

حول مرتضى الحديث الى نقطة اخرى :

— من التغييرات كذلك ، الغاء نظام المراسلة فى الجيش ، النظـام الذى كنت تنادى بالغائه ، وقد عانيت أنت منه كثيرا .

اثارت هذه النقطة مواجع فى صدر حسن . كانت كامنة ، ونكشها مرتضى . لقد فرضوا عليه ، وهو شاويش ، معلم ممتاز ، أول دفعته ، ان يعمل « مراسلة » لمكتب القائد . لم يستطع حسن على هذا الموضوع صبرا . قال لمرتضى ، وكأنه يهب فى وجهه :

— اتقول انكم ألغيتم نظام المراسلة ؟ هذا غير صحيح . الغيتم نظام المراسلة ، بأمر عسكرى كتابى ،من الناحية الرسمية فحسب . ولكنـه موجود ، على نطاق واسع بأوامر شفوية عملية .

— ماذا تعنى ؟

— الا تدرى أن العساكر الآن ، يذهبون جماعات الى بيوت الضـباط الكبار ، بعد أن كان الضابط له مراسلة واحدة . لم يعد الامر مقصورا على عسكرى مراسلة : يقوم بدور الخدم فى البيوت ..انما امتد الامر الى مسائل اكبر : أصبح العساكر يعنون بالحدائق ويبنون الفلل .

غبرة قاتمة ، تزحف على وجه مرتضى ، الذى مازال صبوحا ، رغم تقدم السن . صعد حسن من الظاهرة بقوله :

— المودة الآن هى الانتاج ، والعساكر يقومون الآن بزراعة المزارع ، أو « الوسايا » الجديدة التى تقتطع للضباط .

قص عليه حسن قصته مع الفرقـاء ، والالوية ، الذين زارهم فى فيلاتهم . بهت مرتضى ، وكأنه لا يعلم . لم يتكلم ، ومضى حسن :

— انت تعلم هذا كله ، لا شك .

— لا ....

— قالها مرتضى بعد تردد . خرجت من فمه متعسرة .

وقال حسن بصوت غير مسموع :

— المصيبة اعظم ، ان كنت لا تعلم !

تحسس مرتضى صدره ، وكأنه ضاق بما سمع . ثم تنفس :

— ماذا اقول لك ؟ وانت صديق . وعاهدتك على الصراحة ..

— لا تقل الا ما يريحك ان تقول .

— يؤسفنى ان اقول لك اننى رغم كونى قائدا لفيلق كبير ، لا املك قيادته او توجيهه كما ينبغى . الجيش الآن امبراطورية كبرى ، موصدة أمام الجميع ، حتى عبد الناصر ! ونحن مستشارون فنيون لا غير . نقوم بمهمة فنية فى الحدود المرسومة لنا .

— ماذا تقول ؟ ....

— السياسة اوغلت فى صفوف الجيش ، ايغالا عميقا . واصبح الفرقاء والالوية ، يتصلون مباشرة بالمشير . وبعضهم بالرئيس . وآخرون بالمخابرات . واصبحت بالجيش أوكار وقلاع . لا يستطيع فنى مثلى ، ان يسيطر عليهـا .

لم يشأ حسن أن يثير مواجع مرتضى . فهو قائد ، بلا قيادة حقيقية ، قدراته لا تجد سبيلها للنمو والافراخ . نقل حديثه وجهة اخرى . سؤال جرىء تردد قبل ان يلقيه :

— هل الانحرافات التى حدثت فى مكتب المشير ؟ حوكم عليها العساكر وصغار الموظفين ، وامتهنت انسانيتهم بالتعذيب البشـع فى السـجون العسكرية . واعفى من المحاكمة المسـئولين الكبار ، والمشـاركون فى الامبراطورية ؟

— أرجو ألا تستغل صداقتنا .

— هل لم تصل الدعوة الاشتراكية الى الجند ، والى صغار الضباط ؟

— الدعوة الاشتراكية ، والحديث فى السياسة محرم فى الجيش . التحريم هنا صارم .

حسن تغازله امنية . يود أن يزور مدرسة ضباط الصف فى الجيش . يتوق لان يناغى ذكريات الصبا ، ويتحسس مرابع الشباب . كذلك كانت لديه رغبة شديدة لزيارة رياسة الجيش العليا حيث مقر المشير . كان يحتل فى ذلك الوقت ، نفس المبنى الذىكان يحتله ابراهيم عطا الله باشا ، رئيس أركان حرب الجيش ، الذى كان حارسا عليه . عرض حسن على مرتضى الامنيتين اللتين جاشتا فى صدره طويلا . قال له الفريق :

— زيارتك لمدرسة ضباط الصف ، موضوع سهل . على أن تعدنى الا تتحدث فى الاشتراكية ، او الثورة ، أو السياسة ، او الجماهير .

— اعــدك .

— سأرتب لك زيارة . وسأتصل بك فى الرياسة . لاخبرك بموعدها . اما الامنية الثانية فعسيرة .

— عسيرة على مرتضى ؟

— هذا المكان ، عسير على أى انسان . ومع ذلك فمدير مكتب المشير عامر ، يعتبر صديقى . وهوانسان لطيف ، وسأحاول ان اقدمك له لا على انك كنت عسكريا فى الجيش ! ولكن على انك تعمل فى الرياسة وأستاذ فى الجامعة . الشرط الوحيد هنا ، الا تصرح له بماضيك المجيد !

ذهب حسن الى مدرسة ضباط الصف بالماظة . استقبله أركان الحرب . رف قلبه رفيفا حلوا . هذه مرابع الكفاح ، ومراتع الصبا . من هذه البقعة وجب قلبه وجيب الحب الاول : حبه لعالية . وبدأ دراسته ، حيث نال الثقافة ، والتوجيهية ، ثم الليسانس . لولا مرافقة أركان الحرب له ، لقبل جدران العنبر الذى كان يضمه ، ويسهر فيه ليذاكر ، والجند نيام .

قاده أركان الحرب الى ارجاء المعسكر جميعا . لم يسمح له بلقاء العساكر وضباط الصف — امنية عمره — طلب اليه حسن ذلك اكثر من مرة . كان يغير مجرى الحديث . المساحات التى تغطيها رمال الزينة ، زادت . تنوعت الوان الرمال .. اضيف الى اللون الاحمر القديم ، الوان صفراء وبرتقالية وبمبية ! اكر الابواب اكثر لمعانا . يبدو أن « الشاويش » المراسلة فى المكاتب اكثر تفرغا من حسن، واعلى كفاءة !

رأى شاويش المكتب فحياه . حياه الشاويش التحية العسكرية . دخل هو وأركان الحرب على قائد المدرسة . قدمه أركان الحرب للقائد . كان بدرجة عقيد . استقبله القائد بحفاوة كبيرة . اجلسه الى جـواره على الاريكة . تداعت الذكريات فى ذهنه . كان منذ عشرين سنة ، يقف خارج الباب ، مكان الشاويش . دق القائد الجرس ، ليحضر القهوة . تماما ، كمهمته فى ذلك الحين . لميدر القائد وأركان الحرب ، أن ضيفهما كـان شاويشا للمكاتب . لم تتحقق أمنيته فى لقاء زملائه العساكر . لم يدرك أركان الحرب انه باشر عليه لونا من القهر العاتى ، بحرمانه من لقائهم .

* * *

الامنية الاخرى . وهى التسلل الى « مشيرية » الجيش ، كـان تحقيقها طريفا : المبنى الجليل ذو الطابقين . حراس غلاظ شداد . تتقاطع بنادقهم ، وســناكيهم . يمر من حراس ، ليجد حراســا اكثر حداثة ،

وتكنولوجية . المدافع الرشاشة من كل لون يحملها جنود الصاعقة . واخير « صول البوابة » . ثم شاويش مسلح بمدفع سريع الطلقـات ، قصير الماسورة ، يصحبه الى مكتب « قومندان الحرس » ومنه الى السكرتارية التى تتدرج درجات ورتبا ، ثم الى السكرتير الخاص ، فمدير مكتب المشير

مدير المكتب رشيق . يجمع فى مظهره . تعالى المنصب . وبسـاطة الحديث ، وشموخ القيادة . مدير مكتب الشخصية الثانية فى مصر . الذى يتربع على الامبراطورية العسكرية . الجيش الذى قهر فاروق ، ويصـنع مصر المعاصرة . فى حديثه ولفتاته . مزج عجيب بين « ارستقراطية » العهد القديم . و « ارستقراطية » العهد الجديد ! كان يجلس على كرسيه هنا منذ عشرين عاما عقيد مثله . لكنه كان ينتمى الى « اسرة كبيرة ارستقراطية » بالمفهوم المصرى ، اى بمفهوم آلاف الافدنة . كان قد جمع المجد من اطرافه : متزوج من اميرة من البيت المالك ، ويعمل ياورا لابراهيم عطا الله باشا . اما مديرنا الانيق الحالى ، فلا يملك المجد الارستقراطى القديم . ولكن يملك القوة التى بطشت به . وهو وان لم يكن من عائلة على نفس المستوى . الا انه ايضا من عائلة تدعى مجدا قديما . لا تملك آلاف الافدنة ، ولكنها تمتلك مئاتها ! وهو ساعد الشخصية التى تسيطر على الجيش ، وتطبق قانون الاصلاح الزراعى ، وتصفى الاقطاع . ومع كل هذا كان ودودا :

— أهلا يا دكتور . شرفت القيادة .

— القيادة يشرفها قادتها .

جرس التليفون يدق . عشرات التليفونات . مختلفة الالوان والاشكال . كيف يسيطر عليها ؟ الفنون الحديثة سهلت مهمته . كل تليفون له لون ، وشكل ، وطريقة فى الرنين ! لهذاكان يتعامل معها بيسر ملحوظ :

— الو ... مين ؟

— .....

كان حسن يجلس بجانب منضدة المكتب الانيقة .. سمع جرس صوت انثوى متهافت ... تذكر على الفور قصته مع تليفونات الباشا اركان الحرب ، عندما كان حارسه . والنساء اللائى يطلبنه ، ورد عليهن . امنية من امانى عمره ، ان يمسك بسماعة التليفون الآن . يود ان يقارن بين الاصوات وموسيقاها ، بين عهد وعهد . ! كيف يمكنه ، وهو فى عرين الاسد ، ضيفـا .

— مين ؟ الماظ هانم ؟

— .....

— سيادة « الباشا » غير موجود . اى رسالة ؟

— ......

— « اوريفوار » يا افندم .

لم يكد يضع سماعة التليفون ، حتى رد تليفون آخر :

— الـو ؟

— ......

— « مش ضرورى اقول مين » ؟ ... صباح جميل ، يا غزالتى !

— ......

من الواضح ان هذه صديقته . دقت اجراس تليفونات اخرى . اعتذر العقيـد :

— سامحنى . الباشا غير موجـود ، وعلى ان ارد على التليفونات جميعـا .

بعد ان انتهى من التليفونات ضغط زرا . جاء صول ، يضرب الارض بحذائـه :

— افنـدم .

— هات الدكتور شيئا يشربه .

صول يعمل مراسلة . الحمد لله انا كنت « باشجاويش » فقط ! كنت ادخل على رئيس أركان الحرب وحده . العساكر يدخلون لتلبية طلبات مدير المكتب والسكرتير ... الامور تطورت !

ضغط العقيد على زر الجرس مرة أخرى . جاء ملازم أول . يبدو من سنه ، ومن مشيب عارضيه ، أنه من ضباط الصف ، الذين يرتون حتى درجة الصاغ فقط . .

— أفندم ، جناب الباشا .

شقت عبارة « جناب الباشا » جنانه . كانوا يطلقون على الخواجة اليونانى الاقطاعى « جناب الخواجة » ، وعلى قائد مدرسة ضباط الصف « جناب البكباشى » أو « جناب القائد » ، وعلى عميد كلية الحقوق بجامعة الاسكندرية « جناب العميد » . تساءل حسن حينئذ عن الرابطة التى تجمع هؤلاء : الخواجة الاقطاعى اليونانى ، والقائد المصرى ، والعميد الجامعى يضاف اليهم « العقيد » برتبتين : جناب ، وباشا . مازال التساؤل قائما : ما الذى يربط هذا « العقيد » بأصحاب « الجنابة » السابقين ؟ لعله الآن يعرف الرابطة .

ورد « جناب الباشا » على الملازم أول :

— الفيلا على شاطىء النيل بالمعادى ، تعد الليلة . فالباشا « المشير » سيمضى السهرة هناك . . كانت القصص والروايات ، من مصادر متنوعة ، تترى . « الباشا » المشير له سهرات خاصة ، مضببة بالدخان المعسل . المطعم ! تارة . . . . المقطر بالصهباء تارة أخرى . كانت تجمع بين الحسنيين !

التفت العقيد مرة أخرى الى الدكتور حسن :

— أنا الآن تفرغت لك .

— اشكرك الى لقـاء .

* * *

— ٢٣ —

— السيد زكريا محى الدين ، نائب رئيس الجمهورية . يطلبك فى التليفـون .

— اين ؟

— فى غرفتك .

واسرع الى مكتبـه :

— الـو .

— صباح الخير يا حسن .

— اهلا سيادة النائب .

— هناك موضوع ، اريد محادثتك فيه . هل تحضر الى مكتبى ؟

ذهب الى مكتب نائب الرئيس :

لاول مرة يشهد مكتبا متواضعا ! انسان وسيم . بسيط المظهر . انيق العبارة .

بدأ نائب الرئيس حديثه ، بصوت خفيض ، متئد :

— نحن نريد ان نكون منظمة للشباب . يؤمن بمبادىء الثورة ، ويدافع عنها . ونود أن تسهم معنا فى تكوينهـا .

— يسعدنى المشاركة فى هذا العمل .

— سنبدأ فى اعداد الكادر الشبابى فى معسكرات . يتلقون فيهـا مبادىء الثورة والاشتراكية ، وغير ذلك من المواد اللازمة لتثقيفهم ، واعدادهم كقـادة للشباب .

— سيادتك تعرف اننى اقود الاتحاد الاشتراكى فى مصر الجديدة ، وهى دائرة يهتم بها الرئيس .

— الرئيس وافق على اسهامك معنا . وسيعقد اجتماع فى هـذ المبنى ، فى الدور الاول فى العاشرة صباحا .

فى الموعد المحدد ، اجتمع المختارون ، لاعداد منظمة الشباب . قدمهم زكريا محيى الدين . الوحيد الذى يعرفه حسن ، كاشتراكى ، محمد الخفيف . كان هناك عشرة آخرون . معظمهم متخرجون من الكليات والجـامعات الامريكية . دكاترة وعلماء اجتماع وعلم نفس ونظم سياسية !

اقيم المعسكر فى مرسى مطروح . البحر الابيض المتوسط مرة اخرى . لم يكن بالبحر بجعات ، أو سفن . كتلك البجعة البيضاء التى حملته أول مرة الى انجلترا . لون الماء ليس فيروزيا أو « لازورديا » ، أو سماويا . ولكنه مزيج من هذه الالوان جميعا . مزيج لا تختلط فيه الالوان . بل تتوازى جنبا لجنب ! ومهما كان اللون ، فانت ترى قاع البحر . تكون رمال الشاطىء البيضاء ، مع الوان الماء ، تقابلا لونيا ، يأخذ بالابصار . ويترسب مريحا حلوا داخل الانسان . شاطىء يبز اجمل شواطىء العالم !

نصبت الخيام الرشيقة الصفراء على الشاطىء . اعطت اللوحـة لمسة اخرى ، تضيف الى روعتها .

جاء السيد زكريا محى الدين ، بالطائرة من القاهرة ، ومعه طلعت خيرى وزير الشباب ، الذى كان مديرا للمخابرات . افتتح المعسكر الذى اختير له كدفعة أولى نحو مائة شاب . القى كلمة الافتتاح ، وتبعه وزير الشباب . قال زكريا محى الدين كلاما منعشا . لم يستطع حسن أن يفرق بينه وبين ما يقوله آخرون ، اشتهروا بالاشتراكية ، كعلى صبرى . ومع تطور المعسكر ، اعجب حسن بزكريا محيى الدين ، وفوجىء بوعيـه وفهمه للاشتراكية . أسهم اسهاما جيدا فى المناقشات والحوارات . تساءل حسن : لماذا اتهم زكريا محيى الدين بأنه ممثل الاعيان والبرجوازية ؟ بينما كان يقول فى الظاهر ، والله اعلم بالسرائر ، ما يقوله الاخرون ، وربما تجـاوزهم .

كلف حسن ومحمد الخفيف بالقاء المحاضرات الفكرية . وزع الاساتذة الآخرون على المجموعات الصغيرة التى يقسم اليها الشباب ، لمناقشة المحاضرة العامة . ورضى حسن .

الاشتراكيون ، على قلتهم ، يتولون الجانب الفكرى . لا ضير ان يسهم الباقون الذين تعلموا فى المؤسسات الامريكية ، فى المناقشة فى المجموعات الصغيرة . قد يتسبب بعضهم فى مسخ ما يقال فى المحاضرة العامة . الا ان الجرعة التى كان يقدمها حسن ومحمد الخفيف ، اللذين انضم اليهما بعض الشباب الواعد ، كانت من التدفق والحرارة ، ما يجعل اثرها عميقا .

اقبل الشباب على المحاضرات ، وتحمسوا لها . عندما ينتهى من محاضرته ، يدوى تصفيق الشباب . يطول كثيرا لدرجة اخافته . زكريا محيى الدين على يمينه ، وطلعت خيرى على يساره ، يشاهدان ويسمعان . على الرغم من خوفه كان سعيدا . القيادة ممثلة فى المحاضرات وفى الحوار . لا بأس من التصفيق . زكريا محيى الدين ، اخذته الحماسة ، ناقش بعمق .

انداح خبر المحاضرات ، واقبـال الشـباب ، وانباء الحـوار ، الى امكنة بعيدة عن مرسى مطروح . الى الاسكندرية . وكان المعسكر محل زيارات عدة ، متنوعة . زوار من الاتحاد الاشـتراكى ، والقيـادة السياسية ، والتنظيم الطليعى ، ومجلس الامة ، وغيرها . كان المعسكر بوتقة ، ينصهر فيها الفكر الثورى . المحاضرات وحلقات المناقشة ، تعمق وعى الشباب . هذه فرصة لاعداد الشباب اعدادا فكريا صلبا . هؤلاء هم القادة الذين سينشرون افكار الثورة فى شباب مصر . وجاءت مجموعات ارسلها الليثى عبد الناصر من الاسكندرية ، والمخابرات ، ومجلس الشعب . اشتركوا فى المناقشة . تصدى لهم الشباب . افكارهم متخلفة . وكان صراعا بعضه جيد وبعضه ردىء .

فى صباح يوم من الايام ، جاءت عربة بيك اب من الاسكندرية . عليها

بعض الناس ، لينضموا الى المعسكر . ومعهم جهاز تسجيل ! كانت هناك محاضرة سابقة على محاضرة حسن . لم تسجل . وحين بدأ محاضرته ، وضع جهاز التسجيل أمامه على المنضدة . تساءل :

— ما هـذا ؟

— نريد أن نسجل المحاضرة ، ليفيد منها أعضاء الاتحاد الاشتراكى فى الاسكندرية .

— لا . لا داعى لذلك . سيأتى دور الشباب منهم لينضم لهذا المعسكر .

لم يستطيعوا التسجيل . شاهدهم حسن ، بعد ساعة واحدة ، يركبون سيارتهم ، فى طريقهم الى خارج المعسكر . ودعهم :

— « على طول كده لسه بدرى » !

طلب حسن أن ينضم الى المعسكر فتحى ومحمد عبيد . عبيد لا ريب افضل من العشرة الكرام الآخرين .

* * *

كانت رحلة مرسى مطروح رحلة لاحضان الطبيعة والثورة والحب . خلعت الطبيعة جمالها الساحر على صفحة البحر والرمال . ونفث حسن وزملاؤه ، الثورة فى عقول الشباب ووجداناتهم . كانوا يصنعون شبابا واعيا بمشكلة الانسان فى بلدهم وفى كل بلد . اما الحب فاوشك ان يضيع ! استغرق فى محاضراته . ترك زوجته فى رعاية ابنه ، الذى بلغ عامين . رافقاه فى الرحلة . انشغل رفيق بالازاهير اليانعات ، من حوله . اصبحن له جميعا . لم يعد أبوه يستروح عبيرهن معه . كان عبير الشباب الواعى يتضوع من حوله يشبعه ويثمله .

انشغل رفيق ، على الشاطىء ، بصويحباته ، اللائى يتحلقن حوله . ترك أمه يغريها فيروز الماء لتوغل فيه . تعبت فى مشوار العودة . تريد عونا . أشارت بيدها الى قوارب شراعية ، تمر على مقربة . اعتقد ركابها انها تحييهم ! ردوا الاشارة بأحسن منها !

كان يصحب رفيق على الشاطىء ، سيدة صديقة تحبه . لم تكن تفارقه . رأت فريقا من الشباب على الشاطىء يهم بالذهاب لتلبية برندا منعتهم السيدة . خافت أن يعاكسوها . امتنعوا عن الذهاب . كادت تحدث كارثة . لولا أن فطن شاب الى الخطر . سبح اليها بسرعة . عاونها على العودة سالمة .

استمرت عملية اعداد الشباب ، حتى تم تدريب خمس دفعات . نحو خمسمائة شاب . دعى حسن لدراسة بعض منظمات الشباب فى تشيكوسلوفاكيا: منظمة الطلائع من ١٠ الى ١٥ سنة . ثم منظمة الشـباب من ١٦ الى ٢٥ عاما . مكث أسبوعين . عاد بعدها حاملا تجربة غنية ، قد تثرى التجربة المصرية ، بعد الافادة من ايجابياتها واطراح سلبياتها .

قابله فى المطار صديقاه : فتحى ومحمد عبيد . لم يكونا طليقين كالعهد بهما . تولى عبيد الكلام . كانت هناك رعدة تنتاب فتحى . قال :

— احداث جسيمة وقعت ، بعد أن سافرت .

— خيرا ؟

— قامت الدنيا علينا !

— ماذا حدث ؟

— الناس كلهم يقولون : ان حسن خالد وآخرين ، يدرسون الماركسية فى مرسى مطروح .

— لكننا كنا ندرس أمام نائب الرئيس ووزير الشباب . ماذا حدث ؟

— بعض أعضاء مجلس الامة ، ومندوبوا الليثى عبد الناصر ، والمخابرات بطبيعة الحال ، كتبوا تقريرا لعبد الناصر يقولون فيه هذا الكلام .

فى اليوم التالى لوصوله . ذهب الى مدير مكتب النائب زكريا محيى الدين ، لينبئه بعودته من الخارج .

دخل المدير مكتب النائب ثم عاد ليقول :

ــ تفضــل ...

كان المدير صديقه .. فأضاف :

ــ سيادة النائب سألنى عما اذا كنت انت طلبت المقابلة . فقلت له نعم .

ــ ما المقصود بهذا السؤال ؟

ــ لا شيء . اردت ان اخبرك فحسب بما قال :

ــ اشــكرك .

ودخل حسن على زكريا محيى الدين ، الذى لقيه لقاء عاديا . لم يظهر على وجهه شيء :

ــ حمد الله على السلامة .

شرح له حسن الرحلة والزيارة ، واخبره بانه اعد دراسة شاملة عن منظمات الشباب والطلائع فى المجتمعــات الاشتراكية . انتظر الرجل العنيد ، ليقول له حسن شيئا عما جرى . لابد انه سمع بمــا حدث فى المنظمة . كانت مواجهة بين القيادة الخطيرة ، المشرفة على القوى السفلية والعلوية فى مصر ، وبين الكفاح والتجربة . استرسل حسن فى حديثه ، ولم يبد فيه ، انه علم شيئا ، سأل زكريا محيى الدين :

ــ كيف حال المنظمة ، والشباب ، والاعداد ؟

ــ الم تعلم بما حدث ؟

ــ لا ..

تردد الرجل . ثم قال :

ــ حدثت موضوعات خطيرة فى غيابك ، وجد الرئيس جمال على منضدة مكتبه ، تقريرا لا ندرى من وضعه . يقول ان حسن خالد وآخرين يدرسون الماركسية فى مرسى مطروح !

تصنع حسن الاهتمام ، ولكنه لم يبالغ فيه . فهو امام انسان واعر :

ــ لكن سيادتك ، والسيد طلعت خيرى ، وزير الشباب ، حضرتما كل المحاضرات التى القيتها . فهل كنت ادرس الماركسية فى وجودكما ؟

ــ ......

ــ لقد سمعت سيادتك كل كلمة قلتها . واسهمت معنا فى المناقشة ، وافدنا من هذا الاسهام .

ــ هذا صحيح .

كانت هناك رنة اسى فى تلك العبارة . واستمر حسن فى شبه دفــاع عن نفسه :

ــ يضاف الى ذلك ، ان المحاضرات التى القيتها كانت مكتوبة ، وسبق ان قدمت الى القيادة ، واقررتموها . وامر الرئيس بتوزيعها على الجهاز الطليعى .

صمت زكريا محيى الدين . تحسس رأسه الاصلع . وبهدوء شديد قــال :

ــ هذا كله حدث ، ومع ذلك فقد كنتم تدرسون الماركسية !

واتبع ذلك بعبارة غريبة :

ــ ... ومع ذلك ، لماذا تتعجلون تدريسها ، من يدرى ؟ قد نصبح ماركسيين فى المستقبل !

هذا الاصرار من زكريا محيى الدين على انهم كانوا يدرسون الماركسية، كان خطيرا .وكان على حسن ان يواجه هذا القول بشيء من الشجاعة . لا سيما وان موقفه سليم . قال فقط ما سبق للقيادة ان اقرته ، وعقب :

ــ اذا كنا قد استعنا ببعض مبادىء الاشتراكية العلمية ، فان ذلك كان مقصودا ! كانت تجربتنا الاشتراكية ، يغشاها فتر فكرى . فاردنا ان

نثريها بجرعات نظرية من الاشتراكية العلمية ، لاقناع الكوادر الشبابية . وقد رأيت سيادتك الحماس ، الذى استقبل به الشباب المحاضرات . ولايمكن انشاء كادر يحمى الثورة ، وينشر الوعى بها الا بهذه الجرعات القوية .

— اتفق معك . ولكن الدنيا قامت علينا ، بعد هذا التقرير . اكبر الظن أن الذى وضعه أحد اعضاء مجلس الامة ، الذين زاروا المعسكر .

— لابد انه يرؤس مجلس ادارة شركة كبرى . ويسيطر على « وسية » فى القطـاع العام . وربما ورث « وسـية أخرى » من ابيه . من الطبيعى أن يكون مضادا للاشتراكية .

سقطة كبرى ، سقطها حسن . نسى فى حماسه أن زكريا محيى الدين . ورث عن ابيه « وسية زراعية » ، ويتهم دائما بأنه قائد البرجوازية فى ثورة يوليو . حاول حسن أن يصحح كلامه ، لولا أن الرجل كان فطنا ، حاد الذكاء . قال له :

— لا داعى لمثل هذا القول .

وسكت نائب رئيس الجمهورية . راى حسن على وجهه معانى كثيرة . خيل اليه انه يسائل نفسه : كيف يمكن لهذا الشخص ، الذى كان عسكريا فى الجيش ، أن يضحك عليه ؟ وهو العقل المفكر ، والدينامو المحرك للقوى القاهرة جميعا . كيف يضحك على الجميع ، ويدرس الماركسية ؟

احب حسن الا يسترسل فى الحديث . بدا على وجه زكريا محيى الدين، انه لا يريد أن يقال عنه ، انه ضحك عليه ، ودرس الماركسية امامه ، فى منظمة يشرف عليها . يبدو كذلك انه لا يريد — حتى هذه اللحظة — ان يقال عنه ، أنه برجوازى ، وليس اشتراكيا . قال :

— انا لم أهتم بهذا الكلام ، الا بعد ان استدعانى جمال بنفسه ، وقال لى اقرأ التقرير . وسألنى ، كيف يحدث هذا . حاولت اقناعه ، ولكن النار كانت مشتعلة .

وختم حسن الحديث متسائلا :

— هل سأذهب الى المنظمة ، ام اعود الى الجامعة ؟

قال له بنفس الهدوء الشديد :

— اذهب الى الجامعة !

* * *

— ٢٤ —

زوار الفجر — لماذا يختارون وقت السحر ، لينقضوا على الناس فى مخادعهم ؟ الفجر هو اللحظة التى يشرق فيها النور على البشر . يبشرهم بنبض الحياة ، وخفق الامل . تختاره القوى السفلية ، نذيرا بالموت واليأس . المؤذن يصدح : « الله أكبر » . وهم ينعقون : « القهر أكبر » !

جرس الباب يدق دقا متواصلا . قرعات ، على الباب عنيفة ، بالايدى والارجل . يستيقظ فزعا من النوم ، هو وزوجته . يهرول الى الباب ليفتحه . يقتحم كوابيس الفجر منزله . وجوه مغبرة . شوارب كشـوارب النمور والثعالب . عيون منتفخة ، يتطاير منها شرر . يملأون الصالة . يسأله شخص فظ غليظ ، يبدو انه كبيرهم :

— انت حسن خالد .

— نعم انا « الدكتور » ! حسن خالد .

لاول مرة يلقب نفسه بالدكتور . رد الغليظ :

— دكتور ، أو « مش دكتور » ، « مش مهم » .

وتفرق بعضهم على غرف المنزل ، يفتشونها :

— عم تبحثون ؟ عن اسلحة ؟ المكتبة هناك !

توجه نفر منهم الى المكتبة . قلبوا فى كتب بالعربيــة والفرنســية والانجليزية ، ثم وضعوها مرة اخرى . كأنهم فهموا مافيها !

كانت زوجته ، قد استيقظت جزعة . وقفت جامدة على باب غرفة النوم . تشهد مسرحية لا عهد لها بها . ربما لم تسمع بمثلها من قبل . جاءت من بلد فيه ديمقراطية وحرية ، حيث يحترم اخص ما فى الانسان : عقله وفكــره .

قال الرجل الغليظ بصوت اجش :

— تفضل معنـــا .

صرخت برندا : اين تذهبون بزوجى . زوجى اعطاكم فكره ، وذهنه ، واعصابه . انفق سبع سنين دفاعا عن نظامكم . مناديا بمجتمع يتحــرر فيه الناس ، وانتم منهم . حرمنى ، وحرم ابنه من عواطفه . تحملنا التضحية لاسعاد اسرتنا الكبرى — الشعب المصرى — الشعب الذى تنتمون اليه .

ثم اندفعت نحو باب الشقة ، اذ اخذوه من ذراعه ، واتجهوا بــه الى الخارج . حاولت تخليصه من ايديهم ، صائحة صيحات بالانجليزية ، لحسن الحظ لم يفهموها ! طمأنها وحاول تهدئتها . قال لها : ســاعود بسرعة .

اخذوه الى وزارة الداخلية . عرف مبانيها . سيق الى مكتب ، يبدو من اناقته وفخامته انه مكتب رتبة عليا . كتلة ضخمة من اللحم والشحم ، كرش كبير ، تتكىء ثناياه على منضدة المكتب . حليق الشارب ، اصلع الراس . لاتنم قسماته عن قسوة أو سماحة ، ساله :

— انت الدكتور حسن خالد ؟

الحمد لله ، مازال لقب « الدكتور » لصيقا باسمه . يبدو ان الرتب العليا تحافظ على الالقاب ! ورد :

— نعــم .

— هل تعرف فلانا . ؟

— لا . وحتى ما سمعت اسمه .

— وفــلان ؟

— ولا هــذا .

وهكذا ذكر الرجل، عدة اسماء . وكان رده انه لا يعرفها ، ولم يسمع عنها وعقب السـائل :

— طيب تفضـــل .

— الى البيت ؟

— لا . نحتاج لسؤالك مرة ثانية .

— لقد كنت بالامس فى رياسة الجمهورية ! كان يمكن ان تسألونى ، او تأخذونى من هناك .

— انت تعلم ان هذه ليست أوامرنا .

يبدو ان القهر لابد له من ارهاب .والا فقد جزءا من فلسفته وأثره . اذا تم القهر بوسائل مهذبة ، فقد جلاله وعظمته . لابد ان يرعب المعتقل فى منزله ، على مرأى من نساء الاسرة واطفالها . يتحتم ان يقتحم المنزل فى الفجر ، حتى يتم الفزع الاكبر . يجب ان يعلن على الملأ ان البطش ينصب على الاحرار وهم نيام ، فى احضان نسائهم وابنائهم . أما من يريد أن يعيش ذليلا ، فيمكنه ان يطمئن وينام .

بعد هذه الومضة التى التمعت فى خاطره، قال له الغليظ :

— تفضل مع حضرة الضابط.

وتفضل مع حضرة الضابط . ولم يساله احد خلال الشهرين ، الذى اعتقل فيهما فى زنزانة انفرادية .

ركب هذه المرة عربة شرطة مقفولة ، لا نوافذ فيها . مازالت غبشة

الفجر تغطى المدينة . لم يتبين طريقه . الجنود يتحلقون حوله ، وكأنهم اساور « تكلبش » معصميه . دخل مكانا محفورا فى صخر اشبه بالكهف . ثم فتحت له غرفة ، بابها ثقيل من حديد صلد . ليست به ثغرة . عليه قفل كبير ، ككف العفريت ! ومزلاج له صرير كصوت البوم . دخل الغرفة الخاوية . الارض مبلطة ، ومحفرة بالاسمنت .

لم تكن تهمه الارضيه الاسمنتية . طالما افترش الارض . كان فراشه من التبن فى وسية الخواجة اليونانى . لكن التبن كان طريا . نام كذلك على مصطبة من الطين الجاف ، مع الشيخ سليم ، باشخولى الوسية . ورقد على الواح الخشب فى الجيش لما كان عسكريا . لكنه كان ينام فى الوسية والجيش فى غرف ، واجران ، وعنابر ، واسعة يدخلها الهواء ، ويهب عليها . هذه الغرفة عرضها متر ، وطولها متران . مساحتها كالقبر تماما . تذكره بالزنازين التى أسموها « اقفاص النمور » . كان الامريكيون وحلفاؤهم فى الحر بالفيتنامية ، يضعون فيها الاسرى الفيتناميين من الاحرار والمناضلين .

واهم من ذلك ان الغرفة مظلمة حالكة . كان فى جرن الخواجة اليونانى يرى النجوم ، ويناغى القمر . سماء هذه الزنزانة قاتم . ليت الزنزانة جحيما ترسل من سمائها شهبا . يعرف ان الشهب تحرق ، ولكنه يدرى انها تضىء قبل أن تحرق . الظلام هو الذى ازعق روحه . لم يقل له احد كلمة واحدة . الحراس الضباط لم يكلموه . الحراس الجنود ، او المقهورون على الحراسة ، ليست لديهم ارادة ، ولا حتى ارادة الكلام .

لماذا يلقى به فى هذا القفص ؟ كل ما سئل عنه : اتعرف فلانا ، او فلانا ، واجاب بأنه لا يعرف . ما الجريمة ؟ بعد أن القى به فى الزنزانة ، تلاشى صوت الاتهام . انعدم امله حتى فى توجيه تهمة اليه ! وتتابعت الافكار السود . القصص التى يسمعها عن المعتقلات ، تصعق اى روح ، وتثير

اليأس والضياع فى اى وجدان . القى به فى هذا الجب . ثم ماذا ؟ ايته جب . الجب على الاقل عميق طويل ، له فتحة ! هل هذه هى النهاية ؟

تمدد على الاسفلت . صلابة الاسفلت لا تزعجه . كنا فى نوفمبر ١٩٦٦ . طلائع الشتاء قارسة . البرد تنكمش معه عظامه ، ويقشعر لحمه . القشعريرة القاسية تصيب منه النخاع ، قشعريرة الخوف على الحرية . وعلى النضال ، وعلى العرق المسكوب . سكبه شعب يود أن يتحرر من قهر الانسان ، واستغلاله لاخيه الانسان .

لا يدرى ان كانت قد غشيته سنة من النوم . استيقظ فزعا ، مشروخ الروح ، مكسور الجسد . الباب الثقيل للزنزانة يفتح . شخصان بالملابس المدنية ، تعرف على احدهما . كان تلميذه فى كلية الشرطة ، حينما كان درس الاقتصاد بها :

— صباح الخير .

— صباح النور !

— « ايه الحكاية ؟ »

— لا ادرى .

— ما شأنك بالسياسة ؟

— انت تعلم اننى أعمل مع الثورة ، فى الجانب الاقتصادى والسياسى .

هز الضابط رأسه فى أسى :

— هذه نتائج السياسة .

بقيا معه فترة ، واسياه فيها . تركاه . اغلقا الباب خلفهما . صوت الباب، وهو يقفل ، يصفع قلبه . شعور بالضياع . ياليت ! الضياع يغشى الذهن ، فيجمد الوجدان ويريح . هل شرخ وجدانه ؟ تمنى ذلك . الوجدان المشروخ يمكن ان يلتئم !

صفعة الباب ، غصة فى الحلق ، سميكة كثيفة ، تكتم النفس وتمزق الأملا . فشغلته من الغصة جدران الزنزانة . عليها خطوط عربية : نسخ ورقعة ، وثلث ، وكوفى ! خطوط كذلك هيروغليفية ! على ضوء الشعاعات الباهتة ، التى تتسلل على استحياء وخوف ! من بين الباب والجدار ، قرا :

« واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » : التوقيع محمد .

« دماء عمال كفر الدوار ، تغرقكم فى العار » — عامل

« الفلاحون فى كفور نجم ، سيحطمون الاقطاع » عنانى

« الحزب الشـــ .... »

لم تكمل هذه العبارة ! يبدو ان رسول القهر ، اقتحم الزنزانة فى تلك اللحظة ، فبترت العبارة . لم يكملها كاتبها . الله اعلم بمصيره . على انه قرا تحتها توقيعين : فؤاد مرسى ، ونبيل الهلالى .

« ثورة العمال والفلاحين قادمة » شهدى عطية

« الباشوات الجدد خربوا الثورة » ناصرى !

الكتابات مكتملة الشكل الفنى ، والتكنيك رائع ، رغم بدائية الوسائل . تناسقت العبارات . لم توضع عبارة مكان اخرى . اخذت موقعها فى اللوحة الفنية ، فجملها وتكملها . كيف حصل المناضلون والفنانون ، على الادوات ؟ ادوات للحفر والكتابة ، بالالوان تارة ، وبالابيض والاسود تارة اخرى . لاحظ ان خطوط اللوحة الخاصة بالعمال والفلاحين ، حفرت باظافر الفنانين . سالت من اظافرهم دماء خلعت على الرسوم ، صوة للدم المسفوك . لم يكن يدرى ، اهذه دماء الجماهير يمتصها القاهرون ، ام هى دماء المناضلين الفنانين ، خضبت اللوحة ، لتخلع عليها جمال الفن ، وقبح الواقع !

استغرقته اللوحة . كان يهوى الفن . هوايته للفن ، كان مصدرها زوجته الفنانة . طافت به متاحف ومعارض اوربا . خطر له خاطر مجنون . تمنى أن يعتقلوا برندا ! ويأتوا بها اليه ، لترى هذا المعرض النضالى الممتع .

انها لم تر مثله . حتى ولا لوحات القهر البشعة التى شهداها معا فى برج لندن . لوحات الهوان الانسانى فى العصور الوسيطة . كم تمنى لو تاتى لترى الفن الفريد . وحبذا لو بقيت معه ، تخفف عناءاته ، وتشترك معه فيها . ربما تسهم بفنها فى هذه اللوحات الخالدة !

لم تكن اللوحة خطوطا زخرفية فحسب ، كانت هناك رسوما . توضح ادوات التعذيب والمهانة التى يتعرض لها المناضلون . اخذ يدرس اللوحة ويتاملها . ان بها صفحات . الصفحة السابقة كانت على السطح . تليها صفحة اخرى ، بدا القدم يتسرب اليها . تمعن فيها . حاول اكتشاف ابعـــادها :

« عمر مكرم يمثل كرامة المصريين » — ليس هناك توقيع ..

هل هذا معقول ؟ هل اعتقل عمر مكرم فى هذه الزنزانة ؟ ام ان هذا احد انصاره ؟ ما هو غير المعقول هنا ؟ هذه هى القلعة التى ذبح فيها محمد على المماليك . لماذا لايعتقل الوطنيين ؟ الاعتقال احيانا اخف من الذبح !

« عرابى والفلاحون ، اصحاب هذا البلد » — التوقيع : ثائر عرابى .

رسم الفنان المناضل راس عرابى ، وطربوشه الشهير ، كخلفية للوحة .

« دنشواى وصمة لانجلترا » — التوقيع : « ابن ذبيح من دنشواى » .

وبجواره قرا توقيعا آخر : فتحى رضوان .

الانجليز يذبحون الرجال فى دنشواى ، ويعتقلون ابناءهم فى القلعة .

« يسقط الملك ، والاقطاع ، والاستعمار » — لجنة الطلبة والعمال .

كان كل اولئك منقوشا على جدار واحد . لم ينطق الى الجدار الآخر ، الا بعد ان فرغ من اللوحة المثيرة . كانت اللوحة على الجدار الآخر ، اكثر اثارة : استغرق الفنان المناضل ، الذى ابدعها ، وقتا طويلا . وبذل جهدا وعرقا ، تصبب على الخطوط والظلال . يبدو انه طال اعتقاله . فطنوا الى ملكة الابداع فيه ، فلم يحرموه من الاستمتاع بها وتركوه !

كانت اللوحة للاهرامات الخالدة . وقف خوفو امامها . يحوط به كاهنان من يمين وشمال . يمسك بسوط طويل له شعبتان . فى نهاية الشعبة الاولى « العجل ابيس » وفى نهاية الثانية « الشمس » . خوفو يرفع السوط . وامامه عامل فرعونى ،مقوس الظهر . يحمل على كتفيه صخرة من صخور الهرم . كان يصعد الهرم ليضعها فى مكانها من البناء الشامخ . امتطى « العجل ابيس » كذلك ظهر العامل المصرى . العرق لا يتساقط قطرات من جبهته ، ولكن يسيل روافد من جسده ، وملابسه جميعا .

اللوحة — خطوطا والوانا وحفرا — تثير فى ذهن حسن اسئلة عجز عن الاجابة عليها : أيمكن أن يكون هذا الفنان الموهوب مجرما ؟ يقهر ابداعه الانسانى ، فى زنزانة طولها متران وعرضها متر ؟ كيف وجد الخيال فى مكان تخيم فيه الاشباح السود الثقال ؟

المعتقلون الفنانون ، يتركون الجدار كله لهذه اللوحة وحدها . لم يكن الابداع وحده هو الذى حفزهم .ولكن الموضوع نفسه . هاهى مصر يمثلها العامل . فالملوك آلهة ، والكهان قلة . يسوق الملك والكهنة مصر لبناء مقبرته . لم يكن القهر فحسب ، سوطا يمسك به خوفو . ولكن «العجل ابيس » يرهق كاهل العامل . يلهث انفاسه ، يركبه . يجعل منه حمارا مقدسا من حمير الآلهة ! لم تكتف الآلهة بالصخرة الكبيرة ، تقصم ظهره . بل ارادت أن تطهره من عرقه ودمه وعظامه جميعا . قصة الشعب المصرى منذ سبعة آلاف سنة لا تتغير . لكنها تتشكل خطوطا والوانا .

لكن ما بال الشمس تتدلى من الفرع الثانى للسوط ؟ الابداع هنا محير . هل الشمس آلهة اخرى « رع » ، توازن « العجل » على الطرف الآخر للسوط . وبهذا تسهم القداسة الدينية المزدوجة فى استخدام العامل أم ان الفنان لم يكن مكافحا مكسورا ، سوداويا . كما هو حال نفر من المثقفين فى مصر . ولكنه مناضل متفائل ، يسهم فى اضاءة الطريق للكادحين . الشمس كانت اشبه بالنور ، يضىء الطريق الى الحرية امام العامل المقهور .

كانت سعادة حسن بجدران الزنزانة بالغة . الجدران تطبق على صدره « ماديا » . ولكنها تعطيه متعة معنوية . شغلت وقته . رفعت معنوياته . هؤلاء هم المناضلون ضد القهر ، من كل لون ، وملة ، وفكر سياسى .

امتعته الرسوم والكلمات .لكنها ايضا اشقته . فرضت عليه تساؤلا : من الذى يحكم مصر على مر التاريخ ؟ الفرعون . الملك الاله ، يعاونه الكهنة . تندمج السلطة الدينية بالدنيوية . تختلط الدنيا بالآخرة . يسفك عرق الشعب ، وجهده ، سفكا الهيا . الملوك والخلفاء والسلاطين والولاة ، والمماليك والمشايخ والاعيان والراسماليون والخواجات ، وسائلهم متشابهة : مزيج من استغلال السلطة والدين . قلة تمتطى ظهر الشعب ، كما اعتلاها « العجل ابيس » . لا يكتفون بأن الجماهير تحمل لهم الصخور فوق ظهورها . تبنى لهم القصور والفلل والاستراحات والاهرامات . ولكنها كذلك تقيم لهم صناعة وزراعة ، تكفل لهم الترف والرخاء والسيادة .

خاطر غريب آخر وثب الى ذهنه . الوحيد الذى لم يحكم مصر ، هو شعبها ! فقراء مصر ، هم الوحيدون الذين لم يحكموها . تعجب الظاهرة. كل حاكم تقريبا ينادى بالديمقراطية . والديمقراطية ، اذا ما فسرت ببساطة ، او بعمق ، هى حكم الاغلبية — العمال والفلاحون والمثقفون ، ومنخفضو الدخول هم الاغلبية . وبهذا فلابد لقيام الديمقراطية الحقيقية ، من ان يحكم الفقراء !

الفقراء كذلك هم المنتجون . القلة المترفة ، تعيش على انتاجهم . وحتى الطوائف ، ذات الوظائف الهامة ، كالعلماء ، والادباء ، والمفكرين ، والفلاسفة . كيف يأكلون اذا لم يطعمهم الفلاح ؟ واذا لم يضرب الارض بفأسه ،تنتج لهم دقيقا وعسلا وسمنا . وكيف يلبسون ، وتلبس الطوائف الاخرى معهم ، اذا لم يكسوهم العامل ؟ الفقراء المنتجون الحقيقيون ، هم الكثرة . ومن حقهم ، ديمقراطيا واقتصاديا ، ان يسيطروا

على الارض والمصنع . وان يقسم ناتج كدحهم بالعدل بينهم وان يؤخذ جزء منه للتنمية ، بدلا من ان « تبعثره » القلة المترفة .

* * *

فتح باب الزنزانة .. توقفت هواجسه ، حتى لا يرصدونها ! العسكرى يحضر له افطار الصباح . سأله :

— هل استطيع ان اذهب « للتواليت » ؟

— تواليت ؟

— دورة المياه !

— يمكنك لمدة خمس دقائق .

— خمس دقائق ، لا تكفى ، لاننى عندى امساك .

— « ياللة يابوى ، روح . انت (متنفلس) والا ايه ؟ »

كانت الدقائق الخمس التى امضاها فى الطريق الى دورة المياه ، وفى قضاء حاجته ، من اجمل النزهات فى حياته . ثلاثون خطوة الى دورة المياه ، تبز كثيرا مشيته على كورنيش النيل ، والتيمز ، والسين ، والبحر فى الاسكندرية ساعة الاصيل ! عاد من نزهته المبتورة الى زنزانته . طعام لا طعم له ولا لون . رائحته قصد بها ان يتقيأ المعتقلون . بلع منه شيئا ليحيا . صفع العسكرى الباب خلفه . الباب ثقيل ، يقفل الحياة دونه . صوت القفل والمزلاج يقطع اعصابه . حاول ان يعيد النظر فى لوحات النضال . اخذ يدرسها ، ويستعين بها فى التغلب على محنته .

تبين فارقا بين هذه الزنزانة وتلك التى ضمته فى الاربعينات . تلك كانت زنزانة جماعية . حشر وزملاؤه فيها حشرا . لكنه كان محشورا مع آدميين . هو يعوج الانسان . السجن لا يفزعه ، طالما ان فيه رفقاء . كانت الزنزانة كذلك قذرة . يتبولون ويتبرزون فى جرادل مكشوفة . تنقلب

الزنزانة ، التى قطنها ذبح الحرية ، الى مستودع لكل الروائح الكريهة ، لكن كل ذلك يهون ، طالما كانت الزنزانة جماعية ! اما الزنزانة الفردية ، فشىء بشع . لا يمكن وصفها ، مهما كان المناضل المعتقل اديبا ، او ناقدا ، او فنانا ، او فيلسوفا . لهذا كان الفنانون المناضلون يتجهون برسومهم وعباراتهم الى المستقبل . الى التفاؤل . هربوا من شعور ممض ، يلغى انسانية الانسان .

حينما اعتقل فى الاربعينات ، آلمه ان يجد المعتقلين من المثقفين وطلاب الجامعات . لهذا ازدرى العلم . لم يستطع العلم ان يدرأ المهانة عن الانسان . لكنه هذه المرة لم يعبأ بالعلم ، ولا بالعلماء . القهر ينصب على الجميع سواء بسواء . بدالة ان المساواة فى هذا البلد ، لا تظهر جلية ، الا فى القهر ! على ان العلم كان له فضل عليه فى هذه المحنة .

فتح باب الزنزانة ، فى المساء ، تلميذه الضابط :

— مساء الخير .

— اهلا وسهلا .

— كيف حالك ؟

— كما ترى .

— تعال معى .

النغمة التى نطق بها العبارة ، صديقة . فرح حسين بالدعوة . سيمشى على الاقل بضع خطوات . اصطحبه الضابط الى فناء ، يفصل بين الزنزانات . جلسا مع ضابط آخر على « شلت » على الارض . الله ! .. نسيم الليل ، النجوم ، القمر ، السماء . طلب الضابط اليه شايا . دار بينهم حديث خفيف ، انقلب الى حديث ثقيل . قال الضابط :

— لماذا عملت فى السياسة ؟

— انا عملت مع الثورة نفسها . واديت لهم خدمات كثيرة .

— العمل بالسياسة خطأ . كنت معهم ، او ضدهم ؟

— هل لم يسأل عنى احد من رجال الثورة ؟

— كلهم سألوا عليك .

— الم يدافع عنى احد ؟

— انا لا ادرى دفاعا ، او اتهاما . سمير شريف ، وشعراوى جمعة ، سألا عنك .

— هل لم يسأل عبد المجيد فريد ؟

— لا اعلم . على كل حال ، ليس هناك شيء ضدك ، وسيفرجون عنك .

— الله يطمنـك .

— انما لى نصيحة . ومن الممكن ان ينصح التلميذ استاذه . الفلسفة فى هذا البلد ان تهبر « هبرة » كبيرة « وبس » . دعك من السياسة ، واستخدم علمك وذكاءك فى « الهبر » .

— اسرق يعنى ؟

— لا ادرى . انا اقترح عليك الفكرة العامة . عليك ان تصوغها كما تهوى . السرقة نوع واحد من انواع « الهبر » . هناك الوان اخرى . وظيفة مرموقة ، دخلها كبير ، مشروع يدر ربحا وفيرا ، استيراد وتصدير ، توكيلات للشركات الاجنبية الكبرى . انت الآن مؤهل علميا وسياسيا . شد حيلك . والهبر يكون محليا ، واجنبيا ، ماذا اقول ، وماذا اعيد ؟ انت الاستاذ ام انا ؟ دعك من السياسة ، واتبع « الهبر » !

نقلته فكرة « الهبر » الى محمد خطاب — خفير جرن الوسية اليونانية — هذه فلسفته تماما . التعبير فقط هو المختلف : كان يقول عنه « الاتصال بالخيرات والتمتع بها » . خيرات الجرن من حبوب واقطان . فلسفة الوسية ، هى هى ! لم تتغير . يقول بها خفـير جرن الخواجة اليونانى ، وضـابط الشرطة الذى يحرس المعتقلين ، الذين يحاولون تغيير « الوسية الكبرى » !

كانت امسية ، استطاع ان يتنفس فيها .لكنها ضغطت على وجدانه . نظام الوسية سائر فى طريقه . وعندما رافقه الضابط الى زنزانته ، قال له حسن :

— لى امنية . ارجو ان تحققها لى .

— اذا كان ذلك فى استطاعتى .

— خلال النهار ، ارجو ان تتركوا باب الزنزانة « مواربا » . الباب حين يتقفل على ، اوشك ان اموت . ولا تخف فلن اهرب ! عساكركم منبثون فى المعتقـل .

— تهرب ؟ ! الزبانية كثيرون . فى الصباح ، سأكون هنا وسأفتح لك الباب .

وفى الصباح ، فتح باب الزنزانة . بقى « مواربا » طول النهار . استطاع حسن ان يستنشق الهواء من خلاله ، وان يرى الضوء ، وان تتحرك الغصة بعيدا عن مداخل الهواء فى حنجرته .

* * *

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى
وصـوت انسـان فكدت اطـير

مرق هذا البيت الشعرى فى ذهن حسن ، كما يمرق السهم . مازال يذكره منذ ان قراه ، لاول مرة عندما كان صبيا فى وسية الخواجة اليونانى . قراه فى كتاب « المنتخب من ادب العرب » . ثلاثون عاما ، وهو رابض فى لا وعيه . انطلق مع صرخة بشرية نفذت من باب زنزانته السميك . الشاعر العربى فرضت عليه بيئته ، لونا من الاغتراب عن المجتمع الانسانى . وجد فى مجتمع الذئاب انسا . لكن العواء كان يصدر عن انسان . لم يكن الانسان يعوى كما تعوى الذئاب . فالذئاب تعوى عندما تجوع ، وعندما تنتشى ! ولكن الانسان يئن فحسب ، عندما يجوع ، ولكنه يعوى عندما يقهـر !

كانت سياط القهر ، تصل فرقعتها الى اذنه ، وتنفذ الى خلاياه . أدوات التعذيب « التكنولوجية » تجرش عظام المعتقلين . كان عواء الانسان ، يرتفع تارة الى زمجرة الاسود . ثم يتخافت الى انين الغزال ، ومأماة الاحمال ، و « موسوة » الكلاب !

قلبه يتفطر ، اذ يمتهن الانسان ، هذا الامتهان البربرى . على ان الهوان الذى يصيب الانسان هذه المرة ، ينصب على ابنائه ! هؤلاء هم الشباب ، تلامذته فى منظمة الشباب . تسلحوا بفكر يخترق الحديد . ويغوص الى جذور المشكلة الاجتماعية يعى ابعادها ، ويدرك الحل لها . الحكومة هى التى اختارت هذه الصفوة ، واختارت معلميها . وراجعت الفكر الذى اعدوا طبقا له . وهاهى تقهرهم بأبشع انواع القهر . وهى لا تدرى انها لا تقهر الا نفسها . وتقضى على العناصر ، التى يمكن ان تنافح منها : الشباب الثورى ، العمال ، الفلاحين ، المثقفين المستنيرين .

المضروبون ، والمصعوقون ، والمجروشون ، هم تلامذته . ابناؤه . فلذات ذهنه . كل ضربة سوط تلسع قلبه . كل صرخة تشرخ روحه . كل نحيح للآلات او دوران لتروسها ، ينفث سما فى داخله ، ويمزق احشاءه . ماذا يمكن ان يفعل ؟ هل الانسان عاجز عضليا وعقليا من نجدة اخيه الانسان ؟ ينجده ممن ؟ من اخيه الانسان . هل المهانة تحيق بالمضروب فحسب ؟ ام تمتد الى الضارب ؟ اتغشى الانسان كله : قاهرا او مقهورا ؟ اتوجد فحسب فى المجتمعات التى تنقسم الى طبقات قاهرة واخرى مقهورة ؟

طفرت الى راسه فكرة مخبولة : باب زنزانتى مفتوح ، لماذا لا اخرج ، واذهب الى مصدر الصوت ؟ واصرخ فى وجه الضارب ، واوقفه . واذكره بهوانه . قد يكون التذكير بالهوان اكبر اثرا . الحديث من الشفقة ، والاخاء بين الناس ، حديث لا يسمع ولا يدرك فى مجتمعات الغابة . وصل الى باب زنزانته . الهواء يهيب به ، والقهر « يجنزر » قدميه . الهواء نفسه الصادر من الشباب ، يطحن معنوياته . من يدريك ؟ قد تلهب السياط ظهرك ، كما

تلهب ظهور الشباب . فى المنزل زوجة وطفل ينتظرانك سليما لا مسحوقا . هذا عمل رومانسى لا خير يرجى منه . انت لا تطيق حتى ان يوصد الباب عليك . حصلت على امتياز بفتحه . اقنع بالهواء يمر من كوة الباب ، ولا تختنق . وتراجع جسده . لم تتراجع خواطره . وتساءل كعادته ، تساؤلا غير مألوف :

فى السجن الانفرادى ، هل يعتبر التعذيب اداة للتخفيف من المعتقل ! ؟ خيل اليه ذلك . وجد السجن الانفرادى ابشع ما يمكن ان يعاقب به انسان . انت لا تدرى ان كنت موجودا او غير موجود . حيا ام ميتا ؟ آملا ام يائسا . تخترق راسك افكار سود . تجعلك تتساءل : احيوان انت ام جماد ؟ اهذا مجتمع ونظام سياسى ام غابة ؟ لكنك فى هذه الغابة ، لا تستطيع ان تتحرك . هى غابة من حيث قوانينها . لكنها ليست فسيحة كالغابة . يضعون للنمور المعتقلين اقفاصا كالزنازين . ليست للاقفاص مخارج واسعة ، يتنزه فيها النمر . ويلتقى بالنمرة ، كاقفاص الوحوش فى حدائق الحيوان . حتى الحيوانات الضعيفة فى تلك الحدائق ، كالغزال والجاموس والزراف ، محرومة من الاثارة . ليس هناك اسود او نمور ، تتربص بها . وتجرى خلفها فى سباق الموت والحياة . هذه الاثارة لا وجود لها فى حدائق الحيوان . ولا فى الزنازين الانفرادية ، التى يكرم نزلاؤها — مثل حسن — فلا يضربون . قد يكون الم الحبس الانفرادى المجرد من التعذيب ، اشد لدى المناضل المفكر ، الذى يحلم بمجتمع سعيد . الاسى واليأس يعذبانه بدرجة اكبر من لسع السياط . المضروب ينتقل المه من الفكر الى الجسد . تتحول بؤرة جراحه من النفس الى البدن . وهى جراح اخف !

بلغ عذابه اجله ، اذ تمعن فى العلاقة بين المعذب ، والمعذب . كان المعذبون كذلك تلامذته . كان استاذا ، يدرس فى كلية الشرطة . تخرج كثير من الضباط على يديه : هل يمكن ان يعذب فريق من ابنائى وتلامذتى ، فريقا آخر من ابنائى وتلامذتى ؟ يالتعاستى ، علمت الضارب والمضروب . علمت الامعة والبطل .

لا . لم أعلم الضباط هذه البربرية، وذلك الهوان . من أين تعلموها ؟ دولة الوسية ، لقنتهم قيمها . السوط يمسك به الطغاة من عهد الفراعين . لماذا لا يستخدمه الضباط ؟ دولة الوسية توظفهم لهذا الغرض . يتبوأون مكانة اجتماعية ترفعهم فوق ملايين الكادحين . شركاء فى السلطة . تشرئب اعناقهم تيها ، حينما يجلدون اعناق الرجال .

انه حقا ، علم الشباب المقهور . يفخر بهم ويتيه . يتمثل فيهم تحرير الشعب المصرى كله . يرى فيهم القادة الذين سيغيرون الوسية . ويجتثون جذورها . سيبنون مجتمعا ، وريف الظلال . مجتمعا ينتهى فيه استغلال الانسان للانسان .

هل يسعد أم يشقى ؟ حينما تفرقع السياط على ظهور الشباب ، يقفز الىرأسه سؤال : أيعتبر هو السبب فى أن يؤتى بهذا الشباب الغض الى هذه المجزرة ؟ امضه هذا الشعور كثيرا . على انه تحلل منه . النضال فى التاريخ كله . كان بين قوى قاهرة هابطة ، تدافع فى يأس عن امتيازاتها الطبقية . وقوى جديدة صاعدة . تمثل الكثرة البشرية ، وتناضل للتخلص من القوى البربرية .

* * *

اخذته سنة من النوم فى وقت القيلولة . أيقظه تلميذه الضابط منها . جاء الى زنزانته ، بوجه باسم . اصطحبه الى جلسة المساء والشاى . لم ينضم اليهما احد من الضباط . فرصة لان يحادثه حديثا صريحا ، بقدر ما يسمح للصراحة فى هذا المكان . سأله سؤالا مفاجئا :

— هل عبد الناصر مازال فى الحكم ؟

— طبعا . مابالك تسأل هذا السؤال ؟

— كيف يعتقل الذين ينادون بمبادئه ، وبالثورة الاشتراكية ، وهو مازال فى السلطة ؟

— سؤال صعب . تريد ان تستدرجنى الى السياسة . وانت تعلم فلسفتى : « الهبر » !

كانت السياط التى مزقت احشاءه طوال اليوم ، مازالت جراحها دامية . تردد كثيرا فى أن يفتح هذا الموضوع مع تلميذه . تألم . أنه حتى لا يستطيع مناقشة تلاميذه فى موضوع يتعلق بكرامة الانسان . ماذا لو تحدث معه فيه ؟ قال له دون تمهيد :

— هل تشترك فى تعذيب المعتقلين ؟ !

بهت الضابط عند سماع السؤال . تردد فى الاجابة . ثم قال بصوت ، لا انفعال فيه ولا حسرة :

— طبعا !

— انت ؟ ! الانسان الرقيق ، التلميذ النجيب ، ابن صديقى الحميم . لقد رباك ابوك تربية مهذبة طيبة .

— كل هذا اختفى ، اثناء تدريبنا فى الكلية . ثم تلاشى تماما ، حينما وضعوا النجمة على كتفى !

— هل لا يدمى ضميرك ، هذا التعذيب البشع ، الذى تباشره على الانسان ؟

— وهل يتعذب ضمير عشماوى حين يقصف برقاب المحكوم عليهم بالاعدام ؟

— عشماوى يعدم الذين قضت المحاكم باعدامهم .

— الفرق ليس كبيرا !

— الهذه الدرجة ؟

— نحن ضباط . نأكل العيش « والجاتوه » من هذه الوظيفة . ونتيه بها على الخلق . ونؤمر بالتعذيب فنستجيب .

— أتنفذون أوامر التعذيب بالضبط ، أم تضيفون اليه ؟

— انا أنفذ العلاج الذى يضعه القادة بالضبط . أعطى للمريض « الجرعة والحقن » دون زيادة او نقصان .

— كم أنت عادل !

— انا اؤدى واجبى !

— وزملاؤك ؟

— لا شأن لى بهم .

— علمت أن بعضهم ينهش لحم المعتقل . ويمصمص نخاعه . وكأنه وحش يستمتع بالوليمة .

— لا أريد أن أتحدث عن غيرى . انما لانك استاذى . وكنت تعطينى دروسا خصوصية بالمنزل مجانية ، بحكم صداقتك لوالدى ، سأقول لك :

التعذيب يثير فى الانسان غريزة غريبة . فبعض المعذبين ، يتشفى فى المعتقل ، وكأنه عدوه . وكلما الهب ظهره ، او نفخ احشاءه ، كلما تملكته هذه الغريزة الحيوانية ، وكلما اقترب من حرفة الجزارة ! بفارق واحد ، أن الخروف او العجل ، يذبح . ثم لا يحس بتقطيع اعضائه . وتبلغ الوحشية ذروتها ، اذا بدرت من المعتقل اشارة أو احتجاج او تأفف . هنالك يعتبر المعذب أنه اهين اهانة شخصية ! لحقت بكرامته ، وعظمته ، وعظمة اسرته . فيتملكه سعار بربرى ، يصب أواره على المعتقل . وقد نفق كثير من المعتقلين بهذه الطريقة !

— أنت تستخدم كلمة « نفق » ؟

— فى مثل هذه البيئة ، يستوى الحمار والانسان .

الكأس التى شربها حسن ، كانت مترعة بالعلقم . لم يستطع ان يحتسى كؤوسا اخرى . ولو أن فكرة خطيرة طافت براسه . اوشك ان يسأله : هل تعذبنى ، وانا استاذك ، كما تعذب الآخرين ؟ ولكنه ضم فكيه

ضما شديدا ، حتى لا يفلت لسانه . واجاب هو على سؤاله ، وكان الضابط هو الذى يجيب : اعذبك ، واعذب أبى ، اذا جاء الى هنا .

كان قد مضى اسبوعان علىاعتقاله . سأل الضابط :

— لقد قلت لى : انهم سيفرجون عنى .

— كان ذلك سيتم ، منذ يومين . لكن حدثت اعتقالات جديدة . فارجئوا الافراج عنك الى وقت قريب : « طول بالك » .

أخذ حسن يدرب نفسه على طول البال . فى اليوم التالى جاء العسكرى بالافطار . ثم اغلق الزنزانة بصفعة قوية وذهب . لم يستطع حسن أن يلحق به ، ليقول له ، اترك البابمفتوحا . كان يعتقد انه سيتركه من تلقاء نفسه ، كما يحدث كل يوم . خرج حسن ينادى العسكرى ، لا حياة لمن تنادى . فى اليوم التالى تشبث حسن بسترة العسكرى . رجاه أن يترك الباب مفتوحا ، نصف فتحة . قال العسكرى :

— الاوامر تحتم قفل الزنازين . وانه لا يستطيع . والا عوقب عقابا شديدا .

وفى لحظة من لحظات الضعف الانسانى ، قال له حسن :

— انا عسكرى مثلك .

— كيف يابوى ؟

قص عليه حسن قصته فى ايجاز شديد . برقت عينا العســكرى . اندفع نحوه يحضنه ويقبله . استبشر حسن . اعتقد انه سيترك له الباب مفتوحا . وعندما خرج العسكرى ، جذب الباب خلفه . سأله حسن :

— هل ستترك الباب مفتوحا ؟

— « ماقدرش يابوى » .

العسكرى عواطفه رقيقة . لكنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا . سأله وهو يقفل الباب :

— هل النقيب لطفى موجود ؟

— لا . قام باجازة اسبوعين .

كان هذان الاسبوعان ، اسود ايام المعتقل . لم يفلح فى تخفيف سوادها الفن الانضالى الجميل المصور على الجدران . ولا الذكريات الحلوة . خلال الاربعين عاما ، التى عاشها . الذكريات التى اجترها ثانية بثانية . نضال يجلب له سعادة منعشة حينا ، وشقاء اسود احيانا كثيرة . تركه لطفى وهو فرح باجازته . لم يوص به زملاءه . الذين لا يدرى ان كانوا من تلامذته ام لا .

* * *

من سواد الزنزانة الكالح انبجست من وجدانه خطرات : انتصر على الجهل والجوع . حارب التخلف ، كشف عن جذوره الاستعمارية والراسمالية . لكن هذه جهود فردية . تلعب بخيال الفرديين . لكنها لا ترضيه . حينما قامت حركة الجيش تهلل لهدفها : القضاء على الاقطاع والراسمالية المستغلة . اسهم فى معركة القناة فى لندن . ابتهج للتاميمات فى الستينات . تحولت حركة الجيش فى نظره الى ثورة . التاميم والاصلاح الزراعى طريقها الى الاشتراكية . داعبه الامل فى تغيير الوسية . الغت الحكومة الاحزاب . فرح وتحفظ . فرح ، فالاحزاب اشتركت مع الملك والانجليز فى استغلال الشعب . كلهم باشوات وخواجات . تحفظ فيما يتعلق بالديمقراطية والحرية . ذهب الى كلية الحقوق . كانت المعمل السياسى . ادرك اهمية العمل السياسى . يود ان يسهم فى توعية الجماهير بنظام الوسية ، وفى تنظيمهم وتحريكهم لتغييرها . اقرب الاحزاب الى هذا الهدف كان الوفد . الباشوات حقا يسيطرون عليه . لكن المجال للشباب الجديد مفتوح نسبيا فى هذا الحزب . يمكنه ان يجعل الجماهير تعى بأنها صاحبة السلطة . فتختار ابناءها ، وتنبذ الباشوات . لذلك عندما الغيت الاحزاب ، سد امامه مجال للكفاح السياسى .

سدت الحكومة امامه ابوابا اخرى . الحكومة التى جاءت بعد نجاح حركة الجيش فى ١٩٥٢ ، والحكومات السابقة عليها جميعا ، اتفقت كلها على عمل واحد : تحريم وتجريم اى حزب ، يمثل تمثيلا حقيقيا العمال والفلاحين والمثقفين . الذين يريدون تغيير الوسية . المعتقلات والسجون ، فتحت خصيصا لهؤلاء . اصبحوا اخطر من تجار المخدرات . والعاملين فى الدعارة ، والناهبين لارزاق الناس . واموال المجتمع .

ماذا يصنع ؟ وقد اغلقت المنافذ امامه ؟ حتى الشيوعيين واليساريين حلوا احزابهم وتنظيماتهم . انضموا للنظام خوفا وطمعا . التنظيم الجماهيرى الواعى ، هو الحل السليم الحاسم ، اذا ما اريد تغيير الوسية . لكن الجماهير ممنوعة عليه الآن . الا من خلال التنظيمات الرسمية . لهذا استجاب عندما اقترح عليه محمد عبيد دخول انتخابات الاتحاد الاشتراكى . اندمج مع النظام فى العمل السياسى والاقتصادى . اسهم فى التثقيف الاشتراكى لجماهير مصر الجديدة . والاتحاد الاشتراكى . والتنظيم الطليعى ، ومنظمة الشباب .

كانت جهوده موجهة نحو الجماعة ، لكنه كان يحس فى اعماقه بأنه يقوم بعمل فردى . ماعدا عمله فى منظمة الشباب . جهوده فى التوعية الاشتراكية جهود عامة موجهة الى الجماهير المختلفة . قد تسهم فى زيادة ادراكهم . لكن الجماهير هنا لا تربطها رابطة وثيقة . او تنظيم يوصل وعيهم . سمح له ببث ما يشاء من وعى اشتراكى فيهم . هذا يخلق خلفية قوية للثورة .

الامر مختلف فى تنظيم الشباب . هؤلاء قوة نابضة . تلتحم المبادىء الثورية بوجداناتهم ، فتصير جزءا منها . لديهم الطاقة والقدرة على النضال . هم ايضا متجمعون فى منظمة ، ومقسمون الى فصائل . فالعمل الثورى بينهم ممكن . وقد يكون خطرا . كان هذا هو تفسيره ، لابعاده عن منظمة الشباب ، عندما هاج ضده المناهضون للثورة . وهم فى الوقت نفسه ، اعوان النظام .

تراءت فى مخيلته ظاهرة طريفة : القهر هو العدو الوحيد الذى لم يستطع أن ينتصر عليه فرديا .هذا أمر منطقى . فهو فرد ، والقهر قــوة كبيرة شرسة . لا تفاهم معها . لا عقل لديها ولا عاطفة . تضرب بجهالة ووحشية أيا كانت الفريسة . وصل الى نتيجة مؤداها : الفرد يمكن ، بكفاح معين ، أن يأكل بعد جوع . وان يتعلم بعد جهل . وان يتقدم بعد تخلف . ولكنه يستحيل عليه أن يقهر القهر وحده . حتى عنترة وابو زيد الهلالى ، وسيف بن ذى يزن ، وأدهم الشرقاوى ، لم يستطيعوا ! القهر ، لا يخلص اية جماعة بشرية منه الا اذا تجمعت ونظمت القضاء عليه .

هذه الخطرات ، كانت تؤنسه فى وحدته ، رغم ان بعضها حلو واكثرها مرير . لكنها حينما تنتهى . تضطرم به الوحدة ، ويدلهم الظلام . حينئذ كان يلجأ الى الجدران . كانت له رفيقا . حينما تتخافت الهاجسات ، تبرز خطوط اللوحات الخالدة ، وكلماتها على الجدران . حروفها من نور . كيف يراها وسط هذا الظلام الفاحم ؟ من كثرة ما رآها ، ابان النهار ، رسخت فى عينيه ، وبانت له مواقعها فى الظلام . عاش مع اللوحات النضالية لشعب مصر ، أويقات مسكرة . يسهر معها . كان يخشى النوم . كوابيس الدنيا والآخرة تفض مضجعه . أشباح الوسية تنهال عليه ، وتسهد مآقيه . كانت اصعب أوقاته ، هى تلك التى تتراخى فيها خواطره ، ويتخابى النور الذى ينبض من الجدران . هناك تسطو عليه قوى القهر . وتنهشه هاجسات البغى . ويحس الزنزانة قبرا ، لن يبعث منه .

* * *

ظلت هذه حاله ، الى أن جاء يوم طال انتظاره . ضجة فى الفناء الذى تصطف حوله الزنازين . الشاويش يعلن أرقام المعتقلين المفرج عنهم . وهى أرقام الزنازانات التى يسكنونها . فرح فرحة المبعوث من القبر ، تنفث فيه الحياة . على أولئك الذين يريدون أن يعرفوا شعور المبعوث يوم

القيامة ، أن يجربوا الاعتقال فى زنزانة فردية . لا مراء فى ان أقرب شىء للخروج من القبر ، هو الخروج من الزنزانة .

فارق الزنزانة رقم ١ ، فى معتقل القلعة . رأى فيها متحفا للنضال الوطنى ! هذه اللوحات ، يمكن ان تمتع السياح ، واولئك الذين يودون أن ان يتلقوا درسا فى النضال . انه يرى أن يهدم معتقل القلعة . كما حدث عندما هدمت الجماهير سجن الباستيل ابان الثورة الفرنســية . ولكنــه يقترح ان تبقى هذه الزنزانة رمزا للقهر الاسود . ودليلا كذلك على نضال الشعب ، منذ ايام الفراعنة ، ضد قوى القهر والاستغلال .

تجمع المفرج عنهم فى عنبر كبير ليقضوا فيه فترة انتقالية لمدة يومين . الوجوه شاحبة . اللحى طويلة لكن فى العيون بريق ! كان لابد أن يجربوا الاعتقال الجماعى . ما أحلاه ! الجماعية حلوة حتى فى الاعتقال . الفردية عندهم ، ترتبط بالانانية والجشع .

التقى فى عنبر الاعتقال الجماعى باجمل ما يمكن أن يلتقى به . كوكبة من الشباب ، ابنائه ، تلامذته . فكر يشرف الانسان . وحماسة تغسل ادران المعتقل . كان أحدهم يرقد الى جواره . دارت بينهما أحاديث منعشة قال لتلميذه :

ــ انا سعيد اذ أراكم تحملون الرسالة .

ــ سعادتك ، ستبلغ الذروة اذا علمت أننا دفعنا بمحاضراتك الى الامام . وأزلنا عنها تحفظ السن والوظيفة ، فأصبحت ثورة خالصة !

ــ هــذا جميل .

ــ الشباب الذى تلقاه هنا فى هذا العنبر ، ليسوا نخبة الشباب . هناك عناصر تهز وجدانك ، وتسعدك حقا . وتجعل الايام ، التى قضيتها معنا فى المعتقل ، أياما مجزية .

سكت لحظة ثم اردف :

ـــ لكن لماذا جاءوا بك الى هنا ولست شابا ؟

ـــ هل الشباب مقصورا على من هم فى العشرين ؟ لقد جاوزت الاربعين منذ ثلاث سنوات فحسب .

ـــ انا اهزل معك .

ـــ جاءوا بى لانى علمتكم .

ـــ هذا صحيح . وها انت تجد الازهار والثمار ، التى غرست جذورها .

واراد الشاب الثورى ان يتخفف :

ـــ لكنك طالما هاجمت المجتمع الطبقى فى محاضراتك . المجتمع الذى ينقسم الى طبقات ومراتب .

ـــ نعم .

ـــ ما هذه « المرتبة » التى تنام عليها . اليست هذه طبقية ؟

ـــ أعطانى اياها ، تلميذ مثلك .

ـــ من منظمة الشباب ؟

ـــ لا . من منظمة الشرطة !

ـــ كيف ؟

ـــ كنت ادرس الاقتصاد فى كلية الشرطة .

ـــ انت محظوظ .

ـــ كيف اكون محظوظا وقد اتى بى الى هنا ، فريقان من تلامذتى : فريق الشرطة وفريق منظمة الشباب !

قهقها عاليا . تجمع حولهما مزيد من الشباب . وحينما يتجمع الشباب ،

يتراوح الحوار بين الثورة والفكاهة . والحديث مع الشباب الواعى . عندما يجد او يهزل ، يكون دائما هادفا .

هذه الباقة التى تجمعت حوله من ازاهير مصر . تفوح عطرها فى وجدانه . استروح فى العطر مستقبل مصر . ورأى فى الوجوه المتفجرة بالحياة ، والرؤوس النابضة بالثورة ، بسمة امل . استشعر نوعا من الرضا عن نفسه . هذا هو العمل الجماعى ، الفعال ، الوحيد ، الذى قام به فى حياته . كان يتوق أن يؤثر فى الحياة السياسية . وأن يبث فكره فى مجموعة منظمة واعية .وهاهى نماذج من المجموعة ، تثلج صدره . وتتالق فى ذهنه نورا ونارا .

كان هذا الشباب ، هو العنصر الوحيد الذى ثار فى وجه عبد الناصر والسادات . نادى بالديمقراطية التى تمكن الشعب من السيطرة على السلطة السياسية . طالب بالاشتراكية الحقة ، التى لا تجعل وسائل الانتاج فى يد قلة برجوازية مترفة ، ورثت الملك والاقطاع والاستغلال . بل بالاشتراكية التى تملك فيها الجماهير وتسيطر على مؤسساتها الاقتصادية . اصابه شعور رخى . ابناؤه يحملون الرسالة . سينتصرون مهما كانت قوى القهر .

اخذ المعتقلون مرة اخرى الى وزارة الداخلية . هناك بوشرت عليهم عملية اخرى من الامتهان . تلويث اصابع اليدين والقدمين ، لاخذ بصماتها . اخذت عليهم تعهدات بعدم العمل فى السياسة .

تردد فى الذهاب الى رياسة الجمهورية ، ليباشر بحوثه الاقتصادية . قد لا يسمح الحراس له بالدخول . تردد فى الذهاب الى مقر الاتحاد الاشتراكى بمصر الجديدة . ربما يكون شاهين وحسين فى انتظاره بزفة اخرى . قد تتواقح الزفة ، فلا يدخلونه مبنى الاتحاد الذى كان يرؤسه . آثر أن يذهب الى جامعته بأسيوط .

اتصلت القوى السفلية بالجامعة : ممنوع عليه ان يرافق الطلبة فى

رحلات . أو يختلط بهم الا فى المحاضرات . الحمد لله . تركوا له المحاضرات منفذا يتنفس فيـــه .

* * *

كارثة ٥ يونيو ١٩٦٧ ، تنزل بمصر . انهار الجيش ، امام العـــدو الصهيونى فى خمسة ايام . وضع طبيعى . الباشـــوات الجدد . يرثون الباشوات القدامى . ضيعوا سنين طويلة من كفاح الجماهير . ما الفرق بين ١٩٤٨ و ١٩٦٧ ؟

مات عبد الناصر عام ١٩٧٠ . وجد خليفته « الاشتراكية » بلا جماهير وبلا جذور . اجتثها فى يوم وليلة . واطلق قوى الوسية شرسة ضارية .

بعد فاجعة ١٩٦٧ قابل حسن صديقه وزير الرياسة فى ناد بمصر الجديدة . قال له الوزير فى صوت ثابت ، لم يظهر فيه اثر للكارثة :

ـــ هذا ما كنت تكتب عنه ، يا حسن انت وزملاؤك . طالما كتبتم عن البرجوازية ، التى تخرب القطاع العام . والامبراطورية التى تدمر الجيش . والباشوات الجدد . والوسايا التى انقسمت اليها الوسية القديمة. والقهر الذى ناقشته مجموعتك . واوشكتم ان تكتبوا عنه . ثم تراجعتم !

لم يرد عليه . كانت النازلات مطبقة على قلبه ولسانه . لم تكـــن الفجيعة انهيار جيش . ولكن كانت انهيار امل ، راوده طوال حياته ، وبذل فى سبيله عمره . خيل اليه ان النظام سيغير الوسية الراسمالية ، ويبنى الاشتراكية . لم يكن خياله الا سرابا .

* * *

هذه الغمامة القاتمة ، التى انداحت من لقائه مع الوزير ، لم تتسلل الى وجدانه . التفاؤل دائما رفيقه . شاركه كفاحه الفردى ، ونضاله العام . عز عليه أن يتخلى عنه . ويتركه يغادر بلاده كسيفا كليما . شاء الا يكون وزير الرياسة آخر من يرى فى وطنه . ولا أن تكون كلماته آخر ما يسمع .

وصل الى المطار ، سيقلع الى افريقيا . اعير للامم المتحدة . سيعمل استاذا فى معهد التخطيط والتنمية لدول افريقيا ، بداكار بالسنغال . فى طريقه الى الطائرة ، هرول نحوه رجلان : مجاهد العامل ، زميله فى مجموعة التنظيم الطليعى . وفوزى ، تلميذه فى منظمة الشباب . الذى كان يرقد بجواره فى الزنزانة الجماعية ، قبل الافراج عنهما ! صاح فيهما متهللا جذلا :

ـــ هل انتما مرتحلان كذلك ؟!

وردا معا فى صوت قوى واثق :

ـــ لا ! كيف نغادر ارض المعركة ؟ جئنا لتوديعك .

ـــ ما الذى جمعكما ، وكيف علمتما بموعد سفرى ؟

ـــ لنا وسائلنا الخاصة !

وسكتا هنيهة . ثم تحدث فوزى بكل اندفاع الشباب ، ووعيه :

ـــ الى اين انت ذاهب ؟ اهو هروب من المعركة ؟

وخزته العبارة . اخترقت راسه الى قدميه . واجاب محزونا :

ـــ اهذا وفاء تلميذ لاستاذه ؟

ـــ حسبتك تتساءل عن وفاء ثائر لزميله !

ـــ رحلتى ليست تخليا عن المعركة . قصدت ان امضى هدنة . اتسلح فيها بمعرفة جديدة ، تسهم فى نضالنا المقبل .

وتدخل مجاهد :

ـــ انت تعرف حماسة الشباب ، الذى سكبت الثورة فى وجدانه .

ورد حسن :

ـــ كم انا حفى بهذه الحماسة .

ثم التفت الى فوزى قائلا :

ـــ انت تعرف « الوسية الكبرى » وكهوفها السفلية . مازالت تمارس

فيها قوانين الغابة . فلعل احراش افريقيا ، تبعث فينا املا جديدا . وتمدنا غاباتها بوسائل فاعلة !

ورد فوزى ردا سريعا قويا :

— الامل هنا فى مصر . والوسائل الحاسمة فى يد شعبها .

وقال مجاهد :

— غابات افريقيا ، تموج بقوى شعبية ديمقراطية . تقاتل الاستعمار وتصطرع مع حلفائه . اذا كنت ستدرس لنا هذه الحركات وتعود بسرعة ، فنحن نوافق على سفرك .

كان حضورهما للمطار ، مفاجأة حلوة ، اسعدته . وردت عليه فؤاده . وانعمت روحه ثورة واملا . وتعانقوا . لم يكونوا ثلاثة . انهم اربعون مليونـــا .

تم بحمد الله